

# حضارة الإمبراطورية البيزنطية



دكتور  
محمد سعيد عمران  
أستاذ تاريخ مصر الوسطى  
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية  
مركز الدراسات والبحوث - جامعة بيروت العربية سابقاً



# حفارة الأمبراطوريات القديمة



Bibliotheca Alexandrina



1019232









# حضارة الإمبراطورية البيزنطية

دكتور

**محمود سعيد عمران**

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

عميد كلية الآداب - جامعة بيروت العربية سابقاً

حائزة على جائزة جامعة الإسكندرية

للتميز العلمي عام ١٩٩٩م

2011



عدد الصفحات :- ٤١٦

المؤلف :- محمود سعيد عمران

عنوان الكتاب :- حضارة الامبراطورية البيزنطية

رقم الایداع :-

### حقوق النشر والتوزيع

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع  
الاسكندرية - جمهورية مصر العربية - ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة الكتاب كاملاً أو مجزأ  
أو تسجيله على اشرطة كاسيت أو اخلاله على الكمبيوتر أو برمجته الا بموافقة الناشر خطياً

Copy right ©

All right reserved

٢٠١١ م



الاداره :- ٣٦ ش سوتير - الازرطة - امام كلية الحقوق - جامعة

الاسكندرية - جمهورية مصر العربية

تليفاكس :- ٠٠٢٠٣٤٨٧٠١٦٣

محمول :- ٠٠٢٠١٢١٦٦٦٩١٣

الفرع الثاني :- ٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي - الاسكندرية

Email: - [darelmaarefa@gmail.com](mailto:darelmaarefa@gmail.com) ,

[d\\_maarefa@yahoo.com](mailto:d_maarefa@yahoo.com)

Web site: - [www.darelmaarefa.com](http://www.darelmaarefa.com)

## إهداء

إلى من أرى القمر على جبينها

والأمل في كلماتها

والزمن في خطواتها

إلى حفيدتي ياسمينا السعيد محمود عمران

أهدى هذا الكتاب

**دكتور محمود سعيد عمران**





## تقديم:

عاشت الإمبراطورية البيزنطية ما يزيد عن أحد عشر قرناً ونصف من الزمان، كانت في المرحلة الأولى منها وريثة الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وكان لموقع الإمبراطورية المتميز ما جعلها على اتصال دائم بالشرق والغرب على السواء، ثم ما لبثت أن أصبح لها حضارتها الخاصة المختلفة عن الحضارة الشرقية والغربية. وإن كان لموقع الإمبراطورية مزية الاتصال بالشرق والغرب، فإنه من جهة أخرى جعلها محط أطماع ما جاورها من دول. وظل الشرق من ناحية والغرب من ناحية أخرى يقطع من أراضيها ما أمكنه حتى تقلصت أراضيها وقلت مواردها فعجزت عن صد الأخطار التي حاقت بها، وسقطت في النهاية على يد الأتراك العثمانيين عام ١٤٥٣م.

والخوض في تفاصيل حضارة الإمبراطورية في كتاب واحد أمر يصعب تنفيذه، لأن مثل هذا العمل يحتاج إلى عدة مجلدات. والحقيقة إن هناك مؤلفات وإن كانت قليلة قيمة قام بها المؤرخون الغربيون، كما قام أيضاً بعض المؤرخين العرب بجهد ممتاز في هذا المضمار رغم ندرته وإن اقتصر على ترجمة كتابين فقط، ويمكن متابعتهم في قائمة المراجع الملحقة في هذا الكتاب.

ولما كان الاهتمام بدراسة الحضارة البيزنطية يكاد يكون منعدماً في هذه المرحلة، لأهمية هذه الدراسة لاتصالها بتاريخ المسلمين في الشرق، ودول أوروبا في العصور الوسطى، وما خلفته لنا من حضارة في شتى المجالات، هذا فضلاً عن تدريس تاريخ وحضارة الإمبراطورية في الجامعات العربية، رأى الباحث أن يقدم هذا الكتاب في حضارة الإمبراطورية البيزنطية، حتى يمكن التعرف على حضارة الإمبراطورية في المجال الداخلي، وفي مجال اتصال الإمبراطورية بالمسلمين بخاصة، والعالم الذي أحاط بها بعامة.

والله ولي التوفيق

الاسكندرية في ٢٣/١/٢٠٠٧

دكتور محمود سعيد عمران



## المقدمة

### تعريف بمسمى الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها

يعتبر تاريخ الإمبراطورية البيزنطية كما يراه بعض المؤرخين مرحلة جديدة من مراحل تاريخ الإمبراطورية الرومانية، ولعل ما دفع هؤلاء إلى الأخذ بهذه الفكرة، هو أن الحكام البيزنطيين كانوا يعتبرون ويسمون أنفسهم أباطرة الرومان، وأنهم خلفاء للقيصرة القدامى، كما أن علاقاتهم بالدول الأخرى كانت تقوم على هذا المفهوم.

ومن هنا نجد أن الإمبراطورية البيزنطية حاولت فرض سيطرتها على الأراضي التي كانت تابعة للإمبراطورية الرومانية، ولقد كان هذا واضحاً في بدايات العصور الوسطى في كل من الشرق والغرب الأوروبي. كما أنه وإن كان هذا المفهوم قد انحسر عن الغرب الأوروبي إلى حد ما، فإنه كان لا يزال يسيطر على الأباطرة في الجانب الشرقي من الناحية العملية. ومن ذلك ما طلبه الإمبراطور الكسيوس كومنين Alexius Comnenus (١٠٨١-١١١٨م) من قواد الحملة الصليبية الأولى بأن يقسموا له يمين الولاء والطاعة، وعليهم أن يردوا جميع الأراضي التي كانت تابعة للإمبراطورية قبل أن يسمح لهم بالعبور إلى آسيا الصغرى في طريقهم إلى الشام. كما أن الإمبراطور مانويل الأول Manue I (١١٤٣-١١٨٠م) عندما تحالف مع الصليبيين لغزو مصر عام ١١٦٩م، كان يرى أن مصر كانت تابعة للإمبراطورية الرومانية وعليها أن تعود مرة أخرى إلى حظيرة الإمبراطورية. والملاحظ أن كتاب ومؤرخين الإمبراطورية البيزنطية اعتادوا على استعمال لقب الإمبراطور الروماني لكل من يجلس على عرش

القسطنطينية. ومن ذلك نخلص أ: الأباطرة البيزنطيين تمسكوا باستعمال لقب الإمبراطور الروماني، وأن كتابهم ومؤرخيهم استعملوا هذا اللقب لحكام دولتهم.

أما فيما يتعلق بالمؤرخين الغربيين والباباوات، فإن من كتب منهم للفترة السابقة لعام ٨٠٠م - وهو العام الذي حصل فيه شارلمان Charles The Great (٧٦٨-٨١٤م) على اللقب الإمبراطوري فإنه يذكر اللقب الإمبراطوري ويقرنه بالحكام الذين جلسوا على عرش القسطنطينية، ومن ذلك ما كتبه المؤرخ جريجوري التوري Gregory of Tours وهو من مؤرخي العصور الوسطى المبكرة (ت ٥٩٤م)، فقد كان يطلق لقب إمبراطور الرومان على أباطرة الإمبراطورية البيزنطية. كما أن المؤرخ الانجليزي بيده Bede (ت ٧٣٥م) عندما تحدث عن قسطنطين الأول (٣٠٥-٣٣٧) يقرنه بلقب الإمبراطور الروماني. أما البابا هادريان الأول Hadrian (٧٧٢-٧٩٥م) فإنه عندما كتب إلى شارلمان في عام ٧٨٨م نجده يضيف اللقب الإمبراطوري في معرض حديثه على حكام الإمبراطورية البيزنطية.

واختلف الحال تماما في عام ٨٠٠م بعد ما توج شارلمان وحصل على اللقب الإمبراطوري، فنجد المؤرخ اينهارد، Einhard (ت ٨٤٠م)، عندما يتحدث عن الإمبراطورة ايرين Irene (٨٩٧-٨٠٢م) نجده يقول المزعومة إمبراطورة الرومان أو التي تدعى إمبراطورة الرومان. ومن ذلك يتضح أنه أطلق لقب إمبراطور على شارلمان ولقب المزعوم أو المدعى إمبراطور على الحاكم الذي يجلس على عرش القسطنطينية. ثم تغير الحال تماما عند المؤرخ نفسه عندما تحدث عن الأباطرة اللاحقين للإمبراطورة ايرين، فنجده يستعمل لقب إمبراطور القسطنطينية فقط، عندما يتحدث عن نقفور الأول Nicephorus 1 (٨٠٢-٨١١م) وعن ليو الخامس Leo V (٨١٣-٨٢٠م).

وسار على هذا المنهج معظم المؤرخين الغربيين إن يكن كلهم، فنجد على سبيل المثال أن المؤرخ الصليبي فوشيه أف شارتر Fucher of Charter (ت ١٢٧٧م) يكتفى بذكر لقب الإمبراطور عند الحديث عن الإمبراطور البيزنطي الكسيوس، أما المؤرخ الفرنسي أدو أف ديل Odo of Deuil الذى أرّخ للحملة الصليبية الثانية فإنه يتحدث عن الإمبراطور مانويل الأول ويقرّنه بلقب إمبراطور اليونان أو إمبراطور القسطنطينية، أو يكتفى بذكر لقب الإمبراطور. ونلاحظ الشيء نفسه فى كتابات المؤرخ أوتو أف فريزنج Otto of Freising (ت ١١٥٨م) فأطلق على الإمبراطور البيزنطي لقب إمبراطور اليونان، وفى الوقت عينه نجده يطلق على فريدريك بارباروسا Frederic Barbaroussa (١١٥٢-١١٩٠م) لقب الإمبراطور الرومانى بعد ما توجه البابا هادريان الرابع (١١٥٤-١١٥٩م) فى مدينة آخن Aachen عام ١١٥٥م. ولا يختلف الحال عند المؤرخ الإنجليزي روجر أف وندوفر Roger of Wendover (ت ١٢٣٥م)، فإنه عندما يتحدث عن الفترة المبكرة على سبيل المثال فإنه يصفه بالإمبراطور الرومانى، أما عندما يتحدث عن حكام الإمبراطورية البيزنطية فى مطلع القرن الثانى عشر فإنه يذكر لقب الإمبراطور مضافاً إلى اسم الحاكم، ولم يذكر كلمة الرومانى مثلما حدث مع الإمبراطور الكسيوس.

واقتنى أثر هؤلاء مؤرخو العصور الوسطى فإنهم عندما يتكلمون عن الإمبراطور البيزنطي قبل عام ٨٠٠م فإنهم يستعملون لقب الإمبراطور الرومانى للجالسين على عرش القسطنطينية، أما بعد عام ٨٠٠م فإنهم، يضيفون اللقب على إمبراطور الغرب الأوروبى مثل فريدريك الأول بارباروسا وفريدريك الثانى (١٢١٥-١٢٥٠م)، ومن هؤلاء المؤرخين المؤرخ الفلورنسى جيوفانى فيلانى Giovanni Villani، كما أن المؤرخين

خبرصة، وكان الأحرى بهم أن يكونوا أكثر إلتصاقاً بالإمبراطورية البيزنطية  
منهم ساروا على الدرب نفسه، فعندما يتحدث المؤرخ مخايراس Makhaeras  
عن مشرع زواج ابنة الإمبراطور البيزنطى يوحنا الخامس باليولوجوس John  
V Palaeologus (١٣٧٩-١٣٩١م)، من بطرس الثانى Peter II ملك قبرص  
(١٣٦٩-١٣٨٢م) فإنه يتحدث عنه بلقب إمبراطور القسطنطينية.

أما المصادر العربية وعلى رأسها القرآن الكريم فقد ورد فى الحديث  
عن حروب هرقل مع الفرس كلمة الروم "الم، غلبت الروم، فى أدنى الأرض  
وهم من بعد غلبهم سيغليون". والمتصفح لصفحات المصادر العربية يجد أن  
المؤرخين العرب درجوا على إطلاق كلمة الروم على الإمبراطورية  
البيزنطية، ولقب إمبراطور الروم على حاكم هذه الإمبراطورية.

مما سبق نجد أن المصادر البيزنطية تستعمل، بل يمكن القول أنها  
تمسكت باستعمال لقب الإمبراطور الرومانى لحاكم الدولة أو الإمبراطورية  
الرومانية على الدولة ذاتها طوال عهدها، وأن المصادر الغربية نجدها تستخدم  
لقب الإمبراطورية الرومانية والإمبراطور الرومانى حتى عام ٨٠٠م، حيث  
حصل شارلمان على اللقب الإمبراطورى، ثم لقب إمبراطور اليونان أو  
إمبراطور القسطنطينية بعد هذا التاريخ. أما المؤرخون العرب فقد استعملوا  
كلمة الروم. ولا نجد بين سطور هذه المصادر جميعها من بيزنطية أم أوروبية  
أم عربية من يكتب كلمة الإمبراطور البيزنطى، أو يستخدم تعبير  
الإمبراطورية البيزنطية. وعلى ذلك فإن هذه التسمية هى من مسميات  
المؤرخين المحدثين. وهناك تسمية أخرى يفضل بعض المؤرخين المحدثين  
إستخدامها فى الكتابة عن الإمبراطورية البيزنطية، وهذه التسمية هى  
الإمبراطورية الرومانية الشرقية.

والمسميان المستحدثان لهما ما يبررهما، فعبارة الإمبراطورية الرومانية الشرقية مرجعها إلى أن الإمبراطورية الرومانية على عهد الرومان القدامى كانت مساحتها تشمل كل أنحاء أوربا والجزر البريطانية بالإضافة إلى آسيا الصغرى والشام ومصر والساحل الأفريقي حتى المحيط، وكانت عاصمتها مدينة روما. وعندما اعترف الإمبراطور قسطنطين الأول Constantin (306-337م) بالديانة المسيحية كدين في الإمبراطورية عام 313 ونقل العاصمة من روما إلى المدينة الجديدة التي بناها وسميت باسمه وهي القسطنطينية عام 330م، بدأت الإمبراطورية تتأثر بالحضارة الشرقية. يضاف إلى ذلك أنه لما تعذر حكم الإمبراطورية مركزياً من القسطنطينية قسمت الإمبراطورية إدراياً إلى قسمين، القسم الشرقي وعاصمته القسطنطينية والقسم الغربي وعاصمته روما. وعندما انهالت جحافل البرابرة على الجانب الغربي وسقطت روما في عام 476م وتقطعت أوصال هذا الجانب الغربي، بقي الجانب الشرقي على حاله تقريباً حتى الفتح الإسلامي، حيث تم فتح الشام ومصر والساحل الأفريقي، وانضمت هذه الأقاليم للحكومة الإسلامية، وظلت القسطنطينية عاصمة كما هي لبقية الأقاليم الشرقية حتى سقطت على يد الأتراك العثمانيين عام 1453م. وهذا ما دفع بعض المؤرخين إلى تسمية الإمبراطورية البيزنطية بالإمبراطورية الرومانية الشرقية.

ومسمى الإمبراطورية البيزنطية هو الآخر من المسميات الحديثة وله ما يبرره، فكلمة بيزنطة مرجعها إلى أن الإمبراطور قسطنطين عندما بنى عاصمته القسطنطينية، بناها على أنقاض مدينة قديمة تدعى بيزنطة أسسها بيزاس Byzas قائد المجموعة اليونانية التي هاجرت إلى هذا الموضع في القرن السابع قبل الميلاد، وعرفت المدينة باسم بيزنطة نسبة إلى هذا القائد.

وحول هذه المسميات جميعها من قديمها وحديثها نقول: أن إسم الدولة



يجب أن يرتبط أساساً بعنصرير هما: الجغرافية التي تسيطر عليها والشعوب التي تعيش على سطح هذه المساحة وحضارتها.

وإذا طبقنا هذه القاعدة على المسميات المختلفة نقول: إن تسمية الإمبراطورية الرومانية وهي التسمية التي تمسك بها الأباطرة البيزنطيون تسمية غير صحيحة، لأن الشعوب التي عاشت على المساحة الجديدة ليست رومانية، ولذا نترك هذه التسمية جانبا، أما فيما يتعلق بمسمى الإمبراطورية الرومانية الشرقية فهو أيضا مسمى غير مقبول لأن كلمة رومانية غير صحيحة كما أسلفنا، كما أن استعمال كلمة الشرقية غير مقبولة، لأنه لا يوجد إمبراطورية رومانية غربية تشمل نصف أراضي الإمبراطورية القديمة معاصرة للإمبراطورية الشرقية. حقيقة أنه كان في أول الأمر إمبراطور في الغرب الأوروبي، ولكنه لم يكن يحكم الغرب كله بل كان يحكم أقاليم محدودة منه ولا يدين له كافة الحكام في الغرب بالولاء والطاعة.

وعن ما يسمى بالإمبراطور اليوناني، فهو مرفوض أيضا لأن الشعب لم يكن كله يونانيا بل كان اليونانيون يمثلون جانبا محدودا منه. وبخصوص ما ورد من تسمية الإمبراطور البيزنطي بإمبراطور القسطنطينية فهو غير مقبول أيضا من الناحية التاريخية، لأن مساحة الدولة لم تكن قاصرة على مدينة القسطنطينية، وإن المؤرخين الذين أضفوا هذه التسمية على الإمبراطور البيزنطي أطلقوها عليه من قبل التحقير والتقليل من شأنه، خاصة عندما اشتد العداء الديني بين الشرق والغرب، وزادوا في استعماله إبان فترة الحروب الصليبية عندما كان الغرب الأوروبي يُرجع أسباب فشل الحملات الصليبية إلى الإمبراطورية البيزنطية.

والآن ونحن أمام تحديد مسمى معقول وواقعي لهذه الإمبراطورية،

نقول "إمبراطورية" لأنها تحكمت على الأقل في أقاليم شملت شعوبًا متعددة منها اليونان والبلغار وسكان آسيا الصغرى وإمتد نفوذها إلى روسيا، أما عن إقران كلمة الرومانية بالإمبراطورية، فسبق أن فندنا هذه التسمية. حقيقة أن الإمبراطورية تمسكت بالتراث الروماني، ولكن ذلك كان في أول عهدها، ولكنها ما لبثت أن ابتعدت عنه تدريجياً، ومع مرور الزمن أصبح لها خصائص جديدة وتغلبت عليها الحضارة الهلنستية والشرقية، كما أنها استحدثت اللغة اليونانية بدلاً من اللاتينية، هذا فضلاً عن اعتناقها للديانة المسيحية على المذهب الأرثوذكسي بعكس الغرب الأوروبي الذي دان بالمذهب الكاثوليكي.

وعلى ذلك فإن تسمية الإمبراطورية البيزنطية هي أنسب التسميات لهذه الإمبراطورية. ورغم أن هذه التسمية من المسميات الحديثة إلا أنها تحدد كيان إمبراطورية لها مساحتها الجغرافية وتقاليدها وحضارتها على العكس من المسميات الأخرى التي يتداخل مفهومها مع مفاهيم أخرى.

وإذا كان هناك اختلاف حول مسمى الإمبراطورية البيزنطية، فهناك أيضاً اختلاف حول مفهوم الحضارة، وهي نقطة في غاية الأهمية لأنها تحدد الموضوعات التي ندرسها تحت هذا المفهوم، فالبعض قال أن الحضارة هي Civilization، وتعني الحضارة، المدنية أو التمدن، التحضر، أو رفعة في الذوق أو التفكير، والبعض قال أنها Culture وهي تعني الحضارة أو الثقافة. ومن هنا جاء الاختلاف في مفهوم الحضارة عند الكتاب والمؤرخين، ويخال لي أن الخلاف يرجع إلى البعض الذين لا تراث لهم، لذلك كانت الحضارة عندهم هي سلوك الأفراد في المرحلة الحالية. بمعنى أنك إذا دخلت مدينة نظيفة ومرتبّة كان لهؤلاء حضارة، أما إذا دخلت مدينة وكانت غير ذلك فلا حضارة عند هؤلاء القوم. والحقيقة أن النظافة والترتيب تحتاج إلى بضع سنين، أما

الحضارة فهي تحتاج إلى مئات سنين.

والحقيقة أن الأمر يختلف تمامًا، فالحضارة عندى هي كافة أنواع الإنتاج البشرى فى مجتمع ما فى فترة معينة، بما فيها نظام الحكم والأحوال الاقتصادية والعلمية والفنية والقانونية والمعمارية وغير ذلك من الجوانب العملية أو الفكرية. ولكل دولة أو مجتمع مراحل تكوينية حضارية تميزه. فالعرب كانت لهم حضارتهم قبل الإسلام، ثم كانت لهم حضارتهم فى صدر الإسلام وعصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية والعباسية وكافة مراحل الحكم الإسلامى حتى إلى ما نسميه حاليًا بالعصور الحديثة. وهى تختلف من مرحلة إلى مرحلة، ومن مكان إلى آخر. ومن كل هذا التراث تتكون حضارة الدولة.

وهناك حقيقة أخرى وهى أى حضارة لا تقوم على فراغ، فكل حضارة تأخذ مما قبلها ومما حولها، ثم ينصهر كل هذا فى المجتمع الجديد فتنشأ حضارة جديدة، لها خصائص جديدة. وإذا كنا بصدد الحضارة البيزنطية، فيمكن القول أن هذه الحضارة أخذت مما سبقها فى الحضارة اليونانية والرومانية والفارسية ثم دخلت عليها المسيحية بمفهومها الشرقى، فنشأت حضارة جديدة هى الحضارة البيزنطية، ثم تأخذ أيضًا من حضارة الدول التى تعاصرها مثل الحضارة الإسلامية والأوروبية، وهكذا نجد أن الحضارة ليست جسمًا جامدًا، ولكنها كائن حي يؤثر ويتأثر بمن سبقه وبما تعاشه وبما تعيش حوله، حتى تتبلو ويصبح لها صفات تختلف كثير أو قليلًا عما سبقها أو عاصرها.

والكتاب الذى بين أيدينا يبدأ بالكتابة عن بناء القسطنطينية باعتبارها مدخلًا ماديًا لبناء الامبراطورية البيزنطية وحضارتها، ويليهما تمشرق الإمبراطورية، أى أن السمة الشرقية بحضارتها هى التى تغلبت على حياة

المواطنين داخل الإمبراطورية. أما بقية فصول الكتاب فقد تناولت شتى نواحي الحياة تقريبًا داخل الإمبراطورية. وهنا تكمن صعوبة دراسة الجوانب الحضارية في أى عصر من العصور، لأن من يتصدى لها عليه أن يكون على علم تام بكافة النواحي السياسية للإمبراطورية، وكافة النواحي السياسية والحضارة للمجتمعات التي سبقتها أو عاصرتها. ولكن ذلك لن يكون صعبًا على المتخصصين في علم التاريخ لأن دراستهم التراكمية تجعلهم مؤهلين تمامًا لفهم هذا الكتاب.



# الفصل الأول

## بناء القسطنطينية



قامت مدينة القسطنطينية لتكون عاصمة الإمبراطورية البيزنطية التي أصبحت الديانة المسيحية دينا لها بدلا من مدينة روما التي كانت عاصمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وقد دشتت هذه المدينة في عام ٣٣٠م، لذلك يتطلب الأمر العودة إلى الوراء قليلا حتى تتضح الظروف التي دعت إلى إنشاء هذه المدينة التي ظلت علامة بارزة في تاريخ وحضارة الامبراطورية، وفي تاريخ العالم الوسيط أيضا حتى سقطت في عام ١٤٥٣م على يد الأتراك العثمانيين، ولتكن البداية منذ عهد الإمبراطور دقلديانوس.

### دقلديانوس Diocletioan ٢٨٤-٣٠٥م.

ولد دقلديانوس بالقرب من مدينة سالونا Salona في إقليم دالماشيا عام ٢٤٨م، وقد أطلق اسمه على مدينة صغيرة تقع في هذا الإقليم، حيث كان مسقط رأس أمه. وكان والده عبدين في بيت أنولينوس Anulinus أحد أعضاء مجلس السناتو. وعلى ما يبدو أن والده حصل على حرية الأسرة، وأن دقلديانوس قد حصل على وظيفة كاتب، وهي من الوظائف التي يمكن أن يشغلها أمثال دقلديانوس. وبفضل جهوده ونبوغه وصل إلى مرتبة القنصل، ثم تولى وظيفة قائد حرس القصر الإمبراطوري، وهي من الوظائف الخطيرة، وتجلت كفاءته العسكرية في حرب فارس. وبعد موت نومريانوس Numerianus (٢٨٣-٢٨٤) أعترف به بأنه أجدر شخص بعرش الإمبراطورية.

ويبدو أن أول ما قام به دقلديانوس هو تعيين مكسيميان Maximian زميلا له في الحكم، وبذلك هذا حذو ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius (١٦١-١٨٠م) ومنحه لقب قيصر Caesar في بداية الأمر، ثم أضفى عليه



لقب أوغسطس Augustus فيما بعد، والواقع أن مكسيميان كان صديقاً  
لدقلديانوس ورفيقه في السلاح.

قام دقلديانوس ببعض الإصلاحات ليواجه بها الأزمة التي انتابت  
الإمبراطورية، فأعاد النظر في نظم الإمبراطورية وألغى ما اعتبره فاسداً  
وأبقى على ما رآه غير ذلك، واستحدث بعض التنظيمات التي رأى أنه يستطيع  
بها حل مشاكل الإمبراطورية. واستهدفت إصلاحات دقلديانوس تقوية سلطة  
الإمبراطور، وإقامة جهاز إداري دقيق يمكنه من السيطرة على شؤون  
الإمبراطورية، والفصل بين السلطة العسكرية والمدنية. وقد رأى دقلديانوس  
أيضاً أن الإمبراطورية التي يهاجمها البرابرة من كل جانب تتطلب قوة  
عسكرية كبيرة في كل موضع من المواضع المعرضة لغاراتهم. لذلك قسم  
دقلديانوس الإمبراطور إلى قسمين؛ شرقي وغربي، حكم كل منهما حاكم يحمل  
لقب أوغسطس، وتولى دقلديانوس القسم الشرقي بينما تولى مكسيميان القسم  
الغربي. وتم تقسيم الإمبراطورية إلى أربعة أقسام إدارية عرفت باسم  
Prefecture؛ الأولى منها هي إيطاليا وعاصمتها ميلان Milan، والثانية  
غالة وعاصمتها ترييف Triev الواقعة على نهر الراين، والثالثة  
إليريا Illyricum وعاصمتها سرميوم Sirmium وهي بلغراد الحالية، أما  
الرابعة منها هي الجانب الشرقي وعاصمتها نيقوميديا الواقعة على الشاطئ  
الآسيوي للبحر الأسود. هذا وتولى وظيفة القيصرين جاليروس Galerius الذي  
تبناه دقلديانوس وقسطنطيوس Constantinus الذي تبناه مكسيميان. وألزم  
كل من القيصرين بطلاق زوجتيهما والتزوج من ابنة متبنية، واقتسم هؤلاء  
الأربعة الإمبراطورية فيما بينهم، فتولى قسطنطيوس مهمة الدفاع عن غالة  
وإسبانيا وبريطانيا واتخذ من ترييف مقراً له، واعتبرت إيطاليا وشمال أفريقيا  
في نطاق حكم مكسيميان واتخذ من ميلان مركزاً لحكمه، أما دقلديانوس

فاحتفظ بإقليم تراقية Thrace وآسيا الصغرى وسوريا ومصر، وحكم جاليروس إيليريا وأقام فى سرميوم الواقعة على نهر الدانوب. وكان كل من الحكام الأربعة سيداً فى نطاق إقليمية، ولكن سلطتهم المتحدة امتدت على الإمبراطورية بأكملها، وكانت القرارات والأوامر تصدر باسمهم جميعاً. ويلاحظ أن هذا التقسيم لم يتم إلا بعد اشتراك مكسيميان فى الحكم لسنوات.

وكان النظام الرباعى يقضى بأنه عندما يعتزل الأوغسطس الحكم يخلفه القيصر الذى يرقى إلى أوغسطس ويعين لمساعدته قيصراً جديداً وهكذا تباعاً. أما الجيش فكانت قواه موزعة بين شركاء الإمبراطورية الأربعة. ورغم كل هذه الاحتياطات ذابت الوحدة السياسية فى العالم الرومانى شيئاً فشيئاً، وساد مبدأ التقسيم الذى كان سبباً فى الفصل الدائم بين أجزاء الإمبراطورية فى بضع سنين قليلة. وثمة عيب آخر إلى جانب نزعة التقسيم وهو فداحة تكاليف الإدارة الحكومية الجديدة مما أدى إلى زيادة الضرائب.

وعلى أية حال فإن تجربة دقلديانوس لم تلق النجاح المرجو رغم فكرتها الرائعة، فإلى جانب المشاكل المتأصلة ابتليت الإمبراطورية بعدة نكبات، منها هجمات البرابرة المستمرة على الحدود، وقيام الحرب الأهلية. وهذا بدوره أدى إلى تفشى الطاعون ونقص عدد السكان وضعف التجارة والصناعة. وترتب على ذلك أيضاً زيادة الأسعار بدرجة كبيرة أدت إلى نقص قيمة العملة مما دفع دقلديانوس إلى إصدار القرارات الخاصة بتحديد أسعار السلع والمواد الغذائية، ووضع العقوبات لكل من يخالف ذلك، ولكن دون جدوى. وكان من أكبر المشاكل التى سادت مدة حكم دقلديانوس مشكلة المسيحية التى عارضها الإمبراطور بعنف، حتى أنه صادر أملاك الكنائس ومنع المسيحيين من إقامة شعائرهم وألزمهم بعبادة الأوثان. وكان من تعسف

دقلديانوس مع المسيحيين أن أطلق على عصره عصر الشهداء.

وفي عام ٣٠٥م اعتزل دقلديانوس الحكم وعمره تسعة وخمسين عاماً بعد أن أصيب بعلل الشيخوخة المبكرة، وقضى دقلديانوس أعوامه التسعة الأخيرة من عمره معتكفاً عن الحياة العامة. وفي الوقت نفسه اعتزل مكسيميان الحكم في ميلان وفقاً لاتفاق سابق مع دقلديانوس.

### قسطنطين الكبير *Constantin the Great* (٣٠٥-٣٣٧م) ت

تمثل العيب الأساسي في نظام الحكم الرباعي في أنه كان لمكسيميان ابناً هو مكسنتيوس *Maxentius*، وكان لقسطنطينوس ابناً هو قسطنطين، وتحكم في كلاهما العطف الأبوي على نظام الانتخاب، وحاول جاليروس أن يفرق بين قسطنطينوس وابنه، ولكن هذه المحاولات لم تفلح ولحق قسطنطين بأبيه في الجزر البريطانية. وعندما مات الوالد في مدينة يورك *York* نادى الحامية الرومانية بقسطنطين أوغسطساً.

وفي الوقت عينه أقام مكسنتيوس نفسه حاكماً على إيطاليا وشمال أفريقيا. واتسم حكمه بالطغيان فنشرت منه الرعية، وكان في ذلك فرصة طيبة لقسطنطين الذي زحف بجيشه وتولى إدارة غالة، ثم ما لبث أن غزا إيطاليا وهزم مكسنتيوس وقتله عند جسر ميلفيان *Milvian* عام ٣١٢م خارج مدينة روما، وأعدم أبناءه ونكل بكل من ينتمى إليه. وتوقع أعوانه أنهم ملاقون نفس المصير. ولكن قسطنطين الذي امتاز بخططه الدفاعية البارعة في الحرب امتاز أيضاً بالمناورات السياسية في السلم، فأصدر عفواً عاماً هدأت به الخواطر. وعندما زار مجلس السناتو أكد احترامه لهذا المجلس ووعده بتدعيم مكانته وامتيازاته القديمة، ورد المجلس على هذا بإصدار مرسوماً يقضى

بتعيين قسطنطين في المكان الأول بين الأباطرة الذين يحملون لقب أوغسطس. وواقع الأمر لم يكن قسطنطين في حاجة إلى مثل هذا المرسوم لأن المجلس لم تعد له سلطة فعالة، بل كانت السلطة الحقيقية في يد قسطنطين معتمداً على رجال الجيش وعلى النصر الذي أحرزه على منافسيه.

ويلاحظ أنه في الفترة الممتدة من ٣٠٥-٣١١م وهي الفترة المضطربة التي تلت اعتزال دقلديانوس ومكسيميان، كان يحكم الإمبراطورية جاليروس بالاشتراك مع قسطنطيوس الأول وسيفريوس الثاني Severus وليسينوس Licinius وقسطنطين الأول ومكسيميان في فترات مختلفة. ومنذ عام ٣٠٩م كان هناك ستة حكام يحملون لقب أوغسطس، ثم انفرد قسطنطين الأول وليسينوس بالحكم من ٣١٢-٣٢٤م، وساد هذه الفترة أيضاً الفوضى والاضراب والحروب الأهلية نتيجة لمطامع كل منهما، ونشبت الحرب الأهلية من جديد وانتصر قسطنطين على منافسة عام ٣٢٤م وانفرد بالسيادة على الإمبراطورية بعد معركة أدرنة Adrianoph وكريسوبوليس Chrysopolis، وانتهى الأمر بموت ليسينوس. وألغى قسطنطين النظام الرباعي وعين حكماً يساعده في إدارة شؤون الإمبراطورية. ويلاحظ أنه قبيل وفاة قسطنطين تم إعادة تقسيم الإمبراطورية من جديد، وفي هذه المرة قسمها بين أولاده لكي يجنب البلاد النزاع الدموي، ولكن الخلافات ما لبثت أن قامت بين أولاده ونتج عنها الفوضى والاضطراب، ورغم هذا فإن مبدأ تقسيم الإمبراطورية إلى أقاليم أصبح المبدأ السائد فيما بعد لمرحلة ما.

### شخصية قسطنطين:

أعطت الطبيعة شخص قسطنطين وعقله أثنى ما لديها، فكان فارح الطول، مهيب الطلعة، محمود السيرة، واحتفظ منذ طفولته حتى آخر أيام

حياته بقوته وصحته بفضل ما التزم به من العفة وضبط النفس، وكان بشوشاً سمحاً يمزح في تحفظ، ولم يك لقلّة تعليمه أثراً على تقديره للعلم والتعليم، ولذلك حظت العلوم والفنون في عهده بالتشجيع والرعاية. وكان عندما يعمل فهو يعمل دون كلل أو ملل، وكانت له عزيمة ماضية. فكان يقرأ ويكتب ويفكر ويستقبل السفراء وينظر في شكاوى مواطنيه. وكان عندما يتبنى مشروعاً فإنه يعمل فيه بكل حواسه ولا يعوقه عنه عائق. وفي ميدان المعركة فقد كان قائداً يقود رجاله في عزم. وكان طموحاً إلى أبعد الحدود وعرف كيف يضع يده على نبض إمبراطوريته وهي في محنتها. ويبدو من ذلك أنه قد ملك حواسه منذ اللحظة التي نادى به الحامية الرومانية في انجلترا أوغسطساً، لأنه كان مدركاً لم تتطو عليه نفسه من مواهب وتطلعه إلى أنه سوف ينجح في حروبه ضد منافسيه، لتفهمه لروح شعب الإمبراطورية التي قارنت بين حكمته وعدالته وبين الرذائل المتأصلة في منافسيه، مكسنتيوس وليسينوس. لذلك يمكن القول أن نجاحه ينسب إلى قدراته أكثر مما ينسب إلى حظه.

وواقع الأمر أن الحديث عن الإمبراطور قسطنطين وكيفية توليه العرش الإمبراطوري وعن شخصيته وعهده تضيق بها هذه الصفحات، لذلك فإننا نكتفي بإلقاء الضوء على عملين من أهم أعماله، أولهما: الاعتراف بالديانة المسيحية، وثانيهما بناء مدينة القسطنطينية لتكون عاصمة جديدة للإمبراطورية.

والمقصود بالاعتراف بالديانة المسيحية هو أن قسطنطين أعلن الاعتراف بالديانة المسيحية كدين داخل الإمبراطورية وليس ديناً رسمياً، والأمر الأخير تم في وقت لاحق لعهد قسطنطين، أما مسألة اعتناق قسطنطين المسيحية فهو موضوع آخر، وسوف نتناول كل موضوع منهما على حدة.

## ١ - الاعتراف بالمسيحية ديناً داخل الإمبراطورية:

عندما اعتلى قسطنطين العرش البيزنطي، كانت الديانة المسيحية قد تغلغت في كيان الإمبراطورية منذ حوالي ثلاثة قرون تقريباً، وقد حاول بعض الأباطرة القضاء على هذه الديانة بالعنف والدم مثل دقلديانوس وجالريوس. فقد كان جالريوس رجلاً دمويًا شديد البأس على المسيحيين، ولم تجد قسوته نفعاً بل انتشرت المسيحية أكثر من ذي قبل. وقد وجد جالريوس نفسه بعد سنوات من الاضطهاد أن سياسة العنف هذه سياسة فاشلة، واقتنع آخر الأمر بأن العنف والاستبداد لا يقضيان على شعب بأسره وعلى معتقداته الدينية. ولعل ذلك كان ناتجاً عن اعتلال ألم بصحته لفترة ليست بقصيرة، فأصدر عن طيب خاطر - لإصلاح ما أفسدته يده - مرسوماً عاماً يحمل اسمه وإسم ليسينوس. ومن هذا المرسوم "... لقد اتجهت إرادتنا إلى بسط مزايا رأفتنا المألوفة على هؤلاء الأفراد المسيحيين التعساء، ولذلك نرخص لهم في إعلان آرائهم الخاصة في حرية تامة، وفي عقد اجتماعاتهم السرية دون خوف أو إزعاج، شريطة أن يظهروا دوماً الاحترام اللائق للقوانين والحكومة القائمة، وإنا لنامل أن يكون تسامحنا دافعاً إلى الصلاة والتضرع إلى الإله الذي يعبدوه من أجل سلامتنا ورخائنا وسلامتهم ورخائهم وسلامة الإمبراطورية ورخائها".

وعلى ما يبدو أن أعوان جالريوس لم ينشروا هذا المرسوم كما هو، وإنما نشروا تعليمات إلى حكام الولايات تحدثوا فيها عن رفق الأباطرة بالمسيحيين وأشاروا فيها على رجالهم بوقف محاكمة المسيحيين وعض الطرف عن الاجتماعات السرية. وأعقب ذلك إطلاق سراح المعتقلين منهم. ولكن ذلك لم يدم طويلاً بسبب حكم جالريوس القصير ٣٠٥-٣٠٦م، وما تبع ذلك من اضطرابات داخل الإمبراطورية.

## مرسوم ميلان:

بعد ما انتصر قسطنطين على منافسيه في موقعة ميليفان عام ٣١٢م أعلن الإمبراطور قسطنطين مرسوم ميلان الشهير الذي أعاد السلام والهدوء إلى الكنيسة المسيحية. وواقع الأمر أن قسطنطين لم ينفرد بإصدار هذا المرسوم بل شاركه في مسؤوليته شريكه في الحكم على النظام الدقديانوسى الأوغسطس ليسينوس، وقد استقبل هذا المرسوم على أنه قانون أساسى من قوانين العالم الرومانى، ومن هذا المرسوم:

"عندما تقابلنا نحن، قسطنطين أوغسطس وليسينوس أوغسطس فى ميلان مكلين بالرعاية والعناية، أخذنا نبحث فى جميع الوسائل الخاصة بالصالح العام لرعايانا. ومن هذه المسائل التى تهم الكثيرين وتعود بالنفع عليهم مسألة حرية العقيدة. لذلك قررنا إصدار مرسوم يضمن للمسيحيين وكافة الطوائف الأخرى حرية اختيار وممارسة العقيدة التى يرتضونها، وبذلك نضمن رضاء جميع الآلهة والقوى السماوية علينا، كما نضمن رضاء جميع رعايانا ممن يعيشون فى كنف سلطانتنا. وهكذا قررنا عن ثبات وتعقل ألا يحرم أى فرد كائنا من كان، من اختيار المسيحية ديانة له. ولكل فرد الحرية فى اختيار الدين الذى يناسبه. وبذلك نضمن استمرار تأييد الرب لنا بنفس الكرم والقوة اللذين تعودناهما منه ... وهذا المرسوم الذى صدر من فيض كرمنا يجب أن يذاع على الجميع ويجب أن يحاط به الجميع علماً وينشر فى كل مكان حتى لا يفوت أحد الأخذ به".

والنص الخاص بالفقرة الأخيرة كما هو منشور باللغة الانجليزية

كالتى:

So that the form of this ordinance and our benevolence

may come to the attention of all men. It will be convenient for you to promulgate these letters everywhere and bring them to the knowledge of all, so that ordinance of our benevolence may not be hidden.

وعلى ذلك فنحن أمام الحقائق التالية:

- ١- أن المسيحية ظلت حركة سرية منذ بدايتها حتى إعلان مرسوم ميلان.
- ٢- تناول بعض الأباطرة المسيحيين بالاضطهاد والتعذيب وغالى بعضهم فى ذلك.
- ٣- لم يكن مرسوم ميلان أول مرسوم بالتسامح مع المسيحيين بل سبقه المرسوم الذى حمل اسم جالريوس وليسينوس.
- ٤- أن مرسوم جالريوس لم يُعمل به لقصر مدة حكم الإمبراطور.
- ٥- لعل فى العبارة الأخيرة الواردة فى مرسوم ميلان ما يؤكد ذلك وأن عبارة Not be hidden ، تشير إلى الخوف من سابقة حدثت تحوم حول ما تنطوى عليه هذه العبارة من معنى ويخشى تكرارها.
- ٦- إن مرسوم ميلان لم يصدره قسطنطين منفرداً بل صدر منه ومن شريكه فى الحكم ليسينوس.

واستكمالاً لمحتوى مرسوم ميلان، نقول: إن المرسوم قضى برد كل الحقوق الدينية إلى المسيحيين الذين كانوا حرموا منها ظلماً وعدواناً، ونص على أن تعاد للكنيسة كل أماكن عبادتهم والأراضي العامة المصادرة دون جدل أو إبطاء أو تكلفة. واقترن هذا الإنذار الصارم بوعده كريم يقضى بأن



يدفع - لمن اشترىوا أملاك الكنيسة ودفعوا مبالغ كبيرة - تعويض من خزانة الإمبراطورية.

ومع تتبع قضية الاعتراف بالمسيحية ندخل في قضية أخرى، وهي متى أصبح قسطنطين مسيحياً؟ لعل النصوص التي تركها المؤرخون المعاصرون لعصر قسطنطين هي التي أوجدت جدلاً حول هذا الموضوع. فنجد أحدهم يسجل أن الإمبراطور اعتنق المسيحية منذ اللحظة الأولى من حكمه، بينما يرى آخر أن إيمان قسطنطين مرجعه إلى شارة الصليب التي ظهرت في السماء عام ٣١٢م. وموجز هذه الرواية أن قسطنطين عندما كان يعدّ العدة للقاء منافسيه، شاهد في السماء راية الصليب وعليها طرة نصها "عز نصره"، مكتوبة بأحرف من نور، وأن الإمبراطور اتخذ تلك الطرة شعاراً للوثة في حروبه. وهناك رواية ثالثة تختلف عن هذه وتلك، ورابعة تقول: إن قسطنطين لم يُعمد إلا على فراش الموت. وأنه تلقى في النزاع الأخير التعاليم المسيحية حيث وضع الأسقف يده على رأسه وأتم إجراء الطقوس الدينية، ثم ما لبث أن أسلم الإمبراطور الروح. ولعل ما دفع المؤرخين إلى هذا الخلط وتعدد رواياتهم تصرفات قسطنطين نفسه.

الواقع أن هناك تدرج بطيء غير محسوس انتهى بإعلان قسطنطين نفسه حامياً للمسيحية. فلقد كان من الشاق على قسطنطين أن يمحو من ذهنه ما تلقنه من عادات ومعتقدات وثنية، وأن يؤمن بالديانة المسيحية ويعلن ذلك بين يوم وليلة، فلقد علمته أيضاً التأملات التي يحتمل أنها شغلت ذهنه أن يسير بخطى حذرة في تغيير الديانة الوطنية، وهو تغيير له خطره وأهميته.

والخلاصة أن تيار المسيحية تدفق طوال سني حياته في حركة هادئة وإن كانت سريعة الخطى. ولكن حذر قسطنطين عوق تارة وانحرف تارة

أخرى بالاتجاه العام للمسيحية. فلقد وازن قسطنطين دائما بين آمال رعاياه وبين مخاوفهم، ومن ذلك أنه كان يصدر مرسومين فى وقت واحد، الأول ينص على الاهتمام الشديد بيوم الأحد وفى ذلك نصر للمسيحيين، والثانى يحض على استشارة العرافين وفى ذلك نصر للوثنية. ولا شك أن مثل هذه الأمور جعلت المواطنين من مسيحيين ووثنيين يراقبون سلوك إمبراطورهما بنفس القدر من القلق وإن اختلفت مشاعر كل منهما.

واستكمالاً لهذه القضية نضع سؤالاً نقول فيه، ما هى الدوافع التى دفعت قسطنطين إلى الاعتراف بالمسيحية؟ اختلفت الآراء حول هذه الدوافع، البعض يرى أن قسطنطين اعترف بالديانة بالمسيحية عن اقتناع وعن إيمان وحببتهم فى ذلك منبثقة من خلق قسطنطين وتصرفاته إزاء المسيحيين. ومن ذلك مثلاً بناء العديد من الكنائس. والرأى المضاد يعتمد على تصرفات قسطنطين تجاه الوثنية التى لا تقل سخاء عن ما قدمه للمسيحيين. ويرى فريق ثالث أن إيمان قسطنطين بالمسيحية مرجعه الدوافع السياسية وعلى رأس هذه المجموعة المؤرخ هنرى جريجوار Henry Gregoire ، فىقول هنرى فى معرض حديثه عن فترة حكم قسطنطين من كان يريد الشرق، فعليه أن يكون مسيحياً أو صديقاً للمسيحيين. ولم يك قسطنطين يستطع أن يسيطر على الشرق وهو الجزء الغنى من الإمبراطورية برجاله وموارده إلا بمهادنة المسيحيين، خاصة فى الوقت الذى بدأت فيه العناصر الجرمانية تتحرك صوب غرب الإمبراطورية.

وفى نهاية الأمر نستطيع القول أن قسطنطين كان رجلاً على مستوى عالٍ من الذكاء، فلم يك يستطع أن يعلن أنه مسيحى، فىغضب الوثنيين. ولم يكن يستطع أن يعلن أنه باق على وثنيته، وفى هذه الحالة يتطلب الأمر منه أن يتخذ موقفاً من المسيحيين وهذا ما لم يحدث، بل إنه عايش الإثنين معاً وإنه

كان يميل إلى المسيحية شيئاً فشيئاً حتى أصبح في آخر الأام مسيحياً.

## ٢ - بناء القسطنطينية

داب قسطنطين وتبعاً لدواعى الحرب والسلم على التحرك فى يقظة تامة على حدود مملكته الشاسعة. وكان دوماً على أهبة الاستعداد لملاقاة أى عدو خارجى أو داخلى. وعندما تقدمت به الأيام بدأ يتدبر مشروعاً تستقر به قوة العرش الإمبراطورى فى مكان أشد ثباتاً من روما، وبدأ يفكر فى بناء عاصمة جديدة للإمبراطورية. ولكن موضع القسطنطينية هو الموضع الأخير الذى اختاره قسطنطين فى نهاية الأمر، فقد طرأت على ذهنه عدة أماكن لتكون مقر حكمه الجديد، فنجد أنه نظر إلى مسقط رأسه مدينة نيش Nis الواقعة على نهر مورافا Morava شمال شبه جزيرة البلقان، ومدينة سردىكا Sardica (صوفيا Sofia الحالية) ومدينة نيقومديا التى اتخذها دقلديانوس من قبل. ولما كان قسطنطين يفضل منطقة الحدود بين أوروبا وآسيا ليتمكن من ضرب البرابرة الذين كانوا يقطنون الدانوب، ويراقب بعين ساهرة تحركات الفرس، فلقد كانت نيقومديا أنسب المدن لتكون عاصمة الإمبراطورية. ولما كان قسطنطين لا يريد أن يربط مدينته الجديدة بذكرى دقلديانوس، لذلك أثر اختيار موضعاً آخر يرقب منه تحركات الفرس والبرابرة، وكان هذا الموضع هو قرية بيزنطيوم التى بنى على أنقاضها مدينة القسطنطينية، بداية من عام ٣٢٤م.

وموقع المدينة الجديدة فى شكل مثلث على خليج البسفور يلتقى طرفه المنفرج الذى يمتد شرقاً إلى شواطئ آسيا بأمواج البسفور، وتحذ الميناء الجزء الشمالى من المدينة، أما الجنوب فتحفه مياه بحر مرمرة، ومن ناحية الغرب، تقع قاعدة المثلث التى تواجه قارة أوروبا. واكتسب ميناء القسطنطينية اسم

القرن الذهبي، لأن الانحناء الذي يرسمه يمكن تشبيهه بقرن الغزال، ولفظ ذهبي يعبر عن الثروة التي تدفقت على المدينة من أقصى الأرض إلى ثغر المدينة الواسع الآمن، لأن الميناء كان واسعاً ومناسباً جداً لعملية الشحن والتفريغ حيث يندر حدوث المد والجزر. وكان طول لسان البسفور إلى مصب نهر ليكوس Lycus - الذي يمد المدينة بالماء العذب - إلى الميناء أكثر من سبعة أميال، ويبلغ عرض مدخل الميناء خمسمائة ياردة، ويمكن عند الضرورة وضع سلسلة متينة تحمي الثغر والمدينة من هجوم أى أسطول معاد، كما كان الحال في مدن العصور الوسطى مثل مدينة دمياط في مصر.

والعاصمة الجديدة تقع على خط عرض ٤٣ وخط طول ٢٩ وتسيطر المدينة على تلالها السبعة، وهي تتمتع بمناخ صحى معتدل وتربة خصبة، ومدخلها إلى القارة الآسيوية قصير المدى، والدفاع عنه ميسور. كما أن خليجى البسفور والدردينيل يعتبران بوابتين للقسطنطينية ويستطيع من يسيطر عليهما أن يغلقهما في وجه أى أسطول معاد ويفتحهما في وجه السفن التجارية، وما يتبع ذلك من تدفق الثروات الطبيعية والمصنوعات من الشمال والجنوب عبر البحر الأسود والبحر المتوسط.

لعل في كل ما سبق مبرراً كافياً لاختيار قسطنطين لهذا الموقع، ولكن ثمة مزيج من المعجزة والخرافة كان يعكس في كل عصر قدراً من العظمة على نشأة المدن الكبرى. ولهذا نرى قسطنطين ينسب اختيار هذا المكان إلى القوة الإلهية، واهتم بأن يسجل في إيجاز بأنه امتثالاً لأوامر الله، وضع الأساس لمدينة القسطنطينية الخالدة، واستطرد خيال الكتاب اللاحقين لعصره وسجلوا أن شبحاً تراءى ليلاً لقسطنطين وهو نائم في رحاب بيزنطة، وقالوا: إن ربة المدينة وحارستها وهي سيدة عجوز تحولت فجأة إلى شابة ظهرت في أزهى زينتها حين ألبسها الإمبراطور بيديه شارات الإمبراطورية، وأستفاق

قسطنطين من نومه وفسر الفأل السعيد وامتلل لإرادة السماء دون تردد. ووردت أسطورة أخرى تقول: إن الإمبراطور سار على قدميه تتبعه حاشيته كلها، ورسم بحربته الخط الذي يجب بناء التحصينات الجديدة بحذائه، ولما سار غربا على ساحل القرن الذهبى وابتعد عنه ميلين قال له رجاله: "لقد تجاوزنا الحدود التى تتطلبها المدينة" ولكن قسطنطين أجاب: "سأسير فى الطريق حتى يرى الدليل الخفى الذى يسير أمامى أنه من المناسب أن أتوقف".

وحول تفاصيل إنشاء المدينة الخالدة وهى القسطنطينية يقول المؤرخون أن الإمبراطور أقام خيمته أثناء حصار قرية بيزنطة فوق التل الثانى، من تلالها السبعة، الذى يشرف على القرية بأكملها. وتمجيدا لهذا المكان الرائع وقع اختيار قسطنطين عليه ليكون الميدان الرئيس للمدينة، وقد تم تحديده بشكل شبه دائرى، ووضع لهذه الساحة مدخلان متقابلان أقيم عليهما أقواس النصر. ووضع فى وسط هذه الساحة عامودا على قاعدة من الرخام الأبيض ترتفع عشرين قدما. أما العامود نفسه فقد وصل ارتفاعه مائة وعشرين بما فيه القاعدة. وقد وضع فوق هذا العمود تمثال من البرونز للإله أبولو أوتى به من مدينة أثينا أو أحد المدن الأخرى. أما محيط الميدان فقد امتلأ بالأروقة (البواكى) تجملها مجموعة من التماثيل.

وفيما يتعلق بتمثال أبولو فقد رأى البعض بعد ذلك أنه يمثل الإمبراطور قسطنطين وهو يحمل الصولجان فى يده اليمنى، وشكل للكرة الأرضية فى يده اليسرى. وفى المدينة الجديدة تم وضع بناء لميدان السباق أو السيرك، وكان بناء رائعاً يبلغ طوله حوالى أربعمائة ياردة، وعرضه نحو مائة ياردة، وزين المكان بالتماثيل والمسلات. كما بنى بالمدينة كنيسة آيا صوفيا لتعطى للمكان روحا دينية جديدة.

ومن منصة الإمبراطور حيث كان يجلس لمشاهدة الاحتفالات وألعاب السيرك، كان يوجد سلم غير مستقيم يؤدي إلى القصر الإمبراطوري مباشرة. وكان هذا القصر رائع البناء يزيد فخامة عن قصر الإمبراطور الروماني في روما، وكان يوجد بعض الساحات الصغيرة والأروقة على مساحة ليست صغيرة تطل على الجانب الشرقي للمدينة حيث يوجد بحر مرمرية. كما وجدت الحمامات بالأعمدة الرخامية ذات الألوان المتعددة، وما يزيد عن ستين تمثالاً من البرونز.

وإذا حاولنا وصف الأحياء والأبنية داخل المدينة، يمكن القول أن القسطنطينية ضمت بداخلها كل ما يمكن أن يرفع قدر هذه العاصمة الجديدة، ويزيد من عظمتها، ويحقق لسكانها الكثير من المنافع والسرور. وجملة القول أن المدينة بعد اكتمالها كان بها كنيسة آيا صوفيا وسيرك ومدرسة ومسرحان وحوالي ثمانية حمامات عامة للجمهور، وحوالي مائة وثلاثون وخمسون حماماً خاصاً. وحوالي إثنتين وخمسين رواقاً، ومخازن للغلال بلغ عددها خمسة، وثمانية خزانات للمياه تحت مستوى سطح الأرض، وبنيت أربع قاعات واسعة لاجتماعات أعضاء مجلس السناتو أو المحاكم، وأربع عشرة كنيسة، وأربعة عشر قصرًا، وحوالي أربعة آلاف وأربعمائة منزل جميل البناء، هذا بخلاف مساكن العامة.

وكانت هناك مشكلة شغلت بال الإمبراطور قسطنطين، وهي عملية استقدام السكان إلى العاصمة الجديدة. ومن الصعب أن ينسب نمو المدينة السريع إلى التزايد الطبيعي في السكان من رجال الأعمال، وما يلحق بهم من عماله.

لذلك يمكن القول والتسليم بما ذكره المؤرخون بأن هذه المدينة الجديدة قد أقيمت ونمت على حساب المدن الكبيرة الأخرى في الإمبراطورية. ومن المحتمل، وهو أمر مقبول أن قسطنطين قد دعا كثيرا من أعضاء مجلس السناتو وكبار رجال الجيش وبعض الأسر النبيلة من العاصمة القديمة روما وبعض المدن الأخرى إلى الهجرة والإقامة في القسطنطينية. وقد لبي هذه الدعوة الكثير، خاصة أنه أنعم على المقربين منه بالقصور الفخمة التي بناها بالمدينة، كما أنه ولا بد أن يكون قد خصص لهم بعض الأراضي التي تدر عليهم من الأموال ما يحفظ لهم مستوى معيشتهم، وكانت هذه المنح وراثية مقابل الإقامة في العاصمة الجديدة.

وكان هناك ما يجذب الناس إلى الهجرة إلى العاصمة والأقامة فيها، فحيث توجد العاصمة وبها الإمبراطور وقصره وحاشيته ووزاؤه وأعضاء مجلس السناتو والقضاة وعلية القوم والأغنياء يكون الإنفاق على مستوى عال يتناسب مع هؤلاء من الدخل العام للإمبراطورية، وهذا كفيلا يجذب الأغنياء من سكان الولايات الأخرى، وكان هناك طبقة أخرى هي الأكثر عددا وهي طبقة التجار والصناع والعمالة الأخرى التي تتكسب عن طريق احتياجات الطبقة الموسرة. ومن هنا نجد أن القسطنطينية قد أصبحت في أقل من قرن تنافس العاصمة القديمة روما في الثراء وأعداد السكان، وقد ترتب على ذلك زيادة أعداد المنازل حتى امتلأت الشوارع وضاق على الدواب والعربات والزائرين.

ولما كانت القسطنطينية يوم بنائها صغيرة الحجم نسبيا، فأصبحت المساحة غير كافية لاستيعاب الأعداد المتزايدة، لذلك قامت على جانبي المدينة وصولا إلى بحر مرمرة والقرن الذهبي مباني جديدة كان في جمالها ما يعتبر

مدينة جديدة.

وعمد الإمبراطور في عاصمته الجديدة إلى توزيع الخمر والأطعمة والأموال توزيعاً منتظماً لرفع مكانة العاصمة، وقد دفع ذلك كله بعض المواطنين من داخل الإمبراطورية إلى النزوح إلى القسطنطينية. وهكذا ظل الإمبراطور يحاكي إسراف القياصرة الأوتل في مدينة روما، ولكن كرمه هذا جلب عليه بعض اللوم، لأن ضريبة الغلال التي فرضت على مصر كانت من أجل بناء العاصمة الجديدة والأنفاق على بعض الكسالى والمقربين إلى الإمبراطور على حساب المزارعين البسطاء. والمهم هنا أن هذه المدينة العظيمة قد قسمت إلى أحياء بلغ عددها أربعة عشر حياً في بداية الأمر، وأطلق على المجلس العام إسم السناتو أسوة بما هو كان متبعاً في العاصمة القديمة روما.

وكان قسطنطين يراقب بناء العاصمة ويقدم تعليماته من حين لآخر، فقد أقيمت الأسوار المعروفة باسم أسوار قسطنطين، ومع اتساع المدينة خاصة إلى الغرب أقام الإباطرة الاحقين بعض الأسوار الأخرى خلف الأسوار القديمة إلى الغرب لتدخل إلى المدينة المباني الجديدة مساحات جديدة. ويقال أن هذه الأسوار والقصور والابنية قد بنيت في بضع سنين، وهناك رواية مستبعده تقول أن البناء تم في بضعة شهور. وعلى أية حال فإن بناء مدينة جديدة يستحق الإعجاب. وربما يرى البعض أن التعجل في بناء المدينة جعل بعض مبانيها يتصدع بعد وقت قصير.

وعندما جاء موعد حفل الافتتاح وهو الحادى عشر من مايو عام ٣٣٠م، أقيمت الألعاب ووزعت المنح والهبات التي أضافت إلى هذا الاحتفال مزيداً من البهجة. ومع هذا الاحتفال إقيم على عربة من عربات النصر تمثال



للإمبراطور قسطنطين صنع بم : من الخشب المموه بالذهب، وحوله مواكب الحراس حاملين الشموع البيضاء مرتدين أفخم الثياب، واتجه هذا الموكب العظيم إلى الميدان الكبير الذى يتوسط المدينة حتى أصبح فى مواجهة منصة العرش الذى يجلس عليه الإمبراطور. وهنا نهض الإمبراطور ومجد فى كلمات قليلة ذكرى أسلافه. وقد تم حفر نقش على عامود رخامى يسجل يوم هذا الاحتفال. وأسمى الإمبراطور قسطنطين عاصمته الجديدة بإسم "روما الجديدة"، ولكن إسم القسطنطينية غلب على الإسم الجديد، وعرفت بإسم القسطنطينية فى كافة المصادر العربية والأجنبية، وبقيت هذه التسمية طالما بقيت الإمبراطورية حتى عام ٤٥٣م، وبعدها سميت بإسم إسلام بول، أى مدينة الإسلام، ثم حُرِفت حتى أصبحت إستانبول أو إسطنبول أو إسطنبول.

## **الفصل الثانی**

### **الإمبراطورية والفكر الشرقى**



قسم الإمبراطور تيودورسيوس الأول Theodosius I (٢٧٨-٣٩٥م)  
الإمبراطورية بين ولدية فحكم ابنه أركاديوس Arcadius (٣٩٥-٤٠٨م)  
الجزء الشرقى من الإمبراطورية وتمركز فى القسطنطينية، وظل خلفاؤه من  
بعده حتى سقطت الإمبراطورية التى عرفت بالبيزنطية على يد الأتراك  
العثمانيين فى عام ١٤٥٣م، أما الجزء الغربى فقد حكمه ابنه الآخر  
هونوريوس Honorius (٣٩٥-٤٢٣م) واتخذ من روما مركزا له. وظل  
خلفاؤه من بعده حتى سقطت روما فى يد أدواكر Odouacar ملك قبائل  
الهيرول Heruls فى عام ٤٧٦م. وعند هذه المرحلة كان البرابرة الجرمان قد  
استقروا فى جانب كبير من غرب أوروبا، فقد استقر الفرنجة فى غاله، والقوط  
الغربيون والوندال والسويفى والآلان فى شبه جزيرة ايبيريا (أسبانيا والبرتغال  
حاليا) والقوط الشرقيون فى إيطاليا. وبذلك أصبح ما تبقى للإمبراطورية هو  
الجانب الشرقى. وقد اشتمل هذه الجانب على شبه جزيرة البلقان عدا أطرافها  
الشمالية، وآسيا الصغرى حتى جبال أرمينية، وعلى بلاد الشام التى كانت  
تعرف باسم سوريا، ومصر وشمال إفريقيا. وقل اهتمام أباطرة الشرق فى  
القسطنطينية بالجانب الغربى من الإمبراطورية.

وعندما تولى الإمبراطور الشرقى مرقيان Maracian (٤٥٠-٤٥٧م)  
لم يتشاور مع الإمبراطور الغربى فى شىء، والحال نفسه فى عام ٤٥٧م  
عندما تولى الإمبراطور الشرقى ليو الأول Leo I (٤٥٧-٤٧٤م). كما أن  
حكومة القسطنطينية لم تعبأ ولم تقدم شيئا لنجدة العاصمة الغربية روما عندما  
اجتاحتها عناصر الوندال عام ٤٥٥م، التى أقامت دولتها فى شمال إفريقيا  
(٤٢٨-٥٣٤م).

كما أن الإمبراطور ليو الأول قد تجنب الدخول فى صراع مع

العناصر الجرمانية فى الغرب وجسج إلى السلم فى علاقاته مع القبائل التى أقامت لها دولا فى غرب أوربا. وقد حاول أسترداد شمال إفريقيا من الحكومة الوندالية فى عام ٤٦٨م، ولكنه فشل فاقتنع بالسلم أكثر من ذى قبل. كما أن الإمبراطور الشرقى زينو Zeno (٤٧٤-٤٧٥م) قد أقام سلاما مع الوندال قبل موته بعام.

وطوال هذه المرحلة التى يتعرض فيها الجانب الغربى من الإمبراطورية للتمزق، كان نظام الحكم فى الجانب الشرقى يتطور وأصبح شرقيا وأوغل فيه.

ومن هذا التطور أن تتويج الإمبراطور قد اتخذ صفة دينية، فعندما عين مرقيان إمبراطورا تسلم تاجه من يدى أنطوليوس Anatolius بطريرك الإمبراطورية الشرقية فى القسطنطينية (٤٤٩-٤٥٨م) وحمل لقب فسيلفس وأن ظل اللقب الإمبراطورى هو الغالب، والشئ نفسه أتبع مع الإمبراطور ليو الأول، وكان يعاصره البطريرك نفسه، وهنا نجد أن الحق فى الحكم أصبح يتخذ جانبا دينيا كبيرا، يضاف إلى أن اللغة اللاتينية وأن كانت هى اللغة الرسمية للإمبراطورية، إلا أن اللغة اليونانية ظلت هى الأعم، وبدأت تتسلل إلى الدوائر الرسمية فى الحكومة الشرقية، كما عم البلاط مظاهر العظمة الشرقية سواء فى الملابس أو أثاث القصر أو المركبات التى تجرها الخيول.

ومن جوانب هذه العظمة ما رواه بورفيرىوس Porphyrius وهو من مواليد مدينة سالونيك فى عام ٣٧٤م، وتعلم فى الشرق وأصبح أسقفا لمدينة غزة فى عام ٤٩٥م، وتوفى فى عام ٤٢٠م، وقد ذكر بورفيرىوس أنه اشترك فى حفل تعميد الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨-٤٥٠م) وكان ذلك فى عام ٤١٠م. فقد روى عنه أنه عندما دخل قصر الإمبراطور خال له أنه فى

الجنة. كما استرعى ذلك انتباه العديد من رجال الدين.

ومع مرور الزمن أصبح الشرق هو الفلك الذى تدور فيه الإمبراطورية، ومنه تنطلق الحركة الفكرية التى يتولاها رجال الدين الشرقيون، وكان لهم السبق فى كافة أنحاء الفكر الدينى والكنيسة والرهبانية، وحتى أن المجامع الدينية التى عالجت كافة أمور العقيدة المسيحية فى الشرق والغرب عقدت فى المدن الشرقية.

والحقيقة أنه كان يوجد بعض رجال الغرب الذين لعبوا دورا كبيرا فى الفلسفة المسيحية، ومن هؤلاء ما كانوا على رأس الفكر المسيحى وأثروا كثيرا فيه، ولكن الغلبة كانت لرجال الدين الشرقيين، وكان لمدرسة الاسكندرية وأنطاكية وببيروت وغزة وقصرية فلسطين وكبادوكيا بأسيا الصغرى والرها دورا هاما، وأثروا كثيرا على فكر الإمبراطورية الشرقية.

وإذا بدأنا بمدرسة الاسكندرية وما كان لها من تأثير على الفكر المسيحى يمكن القول أنه عندما أنتشرت المسيحية وزاد عدد المنضمين إليها، أصبح من الضرورى وضع أسس منهجية للتعليم المسيحى لتعليم الوثنيين أو غيرهم الذين دخلوا فى الديانة المسيحية، ما يؤهلهم لهذا الدين، وهى نقطة هامة تنبعت إليها أوروبا فى هذه المرحلة وأنشأت ما يعرف بمدارس العماد. ومن جهة أخرى كان على رجال الكنيسة العمل على تثقيف المسيحيين ورفع مستواهم العلمى بعيدا عن الثقافة الوثنية التى سادت هذه الفترة، وإعدادهم لفهم الديانة المسيحية، ومن هنا نشأت مدرسة الإسكندرية للتعليم المسيحى.

وهناك أسباب أخرى لقيام هذه المدرسة منها؛ أن العالم الوثنى كان يقف للديانة المسيحية بالمرصاد، وحاول بكل ما لديه من قوة علمية القضاء على الدين الجديد. ولذلك أصبح على المسيحيين فى هذه المرحلة إعداد

الأجيال المسيحية لفهم دينهم، وفي الوقت نفسه للرد على كل ما يوجه إلى الديانة المسيحية من نقد أو تحريف أو هدم، وفوق هذا كله التبشير بالدين المسيحي ونشره في كل الآفاق. ويرى بعض المؤرخين أن نواة هذه المدرسة قد وضعت في عهد القديس مرقس الذي تولى إدارتها أنيانوس Anianus الذي صار في مرحلة لاحقة أسقفا للإسكندرية (٧٢-٨٣م)، ولكن شهرة هذه المدرسة لم تظهر في هذه المرحلة، إنما بدأت تأخذ مكانتها في القرن الثاني وأوائل القرن الثالث. وكان في الإسكندرية في هذه المرحلة عدد كبير من مشاهير العلماء. والحقيقة أن مدرسة الإسكندرية لم تك المدرسة اللاهوتية الوحيدة في العالم، وإنما كانت هناك مدارس أخرى وثنية ومسيحية، ولكن مدرسة الإسكندرية المسيحية تفوقت على ما عداها من المدارس الأخرى. والدليل على ذلك قدوم الطلاب من شتى الأنحاء للدراسة في الإسكندرية التي بلغ أساتذتها درجة كبيرة من الشهرة. ومن الملاحظ أن مدير مدرسة الإسكندرية كان يعتبر الرجل المسيحي الثاني في مصر بعد البطريرك. ولذلك عجب إذا رأينا أن معظم البطارقة كانوا من بين هؤلاء المدراء.

ومن أشهر علماء الإسكندرية في النصف الثاني من القرن الثاني أثاغورس Athengoras الذي كان يعتبر من أعمدة الديانة الوثنية بالإسكندرية، وكان كغيره من الفلاسفة الأفلاطونيين كثير البحث في أمر الديانة المسيحية طمعا في كشف أغلاطها وأظهار فسادها، فأنكب على درسها بإجتهد عظيم، وكانت النتيجة الطبيعية أنه اعتنق الديانة المسيحية، وقد أستر بعد ذلك في لبس رداء الفلاسفة ولم يمتنع عن وظيفة التدريس، بيد أنه أصبح من أعظم أنصار المسيحية وأكثر المدافعين عنها.

ومن معاصري أثاغورس في ذلك الوقت بطليموس Ptolemy العالم الجغرافي الشهير، وكان أيضا فلكيا ماهرا تخرج في مدرسة الإسكندرية ٤

ومن تأليفه كتاب فى الألحان الموسيقية، وجدول يحتوى على أرصاد فلكية عن الكسوف والخسوف لمدة ثمانمائة سنة سابقة لعهدده. وقد أتم معظم هذه الارصاد فى بابل وأكمل باقىها فى بابليون المصرية، كما يظهر من أسماء أماكن خطوط الطول والعرض التى ذكرها. ثم أننا فى السنة الأولى أو الثانية من حكم الإمبراطور كومودس Commodis (١٨٠-١٩٢م) الذى خلف ماركوس أوريليوس Marcus Aurellus (١٦١-١٨٠م) على المملكة الرومانية، نرى بانتانيوس Pantaenus متقلدا رئاسة المدرسة اللاهوتية. والظاهر أن بانتانيوس هذا ومعاصره كليمنس السكندرى Clemens الزائع الصيت كانا كلاهما تلميذين لاثاغورس، وكانا كباقي مسيحي مصر الأولين بارزين فى علوم القدماء وحكمتهم كبروزهما فى كل الحقائق والمبادئ المسيحية الصحيحة.

أما بانتانيوس فقد نجح نجاحا كبيرا فى إدارة مدرسة الاسكندرية، وبدأ الراغبون فى التعليم القدوم إلى المدينة من كل مكان، ومنهم من جاء من الهند واستمعوا إليه وأعجبوا به واعتنقوا المسيحية على يديه. ولم يكتف هؤلاء الهنود بذلك بل طلبوا من بانتانيوس أن يرسل إليهم من يبشر بالمسيحية فى أراضيتهم، ولما علم بابا الاسكندرية ديمتريوس (١٨٩-٢٣٢م) بذلك، أرسل بانتانيوس عام ١٩٠م إلى الهند مبعوثا من قبله. ولما عاد إلى مصر مرة أخرى حمل معه نسخة من أنجيل القديس متى مكتوبة بخط القديس باللغة العبرية. والفيلسوف بانتانيوس هذا هو الذى هذب اللغة القبطية بأن نقلها من الخط الهيروغليقى إلى شكلها الجديد، كما أنه وضع تفاسير كثيرة للأسفار الإلهية، وللأسف فإن جميع مؤلفاته قد فقدت.

وفىما يتعلق بالعلامة كليمنس فقد أضيف إلى اسمه السكندرى ليعرف باسم كليمنس السكندرى تميزا له عن العلامة كليمنس اليونانى. فهو من مواليد



عام ١٦٠م من أبوين وثنيين، وقد تفوق في علوم الفلسفة. ثم ما لبث أن اعتنق الديانة المسيحية، وقد عهد إليه بإدارة المدرسة اللاهوتية بعد سفر بانتانيوس الى الهند، وظل يديرها حتى عام ٢٠٢م. ولما قويت حركة الاضطهاد ضد المسيحية في مصر في هذه المرحلة، ترك المدرسة وسافر إلى بلاد الشام حيث ظل في بيت المقدس وأنطاكية. ثم عاد إلى الاسكندرية مرة أخرى عام ٢٢٠م. بعدما عاد السلام إلى مصر.

ومن مؤلفات كليمنس التي ظلت حتى أيامنا هذه، كتاب باسم دعوة للأمم الوثنية إلى عبادة الإله الحق، وكتاب المرشد، في ثلاثة أجزاء، وموضوعه تتقيف عقول حديثي الايمان بدراسة الانجيل، وكتاب آخر يقع في ثمان مجلدات، وعنوانه المتفرقات. وهذا الكتاب عبارة عن مجموعة مقالات فلسفية وحقائق إنجيلية، وقد وضع كليمنس مؤلفات أخرى حول عيد الفصح (عيد القيامة) والصوم وغير ذلك.

ولقد هال المدرسة الوثنية ما رآته من سرعة إنتشار الديانة المسيحية، فدبت الغيرة في عروقها وجدد ذلك روح النشاط عندها. فكانت مكتبة الاسكندرية في ذلك الوقت تحتوى على نسخ في جميع مؤلفات اليونانيين والمصريين. ومع ذلك كان السعى على قدم وساق في إكثار مجلداتها وزيادة المؤلفات الجديدة فيها، فخصص قسم من النساخ لكتابة ما يمليه عليهم المؤلفون الأحياء، وإشتغل قسم آخر بنسخ ما أمكن العثور عليه من كتب المؤلفين والفلاسفة الوثنيين السابقين بقصد تسهيل إنتشارها حتى يطلع الطلاب عليها. وقد بلغ عدد هؤلاء النساخ عددا كبيرا وكانوا تبعوا لحالة وظيفتهم يقسمون إلى قسمين، هما أرباب القلم السريع لكتابة الاملاء، وناسخوا الكتب.

وكان ثلاثة من أعظم مشاهير المؤلفين الوثنيين في ذلك الحين وهم

أثينيوس، ويوليوس بولوكس، وكيرون. وقد بقي من مؤلفات الأول كتاب واحد عنوانه "محادثات الفلاسفة". وفيه وصف لأحوال الاسكندرية الاجتماعية في هذه المرحلة من التاريخ.

أما يوليوس بولوكس فلم يكن إلا من أهل "النقد الشفاهي" ولكن كيرون صنف تاريخا في ملوك مصر وكهنتها فقد برمته ولم يصلنا شيء منه لسوء الحظ. ومن المؤلفين المعروفين في عهد الإمبراطور كومودس، لوسيانوس مؤلف كتاب المحاورات، وكان سكرتيرا أو كاتباً للوالى الرومانى حينئذ. ومن الفلاسفة الوثنيين أيضا شلسوس الابيقورى الذى اشتهر برسالة له ضد الديانة المسيحية التى عمت وزاد انتشارها أكثر من الديانة اليهودية والديانة الوثنية الأصلية فى مصر، غير أن رسالته فقدت كغيرها، ولم نعرف رسالته من محتوياتها الا ما جاء فى رد أوريجين Origen عليها. وقد كتبت فى بحر تلك المدة عدة كتب أخرى فى هذا الباب. ولكن من الحقائق المقررة التى لا يشوبها أدنى ريب أن الديانة المسيحية فضلا عن اجتذابها زعماء العلماء فى جميع أنحاء العالم المتمدن حينئذ وإنقياد ثلاثة من أعظم الرجال - هم ديمتريوس Demetrius ، وتيتينوس، وكليمنس لأوامرها وخدمتها فى مدينة الاسكندرية فقط، فقد كانت آخذة فى التغلب بسرعة غريبة على الأديان الأخرى فى القطر المصرى. ولما كان بطريك الاسكندرية هو الأسقف الوحيد فى مصر حتى ذلك ذلك العهد رأى البطريرك ديمتريوس (١٨٧-٢٣٠م) حينئذ أنه من الضرورى تعيين ثلاثة أساقفة آخرين للأقاليم البعيدة عن مركز البطريركية ليتمكنوا من رعاية المسيحيين.

لم تدم أوقات الهدوء طويلا فى مصر بعد أن تمتعت بها البلاد طوال سبعين عاما. وفى خلال هذه المرحلة انتشرت الديانة المسيحية، فلما تولى الإمبراطور سيفيروس Severas Septimius (١٩٣-٢١١م) عرش

الإمبراطورية الرومانية وجه هذا الأمر في بادى الأمر إلى إخضاع الذين قامه ا ينافسونه من كل فج فى أنحاء الإمبراطورية. وكان قليل العناية حتى ذلك الوقت بأمور مصر وشؤونها مظهرا الميل والرضى نحو المسيحيين، حتى أنه كان يعين منهم من يلزم للقيام بخدمة ابنه. ولا ندرى ما السبب الذى حمله بعد ذلك على مطاردة واضطهاد الشعب الوحيد الذى كان أميل شعوب مملكته إلى الدعة والسكينة، وذلك عندما أصدر أمرا فى سنة ٢٠٢م يحرم فيه على رعاياه الدخول فى الديانة المسحيه أو فى الدين اليهودى.

وبعد إصدار هذا الأمر قدم الإمبراطور لزيارة بلاد مصر، وتجول فى أنحاءها حتى وصل مدينة طيبة جنوبا. والظاهر أن ما شاهده هناك من أنتشار الدين المسيحي وتمدن المسيحيين، جعله يخاف منهم على السلطنة الرومانية نفسها، لذلك إزداد الاضطهاد قسوة وصرامة، ولم يتوقف إلا بعد عودته إلى روما. وكان فى مصر حينئذ والى اسمه ليتوس Laetus بذل غاية جهده فى تنفيذ أوامر مولاه حتى عم الاضطهاد أنحاء البلاد كلها، إلا أن الضربة القاسية أصابت الاسكندرية بنوع خاص، لأنها كانت تعتبر منبع الديانة المسيحية.

ومع أن البطريك ديمتريوس ظل ساكن الجاش ثابتا فى مركزه، إلا أنه أمر بغلاق المدرسة اللاهوتية مؤقتا. وأعقب ذلك أن تشتت شمل الطلاب ولزموا بيوتهم، أما كليمنس السكندري فقد فر من مصر لكى يخلص نفسه من الاضطهاد. وعاش ديمتريوس مدة بعد ذلك إلا أنه لم يتمكن من نشر مؤلفاته أثناء حياته فنشرت بعد وفاته.

والذى يتصفح قائمة أسماء الشهداء من المصريين يجدها طويلة جدا رغم أنها لم تصل إلينا كاملة، مع أنه فى الاضطهادات الأخرى لا نجد أكثر من واحد أو اثنين من أهم الشهداء. ومن أغرب ما نقله المؤرخون أن النساء

فى مثل هذه الاضطهادات كن يعذبن عذابا اليما بخلاف الرجال الذين كانت تقطع رؤوسهم بدون تعذيب. ومن الرجال الذين ذاقوا كاس هذا الاضطهاد كان ليونيدس Leonides الذى ذاعت شهرته لانه كان ابا لأوريجين. ولا يعرف عنه شىء بخلاف ذلك. ومع أن بعض المؤرخين قالوا أنه كان إسقفا، فإذا صح ذلك فقد يحتمل أنه كان من ضمن الاساقفة الذين عينهم ديمتريوس للقاليم، إلا أنه كان متزوجا وله سبعة بنين أكبرهم أوريجين الذى كان عمره بين ١٥، ١٦ سنة عندما القى القبض على أبيه. وكان أوريجين هذا قد اشتهر قبلا فى الاسكندرية بأنه من أنجب طلاب مدرستها اللاهوتية وأذكاهم، كما أنه تحلى أيضا بصفات حسن السلوك ومثانة الإيمان.

ولما قبض على أبيه ليونيدس كان أوريجين غائبا عن المنزل، فلما عاد وجد أمه وأخوته الصغار فى بأس وقنوط شديدتين. ولما علم أوريجين بذلك أعلن رغبته فى تسليم نفسه للحكومة والاتحاق بأبيه طمعا فى نيل مجد الاستشهاد. ولكن دموع الشفقة والحنان التى كانت تتحدر من عيني الأم وتوسلاتها إليه ليعدل عن عزمه، عاقاه لبعض الوقت عما كان ينويه خصوصا وأن الشمس كانت قد مالت للمغيب.

ولما حل الليل ونام أوريجين دخلت أمه إلى مخدعه خلسة وطوت كل ثيابه وابعدها عنه، فصار حينئذ كسجين عندها لم تطلقه إلا بعد أن وعدا وعدا مؤكدا بأن لا يتركها إلا إذا دعت الضرورة الشديدة لذلك. وعليه أطاع الابن والدته فأرسل لأبيه المسجون يرجوه أن لا يتأثر لذكراهم ولا يفكر فيهم أو فى مصير أمورهم بل عليه أن يهتم بأمره الشخصى. والحقيقة أن المؤرخ يوسبيوس Eusebius (توفى ٣٢٩م) جمع مجموعة تحوى على نيف ومائة رسالة سطرتها يد أويجين فى مثل هذه الظروف تشجيعا للمضطهدين، ولكن عيئت بها أيدي الضياع كغيرها من المؤلفات الثمينة التى ذهبت طعاما للنار

مع الرسائل والكتب التي حرقت في مصر وفلسطين.

أما عن ليونيدس والد أوريجين، فأخر خبر عنه أنه قد قطعت رأسه وصودرت أملاكه لصالح الحكومة. ولذا أصبح أوريجين معدما لا سند له وعلى عاتقه أم يعولها وصبية يربيههم. ولكن أرسل الله له سيدة من ربات الثروة واليسار لا يعرف اسمها، بذلت كل ما في وسعها لتدافع عن المسيحيين في الوقت الذي كانوا فيه يتراوحون بين عاملى الخوف والاضطراب في الإسكندرية، ويستدل من بقاء اسم هذه السيدة في طى الكتمان مع ما كانت عليه من الشهرة الواسعة أنها لم تكن مسيحية، ولكنها فتحت بيتها للمسيحيين وغير المسيحيين أيضا في مصر.

وظلت نار الاضطهاد مندلعة في مصر بضع سنوات لم يصب أوريجين خلالها بسوء. وسبب ذلك أنه كان تحت كنف تلك السيدة المشار إليها. وذلك أنه بعد إستشهاد أبيه لم يبق في المكان الذي أختبا فيه طويلا، بل خرج منه وذهب وقلبه مملوء بالشجاعة لزيارة المسيحيين الذين ضاقت بهم جدران السجون. وكان يخدم كلا منهم بقدر جهده مشجعا أيامهم ليظلوا ثابتين على إيمانهم، فسر البطريك ديمتريوس من عمل هذا الشاب الباسل الذى إستمر على الدرس والمطالعة، كما أنه أوجد له أيضا طلبية في أوقات الخطر هذه لتعليمهم، وكانت تصرف لهم مرتباتهم من الأموال المخصصة لدار الفقراء والمعوزين، ومع أن هؤلاء التلاميذ لم يمكنهم الالتئام في المدرسة نفسها مبدئيا، إلا أنه لم يمض وقت طويل حتى ألتف كل طلابها حول هذا الشاب الذى صار فيما بعد من نوابغ متخرجيها.

وقد يصعب على الباحث المدقق معرفة الحالة التي كان عليها المصريون أثناء هذه الاضطهادات، ولكن يظهر أن أحوالهم لم تكن على

وتيرة واحدة، بل كانت تختلف باختلاف الظروف. ففي بعض الأوقات كان المسيحيون يقشعرون ويتشنجون عندما يلقي القبض فجأة على الرجال والنساء منهم، ويؤخذون على غرة من الأماكن التي يقنطونها، وكثيرون منهم يعذبون عذابا الينا حتى الموت، وبعضهم يتركون في السجون حتى يصيبهم الضعف، وكانوا أحيانا يعاملون بمنتهى القسوة والصرامة كما يشاء المكلفون بحراستهم، وأحيانا يرفق بهم قليلا فيسمح لهم بمقابلة أصدقائهم والتكلم معهم بما يخفف عنهم ويزيل آلامهم إلى حد ما.

بيد أن مجرى الأعمال الاعتيادية كالبيع والشراء والرياضة وغيرها بقيت على ما هي عليه في الاسكندرية، وكان المسيحيون يخاطرون ذهابا وإيابا بين جيرانهم الوثنيين واليهود وهم غير عارفين متى يجئ دورهم، أو ما الذي يحل بالمسجونين منهم، ولم يزل الأمر كذلك حتى أختفى خير الكثيرين، وأصبحت السجون مكتظة بهم، حتى إذا لم يبق فيها مكان أعدم من فيها لايجاد مكان لغيرهم. كل هذا والبطريزك ديمتريوس والشاب المهذب العالم أوريجين وكثيرون غيرهما من أول الشجاعة والإيمان ظلوا يؤدون ما يطلب منهم نحو الآخرين بكل ثبات، وكانوا ينتقلون من مكان إلى آخر مع أنهم كانوا محفوفين بأخطار جمة.

لم يمض وقت حتى ألقى القبض على خمسة من الطلاب الذين كانوا يتلقون الدروس اللاهوتية على يد أوريجين، وبعد أن قضوا أياما مرة - ذاقوا فيها من الإهانة القاسية والسجن الأليم ما تتوء تحته أجسام الرجال - ماتوا لأنهم رفضوا أن ينكروا إيمانهم بأنفه وشهامة. وكان بين هؤلاء الشباب الخمسة بلوتارخوس Plutarch وهو شقيق لتلميذ آخر اسمه هرقل Heraclus. وكان من الذين أمسكوا بطريقة ما، وقدر له أن يعيش حتى يكون رئيسا للمدرسة اللاهوتية ثم بطريزكا للاسكندرية ٢٣٠-٢٤٣م.

وكان أوريجين مع بلوتارخوس عندما قبضوا عليه لأنه كان صديقه، فلم يتركه برهة، بل ظل مرافقا له إلى آخر لحظة من حياته، فلما قدم بلوتارخوس للإعدام إندفع أوريجين كالسهم يخترق الجمع المزدحم، وتقدم نحو صديقه بلوتارخوس ليقبله قبلة الوداع الأخيرة، وهو بين السيف والسياف بينما كان الرعاع المتجمهرون هناك يصيحون طالبين القبض عليه أيضا، فرجم بالحجارة ولكنه تمكن من الفرار فلم يقفوا له على أثر.

وبعد مضي سنتين على هذه الحادثة عين البطريك ديمتريوس الشاب أوريجين رئيسا للمدرسة اللاهوتية التي كانت لا تزال ملتزمة تحت رئاسته منذ الاضطهاد. لذا أصبح أوريجين مبعوضا جدا من عامة الوثنيين الذين كانوا ينظرون إليه شذرا بعين ملؤها الكره والغيط، فأحس ديمتريوس بذلك، وشعر بمقدار الخطر الذي يحيق بأوريجين. ولذا وضعت حراسة قوية لحمايته من الأذى الذي كان ينتظر أن يصيبه من الذين كانوا يقصدون القبض عليه، لا أن تقبض عليه الحكومة بالطريقة القانونية.

قال المؤرخ يوسيبوس القيصرى يصف الحالة التي كان فيها أوريجين "أن عوامل الاضطهاد كانت تزداد ضده كل يوم، وحنق القوم عليه أصبح شديدا، حتى أن أهالى الاسكندرية عن بكرة ابيهم حتى أنهم لم يستطيعوا احتمالاه ولا الصبر على انتقاله من منزل إلى آخر، وجولاته فى كل ناحية مرشدا ومشجعا المسيحيين الذين هداهم إلى الإيمان الصحيح والدين القويم".

ومن الغريب أن هؤلاء الخصوم قد بدأ فيهم شعور الاحترام لهذا الشاب الهمام الذى سحرهم بأعماله، بينما كان يستخف بهم كلهم ليس إزدراء وسخرية بل بفطنة زائدة وطبع دمث وخلق سليم.

قال أحد المؤرخين أنه فى يوم ما أمسك أولئك الأوغاد أوريجين بينما

كان سائرا في الطريق، وحملوه بين ضجيج القوم إلى هيكل سيرابيس الشاهق واضطروه اضطرابا بأن يضع القلنسوة على رأسه والبسوه الحلة البيضاء التي يلبسها كاهن هيكل سيرابيس، ومن ثم أخرجوه خارج الهيكل وأصعدوه على أعلى السلم. وحينئذ أمروه بأن يوزع سعف النخل على عبده الأوثان الذين كانوا مجتمعين وهم يسخرون منه. فلم يتأخر أوريجين ومد يده وأخذ سعف النخيل وقدمها للشعب المتجمهر وصرخ بصوت كالرعد قائلا: "هلموا خذوا هذه الأغصان، بإسم يسوع المسيح وليس برسم الأوثان".

والواقع أن أوريجين هذا كان علامة دهرة في حقائق الديانة المسيحية عندما تقرر تعيينه رئيسا للمدرسة اللاهوتية، كما أنه كان فقيها في العلوم والمعارف التي شب على درسها واستيعابها، والذي أوصله إلى هذه الدرجة من العلم والمعرفة هو أنه قبل الاضطهاد درس كثيرا هو وجماعة من الشبان المسيحيين في المدرسة اللاهوتية دراسة متعمقة، ثم في المدرسة الوثنية التي كان يديرها أمونيوس Ammonius الذي كان من أشهر علماء الاسكندرية وكبار أستاذتها.

قال المؤرخ يوسيبوس القيصرى في هذا الصدد: "ولما رأى أوريجين أن الطلبة الذين عهد إليه البطريك ديمتريوس أمر تعليمهم قد أخذوا يزدادون ويتكاثرون، إرتأى أن إستمراره في تدريس العلوم الطبيعية والأدبية لا يتلاءم مع تدريس العلوم الدينية للطلبة الذين أسند إليه تعليمهم. ولذا لم يلبث أن ترك أفكار مدرسة الفلسفة الوثنية، واعتبرها عديمة الجدوى، وأن دروسها سحابة تحجبت الأنوار الساطعة التي يأخذها من علم اللاهوتات.

ولكنه لم يتبع خطة الإفراط والتفريط مرة واحدة بل بقى يطالع ما سطره الأقدمون من العلوم المفيدة بجد متواصل. وفي هذه المدة أخذ يبيع كل



كتبه القديمة وجميع النسخ التي كتبها بيده من مكتبة الاسكندرية، وأتفق مع رجل باعه هذه الكتب الوثنية برمتها على أن يدفع له مبلغاً بسيطاً يومياً ليقنات به في حياته. وكانت هذه الفكرة بداية لخطة سار عليها أوريجين في ما بعد، قاعدتها الغيرة الروحية التي دفعته إلى أنكار الذات وتكريس النفس، وهي خطة أتبعها أكثر المصريين المتدينين في تلك المرحلة وتطرفوا فيها حتى حرموا من كل بحث وتنقيب في الأمور الدنيوية.

ولما كان أوريجين قد اشتهر بالحدق والتواضع ورقة الجانب، فلم يصب بتلك المصيبة التي وقع فيها أكثر الاتقياء وهي الالتجاء إلى الصحارى والقفار والابتعاد عن العالم بحجة التبتل والزهد، بل أن ذكاه ومواهبه السامية جعلته مفيداً أكثر باختلاطه مع الآخرين الذين هم في حاجة إليه أكثر من إحياء الدير له، إلا أنه لم يبق كامل القوى، بمعنى أنه أسلم نفسه لعوامل الضعف وقهر الجسد حتى شعر بخطئه وندم على ما فعله من إذلال جسمه. وود لو أمكنه استرجاع قواه، ولكن لم يفد الندم، ولم ينفع الأسف، فظل ضعيفاً منهوكاً.

والذي يراجع تاريخه يعجب جداً من الطريقة التي أتبعها، كما أنه يعرف السبب الذي اضعفه وأضناه، في أنه أجهد نفسه ليتم كل فرائض الانجيل وأوامره حرفياً حتى إمتنع عن أقتناء ثوبين معا في وقت واحد، وكان يسير حافياً شتاءً وصيفاً، وكان يأكل الخبز ويشرب الماء فقط، ويأكل البقول الخضراء غير المطبوخة أسوة بأفقر فلاح مصري. كل هذا ولم يكن أوريجين إلا شاباً في عنفوان شبابه تقاومه الشهوة الطبيعية، فكان يتغلب عليها بعد عناء يعرفه من يقاوم إرادته البشرية، حتى أنه لما كانت تضطره واجباته في أيام الاضطهاد إلى الدخول وسط العائلات وإرشادها لطريق السداد، ومناقشة الناس ساعات متوالية كان يتألم ويرتعد خوفاً من الوقوع في تجربة، وقصد أن

يصد نفسه بعزم شديد عن أى عمل يوجب الخجل والارتياح.

ولم يك حتى هذا الوقت قد سن قانون يُعمل به فى مسألة الرتب الكهنوتية، إلا أن رأى الشعب العام كان له القول الفصل فى هذا الأمر، ولذلك كان كل من وقع عليه الاختيار يعين فى الحال لأى رتبة دينية مهما كانت درجتها. زد على ذلك أن عمل أوريجين هذا خالف كل المخالفة قانون الدولة المدنى الذى إعتبره كقاتل نفس، كما أنه تقرر فى مجمع نيقية، ٣٢٥م أن كل كاهن يعمل بنفسه هذا العمل أى الزهد الزائد والتسك المفرط لحد الإضرار بنفسه "يقطع من الكهنوت"، إلا أن غلطة أوريجين هذه تغفر له لأنه اعترف بها اعتراف المقر بذنبه الشاعر بثقل خطيته.

ويغلب على الظن أن أوريجين زار كنيسة روما وذلك أثناء مدة هذا الأضطهاد. وبعد عودته أو ربما قبل سفره كان قد أشرك معه هرقل زميله فى الدراسة فى تدبير مهام المدرسة اللاهوتية، بينما كان هذا قد رسم كاهنا. وفى هذا الوقت أيضا إنكب أوريجين على تعلم اللغة العبرية ليؤهل نفسه إلى ترجمة التوراة، وهو عمل يعد من أهم الأعمال الخطيرة التى عملها أوريجين فى حياته، ولو أن هذه الترجمة لم تنشر الا بعد وفاته بسنين قليلة.

على أية حال لقد أخذ أوريجين يشعر بخطئه الذى ارتكبه فى قمع جسده وعقله، وهو شعور إزداد معه عندما أخذ على عاتقه أتمام ترجمة التوراة، وهو عمل يحتاج لعقل سليم فى جسم غير سقيم. لذلك عمل على إصلاح غلطته هذه بقدر استطاعته، ولكن الوسائل لم تعد تجدى نفعا، ولم يكن فى أمكانه استرجاع نضارة شبابه التى أضاعها.

ولم يكتف أوريجين بترجمة التوراة، بل وضع أيضا شرحا طويلا لأسفار التوراة ضاع أكثره، مع أنه كان متداولا فى أيام يوسيبوس. فهذا هو

أوريجين الذي يعد من الطبقة العليا من علماء المسيحيين بالاسكندرية في العصور الأولى، حتى لقد ذاع صيته وطبقت شهرته الآفاق، فكان الناس يأتون إليه أفواجا من كل فج عميق وترسل الأمم في طلبه ليرشدها إلى طريق الخلاص. وكان من أهم أعماله ثلاث رسائل أنفذت إلى بلاد العرب كل على حدة. وقد ذكرها المؤرخ يوسيبوس في تاريخه. وكانت بلاد العرب في ذلك العصر عبارة عن بلاد واسعة الأرجاء لا يعرف عنها شيئا. أما مدينة بصرى التي كانت بمثابة واحة في صحراء سورية وهي تسمى الآن حوران على مسيرة أربعة أيام شمالي دمشق.

وأول رسالية من الرسائل الثلاثة التي قام بها أوريجين كانت بين سنة (٢٠٣-٢٢٥م)، وسبب إرسالها هو أن حاكم بلاد العرب أرسل خطابات إلى بطريك الاسكندرية يطلب فيها إرسال أوريجين لكي يشرح له تعاليم الديانة المسيحية، ويرشد شعبه إلى طريق الخلاص. وقد يبعد عن الظن كثيرا أن حاكما يرسل لحاكم آخر رسالية مثل هذه لنشر الدين المسيحي، بينما كان الاضطهاد مستمرا، والغرض منه إبادة هذا الدين واضمحلاله. وكما أن الهدوء لم يدم طويلا للمسيحيين كذلك الاضطهاد أيضا. ففي عام ٢١١م بدأ أهل مصر يشعرون بالراحة خصوصا عند جلوس الإمبراطور كاراكلا Caracalla (٢١١-٢١٧م) الذي كان ميالا للمسيحيين لما شب عليه من حب العلم.

ولم تطل غيبة أوريجين كثيرا عن الديار المصرية، فقد عاد إلى مصر حين تولى بيروولوس Beryllus أسقفية بصرى، وأن البطريك ديمتريوس قد عينه رئيسا لهذه البعثة. أما عدم بقاء أوريجين طويلا في هذه الرحلة، فيرجع لكثرة أشغاله، كما أن البطريك المصري لم يسند إليه مهمة رئاسة هذه البعثة لأنها وظيفة لا تعطى إلا للكهنة. ولم يكن أوريجين من هؤلاء رغم ما عرف

عنه. لقد جد أوريجين في التعليم والتبشير داخل المدرسة وخارجها، واشتهر بالسلوك الطيب والزهد الشديد.

وبعد ما زار أوريجين مدينة روما في عام ٢١٢م حيث قوبل بكل حفاوة، عاد إلى الاسكندرية، نجح أعداؤه في إثارة الإمبراطور عليه، فلجأ إلى فلسطين فاستقبله أسقف بيت المقدس ومدينة قيصرية بالترحاب وسمح له بصفة خاصة أن يعظ في كنائسهم؛ لأنه لم يك مسموحاً له بالقاء المواعظ باعتباره من غير رجال الكهنوت. ولعل هذا ما دفع البعض إلى القول أن أسقف بيت المقدس قد منح أوريجين درجة الكهنوت، وعلى أية حال فبعد هذه المرحلة عاد مرة أخرى إلى الاسكندرية.

والمهم أن البطريرك ديمتريوس الذي كان ينفذ التعاليم حرفياً قد أساء من قيام أوريجين بالوعظ في فلسطين، وعقد لهذا الغرض مجمعا حرم فيه أوريجين من رحمة الكنيسة. لذلك اضطر أوريجين إلى مغادرة مصر واتجه إلى فلسطين مرة أخرى حيث أسس في مدينة قيصرية مدرسة على غرار مدرسة الاسكندرية. والحقيقة أن صحة حرمان أوريجين من رحمة الكنيسة لا زال موضع جدل بين رجال الدين ولم يتوصلوا فيه إلى رأى قاطع.

وفي مرحلة من مراحل الاضطهاد التي سادت البلاد وكانت في أواخر حياة أوريجين قبض عليه في عام ٢٥٠م وسجن وعذب، ولم يفرج عنه إلا بعد أن تدهورت أحواله الصحية، ثم توفي بعد قليل في عام ٢٥٣م. وأود هنا أن أسجل أن اللغة اللاتينية كانت لغة الإمبراطورية الرسمية وفي دواوين الحكومة في مصر، أما الكنيسة والشعب المصري قد تعاملوا باللغة القبطية. وأصبحت اللغة العربية هي الرسمية في مراحل لاحقة.

أما في شرق البحر المتوسط فنلاحظ أن الإمبراطورية البيزنطية حين

خلفت روما على بلاد الشام وجدت أن اللغات المحكية فيها لم تتغير كثيرا عما كانت عليه خلال العصر السلوقي. فبالرغم من أن اللاتينية كانت لغة الدولة الرسمية، فقد اقتصر استعمالها على المراسلات مع الحكومة المركزية، وكذلك في معاهد التعليم العليا ككلية الحقوق في بيروت. أما اليونانية التي كانت منتشرة خلال العصر السلوقي في معظم المدن الهلينستية فقد استمر استعمالها بخاصة للأغراض التجارية حيث انتشرت طوال العصر الروماني في حوض المتوسط، وزاد الاهتمام بها عندما أصبحت القسطنطينية عاصمة للإمبراطورية. وقد كتب معظم الفلاسفة والمؤرخين السوريين باللغة اليونانية الفصحى. أما سواد الشعب، وبخاصة في المدن والقرى الداخلية فقد بقي يستعمل اللغة السريانية الآرامية الأصل، كما استمر عرب الصحراء السورية في استعمال اللغة العربية، وأجبر اليهود على ادخال اللغة اليونانية إلى طقوسهم الدينية فترجمت التوراة إليها من العبرية. وبعد انفصال المونوفيزيين عن الكنيسة الأثوذكسية الكاثوليكية، استعملت كنائسهم اللغات المحلية لتمييز نفسها، فثبتت الاسكندرية اللغة القبطية واستعملت أرمينيا لغتها، بينما كتب اليعاقبة والنساطرة بالسريانية.

أما لغة التعليم فكانت اللغة اليونانية، ولم يدرس اللاتينية سوى الطلبة الراغبين في الحصول على وظائف حكومية. وكانت الدروس تستمر طوال فصول الشتاء والربيع من الصباح الباكر وحتى الظهر. أما أشهر الصيف فكانت مخصصة للأنشطة الاجتماعية مثل الحفلات والمهرجانات والأعياد. وقد تولى البلغاء التعليم، فكانوا يعلمون ويخطبون لكي يكونوا مثلا أعلى للطلاب، يحتذون به وينهجون على منواله، وكانت مسئولية حفظ النظام في المعاهد تقع عليهم، أما أجورهم فكانوا يتقاضونها من بلديات المدن والطلاب، ويعينون من قبل مجالس الشيوخ المحلية.

وأنطلاقاً من نظام التعليم هذا، نجد أن أهمية اللغة التي هي أداة البلاغة قد تنامت، فمع اعتراف الدولة بالديانة المسيحية واندثار الوثنية نجد أن آباء الكنيسة قد نهلوا من المعرفة اللغوية اليونانية ليتمكنوا من نصح تلامذتهم، وإعداد أجيال صاعدة يكون بمقدورها متابعة الخدمات الكنسية التي كانت تؤدي باللغة اليونانية، والدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية أمام مهاجميها من أنصار الفلسفة القديمة وأهل البدع. وسوف نتحدث عن أهم بلغاء هذا العصر من السوريين عند حديثنا عن الفكر الديني، ولكن قبل أن ننتقل إلى ذلك علينا أن نتحدث عن أشهر بلغاء العصر البيزنطي من مؤيدي الوثنية ألا وهو ليبانوس الأنطاكي.

ويعتبر ليبانوس Libanius (٣١٤-٣٩٣م) أشهر خطباء هذا العصر وأفصحهم، وهو من مواطني أنطاكية، ويستدل من اسمه أنه قد يكون من أصل لبناني، ولكن لا يمكننا أن نجزم بذلك. وقد تلقى تعليمه في أنطاكية ثم في أثينا، وعلم في نيقية ونيقوميديا والقسطنطينية قبل أن يعود إلى مدينته سنة ٣٥٤م حيث أمضى بقية حياته في مصادقة كبار الموظفين والباطرة، ولا يزال قسم كبير من خطبه ورسائله محفوظة حتى يومنا هذا، وقد كتبت جميعها بلغة يونانية فصحة، وكان هذا البليغ يعتز بها ويزدري اللاتينية التي رفض أن يتعلمها.

وقد عُرف عن ليبانوس اعترازه بالديانات الوثنية، وأشهر أقواله في هذا الصدد ما ذكره في أواخر حياته عندما أصبحت المسيحية دين الدولة الوحيد، وشرع في هدم المعابد الوثنية: "إن هدم الهيكل كقلع العين، فالهياكل روح المناطق وأعرق المباني فيها". كما هاجم هذا البليغ الديانة المسيحية ورأى فيها عدوة للحضارة والثقافة والتقدم. وقد حزن حزناً شديداً لموت الإمبراطور جوليان المرتد Julian Apostate (٣٦١-٣٦٣م) الذي شهد

عصره ردة وثنية فقال قوله الماثور: "أنى ذاهب إلى الحقول لأتحدث إلى الحجارة" تعبيرا عن عمق تأثيره لهذا النبا. وقد خاب ظن ليبانوس وتأثر تأثيرا شديدا عندما رأى أنجب تلاميذه الذين لقنهم دروس البلاغة يستفيدون من تلك الدروس فى دفاعهم عن الديانة المسيحية التى اعتقوها على حساب آلهة اليونان، ومن أشهر هؤلاء القديس يوحنا الذهبى الفم John Almsgiver والقديس بازيل الكبير.

وعلى ذلك نرى أن اللغة اليونانية هى اللغة الثقافية التى سادت فى بلاد الشام خلال العصر البيزنطى، وقد نتج عن ذلك استعمالها فى فصول الدراسة، ومن ثم فى الكتابات الدينية، ويعتبر أشهر بلغانها غير المسيحيين ليبانوس الأنطاكى. أما سواد الشعب فقد تحدث اللغة اليونانية الدرجة، بينما برزت السريانية الآرامية الأصل فى الداخل، وشهدت نهضة فكرية مع انفصال الكنائس التسطورية واليعقوبية عن كرسى القسطنطينية وتنامى الشعور العدائى ضد البيزنطيين.

وقد استمرت مدرسة الحقوق فى بيروت التى تأسست خلال عصر الرومان فى أداء رسالتها العلمية خلال العصر البيزنطى. وقد اعتنى أباطرة الشرق بهذا العلم عناية فائقة مما زاد فى أهمية تلك المدرسة. وكانت بيروت إلى جانب كونها مركزا لتلك الكلية ميناءا تجاريا هاما، فضمت تجارات واسعة وأثرياء زادت أعمالهم فكثرت دعاويهم أمام المحاكم، فاستهوى ذلك كبار المحامين واشهر الأساتذة الذين أموا المدينة فعملوا فيها ودرسوا. ومن أشهر هؤلاء خلال العصر البيزنطى دومنيونوس Dominiunus الذى عاصر ليبانوس وراسله، وإفركسيوس Ephsecisius وابنه لينتونىوس Leantonius اللذين عاشا فى أواخر القرن الخامس وأوائل السادس. وكذلك اشتهر باتريكيوس Patricius وكيرلس Cyeil صاحب كتاب "التعريفات".

وقد حفظت لنا ترجمة حياة سفيروس Severus، أسقف أنطاكية اليعقوبى (٥١٢ - ٥١٨م) ، تفاصيل بعض جوانب الحياة الجامعية فى تلك الكلية، حيث أنه أمها - قبل أن يدخل سلك الكهنوت - لمتابعة دراسته للحقوقية. وقد كتب زميله آنذاك زكريا الغزاوى سيرة حياته ونشرت فى باريس سنة ١٩٠٧م مترجمة عن السريانية. ومن خلال تلك الكتابة يمكننا أن نستنتج أن تلاميذ تلك الكلية كانوا ينغمسون بعد المناظرات والدراسة فى حضور سباقات الخيل والمسارح والشرب والمقامرة.

كما جرت العادة أن يصطحب الطلبة الأثرياء بعض عبيدهم معهم لمرافقتهم . وكانت الدراسة فى الكلية تستغرق خمس سنوات، وجرى العادة أن يتعرض الطلبة الجدد لبعض المقالب التى يعدها لهم زملاؤهم بغرض السخرية. إلا أن قانونا صارما صدر فى مطلع عهد الإمبراطور جستينيان الأول Justinian I (٥٢٧-٥٦٥م)، منع تلك العادة ووضع عقوبات صارمة للطلبة الذين اعتادوا عليها وعلى السخرية من الأساتذة، وذلك يشير إلى تهادى البعض فى تلك الاعمال مما كاد يهدد بفقدان الاحترام المتبادل بين الطلبة بعضهم البعض، وبينهم وبين أساتذتهم. وكانت الدروس تعطل بعد ظهر كل السبت وطيلة ايام الأحاد.

وفى سنة ٥٢٩م اصدر جستينيان مرسوما أعاد بموجبه تنظيم دراسة الحقوق. وكانت قد أقيمت كلية أخرى مناظرة فى القسطنطينية إلا أنها لم تبلغ شهرة كلية بيروت، ولم تجذب نفس العدد من التلاميذ ولا نفس نوعية الأساتذة. وقد استعان هذا الإمبراطور بمصلحى بيروت الحقوقيين فى وضع معظم المؤلفات الحقوقية، وجعل منها القوانين التى سنها. وقد رغب جستينيان فى إيجاد تقارب بين المدرستين الحقوقييتين اللتين تخرجا محامى الدولة. إلا أن زلزالا كبيرا حصل فى ١٦ يوليو عام ٥٥١م نتج عنه حرائق هائلة دمرت



معظم المدينة وعلى رأسها مدرسة الحقوق فيها، فانتقلت تلك الكلية إلى مدينة صيدا ولكنها لم تعد بنفس الأهمية التي كانت لها، واندثرت مع الزمن.

ويحكى لنا زكريا الغزاوي Zacharias of Gaza أن الطلبة كانوا ينتظمون أحيانا في جمعيات، فيذكر أنه أسس جمعية مسيحية كانت تجتمع كل ليلة في الكنيسة لدراسة مؤلفات أشهر المفكرين الدينيين المسيحيين من أمثال يوحنا الذهبي الفم والقديس بازيل الكبير وغيرهم من آباء الكنيسة. وقد ترأس تلك الجمعية بين سنتي ٤٨٩ و ٤٩٤م طالب سميساطي أصبح مؤرخا اسمه إيفاجريوس Evagrius (٥٣٦-٥٩٤م) الذي انتقل إلى بيروت بعدما جرح خلال أعمال شغب حدثت في أنطاكية. وقد انضم سفيروس Severus إلى تلك الجمعية فتأثر بأعضائها وما شاهده من زهدهم، فامتنع عن أكل اللحم ومال إلى العلوم الدينية فالتحق بسلك الكهنوت وترقى فيه حتى أصبح بطريرك على أنطاكية. ونلاحظ هنا أن تلك الجمعية كانت تضم المسيحيين اليعاقبة القائلين بمبدأ الطبيعة الواحدة للسيد المسيح ، وهو المبدأ المعارض لتعاليم كنيسة القسطنطينية الرسمية. كما يشير هروب رئيسها إيفاجريوس من أنطاكية إلى بيروت واجتماعاتها الليلية إلى أنها قد تكون ذات طابع سرى .

وقد حدثنا زكريا أيضا عن جمعية سرية أخرى قامت بين الطلاب واهتمت بعلوم الغيب. ويبدو أن ليونيتس Leonites، وهو أحد أشهر أساتذة تلك الكلية، كان مرشدا لتلك الجمعية التي ضمت أشخاصا من مصر وأرمينية واليونان وآسيا الصغرى وبلاد الشام. وقد مارس أعضاؤها السحر والشعوذة، إلا أن أمرهم افتضح عندما هرب عبد أسود كانوا يحاولون التضحية به لإرضاء الشياطين فتكف عن مضايقتهم. وقد نبه هذا العبد السلطات الرسمية بما يحدث داخل تلك الجمعية، فقامت الشرطة بالقبض على أعضائها، ووجدت معهم كتباً مملوءة بأسماء الشياطين وصورهم فأحرقتها، وكونت محكمة مؤلفة

من رجال دين وموظفين مدنيين قضت بالحكم على أعضاء تلك الجمعية وحرقت كتبهم ومؤلفاتهم.

وهكذا نرى أن بيروت قد شهدت، طوال العصر البيزنطى فى بلاد الشام، وحتى وقوع الزلزال الكبير سنة ٥٥١م، نهضة علمية حقوقية كبرى أثرت القوانين البيزنطية، وبخاصة قوانين جستينان التى سارت عليها الإمبراطورية فترة طويلة من الزمن. وقد علم فى تلك الكلية أكبر، وأشهر حقوقي هذا العصر، كما تتلمذ فيها العديد من مشاهير رجال الفكر. وقد عاش طلابها الذين وفدوا إليها من جميع أنحاء الدولة حياة رفاهية، كما تفاعلوا مع مجتمعهم فأسسوا الجمعيات المختلفة التى كانت تعكس بشكل كبير أفكار عصرهم وحضارته.

وتداخلت الفلسفة والفكر الدينى مع تتصر الدولة البيزنطية، فلم تعد الفلسفة مادة منفصلة عن علوم الدين، حيث درج المفكرون المسيحيون على استعمالها كوسيلة لإثبات آرائهم وطريقة للجدل. وقد ارتكزت تلك الطرق على الفلسفة الهلينية المتمثلة فى طرق المنطق والاثبات الأفلاطونية والأرسطوطالية، وفى طريقة الإبصار والتأمل فى الأفلاطونية الجديدة. وقد ارتبطت الفلسفة بعلوم الدين المسيحية طوال فترة الحكم البيزنطى لبلاد الشام، فحتى المدرسة الفلسفية الوحيدة التى كانت قائمة فى أثينا أغلقها جستينان وأمر بمنع نشر وتعليم مادة الفلسفة، إن لم تكن لخدمة آراء الكنيسة والدفاع عنها.

وقد تأثرت الفرق الدينية المسيحية بالمناهج الفلسفية التى سار عليها أبائها ومعلميها فى محاولاتهم لإثبات آرائهم الدينية. ولعل أهم تلك المدرستين هما مدرسة الاسكندرية ومدرسة أنطاكية. أما مدرسة الاسكندرية فيعتبر القديس أوريجين المؤسس الحقيقى لها، كما يعد أول مؤسس فعلى لعلم

اللاهوت حيث سخر الفسلفة اليونانية ولا سيما الأفلاطونية الجديدة لتشييد بناء فلسفى مسيحي على دعائم من الأسفار المقدسة، لذلك نجد أن تلك المدرسة تجنح أكثر من غيرها إلى التأويل والغموض. أما مدرسة أنطاكية فقد قامت على بساطة عرض الأمور وإيضاحها، كما كانت تؤثر الأخذ بظاهرة النصوص المقدسة لبرهنة آرائها، فكانت بذلك أقرب إلى المنهج الفلسفى الأرسطوطالى، كما سبق أن أوضحنا.

وقد أدت تلك الاختلافات فى المنهج الفكرى إلى بروز اختلافات فى العقيدة الدينية، وبخاصة عندما تعلق الأمر بطبيعة السيد المسيح. وقد ساند فى هذا الموضوع معظم أساقفة بلاد الشام أشقاءهم المصريين، ذلك أن المتحكمين بالكرسى الأنطاكى كانوا من الهلنستيين فتميزت عقليتهم من جراء ذلك عن عقلية بقية أهل البلاد. وسوف نستعرض من خلال حديثنا أهم الشخصيات الدينية المسيحية الشامية التى ساهمت فى إثراء الفكر الدينى المسيحى ودمغته بطابعها وسنذكر بعضهم حسب تاريخ وفاتهم.

وأول من نذكر من هؤلاء ديودورس الطرسوسى Diodorus of Tarsus المتوفى سنة ٣٩٢م. وقد ولد ديودورس فى أنطاكية لعائلة ثرية، وتابع دراسته فيها، ثم أرسله نوره إلى أثينا حيث نهل من العلوم الفلسفية قبل أن يعود إلى موطنه وينضم إلى سلك الكهنوت. وقد خدم فى كنيسة أنطاكية خلال عهد البطريرك مليتيوس Meletius (٣٦٠-٣٧٨م)، فشهد موجة الاضطهاد التى جرت خلال عهد جوليان المرتد. وفى سنة ٣٧٨م رُسم أسقفا على طرسوس، وشارك بتلك الصفة فى أعمال المجمع المسكونى الثانى الذى عقد فى القسطنطينية سنة ٣٨١م. ومن أعمال ديودورس هذا كتابا فى الفلسفة واللاهوت وتفسير الأسفار المقدسة.

أما يوحنا الذهبي الفم فهو أيضا أنطاكي المولد، حيث أبصر النور في تلك المدينة حوالي سنة ٣٤٥م. وقد تتلمذ على يد أستاذ البلاغة في ذلك العصر ليبيانوس الذي عطف عليه وأولاه عناية خاصة حيث رأى فيه خير خلف له. إلا أن والدته يوحنا كانت شديدة التدين فعملت على إقناع ابنها بترك التعاليم الوثنية والايمان بالمسيحية. وقد تعمّد يوحنا على يد البطريرك ميليتوس سنة ٣٧٠م، وانعزل بعد ذلك في البرية متأملا في الخالق وخلفه، ومفكرا في القيم الروحية والبشرية. إلا أنه عاد إلى أنطاكية سنة ٣٨٠م بعد أن أصابه المرض. وفي سنة ٣٨١ رسم شماسا، ثم رقى إلى رتبة الكهنوت سنة ٣٨٦م فاشتهر بالتقوى والفصاحة والبلاغة، فذاع صيته في مختلف أنحاء البلاد حتى وصل إلى العاصمة القسطنطينية.

فلما توفي البطريرك نيقتاريوس Nectarius (٣٨١-٣٩٧م) وقع عليه الاختيار ليخلفه (٣٩٨-٤٠٤م). وقد بالغ يوحنا في الاهتمام بشئون الفقراء والمساكين، وأخذ ينفق على المعوزين والجياع والمرضى، فأحبه هؤلاء وآثروا الاصغاء إلى عظاته البليغة على الذهاب إلى ميادين الألعاب ودور التسلية. وقد ساعدته بلاغته وطلاقة لسانه وسرعة خاطره وحضور ذهنه على السيطرة على قلوب مستمعيه وعقولهم، ولا تزال عظاته محفوظة حتى يومنا هذا، حيث نجد فيها مختلف أنواع فنون البلاغة والبيان مثل التشبيه والاستعارات والتوريات.

واتبع يوحنا في مركزه الجديد سياسة إصلاح أخلاقي واجتماعي، فدفع الرهبان إلى العمل المثمر، وحقق في التهم التي وجهت إلى بعض الأساقفة، فعزل ثلاثة عشر منهم، واستنكر البذخ واللهو، وهاجم الأغنياء الذين حصلوا على ثرواتهم بالعنف والخداع والرشوة والربا الفاحش. كما أنه لم يتردد في مهاجمة البذخ واللامبالاة بأحوال الشعب، فندد برجال البلاط ونسائهم، ولم تتج

الإمبراطورة يودوكسيا Eudoxia زوجة الإمبراطور أركاديوس من هجومه حين قارنها بهيروديا Herodia، محتجا على إقامة تمثال لها قرب الكنيسة العظيمة.

وقد أدت سياسته هذه إلى معاداة القصر الإمبراطوري له، كما أدت إلى غيرة وحسد بقية البطارقة الذين رأوا فيه خطرا على إمتيازاتهم. فعقد مجمع بالقرب من خلقدونية سنة ٤٠٣م ترأسه تيوفيلوس Theophilus بطريرك الاسكندرية (٤٠٢-٤٣٠م)، وعُرف بمجمع السنديان Synod of the Oak، حيث حُكم على يوحنا بالحرمان من رحمة الكنيسة والنفى. وقد رفض الشعب الخضوع لهذا القرار، فاضطر الجيش للتدخل لاجراج يوحنا من المدينة. الا أن زلزالا حدث جعل الإمبراطور يعيد النظر في هذا القرار ويطلب من يوحنا العودة إلى كرسي البطريركية. فعاد ولكنه لم يغير سيرته الأولى، فحُكم عليه بالنفى مرة ثانية سنة ٤٠٤م، وبقي منتقلا من منفى إلى آخر يكتب ويؤلف حتى وافته المنية سنة ٤٠٨م في بلاد بونطس حيث دفن، إلى أن نُقل جثمانه في احتفال مهيب إلى القسطنطينية سنة ٤٣٨م.

أما لقبه المعروف به وهو "ذهبي الفم" فقد اكتسبه كونه أعظم واعظ في الكنيسة الأولى. وأشهر ما كتبه يوحنا في مطلع حياته الفكرية رسائل عن الكهنوت حيث شرح وجهة نظره حول كرامة الكهنوت ومسئوليته وسمات الكاهن، وكيف يجب أن يكون أفضل من الراهب في كل شيء. كما هاجم الغنوسيين الذين احتقروا المادة وخاصموا الجسد، حيث أن الكنيسة "كنيسة مؤمنين يعيشون على الأرض بأجسادهم". وله رسائل تتعلق بالحياة الرهبانية، وقد دافع في رسائله هذه عن تلك الحياة، وعنون بعضها "ضد المعترضين على الحياة الديرية"، كما كُتِبَ عن تربية الأطفال، وعن البتولية والترمل، وعن الألم والعناية الإلهية. وله مقالات في "الدفاع عن العقيدة ضد الوثنيين

واليهود" حيث يؤكد فيها على لاهوت السيد المسيح. ونلاحظ من خلال كتابات هذا المفكر الدينى الشامى المسيحى منهجه المؤسس على بلاغة الكلمات والتعبير، ولا تزال الصلوات التى كتبها تتلى فى خدمة القداى الالهى فى معظم أيام السنة فى الكنائس الأرثوذكسية الملكانية لما تحويه من رفعة الأسلوب والمعنى.

وقد عاصر يوحنا الذهبى الفم مفكر دينى مسيحى آخر هو تيودوروس المبسوستى Theodorus Mopsuestia الذى ولد فى أنطاكية سنة ٣٥٠م وتلمذ مع يوحنا على يدى ليبيانيوس. ولما هجر يوحنا الذهبى الفم أستاذه واعتق المسيحية أقنع زميله تيودوروس بأن يحذرو حذوه، فكان له ما أراد. وبعد اعتناقه المسيحية تعرف المبسوستى إلى ديودورس الانطاكى فنهل منه بعض المعارف الدينية، وخرج إلى الصحراء ليتسك. إلا أنه لم يقو على متابعة حياة الزهد فعاد إلى أنطاكية رغبة فى الزواج. عند ذلك تدخل يوحنا الذهبى الفم فبعث إليه برسالة اقنعه بالعودة إلى حياة الرهبنة والزهد، فعاد يدرس على يدى ديودورس الطرسوسى حتى رُسم كاهنا سنة ٣٨٣م ولحق بمعلمه إلى طرطوس. وهناك رُسم أسقفا على مبسوستى حيث عاش حتى وفاته سنة ٤٢٨م. ولتيودوروس مؤلفات كثيرة فى اللاهوت، ويُذكر أن البطريرك نسطور (٤٢٨-٤٣١م) قد تلمذ على يديه، إلا أن معظم مؤلفاته قد فقدت نتيجة لموقف المجمع المسكونى الخامس الذى عُقد فى القسطنطينية سنة ٥٥٣م من تعاليمه، التى اعتُبرت أحد الفصول الثلاثة التى حرّمها جستينان فى محاولة منه لإرضاء المونوفيزيين.

ومن أشهر المفكرين المسيحيين فى بلاد الشام فى القرن الخامس الميلاد تيودوريت القورشى Theodoret of Cyrus. وقد ولد أيضا فى أنطاكية سنة ٣٩٣م حيث بشر بمولده مقدونيوس الناسك الذى أعلن لنويه الاستعداد لمولودهم الجديد لتكريس نفسه لخدمة المسيح. وقد امتثل أهله لرغبة

هذا الناسك الذي نال احترام معاصريه، فعهدوا بابنهم إلى أحد الأديرة حيث نشأ راهبا. وقد أخذ تيودوريت الكثير عن يوحنا الذهبي الفم عن طريق تلميذ تيودورس المبسوستي، كما تزامن في سنين الدراسة مع نسطور. وقد رسم أسقفا على قورش سنة ٤٢٣م ووافته المنية سنة ٤٥٧م. وقد أيد هذا المفكر أفكار زميله نسطور، ووضع مؤلفات عديدة لاهوتية وتاريخية أبرزها تكملة لتاريخ يوسابيوس القيصرى Eusebius of Caesarea ، إلا أن معظم كتاباته هذه قد فقدت نظرا لتحريمها من قبل المجمع المسكونى الخامس، الذى عقد بالقسطنطينية عام ٥٥٣م.

أما مدينة غزة الفلسطينية فقد أعطت الفكر المسيحى اثنين ممن طبعا بطابعهما وأثرا على معاصريهما وهما بروكوبيوس الغزاوى Procopius of Gaza وخوريسوس الغزاوى Choricus of Gaza. وقد عاش هذان المفكران فى مطلع القرن السادس الميلادى وتوليا إدارة مدرسة البلاغة التى اشتهرت خلال عصرهما، فذاع صيتها فى كافة أرجاء الإمبراطورية. وقد ضمت تلك المدرسة عددا من الأساتذة القائلين بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة، إلا أن أكثرية هؤلاء دعوا أنفسهم بالسفسطائيين المسيحيين. وقد شملت رسائل بروكوبيوس وخوريسوس شروحا للتوراة، وهجوما على الهيلينيين والوثنيين، كما تأثرا بمدرسة الاسكندرية، واتصلا بمراكز التعليم فى جنوب بلاد الشام مثل قيصرية فلسطين.

ونختتم حديثنا عن أشهر المفكرين الدينيين المسيحيين فى بلاد الشام خلال العصر البيزنطى بدراسة يعقوب البرادعى Jacob Baradaeus الذى عاش خلال القرن السادس الميلادى (ت ٥٧٨م) ولعب دورا مصيريا فى إرساء قواعد الكنيسة المونوفيزية فى سورية. وقد ولد يعقوب فى تلا Tella سنة ٥٠٠م، وترهب فى دير بسيلتا Pesilta القرب من مسقط رأسه حيث أجاد

السريانية واليونانية. وفي سنة ٥٢٧م انتقل إلى مدينة نصيبين حيث عاش لسنوات عديدة قبل أن ينتقل إلى القسطنطينية حيث انضم إلى العديد من القسس المونوفيزيين الموجودين في العاصمة. وخلال سنة ٥٤٣م طلب الحارث بن جبلة الغساني من الإمبراطورة ثيودورا Theodora زوجة الإمبراطور جستيان مساعدته لتعيين أسقفا مونوفيزيا يرعى شعبه، فطلبت الإمبراطورة من تيودوسيوس السكندري Theodosius of Alexandria تعيين أسقفين مونوفيزيين لرعاية شعوب بلاد الشام، فرسم تيودورس أسقفا على بصرى ويعقوب البرادعي أسقفا على الرها ومثروبوليتا مسكونيا.

ولم يسكن يعقوب في مكان معين، بل أمضى حياته متنقلا متكرا مرشدا مشجعا ومواسيا. وكان وراء ذلك سببين رئيسيين، أولهما تجنب ملاحقة السلطات الإمبراطورية التي كانت تسعى لفرض آراء الإمبراطور الدينية، وثانيهما رغبته في مساعدة الكنائس المونوفيزية على النهوض والاستمرار ومقاومة الاضطهاد. وقد شملت رحلاته جميع بلاد الشام وفارس والعراق وقبرص وبعض مدن مصر وآسيا الصغرى. وقد رسم خلال رحلاته هذه سبعة وعشرين أسقفا وبضعة آلاف من القساوسة والشماسة. وبالرغم من أنه لم يعتل شخصيا السدة البطريركية فقد اعتبر بحق باعث المونوفيزية في بلاد الشام، حيث رسم سرجيوس الأنطاكي Sergios of Antioch بطريركا على انطاكية وسائر المشرق (٥٤٢-٥٦٢م). وبعد وفاته رسم بولس الأسود (٥٦٢ - ٥٨١م). وقد عمل يعقوب طوال حياته على تقريب وجهات النظر بين كنيسة وشقيقتها المونوفيزية في الاسكندرية، ووافته المنية سنة ٥٧٨م بينما كان في طريقه، إليها على رأس وقد ضم ثمانية من الأساقفة المونوفيزيين السوريين. وقد دفن في دير القديس رومانوس على الحدود الفلسطينية - المصرية، ثم نقلت رفاتة الى دير بسيلتا سنة ٦٢٢م.



ومن خلال تلك الأمثلة المختلفة للفلسفة البيزنطية وعلاقتها بالفكر الدينى المسيحى فى بلاد الشام خلال العصر البيزنطى يمكننا أن نستنتج أن الفلسفة البيزنطية خلال تلك الفترة اندمجت إندماجا كليا بالعلوم الدينية وأصبحت وسيلة منهجية تستعمل للأغراض الدينية، ولم تعد مادة قائمة بذاتها كما كانت خلال العصر الهلينستى - الرومانى. ولعل اعتناق الدولة للدين المسيحى وفرضها هذا الدين جعل المعلمين يتجنبون دراستها خارج الإطار الدينى، إذ أن معظم الأسئلة الفلسفية عن أسباب الوجود وعلاقة الانسان بخالقه ومحيطه قد وجدت أجوبة لها فى الدين الجديد. إلا أن الخلافات الفلسفية القديمة تحولت مع هذا التزاوج بين الفلسفة والدين، إلى خلافات عقائدية أثرت وتأثرت بالحوادث التاريخية المحيطة بها. وقد ساهمت بلاد الشام فى إثراء الفكر الدينى المسيحى بمختلف فرقته فى ذلك العصر.

وبالإضافة إلى مدرسة الاسكندرية ومدارس بلاد الشام وما ظهر فيهما من نوايغ الفلسفة والفكر المسيحى ظهر فى إقليم كبادوكيه بأسيا الصغرى فى القرن الرابع الميلادى ثلاثة من العظماء عرفوا فيما بعد باسم الأقمار الثلاثة، وكان لهؤلاء شهرة واسعة فى الشرق والغرب ليس بعدها عظمة، وهم جريجورى النازانيزى Gregory of Nazianzus المعروف باسم جروجورى الثاولوجوس Theologian أى عالم اللاهوت، وقد ولد جريجورى هذا فى مدينة أريانزوس Arianzus فى عام ٣٢٥م، وكانت أمه مسيحية تدعى نونه Nonna وأبوه غير ذلك، وبتأثير من الزوجة اعتنق الوالد المسيحية وأصبح أسقفا لمدينة نازانيزوس Naziezus. ورغم أن جريجورى ظل وثنيا حتى عام ٣٦٠م، إلا أنه تربى على المبادئ الصالحة. وقد تلقى علومه فى بداية الأمر فى مدينة قيصرية كبادوكيا بأسيا الصغرى، ثم رحل إلى قيصرية فلسطين، ومنها شد الرحال إلى مدينة الاسكندرية حيث كان يتولى القديس أنثاسيوس

Athanasius عرش البطريركية (٣٤٤-٣٩٠م) ثم اتخذ طريقه إلى أثينا. ويروى أنه أثناء رحلته البحرية تعرضت سفينته لعاصفة شديدة وواجه ورفاقه شبح الموت فاعتنق الديانة المسيحية ومن معه، وهناك رواية أخرى تقول أنه اعتنق المسيحية في عام ٣٦٠م.

وفي أثينا تقابل جريجورى مع صديقه القديم القديس بازيل الكبير، حيث تعلم على يد أساتذته كبار، وكان معه أيضا جوليان Julian الذى نصب إمبراطورا (٣٦١-٣٦٣م) وارتد عن المسيحية وعرف باسم جوليان المرتد Apostate. وظل جريجورى يدرس فى أثينا لمدة عشرة سنوات، عاد خلالها القديس بازيل إلى بلاده، وفى هذا الوقت كان قد بلغ الثلاثين من عمره.

عاد جريجورى إلى نزانينوس حيث كان والده قد تقدم بهما العمر، وكان أمام جريجورى إما أن يقوم بتدريس البلاغة أو العمل كمحامى، وهى من الأعمال الدنيوية، ولكنه فضل الحياة الدينية، لذلك رسمه والده كاهنا لكنيسة نزانينوس فى عام ٣٦٢م وظل كذلك حتى رشحه القديس بازل أسقفا على مدينة ساسيمه Sasima، ولكنه فضل ملازمه والده حتى مات الأخير فى عام ٣٧٤م. وفى أوائل عام ٣٧٩م كان الصراع على أشده بين أريوس Arius وأثناسيوس Athanasius، فأرسل إليه أرثوذكى العاصمة لمساعدتهم ضد أريوس فاتجه إليهم وأقام مجلسا فى دار أحد اصدقائه ثم جعلها كنيسة صغيرة سماها كنيسة البعث Anastasia. وفى هذا المكان القى خطبة وعظاته والتف حول الكثير من أتباعه ومن الوثنيين.

وفى عام ٣٨٠م أقر الإمبراطور ثيودوسيوس الأول رئاسته على البطريركية فى الإمبراطورية (٣٧٩-٣٨١م)، وقد هذه المرحلة اتجه إليه القديس جيروم St. Jerome وتتلذذ على يديه. وفى عام ٣٨٠م كان

جريجورى قد بلغ الخامسة والخمسين من عمره، وكانت صحته قد اعتلت ولم يتحمل الحياة فى القسطنطينية وفضل العودة إلى نازانياوس ليبقى بقية حياته راهبا. وله فى هذه المرحلة قول ماثور حيث يقول "ردونى إلى الاعتزال، ردونى إلى الله". وقد استجاب الإمبراطور ثيودوسيوس إلى طلبه وأعفاه من رئاسة البطريركية فعادا راجعا إلى نازانياوس حيث قضى بها ما تبقى من حياته، ثم توفى فى عام ٣٩١م عن عمر بلغ ستة وستون عاما.

ومن أهم أعماله اللاهوتية خطبه فى العقائد والأعياد والقديسين وأشعار لاهوتية، وقصيدة طويلة عن حياته، وله عبارات وجمل لاهوتية تتسم بالبلاغة، وقد تجلت فى جميع أعماله القدرة الفائقة على جودة التعبير والإقناع لذلك عرف بإسم جريجورى اللاهوتى.

وإلى جانب جريجورى النازانيازى نجد قمرين آخرين هما القديس بازيل الكبير وأخيه جريجورى النيسى، وإلى جانبهما تكف اختهما القديسة ماكرينا Macrina. ولن أخوض فى أعمال هذه المجموعة الكبادوكية حيث يكون لنا معهم دراسة فى الفصل الخاص بالزهبانية، ولكنه يمكن القول أن هؤلاء الثلاثة قد تمكنوا من العلوم والكلاسيكية، واجتهدوا كثيرا فى علم اللاهوت، وأنهم استعانوا بالفلسفة وأصروا على تحكيم العقل فى فهم العقيدة المسيحية، ولم يجنحوا فى التأويل مثلما حدث فى مدرسة الاسكندرية، ولم يتخلوا عن تقاليد الكنيسة المسيحية الموروثة، ولهم كتابات عديدة فى العقيدة وهى عبارة عن مجموعة كبيرة من المواعظ والخطب والرسائل الرعوية. وهى تشكل فى حد ذاتها مادة طيبة لتفهم الفكر الدينى فى تلك المرحلة. ويمكن القول أنه لم يأت من كبادوكيا رجال تفوقوا على هذا الثالوث الذى جاد به الزمن فى وقت واحد، كانت العقيدة المسيحية فى أشد الحاجة لمثل هؤلاء.

وإلى جانب هؤلاء المفكرين والفلاسفة فى مصر وبلاد الشام وكبادوكيا كان هناك فى أعالى الفرات مجموعة أخرى فى مدينة الرها Edessa أو أورفا orfa. وأول من ورد ذكره من طلاب هذه المدينة كان لوقيانوس Lucianus ثم يوسيبوس الرهاوى أسقف مدينة حمص حوالى ٣٥٩م أو بعدها بقليل. وفى مدينة نصيبين كان إفرام الكبير Ephrem the Grear. ولما احتل الفرس هذه المدينة عام ٣٦٣م أواخر عهد الإمبراطور جوليان المرتد طلب الإمبراطور من إفرام مغادرة المدينة فأنتهى أمره إلى مدينة الرها، فأقام بها وأقام مدرسة ضمت كل زملائه أطلق عليها مدرسة الفرس نسبة إلى الفرس من طلابها النازحين إليها. وأهم ما صنف إفرام أشعاره فى الأسرار الالهية والتوبة والإيمان والرهبانية، وتوفى إفرام فى عام ٣٧٩م.

وإلى جانب هؤلاء يظهر فى مدينة الرها إيباس Ibas أو Ihiba أو Hiba، وقد اختير أسقفا لمدينة الرها عام ٤٣٩م خلفا للأسقف رابولاس Rabbulas، وكان له مواقف متشددة تجاه العقيدة المسيحية حتى أن معارضيه عزلوه من منصبه فى مجمع إفسوس الذى عقد فى عام ٤٤١م وهو المجمع المعروف باسم مجمع اللصوص. وكان لهذا الراهب جولات ورسولات فى الجامعات الدينية وخارجها كما هاجم المذهب النسطورى ومن سائده، ولم يعرف قدر هذا الرجل إلا بعد مائة عام عند ظهرت الفصول الثلاثة التى لعبت دورا كبيرا فى العقيدة المسيحية.

وحتى نقدم الحقيقة كاملة نسجل على هذه الصفحات أعظم ما كان من علماء اللاهوت فى غرب أوربا وإفريقيا وهم أمبروز Ambrose والقديس جيروم Jerome، والقديس أوجستين Augustine وأخيرا البابا جريجورى العظيم (٥٩٠-٦٠٤م).

وفيما يتعلق بأمبروز، فقد ولد في مدينة تريير Trier عام ٣٣٤ أو ٣٤٠م. وكان أبوه الوالي البريتوري لغاله وكانت وفاته عام في مدينة ميلان عام ٣٩٧م. وكان يعمل محامياً في البلاط الإمبراطوري. وعندما مات أسقف مدينة ميلان في عام ٣٧٤م رشحه العامة ليكون أسقفاً للمدينة، ولكنه اعترض في بادئ الأمر لأنه كان لا يزال في مرحلة التعليم الديني الذي يسبق عملية التعميد، ثم قبل المنصب مع علمه بأن هذا المنصب له مسئولية كبيرة. وكانت ميلان مدينة لها أهميتها كمركز هام في الإمبراطورية الرومانية الغربية، وكان عليه كأسقف أن يتعامل مع الجانب السياسي للإمبراطورية. وكان المذهب الأريوسي ينتشر بطريقة سريعة داخل غرب أوربا، كما أن الوثنية لا زالت لها أنصارها. وكانت هذه المشكلة تواجه أمبروز. كما أن بعض أعضاء السناتو حاولوا إدخال تمثال إلهة النصر إلى قصر السناتو في روما. وهنا تدخل أمبروز وطلب من الإمبراطور الغربي القاصر فالنتيان الثاني Valentinian II (٤٢٥-٤٥٥م) ألا يسمح بذلك. وهنا تدخلت جستينا Justina الوصية على الإمبراطور وطلبت منه أن يخصص مكاناً ليكون كنيسة للأريوسيين فرفض أمبروز. وفي عام ٣٩٠ قتل العامة حاكم مدينة سالونيك فأمر الإمبراطور الشرقي ثيودوسيوس الأول بمعاقتهم بكل شدة فقامت مذبحة في المدينة، فكتب أمبروز إلى الإمبراطور يطلب منه التكفير عن ذنبه ورضخ الإمبراطور لطلب أمبروز. وكان الأخير يرى أن شأن الإمبراطور لا يعلو عن الكنيسة. وفي عام ٣٨٦م زار أوجستين مدينة ميلان وبعد ستة أشهر عمده أمبروز ثم أصبح فيما بعد القديس أوجستين (توفي ٤٣٠م).

وكان عمل أمبروز في الكتابة والتعامل مع العامة، وكانت أسقفيته تعج بالناس، فكانت عظاته وقدايسه وخطاباته عظيمة الأهمية في عصره، وكان أول معلم ناجح للديانة المسيحية في غرب أوربا، ولا زالت بعض كتاباته

محفوظة حتى الآن، وأخيرا كان له الكثير من رواده المعجبين بفكره، وأطلق عليه معاصروه لقب الفيلسوف.

أما القديس جيروم فقد كان أيضا من الفلاسفة الدينيين، وقد ولد في مدينة ستريدو Strido على ساحل دالماشيا في عام ٣٤٢م، وكانت وفاته في مدينة بيت لحم بفلسطين عام ٤٢٠م. وكان من أكثر الآباء لتعليم اللغة اللاتينية، ودرس في روما لمدة ثمان سنوات ولم يكن اعتنق المسيحية حتى بلغ الثامنة عشر. وفي عام ٣٧٤م ذهب إلى سوريا وظل عدة سنوات يعيش مع الرهبان في صحراء شرق أنطاكية، وفي هذه المرحلة تعلم اللغة العبرية، ثم اتجه إلى القسطنطينية وتعلم على يد جريجورى النازانيازى. وفي أنطاكية رسم قسيسا وعاد إلى روما وعمل كاتباً لدى البابا دماسوس الأول Damusus I (٣٦٦-٣٨٤م)، وبارشاده ترجم جيروم التوراة إلى اللغة اللاتينية، كما تولى جيروم الإشراف على مجموعة من النساك للنساء، ولم يكن هذا العمل مرغوبا من البعض، وعندما توفي البابا دماسوس عاد إلى الشرق مرة أخرى بصحبة القديسة بولا Poula وابنتها ستوخيوم Eustochium وآخرون. وقد استقر الجميع في مدينة بيت لحم، وتقابل مع الفيلسوف المصرى أوريجين، وقدم ترجمات للكتب المقدسة انتهى منها حوالى عام ٤٠٤م. وكتب جيروم الكثير عن الديانة المسيحية، كما كان له مواقف عديدة ضد مخالفيه. وفي الجانب الفنى يصور جيروم بصحبه أحد الأسود وهو يرتدى قبعة الكرادله، وذلك بسبب خدمته للبابا داماسوس.

وفيما يتعلق بالبابا جريجورى الكبير، فقد كان البابا والفيلسوف، ولد في مدينة روما حوالى ٥٤٠م ومات فيها عام ٦٠٤م. ويرجع أصله إلى عائلة نبيله، وظل لبعض الوقت يشغل وظيفة والى مدينة روما. وقد خصص جانبا من ثروته لتأسيس دير في روما، وستة أديرة أخرى في صقلية. ثم أصبح

راهبا وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره، ومن عام ٥٤٩م إلى ٥٨٥م كان نائبا للبابا فى القسطنطينية، وبعد خمس سنوات عاد إلى الدير مرة أخرى حيث عين بابا منذ عام ٥٩٠ حتى وفاته عام ٦٠٤م، وكان أول راهب يعين فى هذا المنصب. وخلال عمله فى السدة البابوية، هاجم اللمبارد شمال إيطاليا فى عام ٥٩٢م فتفاوض معهم ووقع معاهدة معهم، كما أعاد النظام إلى كنيسة روما، وأنفق الكثير من أمواله لمواجهة ما خلفته الحروب من دمار ومجاعة، وفداء الأسرى. كما ساند استقلال الكنيسة بكل قوة فى مواجهة القوى المدنية، وكان له صلات طيبة مع الفرنجة واللمبارد والقوط الشرقيين، كما ساند الكنيسة فى شمال إيطاليا وفرنسا وأسبانيا، وأعاد المسيحية إلى إنجلترا وأرسل أوجستين من قبله ليكون رئيسا لاساقفة كانتربرى Canterbury.

لقد كان جريجورى رجل دولة ودين، ويعد رابع فليسوف للكنيسة، وله العديد من الكتابات الدينية، وله أكثر من ثمانمائة رسالة، والعديد من المراسم، ويقدّر الغرب الأوروبى أعمال البابا التبشيرية والاصلاحية، ويعتبروه من أعظم باباوات العصور الوسطى. وكان جريجورى يطلق على نفسه لقب "خادم خدام الله" The Servant of the Servants of gad.

وإذا انتقلنا إلى شمال أفريقيا نجد القديس أوجستين، وهو الأسقف والفيلسوف، وقد ولد فى مدينة نوميديا Numidia بشمال إفريقيا فى عام ٣٥٤، وتوفى فى المدينة التى أصبح أسقفا لها وهى مدينة Hippo عام ٤٣٠م بالجزائر. وكان والده وثنيا، أما والدته وتدعى مونىكا Monica فكانت مسيحية، وعند بلوغ السادسة عشرة أرسل إلى مدينة قرطاج لانتهاء تعليمه، وبعد هذه المرحلة من التعليم وجد أوجستين أنه من الصعب عليه أن يجلس ويستقر فى مهنة التعليم، لأنه كان يبحث عن فلسفة الحياة. وبدأ بتدريس تعاليم الديانة المانوية، وهو دين انتشر فى فارس وكان يدعو إلى الإيمان بعقيدة

قوامها الصراع بين النور والظلام . وفى عام ٣٨٣م ذهب إلى روما وحاضر فيها، ثم تلقى دعوة من ميلان ودرس فيها الافلاطونية الحديثة وتعاليم القديس أمبروز. وفى هذه المرحلة اختطلت الأفكار فى رأسه، وكان أمامه العظمة والثروة والزواج فى جانب، أم الطريق إلى الله .

وعندما كان يقرأ رسالة القديس بولس الرسول إلى أهل روميه، وصل إلى الاصحاح الثالث الآيات ١٢-١٤، واقتنع بما جاء فيها، تعمد فى مساء يوم عيد القيامة عام ٣٨٧م ومعه صديقه البيوس Alipius وابنه أديوداتوس Adeodatus اللذان رافقاه فى قرطاج.

وبعد هذه المرحلة عاد أوجستين إلى شمال إفريقيا وكون نوعان من الديرية الجماعية. وفى عام ٣٩١م أصبح قسيسا ضد رغبته، وبعد خمس سنوات أصبح أسقفا لمدينة هيبو. وقد ظل لمدة أربعة وثلاثين عاما أعظم شخصية دينية بين أساقفة شمال إفريقيا، واعتبر وزيرا للعدل فى هذه المنطقة. وفى داخل كاتدرائيته المدينة عاش عيشة جماعية مع رجال الدين تحت نظام صام فى حياة يومية كلها عمل أو عبادة، وكان يبشر فى أيام الآحاد، ويقوم بعملية تعميد من يرغب من الناس، ومراعاة شئون الكنيسة واحتياجات الفقراء، وإقامة العدل بين الناس، وكثيرا ما كان يكتب الرسائل لأصدقائه أو بعض الرسائل للدفاع عن المسيحية ضد المذهب الدوناتى الذى انتشر فى شمال إفريقيا، وضد المذاهب الأخرى التى اعتبرت هرطقات من وجهة نظره. وهذه الكتابات لازالت باقية حتى الآن، وهى تتضمن مائتين من الرسائل، ومائة وثلاثة عشر كتابا، وخمسمائة من المواعظ. وأهم كتبه، الاعتراف ومدينة الله. وقد عاصر أوجستين سقوط روما فى عام ٤١٠م على يد الأريك Alaric زعيم القوط الغربيين.



وعندما بدأ أفول نجم الإمبراطورية في الغرب بعامه، تفرغ أوجستين لوضع كتاب، وكان يكتبه وهو على فراش الموت في عام ٤٣٠م أثناء غزو الوندال لشمال أفريقيا وأصبحوا على أبواب مدينة هيبيو حيث كان يعيش، وأهم ما تركه أوجستين إلى جانب مؤلفاته النظم الديرية الخاصة به، وتبناها العديد من الاديرة الرجالية والنسائية والتي لازالت تحمل اسمه حتى الآن.

بعد هذا العرض لفلاسفة رجال الدين من الشرق والغرب، يمكن القول أن رجال الدين الشرقيين كانوا على اتصال دائم بالإمبراطورية البيزنطية وحكامه وكنيستها، ولعبوا دورا كبيرا في صياغة نظمها وأن الفكر المسيحي الذي قدمه هؤلاء هو الأساس الذي قامت عليه قواعد الإمبراطورية البيزنطية، كما أن مدرسة الحقوق التي قامت في بيروت قد لعبت دوراً كبيراً بخريجياتها في صياغة قوانين الإمبراطورية التي شكلت القاعدة الأساسية لنظم الحكم والتعامل بين المواطنين.

كما أن اللغة اليونانية وهي لغة الشعب في معظم بلاد الشرق هي التي سادت في المنطقة وتغلبت على اللاتينية التي اندثرت بعد مرحلة من الزمن. يضاف إلى ذلك النظم الديرية التي وضعتها في الشرق والتي لازالت باقية حتى الآن. ومن هنا نجد أن الإمبراطورية وقد تشربت بالفلسفة الشرقية وانعكس ذلك على كافة نواحي الحياة حتى أصبحت الإمبراطورية شرقية الطابع.

أما فيما يتعلق بفلاسفة الغرب، فكانوا قلة ولم يؤثروا على مناخ الإمبراطورية في الشرق. وليس معنى ذلك أننا ننكر فضل فلاسفة الغرب، فقد كان لهم التأثير الواضح على جانب من غرب أوروبا. ورغم هذا كله فقد كان الشرق وفلسفته والأراضي المقدسة مصدر الهام للغرب أيضا. وهنا يمكن القول أن الإمبراطورية البيزنطية قد أصبحت شرقية الطابع أو أنها قد تمشقت.

## **الفصل الثالث**

### **نظم الحكم والإدارة**



كان من الطبيعي بعد الصراع الطويل والنظم المختلفة التي سبقت عهد قسطنطين أن يتم إنشاء نظام جديد للإدارة المدينة والعسكرية. ومما لا شك فيه أن هذا النظام الجديد قد ألغى تماما ما سبقه من أنظمة، ولكنه بطبيعة الحال كان مزيجا من النظم القديمة وبعض الأفكار الجديدة التي تتناسب مع ما جد من أحداث، وسوف يتم إدخال تعديلات جديدة على النظم الحكومة وقوانينها كلما تطلبت الظروف ذلك.

وسيظل هذا الحال على مدى تاريخ الإمبراطورية خاصة عندما تتعرض الإمبراطورية لأخطار جسام. ومن ذلك أنه بعد الغزوات الجرمانية على غرب أوروبا تقلصت الحدود البيزنطية، وكذلك الأمر بالنسبة للغزوات الإسلامية، والحال نفسه بعد غزو الأتراك السلاجقة لآسيا الصغرى، هذا بالإضافة إلى الحروب التي قامت في مراحل كثيرة على الحدود الشمالية مثل الحروب البلغارية، والغزوات الروسية إلى غير ذلك.

وعلى أية حال فإنه مع بداية قيام الإمبراطورية البيزنطية، كان الإمبراطور على رأس الحكومة، وكانت واجبات الإمبراطور تستغرق كل أوقاته تقريبا، فما كان يمر يوم دون احتفال يجب على الإمبراطور المشاركة فيه، فكان هناك الأعياد الدينية الوثنية والمسيحية أو استقبال أحد السفراء أو زيارة لميدان السباق. وكان عليه أيضا التباحث مع وزرائه ومعاونيه، وحضور بعض المجالس. وباعتباره قائدا للجيش كان عليه زيارة المعسكرات من وقت لآخر أو يخرج على رأس قواته كلما دعت الحاجة، وبذلك لم يكن لدى الإمبراطور إلا الوقت القليل لحياته الخاصة. وإذا استسلم أحد الإباطرة مثل ميخائيل الثالث Michael III (842-867م) المعروف بالسكير لنزواته الخاصة يفقد عرشه. وقد ألف بعض الإباطرة عدة كتب مثل ليو السادس Leo

VI (٨٨٦-٩١٢م) المعروف بالحكيم ومن بعده ابنه قسطنطين السابع (٩٤٤-٩٥٩م) بعض الكتب وهما يحكمان الإمبراطورية، فانه بالنسبة للأول فلا نستطيع أن نحدد مدى مشاركة بعض المساعدين في إعداد هذه المؤلفات. ولم يكن من السهل على الإمبراطور مغادرة العاصمة، وقد ترى بعض النصائح المسجلة في المصادر التي وجهها البعض للإمبراطور للسفر لتفقد ممتلكاته والوقوف كذلك على أحوال الولايات. ولكن الواقع كان غير ذلك فلم يكن لدى الإمبراطور من الوقت ما يسمح له بذلك، وأنه كان يكتفى بما يصل إليه من تقارير. ولما كانت العاصمة هي مقر الحكم والإدارة وقيادة الجيش فقد أصبح من الخطورة بمكان ترك العاصمة إلا على رأس الجيوش ومعه قادته.

وكان يساعد الإمبراطور في تدبير شئون الحكومة، واتخاذ القرارات الرئيسية مجلس مصغر. وقد يجتمع هذا المجلس الاستشاري اذا دعت الضرورة مثلما حدث أثناء ثورة نيقه Nika التي وقعت في عام ٥٣٢م. وفي هذا الاجتماع تدخلت ثيودورا Theodora زوجته الإمبراطور جستنيان Justinian (٥٢٧-٥٦٥م) والقت خطبتها الشهيرة التي سجلها المؤرخ بروكوبيوس القيصرى Procopius of Ceasarea. بعد محاولة الامبراطور الفرار عن طريق البحر. فقد ذكر أن ثيودورا قالت "وعلى من يلبسون التاج الامبراطوري، لا ينبغي أن يعيشوا بعد أن يفقدوه، وأنى لا أود أن أعيش حتى أرى اليوم الذى لا يهتف فيه الناس بإسمى إمبراطورة لهم" وازافت "إنج بنفسك إن شئت أيها الإمبراطور، فلديك المال والسفن فى انتظارك، والبحر خال من الأعداء، أما أنا فأنى باقية هنا، وأن المثل القديم يقول: "إن العبادة الأرجوانية هي خير الاكفان" فتأثر الامبراطور جستنيان بذلك وثبت مكانه وانتصر على الثوار. وفى عام ٨١٢م اجتمع هذا المجلس عندما هاجم البلغار مدينة مسميريا Mesembria، وقد حضر فى هذا المجلس جمع من الخطباء

ورجال الدين منهم البطريرك نفقور الأول (Nicephorus I) (٨٠٦-٨١٥م) ومطرانا مدينة نيقية Nicaea وقزيقوس Cizicus وغيرهم، للنظر في أمر هذا العدوان وهل يتطلب الأمر إعلان الحرب أو معالجة المسألة بطريقة أخرى.

ومن الوجهة الإدارية كان الإمبراطور على رأس الدولة، وكان يليه الوزراء وكبار رجال الدولة مرتبين ترتيبا دقيقا طبقا لمكانة كل منهم. وكان بالإمبراطورية بعض الألقاب الشرفية تمنح لحاملها أسبقية في المجتمع البيزنطي ولا تحمله أي واجبات، وكانت بعض هذه الألقاب تمنح مقابل بعض الأموال، كما أنها ليست وراثية. وكانت جميع الوظائف الكبرى بالدولة لها مرتبة معينة، وكانت هذه الرتب تتغير على مر السنين التي عاشتها الإمبراطورية. ومن المصادر المتاحة لنا يمكن استخراج فكرة عامة عن النظام الإداري للإمبراطورية.

فقد كانت النزعة السائدة على الإدارة البيزنطية في كل عصورها هي جعل الوظائف الرسمية مناصب شرفية مع إضفاء صبغة الإدارة بالنظام البيروقراطي. وهناك ملاحظة أخرى أن الألقاب قد زاد عددها بدرجة كبيرة، فهبط قدرها على مر الزمن، وتطلبت الحاجة وضع القاب جديدة تعلوها قدرا.

ويلاحظ أن أعضاء الأسرة الإمبراطورية الحاكمة لم تكن تتقلد مثل هذه الألقاب، لأن هذه الألقاب سوف تحد من نفوذهم الشخصي، وكانوا يمنحون ألقابا أعلى من الألقاب السابقة، كما يمكن أن يكونوا قادة عسكريين. وواقع الحال كان الابن الأكبر للإمبراطور هو ولي العهد، وعاده ما كان يتوج في حياة أبيه دون إستثناء، وكان يحمل لقب قيصر. وكان الإمبراطور دقلديانوس Diocletian (٣٨٤-٣٠٥م) قد منح اللقب لمساعدى الإمبراطوريين. وكان

هذا القيصر يتوج دون أن يوضع على تاجه صليب في المراحل اللاحقة. وكانت هذه المرتبة لائقة لابن الإمبراطور، كما حمله الأوصياء على العرش أو الوارث المؤقت. ومما حملوا هذا اللقب الإمبراطور طيبريوس الأول Tiberius I (٥٧٨-٥٨٢م) قبل تولية العرش عند كان وصيا على الإمبراطور جستين الثاني Justin II (٥٦٥-٥٧٨م). كما أن الإمبراطور هرقل Heraclius (٦١٠-٦٤١م) والإمبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥م) قد عينا ابنيهما الثاني والثالث في منصب القيصر، ولعل مرجع ذلك أن ولديهما الكبيران كانا معتلا الصحة، فبذلك يضمن الإمبراطور العرش في سلالته من بعده. وقد يكون أحد الاباطرة لا ولد له في مراحل زواجه الأولى، فيمنح لقب القيصر لزوج ابنته مثلما فعل الإمبراطور ثيوفيلوس Theophilus (٨٢٩-٨٤٢م) عندما منح لقب قيصر لزوج ابنته ماريـا Mary وهو الكسيوس موسيل Alexeus Musele حتى يكون وريثا للعرش من بعده. وبذلك أصبح الوارث المؤقت لأن الإمبراطور ثيوفيلوس رزق بولد في عام ٨٢٢م فسقط حق الوارث المؤقت الكسيوس موسيل، وتولى الابن تحت اسم ميخائيل الثالث (٨٤٢-٨٦٧م). كما أن هذا الإمبراطور قد خلع لقب قيصر على عمه بارداس Bardas عندما كان وصيا عليه. كما حصل عليه فوقاس والد الإمبراطور نقفور فوكاس (٩٦٣-٩٦٩م). وقد تدنى مستوى لقب القيصر في عهد الإمبراطور الكسيوس الأول كومنيئوس (١٠٨١-١١١٨م) وحل محله لقب الحاكم الجليل Sebastocrator. وفي عصر آل باليولوجوس Palaeologus (١٢٦١-١٤٥٣م) كان لقب ولي العهد أو الأمير، هو المستبد Despot. وهكذا كانت الألقاب تتغير مسمياتها ودرجاتها على مر العصور.

ومن الألقاب التي دامت طويلا لعدة قرون هو لقب البطريرق Patricion، وهو لقب يختلف من لقب بطريرك الذي كان لقباً دينياً خاصاً بأعلى منصب ديني في الكنيسة البيزنطية. وكان لهذا البطريرق شارة وهي لوحة منقوشة من العاج، وهذا اللقب كان قد أنشأه الإمبراطور قسطنطين ولم يمنح إلا للقليل في بداية الأمر، ثم زاد أعداد من حملوه شيئاً فشيئاً. وفي القرن العاشر ظهر لقب أعلى منه وهي لقب الماجستر Magister ويعنى وزير أو كبير، أو رئيس. وكان من علاماته أنه يرتدى قميصاً أبيضاً مزينا بالذهب. وهناك القاب أخرى ولكنها اندثرت تدريجياً، وانتهت تقريبا مع الغزو اللاتيني للإمبراطورية البيزنطية عام ١٢٠٤م. وكان هناك مشكلة لترتيب الأسبقية في هذه المناصب لأنها كانت تحتوى في داخلها على رتب وألقاب.

أما عن الجانب الإداري داخل الإمبراطورية البيزنطية، فمن المعروف أن الإمبراطور دقلديانوس قد أقام النظام الرباعي (أى إلى أربع) يحكم كل منها والى بريكتورى Praefectus، وفي يده سلطات نائب الإمبراطور، وهي سلطة مطلقة في النواحي القضائية والمالية والإدارية والتشريعية لبعض الأمور الصغرى، وهو الذى يعين حكام المقاطعات مع بعض إشراف إمبراطورى في بعض النواحي. ولم يكن له إشراف على الجيش الذى يعسكر فى إقليمه، فقد كان يتولى أمر الجيش قادة عسكريون، وإن كانوا أقل من الوالى درجة.

وبعد تأسيس مدينة القسطنطينية أصبحت هذه المدينة ومدينة روما تحت إشراف والى المدينة. وهو منصب مدنى أقل درجة من الوالى البريتورى وكان والى المدينة مسئولاً عن الأمن بواسطة الشرطة والحفاظ على النظام وتوزيع المؤن المجانية.



وكان هناك مجموعة من الوزراء داخل البلاط الإمبراطوري في العاصمة البيزنطية، وكان منهم الوزير الأعلى للقضاء وكويستر Quastor (المشرف) القصر المقدس، ووزيران للمالية أحدهما يتولى أمر الهبات المقدسة ويتولى أمر المصروفات والإيرادات العامة، والآخر يتولى الأملاك الخاصة بالإمبراطور. وفي البلاط وجد الوزير الأكبر وهو وزير الخارجية أيضا ويعمل أيضا رئيسا لديوان الموظفين. وبذلك أصبح هذا الوزير الأكبر مسئولاً عن سلك الوظائف المدنية بالإمبراطورية، وعن المخابرات وإدارة مراسم الإمبراطورية، واستقبال السفراء. ونظراً لدقه ومناصب هذا الوزير فقد كان يعاونه عدد أكبر من الموظفين بخلاف الوزراء الآخرين.

وكان يحيط بالإمبراطور عدد من كبار الموظفين يعملون في الديوان الإمبراطوري، وكان من هؤلاء عدد كبير من الخصيان، وواقع الحال أن عدد الموظفين داخل الإمبراطورية كان يقدر بعشرات الآلاف، فقد كان في إقليم الليريا Illyria وحده حوالي عشرة آلاف موظف قبل عهد أسرة جستينيان.

وإذا كان هذا النظام قد شمل الإمبراطورية عندما كانت تسيطر على جانب كبير من أوروبا والساحل الأفريقي وبلاد الشام وآسيا الصغرى فإنه ما لبث أن تغير مع غزوات البرابرة الجرمان لجانب كبير من أوروبا الغربية. يضاف إلى ذلك أن الحكومة قد أصيبت بالفساد خاصة بعدما أصبح حكام المقاطعات يتولون مناصبهم بالانتخاب، وكان في استطاعته هذا الحاكم أن يشتري أصوات الناخبين بالمال. وبعدها يعوض هذا المال بفرض ضرائب أكبر على المقاطعة، يذهب جانب منه إلى الإمبراطور وآخر إلى الوالي البريتوري. وحاول الإمبراطور جستينيان إعادة تنظيم الإدارة الحكومية، فألغى طريقة الانتخاب، وقرر منح حكام المقاطعات راتباً مرتفعاً يستطيع أن يعيش عليه، وتحتّم على الحاكم الذي يترك منصبه أن يبقى في مقاطعته خمسين يوماً

لحين فحص أعماله السابقة، وعليه أن يرد على الاسئلة التى توجه إليه. وبالإضافة إلى ذلك عين بالانتخاب موظف يطلق عليه حامى المدينة لمراقبة أعمال هؤلاء الحكام والنظر فى القضايا الصغرى.

كما قسمت الولايات تقسيما جديدا فى عام ٥٣٦م، وتم ربط المقاطعات الغنية ببعض الولايات الفقيرة حتى تسدد الأولى ما على الثانية من التزامات دون مراعاة لأى تنسيق بين هذه الولايات الناشئة. كما يلاحظ وجود بعض النظم الخاصة ببعض الأقاليم مثلما حدث مع العناصر الأرمينية وصدر لها قانون خاص عرف بإسم قانون الأرمن، وهذا القانون ينص على وراثة الابن الأكبر جميع أملاك أبيه مثلما كان القانون الاقطاعى فى أوربا بعد ذلك. ولكن هذا القانون لم يرض عنه الشعب الأرمينى. كما أن بعض الأباطرة الذين حكموا بعد ذلك كانوا يميلون إلى تقسيم الضياع الواسعة، حتى لا تظهر طبقة من كبار الملاك يخشى منها على الإمبراطورية.

ولتثبيت الأحوال الإجتماعية وسهولة إدارة المواطنين سار جستتيان الأول على سنه دقلديانوس التى تقضى بربط الأولاد بمهنة آبائهم خاصة فيما يتصل بالأعمال الزراعية. وتوفيراً للنفقات ألغى جستتيان منصب القنصلين الذى ورثته الإمبراطورية البيزنطية عن الامبراطورية الرومانية، فقد كان رتبة شرفية يخصص لها الكثير من الأموال لتوزيع الصدقات ودفن نفقات مشاهير أبطال الألعاب الرياضية، فأبطل تعيين القناصل بعد عام ٥٤٢م. وفى الجانب الإدارى المالى وضع دورة ضريبية وهى دورة الخمسة عشر عاما يتم ربط الضرائب فى أولها ثم تتم دراسة الموقف وتحديد الضريبة الجديدة لمدة أخرى. كما أن جستتيان وضع طريقة جديدة للتأريخ وتبدأ بالعام الأول لتعيين الإمبراطور وهكذا مع الإمبراطور الثانى وأن كان ذلك ليس بجديد فقد عرف من قديم الزمان فى دول أخرى. والى جانب ذلك وضع التقويم العالمى

Annus Mundi التي تقول بأن خلق العالم منذ سيدنا آدم يرجع إلى عام ٥٥٠٨ ق.م).

وقد تغير هذا التنظيم مع مطلع القرن السابع بعد استقرار البرابرة الجرمان على جانب من أراضي الإمبراطورية، وبعدهما فشل جستينيان وخلفاؤه في استعادتها. كما أن الحرب مع الإمبراطورية الفارسية وبعدها مع الحكام المسلمين وضياع أراضي واسعة مثل بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا، قرب الخطر الإسلامي من آسيا الصغرى التي كانت تعد قلب الإمبراطورية، وأصبحت في حالة دفاع دائم عن نفسها، وترتب على ذلك إقامة ألوية عسكرية بكاملها للإقامة والدفاع عن هذه المناطق، والحال نفسه في بلاد اليونان. وكان القائد العسكري لهذه القوات يمنح سلطات مدنية، ومع الزمن تحولت هذه الأقاليم إلى ثيمات Themes، وصار كل ثيم يسمى بإسم الفرقة العسكرية المقيمة فيه مثل اللواء البوكليري Bucellarii والأناضولي والأوبسكي Opsikion في آسيا الصغرى، وثيرم نيقوبوليس Nicopolis على الدانوب، وثيرم سالونيك، ومقدونيا وتراقية في بلاد اليونان. ويلاحظ أن أسماء الثيمات في بلاد اليونان قد اطلقت عليها أسماء جغرافية.

ومع نهاية القرن التاسع الميلادي كان يوجد خمسة وعشرون لواء أوثيرم داخل الإمبراطورية البيزنطية، جانب منها في الشرق والآخر في الغرب. وكان لواء خورسون أي شبه جزيرة القرم Crimea تابعاً للجانب الغربي، ونظر لخطورة هذه المنطقة وتعاملها مع العناصر التي تقع في الشمال مثل الروسية وقبائل البجناكية فقد كان لقائد هذا اللواء مرتبة خاصة.

ويقدم لنا كتاب إدارة الإمبراطورية الذي وضعه الإمبراطور قسطنطين السابع Constantin VII (٩٤٤-٩٥٩م) كيفية التعامل مع هذه

العناصر التي تسيطر على شواطئ نهري الدنيبر Dnieper والدينستر Dniester، وقد وضعت ضوابط صارمة للتعامل مع البجناكيه والروس من خلال هذا اللواء. ويلاحظ أن قواد الألوية الشرقية كانوا يتقاضون مرتباتهم من الحكومة المركزية في العاصمة البيزنطية، أما قواد الألوية الغربية فكانت مرتباتهم تصرف من الضرائب المحلية لهذه الألوية. وكان قائد لواء الأناضول هو الرئيس الأعلى لكل هذه القوات وكان لقبه قائد أو سيد الجند العام Magister Militum، وكانت له على الدوام مرتبة وأسبقية خاصة.

وكانت كل فرقه عسكرية تقسم إلى فرق عسكرية أصغر تسمى التورمات Tourmai، ثم إلى كتائب، وكان يساعد قائد اللواء مجموعة من الموظفين تضم حوالي إحدى عشرة طبقة لمساعدته في الشؤون المدنية والعسكرية. وكان لقائد هذا اللواء سلطة مطلقة داخل المنطقة التي يتولى حكمها، ويتلقى تعليماته من الحكومة المركزية في العاصمة.

وبدا من الواضح أن هذه الألوية كانت تحكم بطريقة عسكرية، ورغم هذا فإن الإدارة في العاصمة ظلت حكومة مدنية. وكانت هذه الإدارة المركزية تحت إدارة القضاة والكتاب وكانت لهما أهمية كبرى في الإدارة البيزنطية.

وكان والى القسطنطينية أعظم شخصية في هذه المدينة بعد الإمبراطور، وكان ينوب عن الإمبراطور في حالة غيابه عن العاصمة، وعليه أن يرعى النظام ويطبق القانون داخل المدينة. كما كان يتولى سلطاته من خلال الديوان العام. وهذا الديوان كان ينقسم إلى قسمين، القسم الأول ويرأسه مستشار دار الوالى ويختص بالشؤون القضائية والسجون. أما الثانى وعلى رأسه ما يسمى بالمحكم Symponus، ويتولى أمر الإشراف على النقابات المهنية والحرفية وتنفيذ القوانين واللوائح التجارية ومراقبة أعمال سكان

العاصمة. وكان يساعد والى العاصمة الكويستر أو المشرف وكان له اختصاص قضائى ومدنى، ومن الاختصاصات القضائية أنه كان رئيسا لمحكمة التمييز أى الاستئناف فى القضايا التى ترفع ضد الحكام أو النبلاء. وعلى الجانب الآخر فكان يعتبر الوكيل العام للشعب أى ما يعادل النائب فى مصر حاليا، وعليه حفظ الوصايا والاعلان عنها فى الوقت المناسب والاشراف على إدارة الأملاك الخاصة بالقصر. وكان من أهم أعماله أن يدبر الأعمال للقادرين على العمل حتى لا يكون فى العاصمة عاطل، ومع تنوع أعماله وخطورة مسئوليته كان يساعده عدد كبير من العاملين.

وكان يوجد فى الإدارة البيزنطية ما يعرف بإسم القاضى، وكانت مهمة هذا القاضى جمع التظلمات التى تصل إليه، بالإضافة إلى الالتماسات التى ترفع للإمبراطور مباشرة لعرضها على الإمبراطور فى الوقت المناسب للنظر فى أمرها. ويلاحظ أنه كان لهذا القاضى ديوان ليتولى أمر مهام منصبه من خلاله، دون أن تكون له محكمة.

وكان يتولى الشئون المالية عدد من وزراء المالية، وغالبا ما يكونوا من الكتاب النابهين. وانقسمت الشئون المالية إلى قسمين؛ هما المال الخاص وهو ما يخص الإمبراطور، والمال العام الخاص بالدولة. ومع القرن السادس كان للدولة سبع خزائن، الأولى منها هى خزانة الصدقات أى الهبات المقدسة. والباقى منها هى خزائن الولاية البريتونيين وكويستر إقليم مواشيا وسوريا، وما تبقى من الخزائن يختص بالمال الإمبراطورى، ثم أضيفت خزائن أخرى على مر الزمن، وهكذا تعددت الدواوين المالية التى وضعت تحت إدارة وزير المالية الأوحده. وكان يعاونه فى هذا العمل الكبير مجموعة من المراجعين والمراقبين. واختص هؤلاء المراقبون بأعمال الضرائب المركزية، وحلبة السباق، وأعطيات الجند، وأراضى ومزارع الإمبراطور. ويأتى بعد ذلك

مجموعة اقل درجة مثل المسئول عن جمع الضرائب فى المقاطعات، ومثله بأعمال المناجم، وثالث عن سقايات الماء، ورابع عن أعمال الجمارك.

وكان من أهم المناصب داخل الإمبراطورية منصب مراقب الخيل والبريد وهو المدير العام للبريد ويتحمل مسئولية وزارة الخارجية، وكان أيضا هو المسئول عن الخطابات المتبادلة بين الامبراطور مع بقية الوزراء الآخرين، ومع مطلع القرن الجادى عشر تحمل مسئولية رئاسة الوزراء.

وكان الخصيان يشغلون الوظائف المتصلة بالإمبراطور، ومن مزايا وضع الخصيان فى هذه المناصب العليا والأسرار المحيطة بهم يرجع إلى أن ليس لهم أولاد يعملون لمصالحهم. كما كانت الأعراف داخل الإمبراطورية تحول دون وصول هؤلاء إلى المنصب الإمبراطورى. وكانت عادة تعيين هؤلاء قد بدأت فى أواخر القرن الثالث الميلادى أى من حوالى عهد الإمبراطور دقلديانوس ثم زاد عددهم بعد ذلك بعد أن اطمأن المسئولون إليهم. وكان لكل قصر خصى هو معاون القصر الأعظم، وكانت مهمته إعداد ثياب الحفلات والإشراف على محتويات البلاط، كما كان من هؤلاء الخصيان من يشرف على الموائد الإمبراطورية.

ويلاحظ أن نظام الولايات كان يتغير بتغير حدود الإمبراطورية، ولما كانت الحدود البيزنطية فى تراجع مستمر من جميع الجهات، كانت المناطق الجديدة التى أصبحت متاخمة للأعداد ترفع درجتها إلى درجة ألوية، وبالتالي أصبحت هذه الوظائف من الوظائف الهامة، وتضم إلى جانب الوظائف الرئيسية فى الحكومة البيزنطية. وأحيانا تسترد الإمبراطورية بعض الأراضى التى تفقدها ولو بعد زمن طويل مثلما حدث مع أنطاكية عام ٩٦٦-٩٦٧م، لذلك وضعت تحت دوق ليتولى أمر قيادتها وحكمها عسكريا. وقد تضطر

الإمبراطورية إلى إعادة تنظيم إحدى الولايات مثلما حدث مع إقليم لمبارديا الواقع في شمال إيطاليا حتى يسهل إدارته.

ويلاحظ أن لقب الدوق كان يمنح لمن يحكم مساحات أقل من الولاية، ومن ذلك أن فتوحات الأتراك السلاجقة في آسيا منذ عام ١٠٨٤م وما بعدها قد أنقصت من رقعة أراضي الإمبراطورية في شمال الشام وآسيا الصغرى، وكان من الضروري إعادة تنظيم الإمبراطورية على وجه يسمح بالدفاع عن أراضي الإمبراطورية، لذلك لجأ الإباطرة في عصر آل كومنين إلى إعادة تشكيل المقاطعات بشكل أصغر حجما مما كانت عليه من قبل، وتولى أمرها أحد الأدواق.

وبعد سقوط القسطنطينية في يد الصليبيين عام ١٢٠٤م تقلصت أراضي الإمبراطورية كثيرا، وأقيمت الإمبراطورية البيزنطية في المنفى وعاصمتها نيقية بآسيا الصغرى. وقد حاولت هذه الإمبراطورية المصغرة إقامة حكومة جديدة على نمط النظام القديم. ولما كانت إيرادات الإمبراطورية محدودة للغاية لقلة الضرائب التي تحصل من الأراضي المحدودة التي تحت حكم إمبراطورية نيقية، فكان كل شيء يبدو في صورة مصغرة.

وعندما استردت الإمبراطورية عافيتها واستعادت جانبا من أراضيها في الجانب الأوربي عادت عظمة الإمبراطورية بشكل ضئيل، وكان الكثير من الوظائف يترك شاغرا، كما أن المناصب العليا عادت دون أعباء حقيقية. وانحصرت إدارة الدولة في يد المستشار الأعظم، يساعده قائد القوات البحرية، وقائد القوات البرية.

وواقع الحال أن الإمبراطورية بعد عودتها عام ١٢٦١م لم تك الإمبراطورية بأراضيها السابقة، وإنما كانت عودة شكلية من ناحية الاسم،

فكل ما تمكن آل باليولوجوس من استعادته، هو العاصمة القسطنطينية وبعض الأراضي المحيطة بها، وتحكم حكمها مركزيا من العاصمة. كما كان هناك مقاطعة سالونيك، وكان يتولى حكمها عضو صغير من الأسرة الحاكمة وكانت له سلطة مطلقة داخل ولايته لانفصالها جغرافيا عن العاصمة، أما مقاطعة الموره فكان شأنها شأن ولاية سالونيك، وكانت الأخيرة عرضة من وقت لآخر لهجمات من عناصر مختلفة وأخير تسلط عليها البنادقة في عام ١٤٢٣م حتى سقطت نهائيا في يد الأتراك العثمانيين عام ١٤٣٠م، أما المورة فسقطت بعد سالونيك في أيدي الأتراك عام ١٤٦٠م.

والحقيقة أن الجهاز الإداري الكبير لإمبراطورية واسعة الذي كان يتولى إدارة شئون الإمبراطورية البيزنطية كان باهظ التكاليف لكثرة أعداد العاملين فيه، وإذا وضعت إلى جانب هذا الجهاز ونفقاته نفقات جيش دائم يغطي مساحة هذه الإمبراطورية، والنفقات الدبلوماسية الأخرى وشراء رضاء الحكام بالمال في بعض الدول، أو دفع الجزية في أحوال أخرى كما كان يحدث مع الحكام المسلمين، نقول أن هذا كله كان يستلزم إيرادا ضخما للدولة خاصة في النصف الأول من عمرها عندما كانت حدودها هي حدود الدول التي على البحر المتوسط ويزيد. ورغم هذا كله فقد كان هناك فائض في بعض الأوقات. ومن ذلك أن الإمبراطور أناستاس ٤٩١ - ٥١٨م قد استطاع أن يوفر الكثير على مدى حكمه الذي ظل حوالي سبعة وعشرين عاما، وهذا ما شجع خلفاءه من بعده مثل الإمبراطور جستنيان على الحروب في جبهات متعددة وبناء المنشآت الضخمة في ربوع الإمبراطورية. كما أن الإمبراطورة ثيودورا أرملة الإمبراطور ثيوفيلوس (٨٢٩-٨٤٢م) أثناء وصايتها على ابنها الإمبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢-٨٦٧م) قد وفرت الملايين من العملات لابنها من بعدها ليحكم على مدى ربع قرن مهتما بملاذاته أكثر من اهتمامه



بالإمبراطورية حتى عرف بإسم السكير. كما أن الإمبراطور بازيل الثاني (٩٧٦-١٠٢٥م) المعروف بإسم سفاخ البلغار قد خفض من الأعباء المالية للبلاط حتى يواجه ما يهدد الإمبراطورية من أخطار خاصة الجبهة البلغارية، ولذلك ترك خزانة الإمبراطورية عامرة بالأموال.

أما فيما يتعلق بإيرادات الإمبراطورية فكانت كثيرة ومتعددة ونبدأها بالضرائب المباشرة على المواطنين. وكانت هذه الضرائب نوعين، الأول وهو الضرائب على الأرض، والثاني هو الضرائب التي تقع على الرؤوس أى على الأفراد. والحقيقة أن ضرائب الأرض كانت هي الضرائب الأساسية باعتبار أن الإمبراطورية لها مساحات واسعة من الأراضى، وهى ثابتة يسهل الوصول إليها والتعامل معها. وكما ذكرنا فهى مربوطة على حساب السنة الضريبية، أى تقدر كل خمس عشر عاماً. ويلاحظ أن كافة الأراضى كانت مكلفة بدفع هذه الضريبة بما فيها ضياع الإمبراطورية وكذلك أراضى الأديرة، وان كانت الأخيرة قد حصلت على بعض الإعفاءات فى عهدى كل من الإمبراطورة أرينى والإمبراطور مانويل الأول (Manuel I) (١١٤٣-١١٨٠م).

وكان هناك سجلات كاملة فى الديوان المركزى بالقسطنطينية، وسجلات أخرى فى عاصمة كل مقاطعة من المقاطعات. وكانت هذه الضرائب تقدم عينا فى بداية الأمر ثم تحولت وأصبحت تدفع نقداً.

وكانت المشكلة الرئيسة أمام الإدارة الإمبراطورية هى التأكد من عدم تدنى مستوى الإيرادات - عن المصروفات - إذا عجز صاحب الأرض أو مستأجرها عن دفع الضرائب، لذلك وضعت الإمبراطورية النظام المعروف بإسم الضرائب الجماعية الذى ساد الإمبراطورية لعدة قرون، وهذه الضرائب

الجماعية تعنى أن المجتمع المحلى بأكمله كان مسئولاً عن دفع ما على المنطقة من ضرائب.

وفى عهد الإمبراطور نقفور الأول (٨٠٢-٨١١م) الذى تولى بعد حكم الإمبراطورة إيرنى، كانت الإمبراطورية تمر بضائقة مالية بعد ما تحملته من جزية باهظة كانت تدفع للخليفة العباسى فى بغداد. وقد شعر هذا الإمبراطور أن العبء على مجتمع القرية قد أصبح كبيراً لدرجة عدم الاحتمال. لذلك وجد نقفور وهو الوزير المالى السابق للإمبراطورية أن يدخل نظام الالتزام التضامنى، ويقضى هذا النظام أن أغنى منطقة مجاورة عليها أن تتحمل ضرائب ما يجاورها من الأراضى العاجزة عن دفع الضريبة، وبرغم الظلم الواضح فى هذا النظام إلا أنه جعل الإمبراطورية تحصل الإيرادات المطلوبة من كافة الأراضى، ولكن الإمبراطور ميخائيل العمورى (٨٢٠-٨٢٩م) قد الغى هذا النظام بعد حوالى عشرة سنوات وأعاد الضريبة الجماعية.

ولم يستمر الحال على ذلك طويلاً لأن الإمبراطور بازيل الثانى Basil II (٩٧٦-١٠٢٥م) أراد أن يوجه ضربة قوية لأصحاب الضياع الكبار اللذين تضخمت ثرواتهم وأصبح يخشى بأسهم، فأعاد نظام الالتزام التضامنى. ولكن النظام الأخير لم يستمر طويلاً بعد أن تذمر الاغنياء اللذين يساندون الإمبراطور، فتقرر أخيراً وضع نظام ثابت على المزارع الكبيرة، كان على صاحبها أن يدفعه حتى إذا قل المحصول أو زاد، أما إذا توفى هذا المالك الكبير وتوزعت أراضيه على ورثته، توقفت هذه الأراضى عن تنفيذ هذا النظام، وكانت هناك بعض الرسوم الأخرى التى تقرر على الماشية والأغنام وبعض الآلات.

أما فيما يتعلق بضريبة الرؤوس التي تفرض على الأفراد ومنزلهم وأعمالهم التجارية وتحركاتهم فكانت كثيرة ومتعددة وغير واضحة المعالم، وهل كانت مفروضة باستمرار، أي أنها تفرض في أوقات وتلغى في أوقات أخرى، فالأمر كذلك غير واضح. ومن هذه الضريبة ما كان يفرض على الأفراد، ويرى البعض أنها كانت تفرض على غير المسيحيين من المواطنين البيزنطيين. كما كان هناك ضريبة تعرف باسم المحراب وهي الأخرى يكتنفها الغموض ويسجل المؤرخ البيزنطي ثيوفانيس أنه في عهد الإمبراطور ثقفور الأول Nicephorus I (٨٠٢-٨١١م) كانت توجد ضريبة على المنازل يدفعها كل فرد داخل المنزل. وحول هذه الضريبة يسجل ابن حوقل النصيبى الذى عاش فى القرن العاشر الميلادى وهو أحد التجار الرحالة المتقنين ومن الذين دخلوا أراضى الإمبراطورية البيزنطية وتعامل معها تجارياً، قد سجل أن عمال الإمبراطورية البيزنطية كانوا يأخذون من كل دخان أى من كل بيت دينارين من المنازل المتاخمة للحدود الإسلامية. والمقصود بكل دخان لعله يرجع إلى أنه كان لكل بيت مدخنة خاصة بالطهى والتدفئة. هذا بالإضافة إلى العديد من الضرائب الأخرى.

أما الأراضى البيزنطية فى قبرص التى كانت عرضة للغزوات الإسلامية فكان عليهم تقديم ضريبة للدفاع، وهى أعلى فى المدن منها فى الأماكن الريفية. والحال نفسه مع جزيرة كورفو الواقعة إلى الغرب من بلاد اليونان إلى الجنوب، فكان عليها أن تدفع الكثير من الضرائب خاصة أنها كانت لها شهرة واسعة فى صناعة الحرير، وقد تم غزوها من قبل النورمان فى عام ١١٤٧م ميلاديه، ولكنها عادت مرة أخرى ١١٤٩م، ولما عادت للسيادة البيزنطية مرة أخرى وتحمل أهلها ما عليهم من الضرائب، قالوا أن عبء الحكم النورمانى أفضل لهم من عبء الضريبة التى يتحملونها.

وكان هناك ضريبة أخرى لعلها كانت نوعا على ممتلكات الأراضي الموجودة بالمدن وكانت تعرف باسم إريكون Aerikon. وتشير إليها المصادر في عهد الامبراطور جستينيان الأول، ومرة أخرى في كتاب المعارك الحربية الذى وضعه الإمبراطور ليو السادس الحكيم. كما وجدت بالإمبراطورية ضريبة الأيلولة، أى ضريبة التركات المباشرة، وإلى جانبها ضريبة التركات غير المباشرة. والأخيرة تعنى الميراث الذى يصل إلى فرد ليس من العصب، وقد الغيت هذه الضريبة الأخيرة وانضمت إلى ضريبة التركات المباشرة. ويسجل لنا المؤرخ ثيوفانيس فى بداية عهد الإمبراطور نقفور الأول عشر أنواع من الضريبة يضيق المجال هنا عن مناقشتها، ولكننى أذكر ما ورد تحت البند السادس منها وهو أن الأشخاص الذين ظهرت عليهم فجأة علامات الثراء، كان يتم مراجعة ذمتهم المالية، وتحصل منهم ضريبة على كل ما دخل فى ثروتهم بطريقة غير طبيعية، واعتبر الإمبراطور أن للحكومة نصيب فى هذه الأموال الدخيلة.

وإلى جانب الضرائب كانت هناك بعض الرسوم. وأود أن أوضح هنا الفرق بين الضرائب والرسوم، فالضرائب تقرر على الجميع مثل ما يحصل من ضريبة على مرتبات العاملين بالدولة بنسبه كل مرتب، أما الرسوم فهى مبالغ تحصل مقابل تأدية الجهاز الإدارى لخدمة معينة مثلما يسدد الطالب الرسوم الدراسية أو رسوم مقابل الحصول على شهادة دراسية أو شهادة ميلاد أو ما شابه ذلك. وربما تسمى فى بعض الأحيان الضرائب غير المباشرة لدى بعض المؤرخين. وكان فى الإمبراطورية البيزنطية جانبا من هذه الرسوم مثل الجمارك والأسواق ورسوم التمغة على الإيصالات.

وكان يوجد رسوم للتصدير والاستيراد؛ والأولى كانت تحصل داخل العاصمة البيزنطية، أما الثانية وهى رسوم الاستيراد فكانت تحصل فى مدينة

أبيدوس Abydus وهي مدينة في غرب آسيا الصغرى على مدخل مضيق الدردنيل. ولما كانت تجارة الرقيق تلعب دورا هاما في ميزانية الإمبراطورية، فقد سجل المؤرخ ثيوفانيس تعريفه جمركية على كل عبد يباع غرب ميناء أبيدوس، كما سجل أيضا رسوما على الخمور المعتقة التي مضى عليها اثني عشر عاما باعتبارها أصنافا ممتازة من الخمور. وفي بعض الأوقات كانت تفرض رسوم مؤقتة مثل التي فرضها الإمبراطور ليو الثالث الأيسوري Leo III 717-741م لإصلاح أسوار القسطنطينية بعد أن هاجمها المسلمون في عام 98هـ / 717م، أيام الخليفة سليمان بن عبد الملك (96-99هـ / 715-717م). يضاف إلى هذه الضرائب والرسوم ما كان يدر على الدولة من أموال من مصانع الإمبراطورية واحتكار صناعة الحرير وبيع الألقاب، وتجارة القمح. ويلاحظ أن العاملين بالإمبراطورية كانوا يتعمدون رفع قيمة هذه الضرائب والرسوم أحيانا من أجل رفع النسبة التي يحصلون عليها مما يحصلون.

والحقيقة أن هذا النظام الضريبي الشديد الوطأة على المواطنين قد قدم للإمبراطورية أموالا ضخمة وملا خزائنها بالكثير من المال الذي مكنها من دفع ما عليها من التزامات تجاه العدد الكبير من العاملين، والاحتفاظ بجيش وأسطول ضخم لمواجهة الأخطار من كافة الاتجاهات، وقد وضع هذا كله الإمبراطور البيزنطي في مركز أقوى من أي حاكم في غرب أوروبا. ويلاحظ أن هذه الضرائب والرسوم المرتفعة قد أدت إلى تذمر المواطنين، كما أنهم لم يكونوا من الثراء لمواجهة التجار المنافسين الأجانب عندما تداخلت التجارة والصناعة ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي.

أما فيما يتعلق بإيرادات الإمبراطورية فكانت كثيرة ومتعددة ونبدأها بالضرائب المباشرة على المواطنين. وكانت هذه الضرائب نوعين، الأول وهو الضرائب على الأرض، والثاني هو الضرائب التي تقع على الرؤوس أى على الأفراد. والحقيقة أن ضرائب الأرض كانت هي الضرائب الأساسية باعتبار أن الإمبراطورية لها مساحات واسعة من الأراضي، وهي ثابتة يسهل الوصول إليها والتعامل معها. وكما ذكرنا فهي مربوطة على حساب السنة الضريبية، أى تقدر كل خمس عشر عاما. ويلاحظ أن كافة الأراضي كانت مكلفة بدفع هذه الضريبة بما فيها ضياع الإمبراطورية وكذلك أراضي الأديرة، وإن كانت الأخيرة قد حصلت على بعض الإعفاءات فى عهدى كل من الإمبراطورة أرينى والإمبراطور مانويل الأول (Manuel I) (١١٤٣-١١٨٠م).

وكان هناك سجلات كاملة فى السديوان المركزى بالقسطنطينية، وسجلات أخرى فى عاصمة كل مقاطعة من المقاطعات. وكانت هذه الضرائب تقدم عينا فى بداية الأمر ثم تحولت وأصبحت تدفع نقدا.

وكانت المشكلة الرئيسة أمام الإدارة الإمبراطورية هى التأكد من عدم تدنى مستوى الإيرادات - عن المصروفات - إذا عجز صاحب الأرض أو مستأجرها عن دفع الضرائب، لذلك وضعت الإمبراطورية النظام المعروف باسم الضرائب الجماعية الذى ساد الإمبراطورية لعدة قرون، وهذه الضرائب الجماعية تعنى أن المجتمع المحلى بأكمله كان مسئولاً عن دفع ما على المنطقة من ضرائب.

وفى عهد الإمبراطور نقفور الأول (٨٠٢-٨١١م) الذى تولى بعد حكم الإمبراطورة إيرنى، كانت الإمبراطورية تمر بضائقة مالية بعد ما تحمته

من جزية باهظة كانت تدفع للخليفة العباسي في بغداد. وقد شعر هذا الإمبراطور ان العبء على مجتمع القرية قد أصبح كبيرا لدرجة عدم الاحتمال. لذلك وجد نفقور وهو الوزير المالي السابق للإمبراطورية أن يدخل نظام الالتزام التضامني، ويقضى هذا النظام أن أغنى منطقة مجاورة عليها أن تتحمل ضرائب ما يجاورها من الأراضي العاجزة عن دفع الضريبة، وبرغم الظلم الواضح في هذا النظام إلا أنه جعل الإمبراطورية تحصل الإيرادات المطلوبة من كافة الأراضي، ولكن الإمبراطور ميخائيل العموري (٨٢٠-٨٢٩م) قد الغى هذا النظام بعد حوالي عشرة سنوات وأعاد الضريبة الجماعية.

ولم يستمر الحال على ذلك طويلا لأن الإمبراطور بازيل الثاني Basil II (٩٧٦-١٠٢٥م) أراد أن يوجه ضربة قوية لأصحاب الضياع الكبار اللذين تضخمت ثرواتهم وأصبح يخشى بأسهم، فأعاد نظام الالتزام التضامني. ولكن النظام الأخير لم يستمر طويلا بعد أن تدمر الاغنياء الذين يساندون الإمبراطور، فتقرر أخيرا وضع نظام ثابت على المزارع الكبيرة، كان على صاحبها أن يدفعه حتى إذا قل المحصول أو زاد، أما إذا توفي هذا المالك الكبير وتوزعت أراضيه على ورثته، توقفت هذه الأراضي عن تنفيذ هذا النظام، وكانت هناك بعض الرسوم الأخرى التي تقرر على الماشية والأغنام وبعض الآلات.

أما فيما يتعلق بضريبة الرؤوس التي تفرض على الأفراد ومنزلهم وأعمالهم التجارية وتحركاتهم فكانت كثيرة ومتعددة وغير واضحة المعالم، وهل كانت مفروضة باستمرار، أي أنها تفرض في أوقات وتلغى في أوقات أخرى، فالأمر كذلك غير واضح. ومن هذه الضريبة ما كان يفرض على الأفراد، ويرى البعض أنها كانت تفرض على غير المسيحيين من المواطنين

البيزنطيين. كما كان هناك ضريبة تعرف باسم المحراب وهي الأخرى يكتنفها الغموض ويسجل المؤرخ البيزنطى ثيوفانىس أنه فى عهد الإمبراطور نقفور الأول Nicephorus I (٨٠٢-٨١١م) كانت توجد ضريبة على المنازل يدفعها كل فرد داخل المنزل. وحول هذه الضريبة يسجل ابن حوقل النصبى. الذى عاش فى القرن العاشر الميلادى وهو أحد التجار الرحالة المتقنين ومن الذين دخلوا أراضى الإمبراطورية البيزنطية وتعامل معها تجاريا، قد سجل أن عمال الإمبراطورية البيزنطية كانوا يأخذون من كل دخان أى من كل بيت دينارين من المنازل المتاخمة للحدود الإسلامية. والمقصود بكل دخان لعله يرجع إلى أنه كان لكل بيت مدخنة خاصة بالطهى والتدفئة. هذا بالإضافة إلى العديد من الضرائب الأخرى.

أما الأراضى البيزنطية فى قبرص التى كانت عرضة للغزوات الإسلامية فكان عليهم تقديم ضريبة للدفاع وهى أعلى فى المدن منها فى الأماكن الريفية. وألحال نفسه مع جزيرة كورفو الواقعة إلى الغرب من بلاد اليونان إلى الجنوب، فكان عليها أن تدفع الكثير من الضرائب خاصة أنها كانت لها شهرة واسعة فى صناعة الحرير، وقد تم غزوها من قبل النورمان فى عام ١١٤٧م ميلاديه، ولكنها عادت مرة أخرى ١١٤٩م، ولما عادت للسيادة البيزنطية مرة أخرى وتحمل أهلها ما عليهم من الضرائب، قالوا أن عبء الحكم النورمانى أفضل لهم من عبء الضريبة التى يتحملونها.

وكان هناك ضريبة أخرى لعلها كانت نوعا على ممتلكات الأراضى الموجودة بالمدن وكانت تعرف باسم إريكون Aerikon. وتشير إليها المصادر فى عهد الإمبراطور جستنيان الأول، ومرة أخرى فى كتاب المعارك الحربية الذى وضعه الإمبراطور ليو السادس الحكيم. كما وجدت بالإمبراطورية



ضريبة الأيلولة، أى ضريبة التركات المباشرة، وإلى جانبها ضريبة التركات غير المباشرة. والأخيرة تعنى الميراث الذى يصل إلى فرد ليس من العصب، وقد الغيت هذه الضريبة الأخيرة وانضمت إلى ضريبة التركات المباشرة. ويسجل لنا المؤرخ ثيوفانيس فى بداية عهد الإمبراطور نقفور الأول عشر أنواع من الضريبة يضيق المجال هنا عن مناقشتها، ولكننى أذكر ما ورد تحت البند السادس منها وهو أن الأشخاص الذين ظهرت عليهم فجأة علامات الثراء، كان يتم مراجعة ذمتهم المالية، وتحصل منهم ضريبة على كل ما دخل فى ثروتهم بطريقة غير طبيعية، واعتبر الإمبراطور أن للحكومة نصيب فى هذه الأموال الدخيلة.

وإلى جانب الضرائب كانت هناك بعض الرسوم. وأود أن أوضح هنا الفرق بين الضرائب والرسوم، فالضرائب تقرر على الجميع مثل ما يحصل من ضريبة على مرتبات العاملين بالدولة بنسبه كل مرتب، أما الرسوم فهى مبالغ تحصل مقابل تأدية الجهاز الإدارى لخدمة معينة مثلما يسدد الطالب الرسوم الدراسية أو رسوم مقابل الحصول على شهادة دراسية أو شهادة ميلاد أو ما شابه ذلك. وربما تسمى فى بعض الأحيان الضرائب غير المباشرة لدى بعض المؤرخين. وكان فى الإمبراطورية البيزنطية جانباً من هذه الرسوم مثل الجمارك والأسواق ورسم التمغة على الإيصالات.

وكان يوجد رسوم للتصدير والاستيراد؛ والأولى كانت تحصل داخل العاصمة البيزنطية، أما الثانية وهى رسوم الاستيراد فكانت تحصل فى مدينة أبيدوس Abydus وهى مدينة فى غرب آسيا الصغرى على مدخل مضيق الدردنيل. ولما كانت تجارة الرقيق تلعب دوراً هاماً فى ميزانية الإمبراطورية، فقد سجل المؤرخ ثيوفانيس تعريفه جمركية على كل عبد يباع غرب ميناء أبيدوس، كما سجل أيضاً رسوماً على الخمور المعتقد التى مضى عليها اثنى

عشر عاما باعتبارها أصنافا ممتازة من الخمور. وفي بعض الأوقات كانت تفرض رسوم مؤقتة مثل التي فرضها الإمبراطور ليو الثالث الأيسوري Leo III 717-741م لإصلاح أسوار القسطنطينية بعد أن هاجمها المسلمون في عام 98هـ / 717م، أيام الخليفة سليمان بن عبد الملك (96-99هـ / 715-717م). يضاف إلى هذه الضرائب والرسوم ما كان يدر على الدولة من أموال من مصانع الإمبراطورية واحتكار صناعة الحرير وبيع الألقاب، وتجارة القمح. ويلاحظ أن العاملين بالإمبراطورية كانوا يتعمدون رفع قيمة هذه الضرائب والرسوم أحيانا من أجل رفع النسبة التي يحصلون عليها مما يحصلون.

والحقيقة أن هذا النظام الضريبي الشديد الوطأة على المواطنين قد قدم للإمبراطورية أموالا ضخمة وملا خزائنها بالكثير من المال الذي مكنها من دفع ما عليها من التزامات تجاه العدد الكبير من العاملين، والاحتفاظ بجيش وأسطول ضخم لمواجهة الأخطار من كافة الاتجاهات، وقد وضع هذا كله الإمبراطور البيزنطي في مركز أقوى من أي حاكم في غرب أوروبا. ويلاحظ أن هذه الضرائب والرسوم المرتفعة قد أدت إلى تدمير المواطنين، كما أنهم لم يكونوا من الثراء لمواجهة التجار المنافسين الأجانب عندما تداخلت التجارة والصناعة ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي.

أما فيما يتعلق بالنفقات، فليس لدينا ما كانت تتحمله خزانة الدولة للخدمة المدنية ونفقات القوات المسلحة. ويقدم لنا كتاب الإمبراطور قسطنطين السابع الذي سجله عن المراسم جانبيا من نفقات القوات المسلحة، ويذكر أن قادة ألوية الأناضول والارمينياك وتراقية يخصص لهم مبلغا كبيرا يساوي أربعين رطلا من الذهب سنويا، وأن قادة بعض الألوية الأخرى يخصص لهم

حوالى ثلاثين رطلا من الذهب. أما قواد الثغور فيتقاضون أقل من ذلك لأنهم يحصلون على مبالغ أخرى من رسوم الحدود، كما كانت تصرف مرتبات لحملة الألقاب، ففى منتصف القرن العاشر كان يوجد من حملة لقب الماجستير حوالى أربعة وعشرين رجلا، وكان كل واحد منهم يتقاضى حوالى ثلث رطل من الذهب سنويا، ويحصل على نصف هذه القيمة ما يحمل لقب بطريق. أما عميد كلية الحقوق فكان يصرف له فى القرن الحادى عشر حوالى أربعة أرطال من الذهب سنويا وبعض البدلات الأخرى.

ولما كانت تفاصيل حياة كل مواطن بالامبراطورية من اختصاص الحكومة، كان الجهاز الادارى يتطلب نفقات كثيرة. وقد تتحمل الامبراطور كل هذه النفقات طالما كانت ميزانية الامبراطور تتحمل هذه التكلفة. ومن الأعمال التفصيلية التى كانت ترعاها الدولة نجد أن من واجبات والى القسطنطينية الأشراف على جميع أنواع النشاط التجارى، وعليه النظر فى الأسعار وتحديد أثمان كل سلعة، وأجور العمال وتحديد ساعات العمل، والترخيص بمزاولة الأعمال وفتح المحلات ومراقبة تنفيذ القوانين. وعليه أيضا مراعاة تقديس المواطنين ليوم الأحد والأعياد الدينية والرسمية. ومن مهماته أيضا تزويد العاصمة بالمواد الغذائية اللازمة، ومساعدة الناس خلال المجاعات والكوارث خاصة فى المناطق الريفية.

وكانت الأسس القوية التى قامت عليها الامبراطورية تتحصر فى ثلاثة جوانب. ويمكن أن تحدد الأولى منها بأنه كان لابد لكل فرد داخل الامبراطورية أن يكون مواطنا صالحا بمعنى الكلمة، والثانية هى دين الدولة يعتنقه الجميع ويحميه، والثالثة هى القانون الذى قامت عليه الدولة. ومما لا شك فيه أن التمسك بالدين وقيمه، كان عصب كل هذه العوامل وهو الذى حفظ الامبراطورية لمدة إحدى عشر قرنا من الزمان.

وإذا كان ذلك هو القاعدة فإنه كان هناك من خرج على هذه القاعدة من بينهم بعض الأباطرة والاستقرائية المالكه للأرض، ومن الأباطرة من قل أن نسي واجباته تجاه الإمبراطورية وفضل عليها مصالحه الشخصية ولكن لبعض الوقت، ولكنهم كانوا دائما تقريبا يضعون مصالح الإمبراطورية فوق مصالحهم الشخصية إلى حد كبير.

أما الاستقرائية المالكه للأرض فقد شكلت على الدوام جنوحا عن هذه القاعدة. ولعل هذه المتاعب تعود إلى الأخطار التي هددت الإمبراطورية فسي الغرب على يد الغارات الجرمانية، وفي الشرق من الغزوات الإسلامية، وهذا ما أدى إلى عدم استقرار هذه الأراضي، فقد مزقتها وقضت على قيمة الأرض المالية، وهذا ما أثر كثيرا على الضرائب التي كانت تجمعها الحكومة من هذه الضياع، وهذا أمر لم يك لأصحاب الأراضي دخلا فيه. ولكن المشكلة الكبيرة بدأت عندما ساد الهدوء الحدود الشرقية والغربية منذ منتصف القرن التاسع، وأصبحت الأراضي الزراعية أكبر أنواع الأعمال ربحا، لذلك نشأت طبقة جديدة من طبقة الملاك أو نمت الضياع القديمة، وكلاهما استمد ثروته من الضياع الواسعة التي عمدوا دائما إلى اتساع رقعتها. وهنا ضاع المالك الصغير للأرض وأصبح مستاجرا أو ترك الزراعة إلى أعمال أخرى. وقد أدى هذا إلى إنقلاب الأوضاع رأسا على عقب في عدة جوانب: أولا؛ الاخلال بالنظم الضريبية، وثانيا؛ ارتباط الأبناء بالأرض، وثالثا؛ نظام التجنيد في قوات الإمبراطورية.

وقد ترتب على هذا كله ما هدد كيان الإمبراطورية وأمنها، فقد كان لدى الأثرياء حاشيات كبيرة من الخدم والاتباع والعاملين في أرضه، وكان يسلمهم، فتفاقم أمرهم وأصبحوا لهم خطرا كبيرا على مراكز الأباطرة أنفسهم. وقد انشغل الأباطرة طوال القرن العاشر أي منذ عهد الإمبراطور ليو السادس

(٨٨٦-٩١٢م) وحتى عهد بازيل الثانى (٩٧٦-١٠٢٥م) بوضع القوانين التى تعمل على تقليص نفوذ هؤلاء الأعيان والحد من سلطانهم بوقف شراء الأراضى الزراعية من الفقراء. ولأن الامبراطور نفقور فوكاس (٩٦٣-٩٦٩م) قد خرج على هذه السياسة لأنه كان من أسرة تمتلك أراضى كثيرة.

ومع منتصف القرن الحادى عشر الميلادى أى مع بدايات حكم أسرة دوكاس أصبح لدى ملاك الأراضى من القوة ما جعلهم يتحكمون فى منصب الامبراطور بعد الفوضى التى اجتاحت الامبراطورية من الشرق بفعل غزوات الاتراك السلاجقة، ومنذ هذا الوقت أصبحت الاستقرائية الزراعية هى التى تتحكم فى إدارة الامبراطورية، وأصبح الحصول على درجة عالية فى الإدارة الامبراطورية تعتمد على مكانة الأسرة وعلو شأنها لا على الكفاءة أو الجدارة. يضاف إلى ذلك أن تدخل الغزو السلجوقى إلى آسيا الصغرى لم يعط أى مجال لقيام أرستقراطية جديدة، ولكن الخطورة هنا أن هذه المقاطعات أخذت تتجه إلى الاستقلال حتى إذا قدمت الحملة الصليبية الرابعة فى عام ١٢٠٤ فأكمل هذا الاستقلال وتمزقت الامبراطورية إلى كيانات عديدة بعضها فى يد قواد الحملة وبعضها فى المنفى مثل امبراطورية نيقية. ومن هنا تحول رجال الارستقراطية إلى موظفين مدنيين، وكان لهم قيمة كبيرة لدى الحكومات الجديدة. ورغم هذا كله فقد كان الجهاز الإدارى داخل أراضى الامبراطورية بدرجة عالية من الكفاءة لم تعرفه أوروبا كلها فى العصور الوسطى.

وقد لعب الفضاء دورا كبيرا فى الامبراطورية البيزنطية، وقد ساعد على ذلك الإحترام الكبير الذى يكنه المواطنون للقانون الذى ورثوه عن الامبراطورية الرومانية، حتى ظلت روح القانون الرومانى هى السائدة خلال حكم الامبراطورية البيزنطية، فأخذ الناس بالعدالة وتمسكوا بها واحترموها.

والحقيقة أن الامبراطور كان هو القاضى الأعلى داخل بلاده، وكثيرا ما رفعت اليه قضايا الاستئناف، وكان الاباطرة مثل جستينيان الأول يفضل أن يستمع إلى شكاوى الناس بنفسه، ولكن ما كان متبعا فى قضايا الاستئناف أن يتلقى وزير التظلمان الالتماسات لعرضها على الامبراطور. أما فى الولايات فكان لكل منها قضاة يفصلون فى القضايا المحلية، أما القضايا الكبرى فكانت تحول إلى العاصمة وتعرض على محكمة مكونة من اثنى عشر قاضيا. ولتسهيل الأمر على المواطنين لرفع قضاياهم فى العاصمة أقام بعض الاباطرة الاتقياء مثل رومانوس الأول ليكابينوس (٩١٩-٩٤٤م) دورا للضيافة لاقامة واستقبال المتقاضين.

أما فى القضايا التى كان أحد أطرافها رجال الدين فكانت تفصل فيها محاكم كنيسته مستقلة، وإن كانت الكنيسة هيئة من هيئات الإمبراطورية، وكان لهذه المحاكم الكنسية أيضا أن تنتظر فى القضايا التى كان أطرافها من غير رجال الدين إذا رغب الطرفان فى ذلك. ولكن الإمبراطور الكسيوس كومنين قضى على هذا الاستقلال وبسط سلطته عليها، واصبح لهذه المحاكم الكنسية أن تنتظر فى القضايا المتعلقة بالاسرة خاصة ما يتعلق بالزواج وما يقدمها الخيريون لأوجه البر. ومنذ عصر آل باليولوجس Paleologus لعب رجال الدين دورا كبيرا فى إدارة الامبراطورية، واتسع سلطان محاكم الكنيسة وظل كذلك حتى أواخر أيام الامبراطورية البيزنطية.

وفيما يتعلق بالعقوبات فقد اقتصر حكم الإعدام على جرائم الخيانة والالتحاق بصفوف الأعداء أو القتل، وهى حالات قليلة على مدى التاريخ البيزنطى، أما العقوبات الأخرى فتبدأ من توقيع الغرامات، أو مصادرة الأموال والأموال، أو بتر أحد الأعضاء. أما الأحكام بالسجن فقد وجدت الامبراطورية أن لا فائدة منها بل يكلف الحكومة أموالا كثيرة، ولم تستخدم

السجون إلا لحجز المجرمين الذين تحت المحاكمة. ومما عمل على تخفيف العقوبات في كثير من الاحيان حق الالتجاء إلى الكنائس، حتى القاتل كان له أن يفلت من العقوبة اذا دخل أحد الأديرة واعتزل فيها. وفي هذه الحالة الأخيرة تنقل نصف أملاك القاتل إلى ورثة المقتول والنصف الآخر لورثة القاتل، ويجوز أن ينقل بعضها إلى أحد الأديرة.

ومن الصعب على المؤرخين أن يقدروا إلى أي مدى كان انتشار الرشوة داخل الإدارة البيزنطية، ولكن من النصوص المتاحة لنا يمكن القول أن الامبراطور ليو الثالث قد سجل في الإيكولوجا *Ecloge* وهي التي تعرف باسم المختارات القانونية التي أصدرها عام ٧٢٦م مجموعة من القوانين، وهي مقسمة إلى ثمانية عشر فصلا منها القوانين الجزئية والمدنية، وكانت تعتبر من أفضل مراجع للقضاء يمكن الرجوع إليها، خاصة ما يتعلق بالأسرة والزواج والميراث والوصاية على الأطفال، حتى يقال عنها انها كانت قانونا للغنى والفقير، ولعل في وضوح القوانين ما قلل من الرشوة والفساد حتى أصبح يقال أنه لم يعد إلا القليل من الشكاوى بعد إقامة العدالة. والحق يقال أن المواطن البيزنطي كان أفضل من معاصريه داخل أوروبا.

## **الفصل الرابع**

### **الحياة العامة**





تقدم لنا المصادر التاريخية معلومات طيبة عن حياة البلاط الامبراطورى وحياة الأمراء والنبلاء وعليه القدم، كما تقدم لنا هذه المصادر أيضا صورة مناسبة عن الحياة فى المدن خاصة العاصمة البيزنطية والمدن الكبرى. أما حياة طبقات التجار والفلاحين والعمال من سكان القرى، فإننا لا نجد فى المصادر البيزنطية إلا قدرا ضئيلا من المعلومات، وعلينا أن نقتفى أثرهم فى تراجم بعض القديسين، والمراسيم القانونية التى تضم القواعد العامة من الناحية القانونية، أو الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والميراث ورعايته الأطفال.

ومن ناحية أخرى فإن الحياة فى الإمبراطورية التى دامت حوالى إحدى عشر قرنا، لم تسر فيها على وتيرة واحدة، فقد تغيرت الأحوال فيها عدة مرات. ورغم هذا كله فقد ظل المواطن البيزنطى يشعر شعورا قويا بأنه أفضل أنواع الجنس البشرى حضارة، ويشعر أيضا بأنه رومانى أصيل، وأنه صاحب المذهب الدينى المسيحى الصحيح، ويعتبر نفسه بأنه الوريث الشرعى لكافة الحضارة اليونانية والهلينية والرومانية ويتكلم اللاتينية بطلاقة. ولم يكن هناك فرق يذكر فى عقلية المواطن من عقلية القوم الذى يرتدى الملابس اليونانية فى بدايات عصر الامبراطورية البيزنطية مع من عاش فى نهاية عصر الامبراطورية الذى أطلق لحيته ووضع على رأسه العمامة وارتدى سترة من الدبياج الموشى وتكلم اللغة اليونانية.

وفى واقع الأمر كان سكان الامبراطورية فى بداية عهدها يشكلون أخلاط الناس من سكان سوريا ومصر وشمال أفريقيا، بالإضافة إلى كل سكان أوروبا بامتداد الشرق فى آسيا الصغرى حتى الحدود الفارسية. وتمثل ذلك كله فى العاصمة البيزنطية التى كانت عاصمة عالمية Cosmopolitan ويرتاها

أجناس العالم المتحضر بأكمله. وكانت فكرة القومية البيزنطية غير موجودة داخل المجتمع البيزنطي. ولكن المواطنه عندهم هي التمسك بالعقيدة المسيحية الصحيحة خاصة بعد القرن الخامس الميلادي واللغة اليونانية في القرن السابع.

وإذا كان ذلك هو شعور المواطن البيزنطي، فإننا لا نستطيع الإنكار بأن الامبراطورية ضمت أجناسا مختلطة من السلالات البشرية، فواقع الحال أن نسبة اليونانيين داخل الامبراطورية كانت قليلة، فقد عاش في الإمبراطورية عناصر جرمانية وأوربية رومانية وأرمينية وآسيوية وسورية وأفريقية وغير ذلك. فقبل تحول الإمبراطورية الرومانية إلى الامبراطور البيزنطة تزوجت هذه العناصر من بعضها البعض في جميع طبقات المجتمع من أعلاه إلى أدناه، وكان الامبراطور البيزنطي فيليبكوس بارداناس Philippicus Bardanas (٧١١-٧١٣م) من أصل عربي، وأن الامبراطور أركاديوس Arcadius (٣٩٥-٤٠٨م) أسباني الأصل وتزوج من يودكيا Eudocia القوطية الأصل، وأن ابنيهما ثيودورسيوس الثاني Theodosius II (٤٠٨-٤٥٠م) كانت زوجته يونانية، والحقيقة أن سكان القسطنطينية وهي العاصمة البيزنطية كان ينتمون إلى اجناس مختلفة، ولكنهم كانوا يدعون جميعا أنهم من أصول رومانية.

وإذا كانت الفتوحات الإسلامية قد أعادت مصر وسوريا وشمال أفريقيا من أراضي الامبراطورية، وقل امتزاج هذه العناصر بأهل الامبراطورية البيزنطية، فإن هناك أخلطا أخرى من الشعوب بدأت تتغلغل في نسيج الامبراطور خاصة العناصر الأرمينية والصقالية، والأخيرة هي العناصر السلافية.

وقد بدأت غزوات الصقاليه مع بداية القرن السادس الميلادى خاصة فى بلاد البلقان فى بداية الأمر، وعندما ساد الاستقرار بعد الغزوات الجرمانية زادت نسبة الامتزاج بين الاجناس الأصلية والوافدة، فكنا نرى قادة عسكريين وبعض من يتولون مناصب كبيرة فى الامبراطورية من عناصر غير يونانية أو رومانية، حتى أن بعضاً منهم قد طالب بالعرش ورفع راية العصيان ضد الامبراطور. ومن هؤلاء توماس Thomas ويعرف باسم توماس الصقلى الذى قاد ثورة ضد الامبراطور ميخائيل الثانى (٨٢٠-٨٢٩م) طوال أكثر من عام بداية من ديسمبر ٨٢١م وحتى أعدمه الامبراطور فى ربيع عام ٨٢٣م، وتزوجت الأميرة ماريا ليكابينوس Maria Lecaponus من بطرس قيصر البلغار (٩٢٧-٩٦٩م) وبذلك زادت الاستقرارية اختلاطاً بالمصاهرة إلى الأسرة المالكة البلغارية، ومع نهاية القرن الحادى عشر ذاب الصقالية فىمن حولهم من السكان.

أما فيما يتعلق بالعناصر الأرمينية فإنهم لم يتركوا بلادهم الأصلية إلا تحت الهجمات العسكرية مثلما هاجروا من بلاد الأرمن الأصلية وهى أرمينيا الكبرى، وكانت عاصمتها مدينة أنى، تحت ضغط هجمات الأتراك السلاجقة وسقوط هذه العاصمة فى عام ١٠٦٤م، فهاجروا إلى إقليم قيليقية فى الجنوب الشرقى لآسيا الصغرى، كما انهم كانوا يرحلون جماعات أو فرادى بسبب فقر الأراضى التى عاشوا فيها. وكان من العناصر الأرمينية القائد العظيم نارسيس Narses فى عهد الامبراطور جستينيان الأول Justinian I (٥٢٧-٦٥٦م)، وأن الإمبراطور ليون الخامس Leo V (٨١٣-٨٢٠م) كان أرمينياً، كما كان الامبراطور بازيل الأول Basil I (٨٦٧-٨٨٦م) من أسرة أرمينية، وكان الإمبراطور يوحنا الأول تزيمسكيس Hohn I Tzimisce نبيلاً أرمينياً. وفى مرحلة أخرى نجد قمة الوظائف العليا فى يد عناصر أرمينية من أسرة واحدة،

ومن ذلك الامبراطور رومانوس الأول ليكابينوس Romanus I Lecapenus (٩٢٠-٩٤٤م) وابنه ثيوفيلكت Theophyloct ينسبوا مركز بطريك الإمبراطورية (٩٣٣-٩٥٦م)، يضاف إليهم أيضا من العناصر الأرمينية قواد الجيش يوحنا كوركواس John Corcuas، وهكذا بدت الامبراطورية كلها في أيد عناصر أرمينية. وهكذا وعلى طول التاريخ البيزنطى نسمع عن أميرات أو كبار الموظفين من أصل أرمينى.

كما انتشر فى داخل المدن البيزنطية كثير من الصناع والتجار الأرمن، وحتى يشق الأرمينى طريقه داخل الامبراطور فكان عليه أولا أن يتخلى عن مذهبه الأرمينى ويعتق المذهب الخلقدونى. يضاف إلى ذلك أنه كان من الأرمن نسبة كبيرة من خيرة العقول التى تعمل بالتجارة. وكان لهم أثرا عظيما فى الفن البيزنطى. والحقيقة أن الأرمن كانوا أكثر الاجناس هجرة داخل الامبراطورية.

يضاف إلى الصقالية والأرمن أن التاريخ البيزنطى يسجل كثرة من المهاجرين الذين وفدوا إلى أراضى الامبراطورية من الشرق والغرب التماسا للعمل والثراء.

وفى الشرق كانت الحدود مع العام الاسلامى تشهد الكثير من القادمين والمغادرين، ومما يقال أن والد Digenis Akritas بطل الملحمة الشهيرة كان أميرا عربيا مسلما ثم اعتنق المسيحية، وكان المهاجرون إلى الامبراطورية من الشمال الأوروبى وغربه فى القرون المتأخرة يفضلون العودة إلى بلادهم بعدما جمعوا من ثروات، ومن هؤلاء الفارنجيين سكان إسكادنافية (السويد والنرويج والدنمرك)، وانجلترا وبلاد الفلاندرز فى شمال فرنسا. وربما فضل بعضهم الاستقرار فى مهجره وكونوا أسرا فيها.

وقد ساعد ذلك أن البيزنطى لم يكن متعصبا ضد أى أجنبى يعتنق المذهب البيزنطى الخلقدونى ويتكلم باللغة اليونانية، أما ما كان يلفظه البيزنطى هو الشخص الذى يعتنق غير مذهبه، فقد اعتبره كافرا، وبذلك أصبح بوسع أى مهاجر يعتنق المذهب الخلقدونى أى يتزوج من امرأة بيزنطية مهما كان شأنها، وكثيما ما نقرأ عن سيدات بيزنطيات من عائلات كبيرة يتزوجن من مغامرين. ولكن الهجمات العسكرية من غرب أوربا على أراضى الامبراطورية مثلما حدث فى الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤م جعلت البيزنطيون يكرهون الأجانب باعتبارهم معتدين، ويصبون اللعنات على الحضارة الغربية لا على المواطنين.

وهناك حقيقة هامة نود الإشارة إليها، وهى أن العنصر البشرى الوحيد الذى استقر داخل الامبراطورية دون امتزاج بمن حوله من العناصر هو العنصر اليهودى رغم أنه كان قليل العدد، وتجمع بخاصة فى مستعمرات فى آسيا الصغرى وتحدثوا اللغة اليونانية، ومع تقدم الزمن انتشر هؤلاء اليهود فى معظم المدن البيزنطية على حد ما كتبه الرحالة اليهودى بنيامين التطبلى، وأن كان ما ذكره فيه كثير من المبالغة. وقد اشتغل هؤلاء بالأعمال التجارية، وإن كانوا أقل خبرة من الأرمن، ويسجل البعض أنهم كانوا يقدمون ضرائب إضافية مع التعرض للاضطهاد من وقت لآخر. ومع الزمن اعتنق بعضهم المسيحية على المذهب الخلقدوفى وانضموا إلى الطبقات العليا، ويشير المؤرخ ثيوفانىس أنه فى ربيع عام ٦٢٩م غادر الامبراطور هرقل القسطنطينية واتجه إلى مدينة بيت المقدس لإحضار الصليب المقدس، وعندما وصل إلى مدينة طبرية قال له أهل المدينة أن رجلا من هذه المدينة يدعى بنيامين وهو يهودى ثرى قد اعتنق الديانة المسيحية، وقد دار جدل بين الامبراطور وبنيامين وانتهى الأمر بتعميد بنيامين ودخوله فى الديانة المسيحية فى بيت يوستاثيوس

النبوبوليتانى Eustathios The Neapolitan، وهو شخصيه كبيره استقبلت  
الامبراطور هرقل.

أما فيما يتعلق بمركز العاصمة البيزنطية وهو القسطنطينية، فقد  
أصبحت هذه المدينة مركزا دينيا واقتصاديا وإداريا منذ نشأتها، فقد تمركز  
فيها كل أجهزة الامبراطورية، وبحكم موقعها كانت مدخلا ومخرجا لقارتي  
آسيا وأوربا، وعلى اتصال بالبحر الأسود شمالا وبحر إيجه والمتوسط جنوبا،  
ومن هنا صعد نجم هذه العاصمة منذ نشأتها. فقد قلت أهمية روما وميلانو  
وقرطاجنه، أما مدينة الاسكندرية وهي مقر القديس مرقس فقد كان على  
البطريك المصرى مسئولية نشر المسيحية فى سائر إفريقيا، أما وأنطاكية  
المنسوب إليها القديس بولس فقد كانت مسئولة عن نشر المسيحية فى أنحاء  
آسيا فكانت حتى الفتح الاسلامى لا تقل شأننا عن القسطنطينية إلا قليلا. ومع  
اضطراب أحوال أوربا بسبب الغزوات الجرمانية، تحولت التجارة القادمة من  
الشرق البعيد إلى آسيا الصغرى.

ومع ازدهار مدينة القسطنطينية زاد عدد سكانها حتى بلغ حوالى  
مليون نسمة بدون الضواحي، وظلت على هذا الحال حتى سقطت فى يد  
الصليبيين على يد الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤م، فاضمحل عددها إلى  
حوالى مائة ألف، ثم بدأ فى النقصان حتى سقطت فى يد الأتراك العثمانيين عام  
١٤٥٣م.

وواقع الحال أن موقع المدينة وحصانتها قد أهلها لهذه المكانة البارزة  
فى التاريخ، فهى مدينة مثلثة يحد الضلع الشمالى فيها القرن الذهبى وهو مرفأ  
هام لدخول وخروج التجارة، والضلع الشرقى يواجه بحر مرمه أما الغربى  
منها فهو يواجه الجانب البرى من إقليم تراقيا، وقد حصن بثلاثة أسوار فى

غاية الحصانة، وكانت المدينة كلها محاطة بالأسوار بها حوالي اثنتا عشر بوابة منها بوابات عسكرية وأخرى مدنية، وداخل هذه المدينة نجد الكنائس والقصور والبساتين.

وكان التجار أو المسافرون القادمون من خليج البسفور في الشمال أو خليج الدردنيل من الجنوب يجد إلى الغرب قباب القصر الكبير وكنيسة آيا صوفيا وحولهما الحدائق، وإلى جوارها الهيدرولوم وهو ميدان السباق ومقر الاحتفالات وتتويج الامبراطور، هذا بالإضافة إلى كنيسة القديس سرجيوس وباكوس والأبراج التي تعلو الأسوار. وفي خلف المدينة أي الجانب الغربي كان نهر ليكوس الذي يمد العاصمة بالمياه، وخزانات المياه التي تحفظ فيها المياه لاستخدامها في أيام الصيف.

وخارج أسوار المدينة كانت المنازل على امتداد الساحل، أما داخل المدينة فيقع الشارع الأوسط، وهو شارع واسع وضع على جانبيه العقود أي البواكي، وهو يخرق سوقين، وهما عباره عن ساحة واسعة تزينها التماثيل، وأحد هذه الأسواق يسمى سوق قسطنطين والآخر يسمى سوق ثيودسيوس. وعلى جانبي الشارع الأوسط كانت تقع أجمل وأهم حوانيت المدينة، وهي مصنفة في مجموعات طبقا لما تبيعه من السلع، فكانت ترى صاغة الذهب ثم صاغة الفضة، ثم محلات الأقمشة والثياب وهكذا، وكذلك المركز التجاري لسوق الحرير الفاخر وكان يعرف بدار الأنوار، لأن أنواره كانت تضاء ليلا.

ولم يكن بداخل العاصمة البيزنطية حي خاص لسكنى كبار القوم، فكانت القصور والمنازل تتداخل مع بعضها البعض. ويلاحظ أن منازل الأثرياء كان تبنى من طابقيين على الطريقة الرومانية القديمة، وكانت نوافذها تطل على صحن داخلي توضع فيه فسقية، وتارة يكون بسقف أو بدون. أما



منازل الفقراء فكان لها شرفات تطل على الشارع. وقد تدخلت إدارة الامبراطورية لتنظيم المباني بعد أن عمها الفوضى، وضاق الشوارع أو اتسعت حسب الأحوال. فقد أصدر الامبراطور زينون Zeno (٤٧٥-٤٩١م عدا عامي ٤٧٥-٤٧٦) قانونا نظم به المباني، وقد نص هذا القانون على الا يقل عرض الشارع عن ثلاثة أمتار ونصف أى حوالى إثني عشر قدما، ولا يجوز أن تخرج الشرفات عن حدود المبنى الأصلي كثيرا، وقدره البعض بحوالى قدم واحد، ولا يجوز تعلية المبنى لأكثر من خمسة عشر قدما عن سطح الأرض أى بمعدل دور واحد. أما فيما يتعلق بأنايب الصرف الصحى فكانت تتجه جميعها لتسرب إلى البحر، وكان لا يوجد بالمدن مدافن للأفراد، وقد وضع كل هذا فى منظومة واحدة يرها ويشرف عليها الأطباء والعاملون فى كل ولاية.

أما الحدائق والبساتين فكانت تنتشر داخل المدن، وكان الزائر للمدن البيزنطية يرى فى كل شارع كنيسة، كما ألحقت الأديرة بالكنائس الكبرى. كما وجدت بالمدن أيضا المستشفيات ودور الضيافة وملاجئ للايتام، وفى العاصمة كانت مباني الجامعات وصهاريج المياه والحمامات العامة. ويلاحظ أن شوارع القسطنطينية الهامة والاسواق وميدان السباق كانت مملوءة بالتماثيل البديعة الصنع، وقد ظلت موزعة داخل الشوارع لتضيف على المدينة عزة وبهاء حتى سرقها أو دمرها الصليبيون فى عام ١٢٠٤م، ومن ذلك تماثيل الخيول الأربعة البرنزىة التى سرقها البنادقة عند فتحهم للمدينة، وقد استولى نابليون على هذه التماثيل عندما غزا البندقية ونقلها إلى باريس، ولكن إيطاليا استعادتها مرة أخرى وهى موجودة الآن بالبندقية داخل كاترئية القديس مرقص.

وكانت الضواحي تقع حول العاصمة مثل ضاحية جلاتا Galat التى تقع شمال القرن الذهبى، وقد نمت هذه الضاحية بعد ما انتقلت إلى يد

الايطالين، وكان بها تجارة رائعة، وكان هناك منتجعات يتوافد عليها الاثرياء في الصيف.

وكان المنظر الخارجى للقسطنطينية فى غاية الجمال، فكانت القباب والكرانيش والعقود الملونة والصور والتماثيل التى صنعها الفنان البيزنطى بكل عناية، وكانت ملابس الأغنياء حتى القرن الخامس الميلادى تشبه الملابس الرومانية، ثم تحولت مع مرور الزمن إلى سترات طويلة من الديباج الموشى، ثم ازدادت الملابس إتقانا، وصار الرجال يضعون على رؤسهم العمام ويطلقون لحاهم، أما النساء فلبسن القبعات، وظهرت أدوات التجميل التى تزين النساء والمراهقات. وفيما يتعلق بالاسواق وما فيها من سلع فقد تدخلت الحكومة وأوجدت نظاما لساعات العمل والأسعار والأرباح، وقد تولى هذا الأمر والى المدينة، كما حددت الكنيسة أيام الأعياد والصيام.

وفيما يتعلق بحياة الامبراطور اليومية، فكانت تتظمها قواعد معينة من التنظيمات والمراسيم، فعلاوة على أعماله الادارية والسياسية وغير ذلك من أعباء الحكم داخل القصر الامبراطورى، كان عليه حضور الاحتفالات الكثيرة على مدار السنة، وفى هذه الاحتفالات كان يتلقى من الاحترام ما يليق به، كما كان يشارك ويحضر بنفسه الألعاب التى تقام فى ميدان السباق. كما كان عليه ايضا أن يغير ثيابه بما يليق مع كل مناسبة، وأن يسير فى مواكب طويلة وسط جمهور المواطنين. كما كان عليه قيادة الجيوش إذا لزم الأمر. وإذا كان لديه بعض الوقت، فله أن يستريح فى الصيف فى أحد قصوره. ولم يجد الاباطرة إلا القليل من الوقت الذى يشبعون به هواياتهم، أو تأليف بعض الكتب. أما اذا ترك الاباطرة هذه الأعمال لغيرهم من كبار رجال القصر فانهم لم يكتفوا على عروشهم إلا وقتا قصيرا، إلا إذا كان رجال القصر هؤلاء من الثقة والخبرة والولاء بما يضمن لهم حكما مستقرا.

أما فيما يتعلق بالقصر الامبراطورى الذى يحكم منه الامبراطور، فقد ظل القصر الكبير Bucoleon مقرا للإمبراطور حتى القرن الثانى عشر، وقد سمي بهذا الاسم نسبة إلى مرفأ القصر الذى حمل الاسم نفسه، وفى هذا المكان كان يوجد تمثال لثور ضخم يصارع أسدا.

وقد ضم هذا القصر أجنحة للإقامة وقاعات محاضرات واجتماعات. وفى هذا القصر بنى الامبراطور ثيوفيلوس Theophilus (٨٢٩-٨٤٢م) قاعة رائعة للاستقبال، وأضاف الامبراطور بازيل الأول Basil I (٨٧٦-٨٨٦م) بعض الاضافات، كما أنشأ الامبراطور نيقور الثانى فوكاس Nicephorus II Phocas، الذى اعتصب العرش بصفه دائمة حتى قتل فيه، جناحا عند شاطئ البحر، أما أباطرة أسره كومنين Comnenus بداية من حكم مؤسسها الامبراطور الكسيوس الأول Alexius (١٠٨١-١١١٨م) ويوحنا الأول John I (١١١٨-١١٤٣م) ومانويل الأول Manuel (١١٤٣-١١٤٣-١١٨٠م)، كانوا يفضلون الإقامة فى قصر بلاخرناى Blacherae. ويروى عن الأخير أنه كان شديد الوله بالصيد، ولذلك فضل الإقامة بصفة دائمة فى هذا القصر الذى يقع فى الركن الشمالى الغربى للمدينة على شاطئ القرن الذهبى حتى يكون قريبا من مناطق الصيد فى الأقاليم المجاورة للقصر. وقد أصاب القصور تخريبا كبيرا على يد الصليبيين فى عام ١٢٠٤، وقد أخذ ترميم جانبا منها وقتا طويلا بعد ذلك.

وكان ما بداخل هذه القصور من تحف وتماثيل ورسوم على الجدران قد أذهل رجال الحملة الصليبية الرابعة، وقد سجل أحد المؤرخين وهو فلهاردوين Villehardouin بعض أشكال عظمة هذه المدينة، لقد اندهش بما رآه داخل قصر بلاخرناى من ألوان الرخام والفسيفساء والصور الجصية التى

ازدانت بها جدران القصر، والجواهر والسبائك الذهبية وتمائيل الأسود التى تزار، والطيور التى تغرد، بالاضافة إلى مجموعة من آثار القديسين التى جمعت من أنحاء العالم المسيحى. وكان بالقصر تل شيدت عليه مناره لارشاد السفن إلى داخل مضيق البسفور الواقع إلى الشمال من المدينة، وبجوارها كنيسة باسم السيدة مريم العذراء، وكان بها متحف ضم ذخائر للقديسين لا تقدر بثمن، وقد وزعت هذه الكنوز على الصليبيين فى عام ١٢٠٤م.

ولما كانت تجارة الحرير احتكارا للامبراطورية، فكان القصر مقر إدارة هذه التجارة، وكانت أنوال نسيج الحرير موجودة داخل الجانب الخاص بالنساء، وعلى هذه الأنوال صنعت أثمن أنواع الحرير التى كانت صناعتها سرا من أسرار الامبراطورية. وفى هذا القصر أيضا كانت مكاتب الحكومة والوزراء وكافة الدواوين. وكان فى هذا القصر كذلك أجنحة خاصة بالامبراطورة وحاشيتها، وكانت هذه الأجنحة تحت سلطان الامبراطورة لا يسمح بالدخول إليها إلا باذن منها.

وكان لها أن تغادر هذا الجناح لتقابل الامبراطور فى جناحه وتتنازل معه الطعام. وكان للامبراطورة إذا كانت وصية على إمبراطور قاصر أن تستقبل رجال الدولة. وواقع الحال أن الامبراطورة كانت فى بعض الأحيان داخل هذا القصر أقوى من الامبراطور.

وإذا تطلب الأمر اختيار عروسة لامبراطور، فكان المبعوثون حسب التقاليد يجولون داخل المدن ليختاروا من بيوت الأمراء والنبلاء أجمل البنات، وغالبا ما كان يتم الاختيار طبقا لأسباب عاطفية أو سياسية، وفى هذه الحالة يستغنى عن الطريقة التقليدية، وفى أحيان أخرى كانت الأم هى التى تختار العروس بنفسها كما حدث أيام الامبراطورة إيرين التى اختارت العروس لابنها

قسطنطين السادس (٧٨٠-٧٩٧م). وقد يتم زواج الاميرات البيزنطيات، وهو أمر نادر الحدوث، ومن أمراء أو ملوك أجنبية مثلما حدث مع الأميرة ثيافانو Theophano ابنه الامبراطور رومانوس الثاني Romanus II (٩٥٩-٩٦٣م) من الأمير الألماني أوتو Otto في عام ٩٧٢م الذي تولى عرش الامبراطورية الرومانية المقدسة (٩٧٣-٩٨٣م).

ومن مظاهر الحياة العامة في العاصمة البيزنطية ألعاب السيرك وسباق العربات بين الفرق المختلفة التي اتخذت ألوانا مختلفة لملايس أبطال هذا السباق مثل الأبيض والأحمر والأزرق والأخضر. وكان هذا المكان يعرف باسم الهيدروم Hippidrome أو الملعب الكبير وكان هذا الملعب يوجد بالقرب من القصر الكبير وكنيسة آياصوفيا. وقد بنى هذا المكان على شاطئ بروبونتس Propontis بالقرب من البوابة الذهبية، وفي هذا المكان كان يتم استعراض القوات العسكرية. وقد زين هذا المكان بوجود بعض الكنائس، ومن ذلك كنيسة النبي صمويل Samuel التي ضمت بعض مخلفاته، وكذلك كنيسة القديس يوحنا المعمدان John Baptist (وهو النبي يحيى) التي أقامها الامبراطور ثيودوسيوس الأول، وقد أعدت هذه الكنيسة لتوضع بها رأس يوحنا المعمدان. وقد نقل ثيودوسيوس الكبير Theodosius I (٣٧٩-٣٩٥م) مسلة الملك تحوتمس الثالث ووضعها في منتصف هذا المكان ولا زالت باقية حتى يومنا هذا، وقد تم توسعة هذا المكان في عهد الامبراطور جستنيان الأول Justinian I (٥٢٧-٥٦٥م). وفيه كان يتم تتويج الأباطرة منذ عهد فالنز Valens (٣٤٦-٣٧٨م) إلى أيام زينون Zeno (٤٧٤-٤٧٥م). وفي هذا المكان أيضا تجمع الثوار فيما يعرف باسم ثورة نيقا Nika عام ٥٣٢م ضد الامبراطور جستنيان الأول.

وكان على الامبراطور وزوجته أن يحضرا مثل هذه الألعاب ومشاركة الشعب فيما يتم من احتفالات، وكان من الممكن الوصول إلى المقصورة الامبراطورية المقامة داخل السيرك من القصر مباشرة. وكان ميدان هذا السيرك مكانا واسعا يستطيع أن يحتوى على أماكن لحوالى أربعين ألف متفرج. وكان حول هذا المكان بعض المباني المتواضعة للعاملين فى خدمة السيرك بالإضافة إلى بعض اصطبلات الخيول. وكان الدخول إلى هذا السيرك أو ميدان السباق مجانا، وتتحمل الحكومة ما يتحمله الاحتفال من أموال. والحقيقة أن هذه الاحتفالات كانت أهم الاحتفالات التى يقبل عليها الجمهور.

وفى هذا المكان كان يتم إقامة المهرجانات الخاصة بسباق العربات المتنافسة، أو الصراع بين الحيوانات. وكان لهذه المهرجانات مراسم خاصة تنفذ بكل دقة وكان لها نظام خاص يحدد طريقة السباق وقيمة الجوائز التى تمنح الفائزين. وكان يوجد فى ألعاب سباق العربات نجوم لهم شهرتهم وأصبحوا نجوما فى هذا المجال، ومن هؤلاء بورفيرىوس Porphyrius الذى ذاع صيته فى عهد الامبراطور أناستاسيوس الأول Anastasius I (٤٩١-٥١٨م)

ولكن هذا الحال تغير فى القرن التاسع الميلادى، فقد تراجع سباق العربات وبدأ يسترعى انتباه الناس رياضية الفروسية. وزاد من أهمية هذه الرياضة الامبراطور مانويل الأول الذى مال إلى الحضارة الأوروبية فأدخل الفروسية كرياضة أقيمت فى هذا المكان، ولكن ما حاط بالامبراطور من مشاكل وهزائم فى مراحل لاحقة جعل الناس لا يهتمون كثيرا بهذا الرياضة.

وكان الاحتفال بالأعياد من المظاهر الهامة داخل العاصمة البيزنطية فكان الامبراطور يستقبل فى قصره كبار الزوار ويمرون أمامه صفا واحدا،

كما مرت النساء أمام الامبراطورة. كما تشبه الأمراء وعلية القوم بالامبراطور واستقبلوا في مقر إقامتهم كبار الزوار وبعض الاتباع من الشعراء وغيرهم وتشبهوا بالبلاط الامبراطورى.

أما فيما يتعلق بملكية القصور والمباني، فقد كان جميع الأمراء يملكون قصورا أو منازل فسيحة بالعاصمة، لأن هؤلاء وهم من علية القوم كانوا يشغلون بحكم العادة مناصب هامة فى الحكومة الامبراطورية، وهم يمثلون حاشية الامبراطور، لذلك كان الأمر يتطلب إقامة شبه دائمة داخل العاصمة، وفضلا عن ذلك كانوا يملكون بعض المنازل فى الريف لقضاء جانباً من فصل الصيف، وتعتبر هذه المنتجعات الريفية ملاذا لهم اذا ما غضب على أحدهم الامبراطور ونفاه خارج العاصمة.

وفىما يتعلق بملكية الأراضى التى كانت العائلات الكبيرة تستمد قوتها من دخلها، فقد فقدت بعض العائلات الكبيرة - التى كانت تعيش على الحدود الشرقية للامبراطورية - أراضيتها وثرواتها وسلطانها أثناء غزوات المسلمين أو حملاتهم على شرق آسيا الصغرى، وبذلك أصبح امتلاك الأراضى حتى القرن التاسع الميلادى تقريبا جانباً لا يؤتمن له. أما من كان لهم ممتلكات داخل العاصمة البيزنطية لا نجد منهم فى المصادر التاريخية إلا عائلة مليسنيوس Melissenus ويظهر منها الثائر نقفور فى عام ١٠٨٠م الذى طالب بعرش الامبراطورية، وقد انتقلت هذه العائلة بعد ذلك لتعيش فى إقليم تساليا Thessaly ، هذا بالإضافة إلى ستيفن Stephen الذى حكم حتى عام ١٣٣٣م.

ومنذ منتصف القرن التاسع الميلادى وهدوء الجبهة الشرقية بعد نهاية الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية وتحول الصراع أيام بنى أمية مع

الامبراطورية البيزنطية من صراع وجود إلى صراع حدود أيام بنى العباسي، أخذت تظهر بعض العائلات الكبيرة مثل عائلة آل فوقاس Phocao وعائلة دوكاس Ducas وعائلة سكيليروس Sclerus وعائلة أرجيروس Argyrus، وعائلة كومنين Comnenus، والحال نفسه على الحدود الغربية للامبراطورية فبعد الغزوات البلغارية وهدوء هذه المنطقة بدأت بعض العائلات الكبرى مثل عائلة كانتاكوزين Cantacuzenus، وعائلة برينوس Bryennius وعائلة تورنيكس Tomices. وكل هذه العائلات ظهر منها أباطرة أو قادة عظام، أو ثائرون ضد الأباطرة. ولعبوا دورا كبيرا في تاريخ الامبراطورية على مدى قرون طويلة. ويلاحظ أن هذه العائلات كانت تضع إلى جوار أسماء الأولاد لقب عائلات أمهاتهم، وعلى امتداد التاريخ البيزنطي نجد نماذج كثيرة لهذه الحالات، ومن ذلك أسرتا دوكاس وكومنين اللتان حكمتا الامبراطورية من ١٠٥٧ حتى ١١٨٥م.

ويلاحظ أن هذه الأسر الكبيرة كانت تعيش مع بعضها البعض وتتقوى برجالها ضد منافسيها وضد أية أخطار أخرى، وسجلت المؤرخة أنا كومنيننا Ann Comnena وهي سليلة عائلات كومنين كيف كانت أمها دالاسينا Dalassena كانت تجمع أفراد هذه الأسرة، وأنهم كانوا يأترون بأمرها، وأنهم كانوا وحدة واحدة يدافعون عن مصالحهم بكل قوة، وانها ساندت بكل قوة ابنها الكسيوس Alexius Comnens وهو القادة العسكري الناجح حتى تولى عرش الامبراطورية (١٠٨١-١١١٨م).

وكانت السبل مفتوحة للأشخاص للوصول إلى طبقة الاستقراطيين أو علية القوم، فكان بوسع أي مستثمر للأراضي وهو استثمار آمن وناجح أن يجمع قدرا كبيرا من المال ويؤسس أسره نبيلة، وقد يستطيع أن يشتري لقباً



شريفًا يصبح بموجبه أو أولاده في حياته أو من بعده أن يكونوا أحد أعضاء مجلس الشيوخ. ومن الطرق الأخرى أن ينضم إلى سلك الجندية ويبلى بلاء حسنًا في المعارك العسكرية فيكافئه الامبراطور بمنحة تكون أرضًا واسعة يقام عليها مزارع ضخمة مثلما حدث لأسرة فوكاس. وربما يهتم الامبراطور بأحد أبناء رجال السياسة المقربين إليه، مثلما حدث مع المؤرخ ثيوفانيس Theophanes الذي أصبح تحت حماية الامبراطور، ليو السادس الحكيم Leo VI the wise (٨٨٦-٩١٢م) لأن والد ثيوفانيس زاع صيته كحاكم عسكري في جزر بحر ايجه، ولو شاء هذا المؤرخ أن ينعم بالضياع وخيراتها لفعل ولكنه لم يرد. ومن ذلك ثيوفلاكت Theophylact الذي أنقذ حياة الامبراطور بازيل الأول Basil I (٨٦٧-٨٨٦م) مرتين، فاهتم هذا الامبراطور بابن ثيوفلاكت وهو الذي أصبح القائد العسكري الشهير رومانوس ليكابينوس Romanus Lecapenus الذي تولى عرش الامبراطورية البيزنطية (٩١٩-٩٤٤م). أما عميد أسرة كومنين فقد كان يؤمن بأن الحفلات المنزلية واستضافة عليّة القوم لم تكن من الصواب في شيء، لأنه كان يرى أن هؤلاء الضيوف ليس لديهم إلا أن ينتقدوا المكان الذي ضيفوا فيه.

ولم تكن مثل هذه الحفلات تقام في القصور الريفية، عدا بعض الحالات النادرة وهو أن يمر بالمكان الريفي أحد السفراء أو الوزراء أو الامبراطور نفسه. ومن ذلك أن فيلاريتوس Philaretus استضاف إحدى البعثات التي تبحث عن عروس للامبراطور قسطنطين السادس Constantine (٧٨٠-٧٩٧م). ولم تكن مثل هذه الحفلات تمر بسلام فقد استقبل يوستاسيوس مالمينوس Eustathius Maleinus، القائد السابق في جيش بارداس فوكاس Bardas Phocas الامبراطور بازيل الثاني Basil II

(٩٧٦-١٠٢٥م) المعروف بإسم سفاح البلغار عند عودته من حملة عسكرية وقعت في بلاد الشام. وقد استلقت نظر الامبراطور الثراء الفاحش الذي يتمتع به يوستاسيوس، وأن ما حوله من رجال بلغ عدة آلاف، وعندما عاد بازيل إلى العاصمة دعا يوستاسيوس لزيارته وأبقاه لديه أسيرا معززا مكرما وصادر كل أملاكه لصالح الامبراطورية.

وكانت قصور الأمراء تشابه قصر الامبراطور في التصرفات وليس في الحجم، فقد كان بها أجنحة للنساء وإن كانت في صوره مصغره، وكانت ربة الأسرة تشارك الرجال حياتهم، أما الفتيات غير المتزوجات فقد كن يعشن في حالة اعتزال إلى حد كبير حتى يتزوجن، وعند هذه الحالة تصبح ربة الأسرة. وكان بعض المشاهير متواضعا ويتناول طعامه في داره ولا نجد معه إلا فرد واحد، يعد له ولزوجته الطعام. ولكن هذا الرجل كان لا يقترب من المائدة إلا بعد حضور والدته. وقد دام هذا التقليد الخاص باحترام سيده القصر حتى آخر يوم في حياة الامبراطورية، فقد كانت أرملة الامبراطور مانويل الثانى (١٣٩١-١٤٢٥م) هيلينا دراجس Helena Drags ، وهى تنتمى إلى أسرة حربية الأصل، وهى التى تسيطر على الموقف داخل القصر، وعلى ابنها الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر آخر الأباطرة البيزنطيين (١٤٤٨-١٣٥٣م).

وكما شاركت المرأة في جميع الانشطة السياسية والاجتماعية والدينية نجدها أيضا تشارك في المؤتمرات الكبرى التى تؤيد حق الامبراطور فى العرش أو تعارضه. ومن ذلك أن أنا دالاسينا والدة الامبراطور الكسيوس كومنين كانت تسيطر عليه كثيرا، وانها تصرفت فى كل الأمور عندما كان ابنها يحارب فى البلقان ضد الأمير النورمانى روبرت جويسكارد Robart

## . Guiscard

وقد تأمرت أنا دالاسينا على ابنها الآخر وهو الامبراطور يوحنا كومنين (١١١٨-١٣٤٢م) حتى لا يتولى عرش الامبراطورية، وتعاظت مع ابنتها المؤرخة أنا كونييا ليتولى زوج الأخيرة نقفور برينيسوس Nicephor Bryennius، عرش الامبراطورية ولكن يوحنا اكتشف الأمر فنفاهما إلى أحد الأديرة. وفي هذا المكان ألفت أنا كومنيننا كتاب الالكسياد Alexiad الذى سجلت فيه حياة أبيها الكسيوس، وأصبحت من أعظم مؤرخى الامبراطورية البيزنطية.

وكانت حياة الفقراء الذين نسميهم الفقراء الأحرار داخل الامبراطورية مثل أى مكان آخر فى العالم تقريبا، فحياتهم تتطلب منهم البحث عن لقمة العيش، وكانوا يعيشون فى مساكن قذرة بجوار قصور الأغنياء، وكان الخبز يوزع عليهم بالمجان ولكن الامبراطور هرقل Heraclius (٦١٠-٦٤١م) أوقف هذه المنحة، وكانت تسليتهم الوحيدة هو دخول السيرك بالمجان لهم ولغيرهم. وكانت الدولة تجمع مثل هؤلاء الفقراء أو العاطلين عن العمل وتشغلهم فى صيانة الحدائق وسقايات المياه أو العمل فى مخازن الدولة. وكان يتولى هذا الأمر موظف حكومى يسمى الكويستر Quastor أى المراقب أو المشرف، حتى لا يكون فى العاصمة عاطلون، ولتأكيد هذه الفكرة لم يكن يسمح بدخول العاصمة من أهالى الريف إلا بتصريح للعمل.

وكان يوجد بالامبراطورية ديار للصدقات ومستشفيات للعجزة وكبار السن وذوى الأمراض المستعصية يؤسسها الأباطرة وتتولى الحكومة الانفاق والاشراف عليها، وكانت هذه المؤسسات تلحق بأحد أديرة الرجال أو النساء

ويتولى الدير إدارتها. كما كان هناك دور للأطفال الفقراء واليتامى، وكان يتولى إدارة هذه الديار موظف كبير هو مدير ملاجئ الاطفال يسمى Orphanotropus، وتقدم له الأموال اللازمة للصرف على هذه الديار. وفي مرحلة تحطيم الصور في عصر الأسرة الأيسورية ٧١٧-٨٠٢م، وإغلاق معظم الأديرة التي عارضت هذه الفكرة، تولت الكنائس إدارة هذه الملاجئ لفترة طويلة. وفي عهد الأسرة المقدونية بداية من عام ٨٦٧م وضعت هذه الملاجئ تحت إشراف السلطة المحلية أو البلديات. وكان أكبر هذه الملاجئ مقام بالقرب من القصر الكبير، وعندما أصابه الخراب والتدمير بفعل أحد الزلازل أثناء حكم الامبراطور رومانوس الثالث أرجيروس Romanus III Argyrus ١٠٢٨-١٠٣٤م أعيد تعميره في عهد الامبراطور الكسيوس الأول الذي كانت ترتاح نفسه خلال زيارته لهذا الدير.

وإلى جانب هؤلاء الفقراء الأحرار كان يعيش على أراضي الامبراطورية عدد كبير من العبيد، وكانوا من كافة الاجناس والأديان في أول الأمر ولكن رجال الدين المسيحيين أفتوا بأن استرقاق المسيحيين أمر لا يجوز.

وكان العبيد من المسلمين وابناء الوثنيين من شعوب شمال أوربا يعملون في الخدمات العامة والمناجم. وكان هؤلاء العبيد من أسرى المسلمين أو قادمين على أيدي تجار العبيد من بلاد الشمال. وكان السروس يبيعون أسراهم في أسواق العاصمة البيزنطية. ورويدا رويدا بدأ الشعور يتزايد ضد الرق، فقد حظر رجل الدين الكبير ثيودور الاستديومي Theodor The Studite الذي لعب دورا كبيرا في مجمع نقيّة الذي عقد في عام ٧٨٧م، استخدام الرق داخل الأديرة، وأصدر الامبراطور الكسيوس كومنين تشريعا يتيح لهم الزواج بكل حرية.

ورغم هذا كله فقد كان بعض رجال الدين يمتلك العديد من العبيد مثلما كان الحال مع يوستاسيوس Eustathus أسقف مدينة سالونيك، الذى سجل أحدث الغزو النورمانى على المدينة عام ١١٨٥م، ولكنه عدل عن ذلك فى آخر أيام حياته، وأمر بإعتاقهم بعد وفاته لأنه أمر مزموم. ويلاحظ أن أثمان هؤلاء العبيد كان يرتفع كلما زاد الطلب عليهم خاصة فى المدن والمزارع. ويمكن القول أن استجلاب وبيع الرقيق ظل حتى القرن الرابع عشر الميلادى. ويلاحظ أن الأرقاء الذين كانوا يخدمون داخل المنازل كانوا أفضل حالا من الأرقاء الذين تستخدمهم الحكومة.

وبين طبقة النبلاء والفقراء كانت توجد الطبقة الوسطى، وقد حاول الامبراطور دقلديانوس أن يجعل الإبن يتعلم حرفة أبيه، وقد نجح فى ذلك إلى حد ما. ولكن حركة المجتمع لم تتقبل هذا الأمر بارتياح، فربما اتخذ الإبن الأكبر غالبا حرفة أبيه، أما الباقى من الأخوة فكان لهم أن يلتحقوا بالكنيسة أو الدير أو الجندية أو الخدمة العامة، وبذلك تكون العائلة قد شاركت فى كل مناحى الحياة. وقد ينجح أحدهم ويصبح من كبار رجال الأعمال فيرتقى بالإسرة كلها وتصبح من ملاك الأراضى. وبذلك تنشأ أسر جديدة من الأشراف. ويروى لنا المؤرخ ميخائيل بسلوس Michael Psellus كيف وصل الامبراطور ميخائيل السادس ١٠٥٦-١٠٥٧م إلى عرش الامبراطورية، فيذكر أن مدير الملاجى الخصى يوحنا قدّم للامبراطورة زوى Zoe أخاه ميخائيل وهو ابن فلاح فى إقليم بفلاجونيا Paphlagonia، وقد وقعت الامبراطورة فى حب هذا الشاب الوسيم وتزوجته وأصبح إمبراطورا رغم فارق السن الكبير.

ولعب الجمال دورا كبيرا فى تغيير حياة الأسره، فكثيرا ما يأخذ جمال الفتاة الأسرة بأكملها من مرتبة دنيا إلى مرتبة عليا. ومن ذلك أن ثيودورا

Theodora الممثلة التي ولدت فى السيرك وأصبحت سليفة الحانات رفعها جمالها وتزوجت من الامبراطور الأشهر جستينيان، وقد ساندته عندما ثار عليه الشعب، كما أن ثيوفانو Theophanpo وهى ابنة رجل من العامة يمتلك أحد المحلات قد تزوجت من الامبراطور رومانوس الثانى (Romanus II) (٦٥٩-٩٦٢م)، ولكنها تأمرت عليه ومكنت غريمه وقائده نقفور فوكاس (٩٦٣-٩٦٩م)، من القضاء عليه ثم تزوجته. وبناء على هذا التصاهر يبدأ الاصهار فى الدخول إلى القصر، وبذلك يرتفع مستواهم إلى الطبقة العليا.

والحقيقة أن الطموح كان صفة عامة اتصف بها البيزنطيون، لذا حاول الآباء والأمهات من أبناء الطبقة الوسطى قدر جهدهم والعمل على تشجيع النابغين من أبنائهم ليرتقوا إلى درجات أعلى. ومن هؤلاء ثيودوتى Theodoty والدة المؤرخ الشهير ميخائيل بسلوس، وكانت هذه الأسرة غير ميسورة الحال، وقد قامت هذه الأم بتعليم ابنها القراءة والكتابة، وكان زوجها تاجراً كثير التنقل، فاشغلت هذا الفراغ فى تنقيف نفسها. ولما شعرت بما يتمتع به ابنها، كانت تدفعه إلى التعليم، فكان يعمل ويتعلم وتنقل فى عدة مدن ليدرس على أيدي أبرع الاساتذة، وكان بداخل الأم نوازع لتوجيه ابنها إلى السلك الكنسى، ولكن إتصاله بأبناء الأباطرة والطبقة العليا فى جامعة القسطنطينية، رفعه إلى درجة عالية داخل قصر الامبراطور قسطنطين دوкас الذى تولى العرش تحت اسم قسطنطين العاشر (١٠٥٩-١٠٦٧م).

وفى المجتمع البيزنطى ظهرت طبقة من الخصيان، وحتى تضمن العائلة نجاح أحد ابنائها كان من الحكمة خصاؤه، لذلك عرفت بيزنطة بأنها جنة الخصيان. ولم تكن عملية الإخصاء قاصرة على طبقة بعينها بل أن العائلات النبيلة كانت تقدم أحد ابنائها لهذه العملية لتساعدهم على التقدم، ولم يكن هناك إحساس بأى مهانة أو مذلة ولامساس بالشرف أو الكرامة، وكانت

قوة هذه الجماعة تكمن من أن الخصى لا يستطيع أن يصل إلى درجة الامبراطور، وهنا تطمئن الاسرة الحاكمة اليه، كما أن الجميع يطمئن إليه فيدخل ويخرج إلى جميع الأماكن حتى أديرة النساء. كما أنه لا ينبج فليس هناك طمع في أرثه.

وعلى ذلك سارت الحياة، ومنها أن ميخائيل الأول (٨١١ - ٨١٣م) عندما مات ثم خصى ابنه نيكيتاس، Nicetas حتى لا يطالب بالعرش بعد ذلك، أو يتآمر ليسترد عرش أبيه، كما أن الامبراطور رومانوس الأول أخصى ولده غير الشرعي بازيل Basil الذي شغل منصب كبير الأمناء سنوات طويلة. كما أنه أخص ولده الأصغر ثيوفلاكت Theophylact الذي أراد له أن يتولى منصب بطريرك الامبراطورية، وكان له ما أردا وتولى هذا المنصب في حياة أبيه منذ ٩٣٣ حتى ٩٥٦م. وكان هناك نسبة كبيرة من الخصيان قد تولوا هذا المنصب، وكان هؤلاء الخصيان يجدون تشجيعاً كبيراً للعمل في الخدمة المدنية. وكان يفضل عند اللزوم عن زملائه الذين يحملون نفس درجته الوظيفية.

كما كان معظم قادة الجيش والاسطول من هذه الطبقة أيضا حتى يطمئن الامبراطور إلى جانبهم، ومن هذه الامثلة نارسيس Narsis القائد الشهير في عهد الامبراطور جستنيان. وتذكر المؤرخة أنا كومنيا أن في عهد والدها الامبراطور الكسيوس كان يوستاثيوس كيمنيانوس Eustathius Kymineianus من الخصيان. وكانت بعض المناصب غير متاحة لهؤلاء الخصيان مثل منصب والي المدينة. وكان خصيان الطبقات الدنيا أقل من الطبقة العليا، وكان خصيان الطبقة الدنيا هؤلاء يعملون كمرضىين، فقد كان يساعد الأطباء هؤلاء الخصيان الذين يستطيعون الدخول إلى أديرة

النساء ومستشفياتهم، وإن كان البعض يفضل الطبيبات من النساء دون غيرهم.

ويلاحظ أن المجتمع البيزنطى كان يعيش عيشة مختلطة، وقد ساعد على هذا الاختلاط الاشتغال بالتجارة. وبداية من العاصمة كان القصر الامبراطور أعظم دار للتجارة وإدارة الأعمال حيث كان الامبراطور يحتكر صناعة الحرير، كما كان بعض الاباطرة يتاجرون بالقمح، وجنى من ذلك أرباحاً طائلة، كما أن الامبراطور يوحنا الثالث دوкас فاتساتريس Jhon III Ducas Vatatzes (١٢٢٢-١٢٥٤م) عندما كانت الامبراطورية فى المنفى بعد السقوط فى عام ١٢٠٤، قد جمع ثروة طائلة من تربية الدواجن. كما اشتغلت الكنيسة فى بعض الأحيان بالشئون المصرفية، وهى التى أمدت الامبراطور هرقل بالمال اللازم فى حروبه ضد الفرس. كذلك الأديرة، فقد جمعت الكثير من الثروات من جراء صنع وبيع الأيقونات.

ورغم أن الإمبراطورية وحكومتها الرسمية كانت لا تفضل تنقل الأفراد داخل أراضى الامبراطورية، إلا أن ذلك لم يمنع أعداداً كبيرة من العناصر الأرمينية من الهجرة إلى القسطنطينية والعمل بها وإقامة المصانع وفتح الحوانيت. والحقيقة أن الهجرة إلى العاصمة كانت هدفاً لكل طموح، فقد كانت الامبراطورية مركز العالم التجارى، ولم يكن ينافرها غير مدينة سالونيك التى كانت تتجه إليها فى ختام القرن التاسع الميلادى كل التجارة البلغارية. وقد لمع نجم هذه المدينة بخاصة فى أيام حكم أسره باليولوجس Palaeologus وهى الأسرة الأخيرة فى حكم الأمبراطورية، هذا بالإضافة إلى مركزها الفكرى الدينى. فقد كان سوق القديس ديمتريوس حامى المدينة يمتلأ بالتجار الذين يقدون عليها من كل أنحاء العالم.



وفي بدايات الامبراطورية البيزنطية كانت هناك موانى فى الإسكندرية وأنطاكية، ولكن الفتح الإسلامى حرم بيزنطة من هذه الموانى. أما فى آسيا الصغرى فقد كان معظم مدنها حصينة لحمايتها من الغزوات، ولم يكن يوجد من نشاط داخل آسيا الصغرى إلا فى بعض الموانى مثل أزمير، ولكن شأنها أخذ فى الأفول بعد تحول التجارة إلى البسفور، يضاف إلى مدينة طرابيزون Trebizond التى تقع على البحر الأسود لأقاليم أرمينية وبلاد فارس والشرق. أما مدينة نيقية فقد كان لها ماضى مقدس وشهرتها بانعقاد مجمع نيقية عام ٣٢٥م، واتخاذها عاصمة للامبراطورية فى المنفى بعد عام ٢٠٤م، فقد ظلت تحظى بالثراء كعاصمة بديلة للقسطنطينية. وفى مدينة بروسه Brusa التى كانت تقع فى إقليم بثينا Bithynia فكانت تجذب الناس بمياهها المعدنية. وهو المنتجع الكبير لدى البيزنطيين، ولازال للمدينة شهرتها حتى الآن ويفد إليها السياح من كل مكان.

أما عن الحياة فى المناطق الريفية الواسعة داخل الامبراطورية فكانت تختلف من مكان لآخر، ففي المناطق الأوربية الواقعة إلى الغرب من الإمبراطورية نجد الصقالية أى السلاف والأفلاق وهم أهل ولاشيا، والألبانيين، وكل هؤلاء كانوا يعيشون عيشة الرعاة مثلما كان الحال فى عاداتهم القبلية داخل وخارج المزارع الكبيرة التى امتلکها نبلاء العائلات الكبيرة من الأغريق والرومان، التى كانت موجودة قبل وجود الامبراطورية. وكان فى آسيا الصغرى فى أماكن متفرقة بعض الجاليات الصغيرة من أهل بلاد الشام وربما بعض البلغار.

وفى جملة هذه المناطق الريفية عاش نوعان من الأرقاء العبيد، أى الاقنان Serfdom، والفلاحون الأحرار. وكان هؤلاء الاقنان مرتبطين بالأرض، ويتولى مالك هذه الأرض أخذ ثمار هذه الأرض ويتولى أمر دفع

الضريبة الواجبة عليها، وكان أولاد هؤلاء الأقبان أقبان مثله، ولكن كان لهم مغادره الأرض بموافقة مالكيها ليلتحقوا بأعمال أخرى أو بالكنائس أو الادييره.

وإلى جانب هؤلاء كان يوجد مزارعون أحرار، وكان هؤلاء يمتلكون بعض الأراضي أو يستأجرونها ويدفعون إيجارها إما نقداً أو عيناً، وكان هؤلاء مرتبطين بالأرض، ومن الصعب عليهم أن يبدلوا حياتهم إلى أفضل من ذلك، لأن حكومة الامبراطورية كانت تعارض هجران الأراضي الزراعية بأى حال من الأحوال، وذلك لثبات الإنتاج الزراعى وتزويد العاصمة بالطعام خاصة القمح الذى كانت الحاجة إليه تزداد يوماً بعد آخر، خاصة بعد خروج مصر من تحت سلطان الامبراطورية. وكان الفلاح الحر يؤدي ضرائب معينة على ما يملكه وينسحب ذلك على أولاده من بعده، واستحدثت الظروف نظاماً جديداً زاد من ارتباطه بالأرض، ذلك أن الضرائب فرضت على القرية بأكملها كوحده متكاملة، ويعنى ذلك أنه إذا خرج البعض من هذا المجتمع القروى إلى عمل زاد العبء عن إخوانه الذين يعملون بالقرية، لذلك أصبح من مصلحة الجميع الاحتفاظ ببعضهم البعض داخل القرية.

ويلاحظ أن قرى العبيد كانت أكثر شيوعاً طالما كان هناك ملاكاً كباراً للأراضي، وكان ذلك فى بداية عصر الامبراطورية البيزنطية. ولكن الهجرات الجرمانية والفتوحات الإسلامية وضياع الكثير من الأراضي البيزنطية تطلب إعادة تنظيم هذه الأراضي. ومن ذلك أن الحكومة البيزنطية كان تدفع إعطيات للجند مقابل بعض الأراضي بشرط أداء الخدمة العسكرية خاصة فى مناطق الحدود داخل الامبراطورية.

ومن هنا وجدت طبقة أخرى من صغار الملاك الوارثين لهؤلاء الجند، وشيئاً فشيئاً ظهرت طبقة أخرى من كبار الملاك، وعلى قاعدة أن

القرية وحدة واحدة تحمل كبار الملاك ما يقع على كاهل الفقير من التزامات، فكان يدفع هذا الغنى الضرائب مقابل استيلائه على أرض الفقير، وبذلك يفقد الفلاح الصغير أرضه وربما حرشته. كما أن رجال الدين والكنيسة كانوا مثل النبلاء وكبار الملاك يحاولون استثمار أموالهم في الأراضي الزراعية، وبذلك ظهر ملاك جدد من العلمانيين ورجال الدين. وقد زاد ثراء هؤلاء بدرجة حتى أصبحت خطرا على الامبراطورية وكان تدخلهم بنفوذهم يفسد نظام الضرائب.

وقد التفت الامبراطور رومانوس إلى هذا الخطر، وخطط على مستوى القصر والكنيسة ليكون أسرة حاكمة، كما أنه قد خطط أيضا على المستوى الاجتماعي لدعم نفوذه ونفوذ أولاده من بعده. وبدأ يعمل على حماية الامبراطورية من خلال القوانين التي سنها لحماية صغار ملاك الأراضي الزراعية وضرب الأرستقراطية الزراعية التي تشكل قوة بالغة الخطورة على مركزه وعلى مركز أولاده من بعده. ومن جانب آخر فقد كان رومانوس ابن فلاح بسيط، ولعل ما تعرضت له أسرته وأمثاله من جور الإقطاعيين الزراعيين هو الذي جعله يقاوم نفوذ هذه الطبقة، ويعمل على إضعافها. هذا بالإضافة إلى أن الامبراطورية كانت تواجه في هذه المرحلة مشكلة بالغة الخطورة امتد أثرها إلى مركز الامبراطور فيما بعد، وهي مشكلة شراء الأغنياء لأراضي الفقراء الذين ينزلون إلى مرتبة الاتباع للأرستقراطية الإقطاعية. ولم يقتصر أثر هذه المشكلة على زيادة نفوذ الإقطاعيين فحسب بل إلى موارد الامبراطورية وقوتها العسكرية، لأن الامبراطورية كانت تعتمد اقتصاديا وعسكريا على الملاك الصغار وعلى الأراضي التي تمنح للجنود، فالملاك الصغار يؤدون الضريبة للدولة، كما تمنح الأراضي للجنود في مقابل الخدمة العسكرية، ومعنى ذلك أن امتصاص الأغنياء للملكيات الصغيرة يؤدي

بالتالى إلى ضعف الامبراطورية اقتصاديًا وعسكريًا وسيطرة الأرستقراطية الزراعية.

والتفت رومانوس إلى هذا الخطر الذى يهدد مركزه ومركز أولاده من بعده، وكانت خطوته فى هذا السبيل إصداره لمجموعة قوانين جديدة Novels فى عام ٩٢٢م، ونصت هذه المجموعة على إعادة حق الجيران فى التملك بالشفعة، وهى قوانين كان ليو السادس قد أرسى قواعدها. وحول موضوع انتقال أراضى صغار الملاك سواء بالبيع أو الإيجار فإن القانون الجديد جعلها خمس طبقات يكون لها الحق بالترتيب فى التملك أو الإيجار ليصعب انتقالها إلى أيدي كبار الملاك. فالطبقة الأولى هى الأقارب الذين يمتلكون أراضى مجاورة للأرض المراد بيعها أو تأجيرها، والثانية هى الملاك المجاورون من غير الأقارب، والثالثة هى أصحاب الأراضى التى تتداخل مع الأراضى المراد بيعها أو إيجارها. أما الرابعة فهى ملاك الأراضى الذين يدفعون ضرائب مماثلة. أما الخامسة والأخيرة فهى طبقة الملاك الآخرين من أصحاب الأراضى المجاورة، واشترط القانون عدم انتقال الأرض بالبيع أو الإيجار إلا بعد عرضها على الطبقات الخمس أولاً حسب ترتيبها.

والواضح أن الغرض من هذا القانون هو حماية صغار الملاك ومنع استمرار ذوبان الملكيات الصغيرة، لذلك كان الخارج على هذا القانون يرغم على إعادة الأراضى غير التابعة للجند إلى أصحابها دون تعويض، فضلاً عن تقديم غرامة مالية إلى خزانة الامبراطورية. أما الملكيات التابعة للجند فكان على من اشتراها إعادتها إلى أصحابها دون تعويض ولا يدفع غرامة مالية.

ورغم وجاهة هذا القانون من الناحية النظرية، إلا أنه لم ينفذ كما ينبغى لعدة عوامل، منها أن شتاء عام ٩٢٧-٩٢٨م كان قاسى البرودة وطويلاً

على غير العادة، وتسبب ذلك فى انتشار المجاعة والوباء لقلّة المحصول، وترتب على ذلك أن قدم الفلاحون الجائعون أراضيهم بثمن بخس لكبار الملاك، يضاف إلى ذلك أن الطبقات الخمس التى أصبح لها الحق فى الشراء قبل طبقة الاقطاعيين، كانت طبقات فقيرة وليس بوسعها الإيجار أو الشراء، ومعنى ذلك أن القانون كان تجميداً للبيع أو الإيجار، ولكنه اهتز أمام أزمة اقتصادية حلت بالبلاد.

ويبدو أن كل هذه الأسباب لم تكن خافية على الامبراطور رومانوس، لذلك اكتفى بتوجيه اللوم إلى الأغنياء لأنانيتهم وإن كان فى اللوم قسوة ومرارة، وأصدر متجددات أخرى فى عام ٩٣٤م، أى بعد المجاعة بست سنوات وزوال أثرها. وأعلن فى المتجددات الأخيرة عدم شرعية كل ما أخذه الأغنياء من صغار الملاك، وخفف من صرامة قانون عام ٩٢٢م وأمر برّد جميع الأراضي التى دُفع فى شرائها مبلغاً يقل عن نصف ثمنها الحقيقى إلى أصحابها دون تعويض، أما إذا كان ما دفع للأرض ثمناً عادلاً، فتعاد الأرض إلى صاحبها الذى عليه رد ما دفع فيها خلال ثلاث سنوات. وورد فى المتجددات عدم جواز امتلاك الأغنياء لأراضي صغار الفلاحين مستقبلاً وإلا ألزموا بإعادتها مع دفع غرامة لخزانة الدولة.

ورغم هذا كله، فإن الفلاحين الصغار لم يتجاوبوا مع حكومة الامبراطورية لوقوعهم تحت وطأة الضرائب الباهظة، واختاروا التبعية لكبار الملاك بمحض إرادتهم ليهربوا من تعسف جامعى الضرائب ويكونوا فى أمن وحماية الملاك الكبار. وقد سبب ذلك إزعاجاً شديداً للامبراطور رومانوس وعمل بكل قوة على تنفيذ القانون، حتى لا تتأثر إيرادات الامبراطورية التى كانت فى أشد الحاجة إليها لمواجهة الأخطار الخارجية التى أحاطت بالجبهات

## الغربية والشرقية والشمالية.

وإن كانت هذه هي السياسة التي سار عليها الامبراطور رومانوس، فإن الامبراطور قسطنطين السابع عندما سيطر على مقاليد السلطة وعاد إليه حقه الشرعي عام ٩٤٤م، سار على نفس سياسة رومانوس، وأصدر في عام ٩٤٧م قانوناً يقضى بعودة الأراضي التي انتقلت إلى كبار الملاك منذ توليته دون تعويض. ويبدو أن الأمر لم ينفذ كما ينبغي، لذلك أصدر سلسلة من القوانين تلى بعضها البعض، وكلها تعمل على الحد من نفوذ كبار الملاك والاحتفاظ بالملكيات الصغيرة لأصحابها سواء من الفلاحين أم الجند، حتى لا تتأثر خزانة الامبراطورية وتتمكن من تعبئة الجند لمواجهة مشاكلها الخارجية.

ويقدم لنا قانون الفلاح الذي صدر في القرن الثامن الميلادي جانبا من صور حياة المجتمع البيزنطي، ومن ذلك أنه كان يحيط بالقرية البساتين والحدائق خاصة الكروم وكانت تحاط بالسياج، وبعدها كانت تقع الحقول المزروعة بالاصناف الأخرى كالبقول والخضروات ولم تكن محاطة بسياج، وبطبيعة الحال كانت هذه الحقول تابعة لملاك من الأفراد أو مستأجرة. وكان يقع خلف هذا النطاق كله المراعى وهي مشاعة للجميع، وإذا قام البعض بتطهير جانب من هذا النطاق مما به من أعشاب وشوائب كان له أن يملكها ويتولى زراعتها أو تأجيرها. ومعنى ذلك أنه كان هناك مبدأ يقول أن الأرض لن يستصلحها.

وكانت هناك عقوبات مشددة لكل من يلحق الضرر عن عمد أو إهمال بممتلكات الفلاحين، فقد كانت الأجراس تعلق في رقاب الأغنام والماشية حتى يستدل عليها صاحبها إذا شردت وحل الظلام بالمكان، وهي طريقة لا زالت متبعة حتى وقتنا هذا، فإذا سرق أحد هذه الأجراس يعد مسئولا عما يقع من

ضرر بتلك الحيوانات. كما أن من يسرق الكلب الذي يحرس الأغنام والماشية يعد مستولا عن القطيع بأكمله. وأن كل من يسمح لدوابه وماشيته بالدخول إلى الأماكن المحصود غلاتها قبل وضعها في المخازن يعرض نفسه لدفع غرامة تتناسب مع ما أكلته الحيوانات من غلات. والحقيقة أن الاحساس بمشاعر الجيران وملكياتهم كان قويا، كما كان التضامن بين هؤلاء الفلاحين واضحا بصورة جلية، فاذا وقع أحدهم في شدة مد الجميع له يد العون. وإذا اضطر كبير القرية أن يقيم مأدبة لبعثة امبراطورية تكاتف معه الجميع.

ويلاحظ أن هذه المجتمعات الفردية التي كانت تعتمد على الأيدي العاملة كانت تعاني من الخدمة العسكرية على الحدود التي كانت معرضة للغزو أو الغارات من وقت لآخر، لأن الأمر يتطلب جمع بعض القوات الخاصة، للوقوف في وجه المعتدين الذين غالبا ما يدمرون المزروعات أو يستولون على المحاصيل والدواب.

وكان أشد ما يضايق هذا المجتمع الضرائب العامة، ورغم هذا فإن المسئول عن جمع الضرائب كان كثيرا ما يمد القرية بالطعام في حالات الشدة ويعاملهم معاملة كلها مودة وأخاء. وكان ما يطمئن هذا المجتمع القروى المحافظة على النظام وضبط الأمن، فقد كان هناك الشرطة لمقاومة الخارجين على القانون. وفي مناطق الثغور التي كانت الامبراطورية تفضل الكثافة السكانية فيها، لم يكن يسمح للأفراد بالخروج منها إلا بتصريح خاص.

كما أن السفر بعامة داخل أراضى الامبراطورية لم يكن محببا لدى الحكومة الامبراطورية، وتفسير ذلك أن المجتمعات المستقرة كان من السهل السيطرة عليها وتحديد ما يفرض عليها من التزامات وضرائب. ومع ذلك فإن الحكومة نفسها كانت تتولى تهجير ضياع بأكملها إلى أماكن أخرى وهو ما

يعرف بإسم الهجرة الجبرية، ومن ذلك تهجير الأرمن من شرق الامبراطورية إلى غربها في أوربا، أو نقل بعض العناصر السلافية من أوربا إلى آسيا بغرض عزل بعض العناصر غير المرغوب فيها.

كما كانت السلطات البيزنطية تسمح للنابيين من المواطنين بالتجوال داخل الامبراطورية للقاء العلماء ، كما أن بعض المغامرين كانوا يتمكنون من شق طريقهم إلى العاصمة البيزنطية. وكانت السلطات تسمح لمن يريد زيارة الأراضي المقدسة بالسفر لقضاء فريضة الحج إلى القدس والتمتع بزيارة الأماكن المسيحية الشهيرة مثل بيت لحم والناصره وغيرها. وأن كان بعض هؤلاء غير قادرين على السفر إلى بلاد الشام وفلسطين فكان يسمح لهم بزيارة العاصمة البيزنطية لمشاهدة ما بها من آثار القديسين والكنائس الكبرى.

أما فيما يتعلق بطرق المواصلات داخل الامبراطور، فقد كان هناك سواحل كثيرة على البحر الأسود وآسيا الصغرى وبحر إيجه، فكانت السفن تنقل المسافرين على طول هذه السواحل، كما أن البضائع بإمكانها أن تصل إلى موانئ هذه السواحل، ومنها إلى الداخل إذا لزم الأمر. أما فيما يتعلق بالطرق البرية، فقد كان هناك شبكة كبيرة من الطرق. وكلها تتصل بالعاصمة البيزنطية، وكانت الدولة تهتم بصيانتها لأهميتها العسكرية والمدنية، وكان يوجد على هذه الطرق بوابات يدفع لها رسوم عند العبور، وكان يخصص جزء منها لصيانة هذه الطرق، ولم يك يعفى من هذه الرسوم إلا موظفو الحكومة والسفراء وبعض النبلاء. ويلاحظ أن هذه الطرق كانت تخلى من المارة عند مرور بعض القوات البيزنطية وكان يوجد فى آسيا الصغرى طريقان يبدآن من العاصمة البيزنطية وينتهيان إلى مداخل شمال بلاد الشام. وكان أحدهما يتجه من العاصمة إلى مدينة ضروليوم حتى يصل إلى نهر



هاليس Halys الذى يصب فى البحر الأسود، وهنا يتفرع إلى طريقين أحدهما يتجه إلى مدينة سبسطيه ثم إلى أرمينيا الكبرى شرق البحر الأسود ، أما الطريق الآخر فكان يتجه جنوبا إلى مدينة قيصرية إلى بوابات قيليقية ثم إلى بلاد الشام. وكان هناك طريق آخر وهو طريق الحجاج إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين . وكان يبدأ من العاصمة ثم إلى مدينة أنقره ثم إلى مدينة الطوانه ويلاحظ أن هذا الطريق كان وعرا، ويتطلب مشقة للسير فيه.

أما الطريق من أوربا إلى العاصمة فكان يوجد طريق واحد وهو الطريق الرومانى القديم المعروف بإسم طريق إجناتيا Ignatia الذى يبدأ من مدينة دراخيوم Dyrrachium التى تقع على ساحل البحر الادرياتيكى ثم يتجه غربا إلى مدينة سالونيك ومنها إلى العاصمة البيزنطية. أما الطريق الذى يبدأ من مدينة بلغراد الواقعة على نهر الدانوب ثم إلى سردىكا Sardika صوفيا حاليا، وبعدها إلى أدريانبول Adrionpole (أدرنه)، فقلنيا ما كانت للامبراطورية سيطرة عليه.

وإذا انتقلنا إلى الخصائص القومية البيزنطية، فيجب مراعاة ما كان عليه الشعب البيزنطى من أختلاف فى الأجناس وصلة الدم وسبل المعيشة، ولذلك أصبح من الصعب أن تحدد له خصائص قومية، ومن هنا جاءت تسميه الامبراطورية تسميه صحيحة لا الدولة البيزنطية. ورغم هذا فقد كان هناك رابط بين كل هذه الأجناس هو الرباط الدينى، فقد عاشت الامبراطورية فى مرحلة من التاريخ هى مرحلة العصور الوسطى وتعرف بإسم عصر الإيمان. ولكن الرابطة الدينية فى العالم البيزنطى كانت أشد ارتباطا وتختلف عن العالم الغربى الأوربى الكاثوليكي، فقد كانت الامبراطورية وطريقة حكمها ومعيشتها ذات طابع دينى. وكان الهدف من فخامة البلاط البيزنطى وروعته، هو رفع

مكانة الإمبراطور الذي يعتبر وكيل الله على أرض الامبراطورية، وكانت هذه الرفعة جزء من العبادات كالصلاة والصوم. وأن كانت بعض الحفلات تقام من أن لآخر داخل القصر، فإنها كانت أمورا عارضة لادخال الفرح والسرور على الامبراطور والشعب، وإن كل هذا لم يطغى على الأساس الدينى لدى الناس جميعا.

كما أن الشعراء البيزنطيين قد عبروا عما بداخلهم فى التراتيل الدينية والانشاد بصفات جلال الله وعظمته، كما أن الكتاب منهم وإن نزعوا إلى الجانب الدنيوى مثل المؤرخ بلسوس فكانوا يدركون تماما أن الدين شئ لا جدال فيه، ويعتبرون أن الحياة على الأرض زائلة. وكان الأصل فى حياة البيزنطيين فيما يحيط بهم من مباحج الحياة هو شكر الله على هذه العطية وعليهم أن يقدموا الخشوع له.

وكان مما يثير أعجاب البيزنطيين إلى حد كبير، البعد عن الحياة وملذاتها وإعداد النفس للحياة الأبدية. ومن هنا أقبل الكثير من الرجال والنساء على الرهبانية. فقد كان الناس بعد أن يعيشون حياتهم الدنيوية التنى تشبعت بالهموم وتدير شئون حياتهم، وبعد أن امتلأت قلوبهم بحلاوة الحياة ومرها، كانوا يفضلون فى ختام حياتهم أن تمتلأ أنفسهم بالمسرة والدعة والسلام. ولهذا كله لجأوا فى أواخر حياتهم إلى ابتغاء السكينة فى أحد الأديرة، بعد ما يهبوا كل ما لديهم إليه ان لم يكن لهم وريث. ويلاحظ أن الحياة الديرية لم تكن كلها صارمة، فقد كان الرهبان يتلقون كل الاحترام والتبجيل من عامة الشعب، وكان التقرب إليهم علامة من علامات رضا الله على الانسان. كما أن الاباطرة أنفسهم كانوا يتقربون إلى بعض الرهبان. وتروى لنا المؤرخة أنا كومنيننا أن والدها الامبراطور الكسيوس كان كلما ذهب إلى الحرب اصطحب

معه أحد الرهبان. وكان أشد الرهبان احتراماً هم الذين عاشوا داخل الكهوف أو على الأعمدة، ولا زالت التراجم المحفوظة عن هؤلاء القديسين الذين أنكروا أنفسهم توضح لنا المكانة العليا والسلطان الذي كانوا يتمتعون به.

والباحثون في التاريخ البيزنطي يستطيعوا أن يعرفوا أن القديس لوقا الصغير Luke the Younger كاد يكون هو صاحب السلطة العليا في بلاد اليونان في القرن العاشر، فقد كان حاكم الإقليم كثيراً ما يزوره في كهفه لإلتماس النصيح، كما كان للقديس نيقون Nikon نفوذاً كبيراً في إقليم البلبونيز. وأن القديس نيلوس الروساني Nilus of Rossano (٩١٠-١٠٠٤م) قد تسلط على إقليم كالابريا في إيطاليا، وهو الذي أقام لنفسه ديراً في مونت كازينو ولحق به الرهبان وتوفي في عام ١٠٠٥م. كما أن القديس نفقور المليطي Nikephoros of Miletue طلب من الامبراطور نفقور الثاني فوكاس (٩٦٣-٩٦٩م) أي يلغى ضريبة الزيت المفروضة على الكنيسة.

وكان الناس أشد إعجاباً بالرهبان العموديين، بدايةً من سيمون العمورى (توفي ٤٥٩م)، ودانيال العمودى (٤٠٩-٤٩٣م) الذى عاش أربعة وثمانين عاماً، وعاش على عمودة بالعاصمة البيزنطية. وكان الامبراطور ثيودوسيوس الثانى Theodosius II (٤٠٨-٤٥٠م) يقلق عليه أيام الشتاء خاصة في حالة هبوب العواصف، وكان يرسل رجاله للإطمئنان عليه. والقديس سمعان الصغير ٥٢١-٥٩٧م الذى عاش قرب أنطاكية، والقديس البيوس Alybios، والقديس لازاروس الجاليسى Lazarus of Galesion الذى مات في عام ١٠٥٣م وكان يحكم ديره من أعلى عمودة والأمثلة على ذلك كثيراً.

ويلاحظ أن النساك العموديين قد قلوا وأصبحوا من الندرة بعد القرن العاشر الميلادي، والحقيقة التي لا لبس فيها أن افئده الناس كانت تواقه إلى الأديرة حتى أن بعض الأميرات من آل كومنين كثيرا ما عبرن عن رغبتهن في الالتحاق بالأديرة، كما أن بعض الأراامل كن يجدن الراحة إذا إنسحبوا إلى الأديرة. وكان البعض من الناس يندرون أن يقيموا جانبا من حياتهم داخل الأديرة أو زاهدين في منازلهم، وكان الامبراطور نقفور الثاني فوكاس (٩٦٣-٩٦٩م) لا يأكل اللحم وبذلك أصبح موضع إعجاب للجميع، كما أنه كان لا يغير ملابسه إلا نادرا وبذلك كان أقرب من حياة الزاهدين، وعندما كسر هذه القاعدة يوم زفافه إلى الامبراطورة ثيوفانو أرمله الامبراطور رومانوس الثاني Romanus II (٩٥٩-٩٦٢م) طامعا في العرش الامبراطوري، تدنى مقامه بين الناس.

وكان البيزنطيون يحبون الأباطرة الذين يهتمون بالأديرة والرهبان، وكانت المجادلات الدينية كثيرا ما تدور داخل القصر الإمبراطوري، وعندما كان المؤرخ يوحنا كيناموس يتباحث مع بعض الاساقفة حول هذا الموضوع طلب الامبراطور أندرنيق الأول كومنين Andronicos I Comnenus (١١٨٣-١١٨٥م) أن يتحولا إلى موضوع آخر، ولذلك رأى البعض أنه يستحق المصير الذي لحق به بعد قليل حيث مزق جسده داخل شوارع القسطنطينية.

وكانت الخرافات والخزعبلات ذات أثر في حياة البيزنطيين بالاضافة إلى بعض المفاسد والمؤمرات، وأبلغ شاهد على ذلك قلة الاباطرة الذين ماتوا على عروشهم، فقد نجد البعض وقد اضطر للانسحاب إلى أحد الأديرة بعد تنازله عن العرش، أو سملت عينيه وأبعد عن عرشه أو قتل. والحقيقة أن الطموح الشخصي قد لعب دروا كبيرا في حياة علية القوم.

وقد نجد المتأمرين فى بعض الاحيان أقل وحشية، وكثيرا ما كان الوصول إلى المناصب على أشلاء القتلى. وكانت السلطات تنزل العقوبات بالأعداء، وقليلًا ما لجأت إلى الإعدام، وما كان هو المألوف بتر أحد الأعضاء أو سمل العيون أو جدد الأنف أو قطع اللسان.

ورغم هذا كله فقد كان البيزنطيون يتصفون بصفات حسنة، فقد كانوا شديدي الفخر بامبراطوريتهم وما وصلت إليه من رقى وحضارة. كما كانوا يحبون الجمال والسلام. والحقيقة أن التعليم والقدرة الشخصية كانت جواز المرور إلى الوظائف العليا لا المولد والأصل، وهذه ميزه تحسب للامبراطورية. وكان البيزنطيون يتذوقون الآداب ويحترمون كل ما له درجتها فيها، وكثيرا ما اقتبسوا من علوم المسلمين ومن الغرب أفراحه ولهوه. ومن إفراط حب البيزنطيين يروى المؤرخ البيزنطى ثيوفانىس روايه لها طرافتها، فيقول أنه عندما لقي الامبراطور قنسطانز الثانى (Constans II 642-668م) لقي مصرعه فى جزيرة صقلية فان البعض قد رشح ميزيزيوس Mizizion وهو أرمينى الأصل وقائد شجاع ليتولى عرش الامبراطورية لأنه وسيم وفى عز شبابه، كما أن الشعب البيزنطى قد أحب الامبراطورة زوى لحسن جمالها رغم بلوغها الستين من عمرها، كما أن ملابسها البيضاء البسيطة كانت محط إعجاب البيزنطيين على حد قول المؤرخ ميخائيل بسلسوس.

وأحب البيزنطيون المناظر الجميلة، فأحبوا الحدائق والبساتين والزهور، حتى انهم كانوا يبنون أديرتهم فى المواقع التى تطل على المناظر الجميلة مثلما حدث مع القديس الكبير بازيل. كما أن المباني والملابس وحتى الزخرفة التى زينت بها الكتب تشهد على ذلك. وهناك ملاحظة هامة حول هذا الجمال فلم يكن هذا الجمال مرتبطا بالدنيا ولكنه كان جانبا من النزعة الدينية التى ترى فى هذا الجمال مجداً لله فى السماء.

وكانت الحياة الدنيا عندهم عديمة القيمة، فقد كان القائم بالصلاة فى رحاب كنيسة آيا صوفيا، أو الناسك المقيم فى جبل آثوس Athus الواقع بالقرب من مدينة سالونيك الذى كان يضم العديد من الرهبان، موضع تقدير كل الأباطرة، فإن هذا المصلى وذاك الناسك كانا يران فى الفن المعمارى البشرى فى الكنيسة، والدير الذى صورته يد الانسان مقارنة بالفن المعمارى الإلهى الذى خلق الجبل الذى يقع عليه الدير والحجارة التى صنعت منها جدران الكنيسة، كان يرتفع بالانسان من هذا العالم الدنيوى إلى العالم الآخر ومقربة من الله، ومن هنا كان الجمال عند البيزنطيين مقرونا بالدين، لذلك كان يعود على الإنسان بأفضل الحسنات.

ولعل هذا الإحساس مرجعه إلى أن البيزنطيين عاشوا فى عالم تحيط به الأخطار من كل جانب، فالغزوات الإسلامية على الحدود الشرقية حيناً، والأخطار القادمة من الغرب على يد الهجرات الجرمانية حيناً آخر، وهجمات النورمان أهل صقلية وجنوب إيطاليا وأهل البندقية من الجنوب والبحر. وقد وصلت هذه الأخطار جميعها حتى أسوار العاصمة البيزنطية. وكان على المواطنين أن يحتفظوا بما يكفيهم من مؤن لمدد طويلة من كثرة هذه الأخطار. ومن هنا كان الخوف يترك البيزنطيين، ولذلك لم يجد البيزنطى ملاذا للراحة إلا اللجوء إلى الله حيث لديه الأمل فى حياة هادئة. ورغم هذا كله ظلت القسطنطينية صامدة أمام كل هذه الضربات، وظلت قرونا عديدة رمزا للقوة الخالدة. ولكن البيزنطيين كانوا يعلمون ويشعرون أن النهاية قادمة وأن المدينة ستسقط فى نهاية الأمر، فقد كانت النبوءات المكتوبة فى كل أنحاء العاصمة على الأعمدة أو مسطرة فى الكتب أو تتناولها الناس شفاهة، كانت كلها تتحدث عن هذا السقوط، وكان الناس يخافون من اليوم الذى لم يعد به أباطرة عظام يدافعون عن عاصمتهم الخالدة التى هوت فى عام ١٣٥٤م على يد الأتراك العثمانيين.



## **الفصل الخامس**

### **الرهبانية وعبادة الأيقونات**





لما أصبحت الكنيسة منظمة تحكم الكثير من المسيحيين، ولم تعد كما كانت جماعة من المتعبدين الخاشعين، أخذت تنظر إلى أخطاء الإنسان وما فيه من ضعف نظرة أكثر عطفاً من نظرتها السابقة، ولا ترى ضيراً من أن يستمتع الناس بملاذ الحياة الدنيا، وأن تشاركهم أحياناً في هذا الإستمتاع، غير أن أقلية من المسيحيين كانت ترى في النزول إلى هذا الدرك خيانة للسيد المسيح، واعتزمت أن تجد لها مكانها في السماء عن طريق الزهد، والعفة، والصلاة، فاعتزلت العالم اعتزالاً تاماً، ولربما كان مبشرو أشوكا Ashoka (حوالي ٢٥٠ ق.م) قد جاءوا إلى الشرق الأدنى بنظم الرهبانية كما جاءوا إليه بنظرية البوذية وقوانينها الأخلاقية، ولربما كان النساك الذين وجدوا في العالم قبل المسيحية أمثال سراپيس Serapis في مصر أو جماعات الأرسينيين اليهود، وهم ينتمون إلى طائفة دينية صغيرة بين اليهود القدامى، وكان أفرادهم يعيشون في تقشف وعزلة ويقتسمون فيما بينهم كل شيء يملكونه أو يصل إليهم، ولعلمهم نقلوا إلى القديس أنطونيوس Antonius (٢٥١-٣٥٦م) والقديس وباخوميوس st. Pachomius أو باخوم (٢٩٠-٣٤٦م) المثل الأعلى للحياة الدينية الصارمة وأساليب هذه الحياة، وكان الكثيرون من الناس يرون في الرهبانية ملاذاً من الفوضى والحرب اللذين أعقبا غارات المتبربرين الجرمان، فلم يكن في الدير ولا في الصومعة الصحراوية ضرائب، أو خدمة عسكرية، أو منازعات حربية، ولم يكن يطلب من الراهب ما يطلب من القسيس من مراسم قبل رسامته، وكان يوقن أنه سوف يحظى بالسعادة الأبدية بعد سنين قليلة من حياة السلام.

وأول ظهور للرهبانية المسيحية كان في مصر لأن مناخ مصر يكاد أن يغري الناس بحياة الأديرة، ولهذا غصت بالرهبان النساك الفرادى والمجتمعين في الأديرة، يعيشون في عزلة كما كان يعيش أنطونيوس أو

جماعات كما كان يعيش باخوميوس في دير، وأنشئت الأديرة للرجال والنساء على طول ضفتي النيل، وكان بعضهما يحتوى على نحو ثلاثمائة من الرهبان أو الراهبات، وكان أنطونيوس أشهر النساك الفرادى، وقد أخذ ينتقل من عزلة إلى عزلة حتى استقر به المقام على جبل القلزم القريب من شاطئ البحر الأحمر، وقد عرف مكانه المعجبون به فحذوا حذوه في تعبدته ونسكه وبنوا صوامعهم في أقرب مكان منه سمح لهم به، حتى امتلأت الصحراء قبل موته بأبنائه الروحانيين، وقلما كان يغتسل، وطالت حياته حتى بلغ مائة وخمسا من السنين، ورفض دعوة وجهها إليه الامبراطور قسطنطين العظيم Constantine the Great (306-337م)، ولكنه سافر إلى الإسكندرية في سن التسعين ليؤيد أثناسيوس Athanasius ضد أتباع أريوس Arius، وكان يليه في شهرته باخوميوس الذى أنشأ في عام 325م تسعة أديرة للرجال وديرا واحدا للنساء، وكان سبعة آلاف من أتباعه الرهبان يجتمعون أحيانا ليحتفلوا بيوم من الأيام المقدسة، وكان أولئك الرهبان المجتمعون يعملون ويصلون، ويركبون القوارب فى النيل من حين إلى حين ليذهبوا إلى الإسكندرية حيث يبيعون ما لديهم من البضائع ويشترون حاجياتهم ويشترون فى المعارك الكنسية والسياسية.

ونشأت بين النساك الفرادى منافسة قوية فى بطولة النسك، يتحدث عنها الأب دوشين Abbe Duchesne بقوله، إن مكاريوس السكندرى Macarius the Alexandrian لم يكن يسمع بعمل من أعمال الزهد إلا حاول أن يأتى بأعظم منه، فإذا إمتنع غيره من الرهبان عن أكل الطعام المطبوخ فى الصوم الكبير إمتنع هو عن أكله سبع سنين، وإذا عاقب بعضهم أنفسهم بالامتناع عن النوم شوهد مكاريوس وهو يبذل جهد المستميت لكى يظل مستيقظا عشرين ليلة متتابة، وحدث مرة فى صوم كبير أن ظل واقفا

طوال هذا الصوم ليلاً ونهاراً لا يذوق الطعام إلا مرة واحدة في الأسبوع، ولم يكن طعامه هذا أكثر من بعض أوراق الكرنب، ولم ينقطع خلال هذه المدة عن ممارسة صناعته التي أختص بها وهي صناعة السلال، ولبث ستة أشهر ينام في مستنقع ويعرض جسمه العريان للذباب. ومن الرهبان من أوفوا على الغاية في أعمال العزلة، ومن ذلك سراييون Serapion الذي كان يعيش في كهف في قاع هاوية لم يجرؤ على النزول إليها إلا عدد قليل من الحجاج، ولما وصل القديس جيروم Jerome st. إلى صومعته هذه وجد فيها رجلاً لا يكاد يكون جسمه إلا بضعة عظام، وليس عليه إلا خرقة تستر حقويه، ويغطي الشعر وجهه وكتفيه، ولا تكاد صومعته تتسع لفراشه المكون من لوح من الخشب وبعض أوراق الشجر. ومن النساك من كانوا لا يرقدون قط أثناء نومهم، ومنهم من كان يداوم على ذلك أربعين عاماً مثل بساريون Bessarion، أو خمسين عاماً مثل باخوميوس، ومنهم من تخصصوا في الصمت وظلوا عدداً كبيراً من السنين لا تتفرج شفاهم عن كلمة واحدة، ومنهم من كانوا يحملون معهم أوزاناً ثقيلة أينما ذهبوا، ومنهم من كانوا يشدون أعضائهم بأطواق أو قيود أو سلاسل، ومنهم من كانوا يفخرون بعدد السنين التي لم ينظروا فيها إلى وجه امرأة.

وكان جميع النساك المنفردين تقريباً يعيشون على قدر قليل من الطعام، ومنهم من عمروا طويلاً، ويحدثنا القديس جيروم عن رهبان لم يطعموا شيئاً غير التين وخبز الشعير، ولما مرض مكاربيوس جاءه بعضهم بعنب فلم تطاوعه نفسه على التمتع بهذا الترف، وبعث به إلى ناسك آخر، وأرسله هذا إلى ثالث حتى طاف العنب جميع الصحراء على حد قول روفينس Rufinus، وعاد مرة أخرى كاملاً إلى مكاربيوس. وكان الحجاج الذي جاءوا من جميع أنحاء العالم المسيحي ليشاهدوا رهبان الشرق يعزون إلى أولئك

الرهبان معجزات لا تقل في غرابتها عن معجزات السيد المسيح، فكانوا - كما يقولون - يشفون الأمراض ويطردون الشياطين باللمس أو بالنطق بكلمة، وكانوا يروضون الأفاعى أو الأسود بنظرة أو دعوة، ويعبرون النيل على ظهور التماسيح. وقد أصبحت مخلفات النساك أئمن ما تمتلكه الكنائس المسيحية، ولا تزال مدخرة فيها حتى اليوم.

وكان رئيس الدير يطلب من الرهبان أن يطيعوه طاعة عمياء، ويمتنح الرهبان الجدد بأوامر مستحيلة التنفيذ يلقيها عليهم. وتقول إحدى الروايات أن واحداً من أولئك الرؤساء أمر راهباً جديداً أن يقفز فى نار مضطربة فصدع الراهب الجديد بالأمر، فانشقت النار حتى خرج منها بسلام. وأمر راهب جديد آخر أن يغرس عصا بطولها فى الأرض ويسقيها حتى تخرج فروعاً، فلبث الراهب سنتين يذهب إلى نهر النيل على بعد ميلين من الدير يحمل منه الماء ليصبه على العصا حتى رحمه الله فى السنة الثالثة فازهرت. ويقول جيروم أن الرهبان كانوا يؤمرون بالعمل لئلا تضلهم الأوهام الخطرة، فمنهم من كان يحرق الأرض ومنهم من كان يهتم بالحدائق، أو ينسج الحصر أو السلال، أو يصنع قباقيب من الخشب أو ينسخ المخطوطات. وقد حفظت لنا أقلامهم كثيراً من الكتب القديمة. على أن كثيرين من الرهبان المصريين كانوا أميين يحتقرون العلوم الدنيوية ويرون أنها غرور باطل. ومنهم من كان يرى أن النظافة لا تتفق مع الإيمان وقد أبت العذراء سلفيا st. Silvia أن تغسل أى جزء من جسدها عدا أصابعها، وكان فى أحد الأديرة النسائية مائة وثلاثون راهبة لم تستحم واحدة منهن قط أو تغسل قدميها، لكن الرهبان أنسوا إلى الماء حوالى أواخر القرن الرابع، وسخر الأب اسكندر من هذا الانحطاط، فأخذ يحن إلى تلك الأيام التى لم يكن فيها الرهبان يغسلون وجوههم قط.

وكان الشرق الأدنى ينافس مصر في عدد رهبانها وراهباتها وعجائب أعمالهم، فكانت أنطاكية وبيت المقدس خليتين مليئتين بالصوامع وبالرهبان والرهبات. وكانت صحراء الشام خاصة بالنسك، ومنهم من كان يشد نفسه بالسلاسل إلى صخرة ثابتة لا تتحرك كما يفعل فقراء الهنود، ومنهم من كان يحتقر هذا النوع المستقر من المساكن، فيقضى حياته في الطواف فوق الجبال يطعم العشب البري. ويروى لنا المؤرخون أن سمعان العمودي Simeon Stylites (٣٩٠-٤٥٩م) كان لا ينوق الطعام طوال الصوم الكبير الذي يدوم أربعين يوماً. وقد أصر في عام من الأعوام أثناء هذا الصوم كله على أن يوضع في حظيرة وليس معه إلا القليل من الخبز والماء. وأخرج من بين الجدران في يوم عيد القيامة فوجد أنه لم يمس الخبز أو الماء. وبنى سمعان لنفسه في عام ٤٢٢م عموداً عند قلعة سمعان في شمالي الشام وعاش فوقه. ثم رأى أن هذا إعتدال في الحياة يكمله العار، فأخذ يزيد من ارتفاع العمود الذي يعيش فوقه حتى جعل مسكنه الدائم فوق عمود يبلغ ارتفاعه ستين قدماً.

ولم ترض الكنيسة عن هذا الإفراط في التقشف ولعلها كانت تحس بشئ من التصرف الوحشي في هذا الاذلال النفسي، وبشئ من الشراهة الروحية في هذا الإنكار الذاتي، وبشئ من الشهوانية الخفية في هذا الفرار من الناس، ومن العالم كله. وسجلات أولئك الزهاد حافلة بالرؤى والإحلام وصوامعهم تترد فيها اصداً أنينهم وهم يقاومون المغريات الخيالية والأفكار الغريبة. وكانوا يعتقدون أن الهواء الذي يحيط بهم غاص بالشياطين التي تهاجمهم. ويبدو أن الرهبان قد وجدوا أن حياة الفضيحة في العزلة أشق منها لو أنهم عاشوا بين جميع مغريات الحياة. وكثيراً ما كان الناسك تختل موازين عقله فيها. ويحدثنا روفينوس عن راهب شاب دخلت عليه في صومعته امرأة جميلة فلم يستطع أن يقاوم سحر جمالها، ثم اختفت من فورها في الهواء كما

ظن هو، فما كان من الراهب إلا أن خرج هائما على وجهه، إلى أقرب قرية له، وقفز في الماء ليطفى النار المستعرة في جسمه. وتروى قصة أخرى عن فتاة أستاذنت في الدخول إلى صومعة راهب مدعية أن الوحوش تطاردها، فرضى أن يؤويها وقتا قصيرا، ولكن حدث في تلك الساعة أن مست جسمه مصادفة، فاشتعلت نار الشهوة فيه كأن سنى التقشف الطوال التي مرت به قد انقضت دون أن تحدث فيها أقل أثر. وحاول الراهب أن يمك بها، ولكنها اختفت من ذراعيه وعن عينيه. ويقول الرواة أن جماعة من الشياطين أخذت تغنى وتهلل طربا وتضحك من سقطته. ويقول روفينوس أن الراهب لم يطق حياة الرهينة بعد تلك الساعة.

ولم يكن للكنيسة النظامية سلطة ما على الرهبان في أول الأمر، وقلما كان أولئك الرهبان يحصلون على أية رتبة كهنونية، غير أنها مع ذلك كانت تحس بأن تبعة إفراطهم هذا واقعة عليها، فقد كان لها نصيب من المجد الذى ينالونه بأعمالهم، ولم يك فى وسع الكنيسة أن ترضى كل الرضا عن المثل العليا للرهبانية. نعم أنها كانت تمتدح العزوبية، والبكورية، والفقر، ولكن لم يكن فى وسعها أن تعد الزواج، أو الأبوة، أو الملكية من الخطايا، بل لقد أصبح الآن من مصلحتها أن يدوم الجنس البشرى ويتناسل ويكثر. وكان بعض الرهبان يغادرون الأديرة باختيارهم، ويضايقون الناس بالسؤال. ومنهم من كانوا ينتقلون من بلدة إلى بلدة، يدعون إلى الزهد ويبيعون مخلفات حقيقية أو زائفة، ويرهبون المجامع الدينية المقدسة، ويحرضون ذوى الطبائع الحامية من الناس على تدمير الهياكل أو التماثيل الوثنية، أو يدعونهم فى بعض الأحيان إلى قتل امرأة من طراز هيباشيا Hypatia، ولم تكن الكنيسة راضية عن هذه الأعمال التى يأتيا هؤلاء الرهبان من تلقاء أنفسهم. وقد قرر مجمع خلقدونية (٤٥١م) أن تفرض رقابة شديدة على من يدخلون الأديرة، وعلى الذين يهبون

أنفسهم لها، ولا يجوز لهم أن يخرجوا بعدئذ منها، وألا يسمح لإنسان بأن ينشئ ديراً أو يغادره إلا إذا أذن له بذلك أسقف الأبرشية.

لقد نالت المسيحية في الوقت الذي نتحدث عنه نصراً في بلاد الشرق يكاد أن يكون تاماً، ففي مصر أصبح المسيحيون المحليون أو القبط هم أغلبية السكان، وكانوا يمدون بالمال مئات من الكناس والأديرة، وأعترف تسعون أسقفاً مصرياً بسلطة بطريرك الإسكندرية، وهي سلطة تكاد تضارع سلطة الفراعنة والبطالمة. وكان بعض هؤلاء البطاركة ساسة من رجال الدين ومن طراز غير محبوب أمثال توفيلس Theophilus بطريرك الإسكندرية (٤٠٢-٤٢٠م) الذي حرق هيكل سرايبس الوثني ومكتبته عام ٣٨٩م. وكان خيراً منه وأحب إلى النفوس سينسيوس Synesius أسقف بطوليماس Ptolemis المتواضع، وكان مولده في قوريني (حوالي عام ٣٦٥م)، وقد درس علوم الرياضة والفلسفة في الإسكندرية على أيدي هيباشيا، وظل إلى آخر أيام حياته صديقها الوفي وكان يسميها: "الشارحة الحقة للفلسفة الحقة". ثم زار مدينة أثينا، وفيها قويت عقيدته الوثنية، ولكنه تزوج بامرأة مسيحية في عام ٤٠٣م، واعتنق على أثر ذلك الدين المسيحي، ووجد أن المجاملة البسيطة لزوجته أن يحول ثلوث الأفلاطونية الحديثة المكون من الواحد، والفكر، والنفوس، إلى الأب، والروح، والابن. وكتب كثيراً من الرسائل البديعة، وبعض الكتب الفلسفية القليلة الشأن التي لا توجد بينها شيء ذو قيمة للقارئ في هذه الأيام، وفي عام ٤١٠م عرض عليه توفيلس أسقفية بطوليماس، وكان وقتئذ من أغنياء الريف وممن كان لهم أكثر من مطاعمهم، فقال أنه غير أهل لهذا المنصب وأنه لا يؤمن ببعث الجسم، كما تتطلب ذلك عقائد مؤتمر نيقية، وأنه متزوج، ولا يريد أن يهجر زوجته، ولكن العقائد المقررة كانت في نظر توفيلس مجرد آلات، فغض النظر عن هذه المخالفات، وعين سينسيوس أسقفاً



قبل أن يفصل في أمره. ومن الحوادث الطريفة التي تتفق مع ما عرف عن هذا الأسقف أن آخر رسالة كتبها كانت موجهة إلى هيباشيا وأن آخر صلاة له كانت للمسيح.

وعملت الهياكل الوثنية في الشام بالطريقة التي تتفق مع طباع توفيلس، فقد صدر أمر امبراطوري يقضى باغلاقها، وقاومت البقية الباقية من الوثنيين أمره هذا، ولكنهم استسلموا أخيراً للهزيمة حين رأوا ألتهم ترضى بتخريب هياكلها دون مبالاه. وكان للمسيحية في آسيا زعماء أعظم حكماً من زعمائها في مصر، فمن هؤلاء بازل العظيم Basil the Great الذي تعلم في حياته القصيرة التي لا تزيد على خمسين عاماً (٢٣٢٩-٣٧٩) البلاغة على يد ليبيانيوس Libanius في أنطاكية ودرس الفلسفة في أثينا وزار النساك في مصر والشام ولم يوافق على زهدهم وانطوائهم على أنفسهم، ثم صار أسقفاً لقيصرية في كبدوكيا، ونظم شئون المسيحية في بلاده، فأعاد النظر في شعائهم، وأدخل فيها نظام رهبانية الأديرة التي تنتج كل ما يحتاجه المقيمون فيها، ووضع قانوناً للأديرة لا يزال هو السائد في جميع الأديرة في العالم اليوناني. وقد نصح أتباعه بأن يتجنبوا ما يأتيه النساك المصريون من أعمال القسوة المفرطة، وأن يستعوضوا عنها بخدمة الله وخدمة صحتهم وعقولهم بالعمل النافع. وهو يرى أن حرث الأرض من خير أنواع العبادة، ولا يزال الشرق المسيحي حتى الآن يعترف بماله في المسيحية من أثر لا يضارعه أثر أحد غيره.

أما القسطنطينية فلم يكذبى فيها أثر للعبادات الوثنية، بيد أن المسيحية نفسها قد تفرقت شيعاً بسبب النزاع الدائم بين أهلها، فقد كانت الأريوسية لا تزال قوية، وكانت بدع دينية خارجية على الدين لا تنقطع عن الظهور، حتى ليكاد يكون لكل رجل فيها آراؤه الخاصة في الدين، وفي ذلك

يقول جريجورى النيسى Gregory of Nyssa أخو القديس بازل: " هذه المدينة مملأى بالصناع والعبيد، وكلهم من المتفقيين فى الدين الذين يعطون الناس فى الشوارع والحوانيت، فإذا طلبت من أحدهم أن يبدل لك قطعة نقود فضية، أخذ يحدثك عن الفوارق بين الإبن والأب، وإذا سألت عن ثمن رغيف، قيل هل أن الإبن أقل منزلة من الأب، وإذا سألت هل أعد لك الحمام، كان الجواب أن الإبن قد خلق من لا شئ".

وكان أول دير أنشئ فى القسطنطينية الجديدة هو الذى أنشأه إسحق الراهب Isaac The Mank فى أيام ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٣٧٩ - ٣٩٥م)، وسرعان ما تضاعف عدد الأديرة فيها حتى إذا جاء عام ٤٠٠م، كان الرهبان طائفة ذات قوة وبأس تنشر الرعب فى المدينة، وكان لهم شأن صاحب فى النزاع القائم بين هذا البطريرك وذاك، وبين البطريرك والإمبراطور.

ومن الملاحظ أن السلام والرخاء فى الإمبراطورية البيزنطية أدى إلى وجود نوعين مختلفين من المسيحيين، وهم العاديون والنسك، وكانت ممارسة الديانة تتم بطريقة حرة لترضى ضمائر الكثيرين، فالأمير أو الحاكم، والجندي أو التاجر، كانوا جميعاً يوفقون بين حماسهم المتقد وعتيدتهم الثابتة وبين ممارسة مهنتهم، والسعى وراء مصلحتهم وإشباع أهوائهم، غير أن النسك الذين أطاعوا التعاليم الصارمة، امتلأت نفوسهم بالحماس العنيف، ونبذوا فى جدية شواغل الحياة المدنية، وترفعوا عن شرب الخمر وأكل اللحم والزواج، وعذبوا أجسادهم، وكبحوا مشاعر الحب فى نفوسهم، وتقبلوا حياة التقشف، ثمناً للسعادة الأبدية. وفى عهد الإمبراطور - قسطنطين الكبير وبعد الاعتراف بالديانة المسيحية ديناً فى الدولة فر المتقشفون من العالم الفاسد إلى العزلة الدائمة أو المجتمع الدينى، وعلى منوال المسيحيين الأوائل فى القدس،

تخلوا عن إستخدام أو إمتلاك متاع الدنيا، وكانوا جماعات مترابطة تتألف من اصحاب الميول الواحدة، رجالاً أو نساءً، واتخذوا لأنفسهم أسماء النسائك والرهبان والزاهدين الأوائل، تعبيراً عن عزلتهم فى أماكن منعزلة أو صحراء طبيعية، وسرعان ما اكتسبوا إحترام العالم الذى نبذوه واحتقروه، وأصبحت هذه الفلسفة موضع الإستحسان، لأنها فاقت، دون عون من العلم أو العقل، تلك الفضائل التى حققتها مدارس الفكر اليونانية بالعمل المضمئى. وواقع الحال أن الرهبان أصبحوا ينافسون بعض الفلاسفة فى احتقار الثراء والألم والموت. غير أن أنصار هذه الفلسفة السماوية تطلعون إلى تقليد نموذج إعتبروه أنقى وأكثر كمالاً، فخذوا حذو الانبياء الذين انسحبوا إلى الصحراء، واسترجعوا حياة التعبد والتأمل التى وضع أساسها الرهبان الأوائل فى فلسطين ومصر وأماكن أخرى داخل الإمبراطورية.

وقد شاهد العالم الرومانى بلينى Pliny فى دهشة قوما يعيشون فى عزلة بين أشجار النخيل إلى القرب من البحر الميت، وكانوا لا يملكون مالا، ويتكاثرون بانضمام أعداد من التائبين والساخطين على الحياة، الذين كانوا ينضمون إليهم طواعية بصورة مستمرة.

وكانت مصر، وهى الأم الولود للرهبانية قد ضربت للعالم أول مثل لحياة الرهبنة، وإنا لنسمع عن رجل فى مصر إسمه أنطونيوس (٣٥١-٣٥٦م) وهو شاب أمى من أنحاء طيبة السفلى، وزع أملاكه الموروثة وهجر أسرته ووطنه واعتق الرهبانية فى تعصب أصيل جريئ، وبعد أن قضى فترة طويلة شاقة فى إعداد نفسه للرهبانية بين القبور وفى برج خرب مهجور، تغلغل فى جراءة داخل الصحراء الشرقية فى رحلة مدتها ثلاثة أيام إلى الشرق من نهر النيل، حتى اكتشف بقعة منعزلة يتوفر فيها الظل والماء بالقرب من البحر الأحمر فوق جبل القلزم، ولا يزال هناك دير قديم يحمل إسم القديس

وذكراه، ولحقه بعض المسيحيين إلى الصحراء واتبعوا خطاه، وأحياناً كان يضطر إلى الظهور أمام الناس في الإسكندرية في بعض الأوقات، واكتسب صداقه القديس أنطاسيوس الذي راقته له عقيدته، وقد اعتذر هذا الفلاح المصري في احترام عن دعوة جليله أرسلها إليه الامبراطور قسطنطين. وشاهد أنطونيوس الذي بلغ الخامسة بعد المائة من عمره سلالة كثيرة العدد من أولئك الذين نشأوا على هديه، وساروا على النظم الرهبانية التي وضعها، كما تضاعف عدد الصوامع الزاخرة بالرهبان بسرعة كبيرة فوق رمال صحراء ليبيا، وعلى صخور مدينة طيبة، وفي مدن وادي النيل.

وإلى الجنوب من الإسكندرية استوطن خمسة آلاف من النساك في وادي النطرون Nitria والصحراء المجاورة، ولا يزال في مقبور الجائل أن يطالع خرائب خمسين ديراً أقامها تلاميذ أنطونيوس في تلك التربة الجرداء.

وفي طيبة العليا استقر باخوميوس وألف وأربعمائة من الأخوة في جزيرة تابن Tabenne المهجورة، وأسس هذا الراهب المقدس على التوالي تسعة أديرة للرجال وديراً للنساء، وفي بعض الأحيان كان يجتمع في عيد الفصح خمسون ألفاً من رجال الدين الذين يتبعون قواعد نظامه الملائكي، كما أن مدينة اكسيريوخوس Oxyrhyuchus (البهنسا) الواسعة الأهلة بالسكان، وهي مركز المسيحية الأرثوذكسية، خصصت معابدها، ومبانيها العامة، بل واستحكاماتها لأغراض البر والتعب، وقد قدر البعض عدد الراهبات والرهبان بعشرة آلاف من النساء وعشرين ألفاً من الرجال. وكان المصريون يفخرون بهذه الثروة العجيبة، ويحدوهم الأمل، بل ويعتقدون أن عدد الرهبان كان مساوياً لبقية السكان.

وأدخل أنثاسيوس فكرة الرهبانية وممارستها في روما، حيث أنشأ تلاميذه مدرسة لهذه الرهبانية الجديدة، حين رافقوا مطرانهم إلى أعتاب مدينة روما المقدسة، وأثار المظهر الغريب لهؤلاء المصريين في أول الأمر فزع الناس، ولكنه دفعهم في النهاية إلى استحسانه والتحمس لتقليده، وحوّل أعضاء السناتور، والسيدات الثريات بنوع خاص، قصورهم إلى نزل دينية. وسجلت المصادر أخبار عن شاب سوري اسمه هيلاريون Hilarion، تحمس للمثل الذي ضربه أنطونيوس، فأقام له مأوى موحشا على شاطئ رملى بين البحر وأحد المستنقعات على بعد سبعة أميال من مدينة غزة، وأشاعت هذه الصرامة التي ثابر عليها ذلك الرجل القديس ثمان وأربعين سنة حماساً مماثلاً، فكان كلما ذهب لزيارة الأديرة الكثيرة في فلسطين سار وراءه ألفان أو ثلاثة آلاف من الزهاد.

وكذلك اكتسب القديس بازل العظيم (٣٢٩-٣٧٩م) شهرة خالدة في تاريخ الرهبنة الشرقية، فقد تذوق عقله علم أثينا وبلاغتها، وكان طموحه أكثر من أن يشبعه منصب رئيس أساقفة قيصرية، فانسحب إلى إقليم بنطس Ponts على ساحل البحر الأسود حيث عاش في عزلة موحشة، وفي فترة من الوقت رأى من المناسب أن يسن القوانين للأديرة الروحية التي نشرها بكثرة على طول شاطئ البحر الأسود.

وفي الغرب كان هناك القديس مارتن Martin (٣١٥-٣٩٧م) أسقف مدينة تور، وهو جندي، وناسك، وأسقف، وقديس، وهو الذي أسس أديرة الغال، وعندما مات شيعه إلى قبره ألفان من تلاميذه، ولهذا نرى مؤرخه الفصيح جريجورى التورى Gregory of Tour يتحدى صحراوات مصر أن تجود ببطل في مثل فضيلته رغم أن مناخها أكثر ملائمة.

ولم يكن تطور الرهبانية أقل سرعة أو شمولاً من تطور المسيحية نفسها، فامتلت كل ولاية من ولايات الإمبراطورية، بل وكل مدينة على الأقل، بجماهيرهم المتزايدة، ووقع إختيار الزهاد على الجزائر الكنيبة الجرداء المتناثرة في البحر التسكاني شرق إيطاليا، من جزيرة لرنس Lerins إلى جزيرة ليبارى Lipari لتكون موطن مفاهم الإختياري، وكان هناك إتصال دائم سهل بين مناطق العالم البيزنطي عن طريق البحر وعن طريق البر، وتدل حياة هيلاريون على السهولة التي إستطاع بها ناسك فقير من فلسطين أن يتجه إلى مصر، ويركب البحر إلى صقلية، ويفر إلى أيبروس Epirus، ويستقر أخيراً في جزيرة قبرص.

وقد اعتنق المسيحيون اللاتين أنظمة روما الدينية، كما أن الحجاج الذين زاروا القدس كانوا ينقلون النموذج الصادق لحياة الرهبنة إلى أبعاد أرجاء الأرض، وانتشر تلاميذ أنطونيوس فيما وراء المدار فذهبوا إلى القرن الأفريقي حيث إمبراطورية أثيوبيا المسيحية، كما أن دير بانكو في مقاطعة فلنتشر Flintshire غرب بريطانيا الذي كان يضم أكثر من ألفين من الأخوة، نشر مستعمرة كبيرة العدد من متبربرى إيرلندا، وكذلك امتلت جزيرة إيونا Iona، وهي جزيرة زرعها الرهبان الأيرلنديون، واشعت هذه الجزيرة في الأرجاء الشمالية شعاعاً كبيراً عن الرهبانية.

إن هؤلاء الرهبان الذين اعتزلوا الحياة الدنيا كانوا مدفوعين إلى حياة الرهبانية بدافع من الحماسة الشديدة، وكان عزمهم المشترك يستند إلى المثل الذي ضربه الآلاف من الجنسين، من كل عمر، ومن كل مرتبة، وكان كل فرد من الداخلين إلى أسوار الدير مقتنعاً بأنه عبر الطريق الشائك الوعر إلى السعادة الأبدية، غير أن هذه الدوافع الدينية كان يحددها بصور مختلفة خلق الناس ووضعهم، فالعقل قد يقهر أثرها، والعاطفة قد توقف ذلك الأثر، غير أن

هذه الدوافع الدينية كان لها الأثر الكبير على النساء والأطفال، وكانت قوتها تزداد بفعل الندم على خطيئة خفية أو محنة طارئة، ومن الجائز أنها كانت تستمد بعض العون من بعض الاعتبارات الدنيوية، كاعتبارات الغرور أو المصلحة. وكان من الطبيعي أن يسود الاعتقاد بأن الرهبان الأتقياء المتواضعين، الذين نبذوا العالم لكي يعملوا على خلاص أنفسهم، هم أجدد الناس بأن يتولوا حكم المسيحين حكما روحيا. وكان الناس ينتزع من صومعته على غير رغبة منه ليتولى العرش الأسقى وسط تهليل الناس. وكانت أديرة مصر وبلاد الغال والشرق موردا منتظما يجئ منه القديسون والأساقفة، وسرعان ما اكتشفت الأطماع ذلك الطريق السرى الذى يؤدى إلى الحصول على الثروة والوصول إلى المناصب، ومن ثم فإن الرهبان ذوى الصيت الذائع، الذين ارتبطت سمعتهم بشهرة طائفتهم ونجاحها، عملوا جاهدين على مضاعفة عدد أتباعهم، فكانوا يتقربون إلى الأسر النبيلة الغنية، ويستخدمون كل فنون الإغراء لجذب أولئك الاثرياء الذين يمكن أن يغبّدقوا على الأديرة من ثرائهم ويضيفوا عليها من مكاباتهم، كما كانت العذراء الساذجة يجذبها الغرور ويدفعها إلى خرق قوانين الطبيعة، وكذلك كانت سيده الثرية تتطلع إلى الكمال الروحى حين تنبذ ترف الحياة العائلية. وعلى هذا النحو أذعنت الأرملة المرموقة بولا Pola إلى إغراء القديس جيروم وقصاحته، واستمالها أن تصبح ابنتها يوستوخيوم Eustochium عروس الله، فكرست ابنتها هذه للرهبانية، وغادرت بولا مدينة روما، تاركة ابنها الوليد، بناء على مشورة مرشدها الروحى جيروم، فذهبت فى صحبته إلى قرية بيت لحم المقدسة، وهناك أسست مستشفى وأربعة أديرة، وحصلت، بأحساناتها وكفاءاتها، على مكانة رفيعة مرموقة فى الكنيسة.

ولا شك في أن هذه القلة النادرة من أمثال هؤلاء التائبين ضربوا مثلاً لعصرهم، وكانوا عنواناً لمجده وعظمته، غير أن الأديرة كانت مليئة بالرهبان الذين كانوا قد يربحون في أديرتهم أكثر بكثير مما ضحوا به في دنياهم، فكان الفلاحون يهربون من الفاقة والإزدراء إلى مهنة شريفة يخفف من محنتها الظاهرة إستحسان الناس، والتراخي الخفي في النظام الديرى، كما أن سكان روما الذين تعرضت ثرواتهم وأشخاصهم لضرائب باهظة كانوا يهربون من ظلم الحكومة الامبراطورية، أما الشبان الجبناء فقد كانوا يفضلون حياة الرهبانية على أخطار الحياة العسكرية، وكذلك كان سكان الولايات من كل مرتبة، هم الذين تملكهم الذعر، وعمدوا إلى الفرار أمام الغزوات الجرمانية، كان كل هؤلاء يجدون في الأديرة ماوى وغذاء، وهكذا غصت هذه الأماكن الدينية بفرق كاملة من هؤلاء الناس، وأصبحت الأداة التى أنقذت الأفراد من محنتهم سبباً من الأسباب التى أضعفت قوة الامبراطورية وأنزلت من قدرها.

وكانت الرهبانية عملاً إختيارياً من أعمال العبادة، وكان الراهب المتقلب في حماسه الدينى مهدداً بانتقام الله الأبدى إذا تخلى عن عبادته، كما أن أبواب الدير كانت تبقى مفتوحة للجميع للندم والتوبه، ومن ثم فإن الرهبان الذين كان ضميرهم يستمد القوة من عقولهم أو عواطفهم، كان فى مقدورهن التحلل من الرهبانية والعودة إلى الحياة الدنيوية، بل إن الراهبات، كان فى مقدورهن العدول أيضاً وتقبل الغراميات المشروعة من محب دنيوى، كما أن الرجل الذى يعد للرهبنانية يوضع تحت التجربة لفترة كافية، ثم يدعم ولاءه بأن ينذر نفسه نذراً رسمياً أبدياً، وكانت قوانين الكنيسة والدولة تقر ارتباطه الذى لا رجعة فيه، فإذا هرب واحد من هؤلاء، أقتفى أثره، واعتقل، وأعيد إلى الدير، كما أن تدخل الحاكم فى مثل هذه الحالات قضى على الحرية والميزة اللتين كانتا من قبل تخفان من نظام الرهبانية، وكانت أعمال الراهب وكلماته،



وحتى أفكاره، تحددتها قواعد صارمة، أو يحددها رئيس الدير، وإذا ارتكب  
أنفه الذنوب عوقب بالتشهير المشين، أو الحبس أو الصيام غير العادي، أو  
الجلد القاسي، أما العصيان، أو التضجر، أو المماطلة، فإنها كانت تعتبر في  
عداد الخطايا الرهيبة الممقوته. وكانت قاعدة القديس كولومبا St. Columba،  
السائدة في الغرب، تقضى بتوقيع عقوبة مائة جلده كقصاص للذنوب التافهة،  
وقبل عصر شارلمان كان رؤساء الأديرة يقطعون أطراف الرهبان ويسملون  
عيونهم، وهي عقوبة أقل قسوة بكثير من السجون أو القبور المشيدة تحت  
سطح الأرض.

ولا شك في أن عادات الخضوع هذه قد حطمت حرية العقل وهي  
منبع كل إحساس كريم عاقل، وكان الراهب يذعن في ورع إلى النظم  
الرهبانية، ومن ثم فإن جمهوراً كبيراً من المتعصبين الذين لا يعرفون الخوف،  
أو التعقل، قد طغت أعمالهم على سلام الكنيسة الشرقية، واعترفت القوات  
الامبراطورية، دون خجل، أنها كانت لا تخشى مقابلة أشد الجنود ضراوة  
مثلما تخشى هؤلاء الرهبان.

وكثيراً ما كانت الخرافة تشكل الأردية الغربية التي يلبسها الرهبان،  
وتكسبها قدسيه، غير أن شذوذهم الواضح كان مبعثه في بعض الأحيان  
تمسكهم جميعاً وبصورة واحدة بنموذج بدائي بسيط أصبح في نظر كافة الناس  
مثاراً للسخرية بفعل التطورات التي حصلت في موضوع الملابس.

وانك لنرى القديس بندكت St. Bendict (٥٤٣-٥٨٠م) مؤسس  
الرهبانية البندكتية في مونت كاسينو Monte Cassino بإيطاليا، ينادي  
صراحة بكل فكرة عن حرية الراهب في إختيار ملبسه، أو ميزة ذلك الملبس،

ويخص تلاميذه في حديثه على ارتداء الملابس العادية المريحة التي يلبسها أهل البلاد التي يقطنونها.

وكانت عادات الرهبان الأقدمين في الملبس تختلف باختلاف المناخ وطريقة المعيشة، فكان لا يهمهم أن يرتدوا جلود الأغنام التي يلبسها رهبان مصر، أو العباءة التي يرتديها فلاسفة الإغريق، وفي مصر كانوا يستخدمون الكتان لأنه رخيص الثمن ومصنوع في البلاد، ولكنهم في الغرب كانوا يلبسون مثل هذه السلعة الغالية التي تعتبر ترفاً أجنبياً ولا تدفنهم في الشتاء، وكان من عادة الرهبان أن يقصوا شعورهم أو يحلقوها، ويغطوا رؤوسهم ووجوههم حتى لا يشاهدوا أشياء مدنسة، أما أقدامهم وأرجلهم فكانت عارية إلا في برد الشتاء القارس، وكانوا يتوكأون على عصا طويلة تشد من خطواتهم البطيئة الضعيفة.

كما أن المبدأ الملائكى في جزيرة تابن Tabenne كان يدين عادة غسل الأطراف بالماء ومسحها بالزيت، وكان الرهبان الأشد صرامة يفترشون الأرض على حصيرة خشنة أو غطاء خشن، ويستخدمون حزمة من سعف النخيل يجلسون عليها نهاراً، ويسندون إليها رؤوسهم ليلاً، أما صوامعهم فقد كانت أكواخاً بسيطة، وموزعة بالشوارع بصورة منتظمة تشكل في مجموعها قرية تضم داخل أسوارها المشترك كنيسة، ومستشفى. وربما مكتبة، وبعض المرافق الضرورية، وحديقة، وبئر ماء أو مستودعاً للماء العذب، وكان كل ثلاثين أو أربعين من الأخوة يكونون أسرة لها نظامها وغذاؤها المستقل، أما الأديرة الكبيرة في مصر فقد كانت تتألف من ثلاثين أو أربعين أسرة.

وقد اكتشف الرهبان بالتجربة أن الغذاء القليل والصيام الصارم هو وقاية تحمى الإنسان من شهوات الجسد، ولم تكن قواعد الصيام، التي

فرضوها أو مارسوها دائماً. أو من نوع واحد، فكان الإحتفال المرح بعيد  
العنصرة Whitsunday يعوض عن التقشف غير العادى الذى يمارسونه فى  
الصيام الكبير، غير أن حماس الأديرة الجديدة تراخى شيئاً فشيئاً، ولم يستطع  
رهبان أوروبا أن يقلدوا فضيلة الصبر والإعتدال التى اتسم بها رهبان مصر،  
فتلاميذ أنطونيوس وباخوميوس كانوا يقنعون بوجبة يومية قوامها القليل من  
الخبز يقسمونه على أكلتين بسيطتين، إحداهما بعد الظهر والثانية فى المساء،  
وكان يعتبر فضلاً، بل واجباً، أن يتعفف الراهب عن الخضروات المُسلوقة  
التي تقدم فى قاعة الأكل، غير أن رئيس الدير كان فى بعض الأحيان يظهر  
كرماً فائقاً ويجود عليهم بالكُماليات كالجبين، والفاكهة، والسلطة، وأسماك  
النيل الصغيرة المجففة، وبالتدريج زادت كمية الأسماك المسموح بها للرهبان  
أو التى يجوز السماح بها، غير أن أكل اللحم ظل فترة طويلة مقصوراً على  
المرضى والمسافرين، وعندما ساد أكل اللحم بالتدريج فى أديرة أوروبا الأقل  
صرامة، سمح بلحم الطيور البرية أو الأليفة فقط، كان لحمها أقل دنساً من لحم  
الماشية.

وكان الماء هو الشراب النقى البرئ لدى البدائيين، ثم النبيذ لدى  
البعض فى وقت لاحق، كالقديس بندكت مؤسس الرهبانية البندكتية، وكانت  
كروم إيطاليا تيسر عليه أخذ نصف لتر من النبيذ يومياً، وعندما عبر بعض  
الرهبان البندكتيين جبال الألب ونهر الراين وبحر البلطيق كانوا يطلبون بدلاً  
من النبيذ قدراً مناسباً من البيرة أو خمر عصير التفاح.

وكان طالب الرهبانية يتطلع إلى فضيلة الفقر التى يحض عليها  
الإنجيل، وعليه أن يتخلى بمجرد إنضمامه إلى جماعة رهبانية منظمة، فكرة  
إمتلاك أى شخص يختص به أو ينفرد به دون غيره، وكان الرهبان يعتمدون  
على عملهم اليدوى، فالعمل فى شريعتهم واجب يحضون عليه بكل قوة، على

إعتبار أنه كفارة وتدريب، وعلى أساس أنه أكرم وسيلة للحصول على غذائهم، وكانوا يزرعون بأنفسهم الحقائق والحقول بعد تهذيب الغابات وردم المستنقعات، وكان الرهبان يؤدون طواعية كل الحرف التي لا بد منها للحصول على الملابس والماوى.

وفيما يتعلق بالتعليم فإن ما إتسم به بعض علماء الرهبانية من حب المعرفة هو الذى هذب العلوم الدينية، بل والعلوم الدنيوية، ولا بد أن نعتزف بأن أقلام هؤلاء الرهبان هى التى دأبت دون كلل على حفظ علوم اليونان والرومان والعرب، وضاعفتها، غير أن الرهبان الذين لم يرتفع عملهم إلى هذا المستوى، كانوا يقومون بأعمال صامته يؤدونها وهم جالسون، فيصنعون النعال الخشبية، أو السلال والحصائر من أوراق التخليل المصفورة، وكان الفائض لديهم مما يستخدمونه فى الأغراض المحلية يباع. وكانت السفن المحملة بإنتاج الرهبان تسير فى الإنهار، وفى الأسواق المسيحية، وكانت ترتفع القيمة الأساسية للمصنوعات بفضل قدسية صناعتها.

وفى مراحل لاحقة تخلى الرهبان عن ضرورة العمل اليدوى، وكان الراهب الذى يؤهل للرهبانية يستمال إلى منح ثروته للدير الذى إعتزم أن يقضى بقية حياته فيه، وسمح له أن يتسلم أية أموال تؤول إليه فى المستقبل عن طريق الهبات أو الميراث، ثم يخصصها لهؤلاء القديسين، ومع مرور الزمن تضاعفت أملاك الأديرة المعروفة، وانتشرت هذه الأديرة فى القرى والمدن المجاورة، وقد لاحظ المؤرخ البيزنطى الوثنى زوسيموس Zosimos أن الرهبان، من أجل خدمة الفقراء، قد هبطوا بجزء كبير من الناس إلى حالة التسول، ومع ذلك فإنهم طالما كانوا محتفظين بكرامتهم، فقد اعتبروا أنفسهم أمناء على الصدقات التى يؤتمنون عليها، ولكن الرخاء أفسد نظامهم، فاتخذوا لأنفسهم بالتدريج مظهر الكبرياء الذى يبعثه الثراء، وفى نهاية الأمر انغمسوا

فى ترف سعة العيش، وقد تكون منها فخامة العبادة الدينية، والدوافع النبيلة التى دفعتهم إلى بناء أديرة قوية متينة لمجتمعهم الخالد. والواقع أن المجتمع الكنسى إتهم إباحية الرهبان المنحلين بأنهم لم يعودوا يتمسكون بالهدف فى نظام الرهبانية، وانغمسوا فى ملذات الدنيا الباطلة التى كانوا قد نبذوها، وأساءوا بصورة واضحة استخدام الثروات التى حصل عليها مؤسسو الرهبانية بفضائلهم القوية الصارمة.

وكان الرهبان فى بداية التحاقهم بالدير يقضون حياتهم فى التوبة والعزلة، لا تزعجهم مختلف الأعمال التى تشغل وقت الكادحين من بنى البشر، وكلما كان يؤذن لهم بمجازرة نطاق الدير، كان يسمح لزميلين بالخروج، على أن يكون الواحد منهما حارسا على زميله ورقيبا على أعماله بدافع من الغيرة المتبادلة، وبعد عودتهما كان يفرض عليهما أن يتناسيا، أو على الأقل يكتما فى صدريهما كل ما شاهداه أو سمعاه فى العالم خارج الدير.

وكان الرهبان أنفسهم يقضون حياتهم دون إتصالات شخصية، بين جمهور جمعته الصدفة، وأصبح حبس الدير نفسه، بحكم الإضطرار أو الهوى، ولم يك لدى الرهبان الكثير من الأفكار أو الأحاسيس ينقلونها إلى غيرهم، كما أن رئيس الدير هو الذى يمنحهم تصريحاً خاصاً يحدد فيه وقت زيارتهم العادية وفترة دوامهم، وكانوا يتناولون طعامهم صامتين، ويغطون رؤوسهم بحيث لا يشاهد بعضهم بعضاً، والدراسة هى الملاذ الوحيد للإنسان فى عزلته، غير أن الصناع والفلاحين الذين امتلأت بهم مجتمعات الأديرة لم يتلقوا من التعليم ما يؤهلهم لأية دراسات حرة، ومن الجائز أنهم كانوا يلجأون إلى العمل اليدوى، غير أن غرورهم بكمالهم الروحى كان يغريهم على إحتقار ممارسة هذا العمل، ومما لا شك فيه أن العمل الذى لا يهواه صاحبه لا بد أن يكون عملاً هزيباً.

وكان الرهبان يقضون النهار في صوامعهم، ويستغلونه، حسب إيمانهم، في صلوات يتلونها بصوت مسموع أو غير مسموع، ثم يجتمعون في المساء، ويستيقظون في الليل للعبادة التي تقام بالدير، والتي تحدد لحظتها الدقيقة نجوم الليل، وكان يسمع صوت نفير أو بوق يدعو إلى الصلاة، ويخرق سكون المنطقة مرتين كل ليلة، وحتى النوم، وهو آخر ملاذ لهؤلاء الرهبان.

وسوف نركز في الصفحات التالية على بعض الشخصيات التي لعبت دوراً كبيراً في النظم الرهبانية في آسيا الصغرى وشمال بلاد الشام، ومن هؤلاء القديس بازيل وأخته ماكرينا، وما كان لهما من تأثير على الحياة الرهبانية الرجالية والنسائية الجماعية، والقديس سمعان العمودي الذي ابتكر نظام الرهبانية العمودية. ولتكن البداية مع القديس بازيل:

## القديس بازيل

ينحدر القديس بازيل من أسرة مسيحية، ضمت بعض الشهداء، كان جده لأمه من كبار ملاك الأراضي في بلاد بنطس Pontus، وكانت جدته لأبيه هي القديسة ماكرينا Macrina، وقد قاسى هذان الأهل خلال الاضطهاد الذي أثاره الامبراطور مكسيميان Maximian شريك الامبراطور - دقلديانوس Diocletian (٢٨٤-٣٠٥م)، وظلا يهيمن على وجههما هرباً في الغابات والجبال حوالي سبع سنوات ضاع فيها معظم أملاكهما كما يخبرنا بذلك عالم اللاهوت القديس جريجورى Gregory، وقد بقى من أولادهما إثنان هما جريجورى وبازيل، وقد صار الأول أسقفاً على إحدى أبرشيات كبادوكيا، والثانى أبو القديس بازيل، ويدعى أيضاً بازيل، وكانت له شهرة عالية في كل بلاد بنطس كمحام عن الفضيلة ومعلم للبلاغة، كما كانت شخصيته محترمة جداً في الكنيسة نظراً لإستقامته وتقواه، تزوج هذا بامرأة

فاضلة يتيمة تدعى إماليا Emmelia، كان أبوها قد احتمل العذاب والموت في سبيل المسيحية، وكانت هي الأخرى مثالا للمرأة المسيحية الفاضلة.

هذه التقوى الثابتة نتج عنها زواج بازيل الأب وإماليا وانج هذا الزواج الموفق عشرة أطفال خمسة بنين وخمس بنات، ويبدو أن أحد هؤلاء الأبناء مات وهو طفل، وكان أكبر التسعة الأحياء ابنة تدعى ماكرينا على اسم جدتها. أما أكبر الذكور فكان القديس بازيل والثاني نقراطيوس Naucratus والثالث جريجورى، أما الأصغر ويدعى بطرس فقد ولد قبيل وفاة والده بزمن قصير، ومن بين هذه المجموعة الممتازة نذكر الأخت الكبرى وهى القديسة ماكرينا التى دون فى حياتها سيرتها شقيقها جريجورى المعروف باسم جريجورى النيسى، كما مات نقراطيوس فى شبابه المبكر، أما الثلاثة الباقون فقد رسموا أساقفة، إذ أصبح بازيل أسقفاً على قيصريه، أما جريجورى قد اعتلى اسقفية نيسا Nyssa، كما تولى بطرس أسقفية سبسطيه، وكل هذه الأسقفيات تقع فى بلاد آسيا الصغرى.

ولد القديس بازيل فى عام ٣٢٩م تقريباً أى بعد صدور مرسوم ميلان ٣١٣م وهو الذى أباح اعتناق المسيحية والاعتراف بها ديناً فى الدولة، وبعد أن انتهى المجمع المسكونى الأول فى نيقية عام ٣٢٥م من وضع الصيغة الرسمية للمعتقدات الإيمانية الأساسية للديانة السميحية، وهى الفترة التى كانت فيها للشرق الأهمية الكنيسة واللاهوتية أكثر من الغرب، وهكذا ولد بازيل فى فترة هامة وخطيرة فى تاريخ الكنيسة، فهو سليل أسرة اجتمع لها اصالة الإيمان والتقوى والجاه والشرف والثراء، تقدست بدم شهدائها وتدعمت بتقوى أفرادها من شهداء وأساقفة ورهبان وراهبات.

كانت حياة بازيل المبكرة في قرية قرب قيصرية الجديدة بأسيا الصغرى حيث تربى على يد جدته ماكرينا، وقد كان للأسرة بعض الممتلكات في تلك المنطقة التي أقام فيها بعد ذلك وهي نيسا على نهر الإيرس Eris، وكانت خلوة بازيل فيما بعد على الضفة المقابلة لذلك النهر، ذات المناظر الطبيعية، وفي نيسا شيدت أمه إماليا هيكلًا على اسم الأربعين شهيدا الذين استشهدوا في سبسطيه، ونقلت إليه مخلفاتهم المقدسة، ويحتمل أن يكون بازيل قد حضر صلوات التدشين التي استمرت طوال اليوم، وفي ذلك المكان تلقى مبادئ الدين عن جدته ووالده، وفيه عمُد أيضا، ويروى أن الفضل الأول في توجهه هذا كان لجدته كما كان أيضا لأخته الكبيرة ماكرينا.

أرسل بازيل في سن مبكرة إلى المدرسة في قيصرية كبادوكيا، وتعرف هناك بأشخاص من بينهم جريجورى نازانيانى Nazianzus، كما أعجب كثيرا برئيس الأساقفة ديانيوس Dianius، ويروى لنا جريجورى أنه حتى في تلك الفترة المبكرة حاز بازيل شهرة واسعة لرجاحة عقله، فضلا عن شخصيته التقية، فكان فيلسوفاً وخطيباً، حتى قبل أن يدرس هذين الفرعين من العلوم دراسة منتظمة، وعلاوة على ذلك كان كاهنا بين المسيحيين قبل أن ينال مرتبة الكهنوت، وهكذا لفتت شخصيته الأنظار منذ صغره.

انتقل بازيل من قيصرية إلى القسطنطينية حيث درس البيان والفلسفة بنجاح، ولكن معلوماتنا عنه في سنى إقامته الخمس في القسطنطينية ضئيلة، وقد ارتحل بازيل إلى أثينا سنة ٣٥١م طبقا لما كان متبعا آنذاك بالنسبة للذين يريدون أن يتموا دراساتهم العليا، إذ كانت أثينا من أشهر المدن الجامعية في العالم، فقد كانت بصيتها الذائع القديم وتقاليدھا التاريخية من ناحية، وأساتذتها الممتازين في الفلسفة والبلاغة من ناحية أخرى، ما تزال تجذب إليها الطلاب من كل أنحاء العالم.



أمضى بازيل حوالي خمسة أعوام في أثينا، ولدينا قدر وفير من المعلومات عن حياته هناك مما كتبه صديقه جريجورى النازانيانى الذى كان قد سبقه إليها، يقول جريجورى أن شهرة بازيل كانت قد سبقته إلى أثينا، فانتظره كثير من الشباب وتنافسوا على صداقته، وقد عملت كل الظروف على توطيد أواصر الصداقة بين كل من بازيل وجريجورى، فقد جمعتهما أهداف روحية مسيحية، حتى قيل عنهما أنها كانا روحاً واحدة فى جسدين، وغدت صداقتهما مثلاً رائعاً فى تاريخ القديسين، وهكذا لم يكن للشعر والفصاحة - والحالة هذه - قدرة على إضعاف ميولهما الروحية وحياتهما الدينية، لقد عاشا سوياً، وساعد كل صديقه للاستفادة من كل فرص التعلم، وقد امتنع الشابان تماماً عن كل الملذات التى تنفسي عادة بين الشباب. وفى ذلك يقول جريجورى: "عرفنا شارعين فى المدينة : الأول هو الأحسن كان يودى إلى الكنائس، والآخر كان يودى إلى المدارس العامة ومعلمى العلوم، أما الشوارع التى تؤدى إلى المسارح والملاعب والأماكن غير المقدسة فقد تركناها لغيرنا".

وواقع الحال أن الإقامة فى أثينا وقتذاك والأنشغال بالدراسات الكلاسيكية - بالنسبة إلى الشباب غير المتمكن من دينه - كانت فرصته مليئة بالتجارب، وكان من السهل أن تشغله الحماسة للوثنية، وإن كانت قد فقدت حيويتها. ولدينا مثل واضح على ذلك، فقد لازمهما فى الدراسة فى أثينا الأمير جوليان ابن عم الامبراطور قسطنطيوس Constantius (3371 - 361م)، وكان الأمير الشاب يرتبط بالقديس بازيل بصداقة قديمة، وقد اعتاد أن يدرس معه الكتاب المقدس ويعدد المقارنات بين تعاليم الكتاب السامية ودروس أساتذته الوثنيين، ومع كل هذا فإن جوليان تأثر تأثراً عميقاً بالوثنية، حتى أنه حينما صار إمبراطوراً فيما بعد ارتد عن المسيحية وصار يعرف فى التاريخ بإسم جوليان المرتد Apostate.

ظهرت وتجلت عبقرية بازيل الدراسية في أثنائها، ويخبرنا جريجورى بأن إجهاد صديقه وتكيزه ومثابرتة كانت عظيمة، وكان بارعا فى جميع فروع العلم وخاصة الفصاحة والبيان والفلسفة والفلك والهندسة والطب.

وأخيرا حان الوقت لتنفيذ ما عقد عليه الصديقان العزم من ممارسة حياة الرهبانية بعد عودتهما إلى وطنهما، وعندما حل يوم الرحيل، حاول أصدقاؤه أن يثتوه عن عزمه، ولكن القديس بازيل تمسك بعودته إلى وطنه، أما جريجورى فقد تخلف لبعض الوقت، وهكذا عاد بازيل بمفرده إلى وطنه سنة ٣٥٦م، فوجد أن والده وجدته ماكرينا قد توفيا أثناء غيبته، وإن أمه إماليا قد استقرت فى نيسا، المكان المحبب إليه وهو صغير.

رحبت مدينة قيصرية كبادوكيا بالقديس بازل كأحد أبنائها الممتازين، وكانت شهرته فى أثنائها قد سبقته إلى كبادوكيا، وقد عمل مدرسا لعلم البيان بقيصرية لمدة عامين تقريبا بنجاح عظيم، وخلال السنتين القصيرتين فى التدريس أحرز بازيل شهرة عالية حتى أن قيصرية الجديدة أرسلت وفدا يلتمس منه الاشتغال بالتدريس فى مدينتهم ولكنه رفض بسبب حماسته إلى حياة الرهبانية، وفى تلك المرحلة من حياة بازيل تدخلت أخته التقية ماكرينا التى أزعجها أن ترى أخاها بازيل منهماكا بالإهتمام بالعلوم الطبيعية والبشرية، فحثته على طلب العلوم الدينية التى تغرس التقوى فى القلوب، وشرعت تذكر له بطلان أمجاد العالم، ونجحت أخيرا فى إقتناعه كموسى جديد يفضل العبرانيين على خزائن مصر، كما يخبرنا بذلك القديس غريجورى أسقف نيسى، وفى هذه الفترة سنة (٣٥٣م) تعمد بازيل، وبعدها بقليل رسم أغنسطسا (قارثا) بيد أسقف قيصريه.

هكذا استيقظ بازيل على صوت أخته ماكرينا، وكرس حياته لله، بل أكثر من هذا، أنه اختار لذاته طريق الوحدة، طريق الكمال المسيحي، الأمر الذي كان قد اتفق عليه مع صديقه جريجورى.

وفى حوالى سنة ٣٥٨م، عندما كان بازيل دون الثلاثين من عمره، ترك مدينة قيصرية ليجتاز عن النساك المشهورين فى مصر وفلسطين وسوريا وما بين النهرين، وقد أثار إعجابه شدة زهد وتشف هؤلاء النساك الذين قابلهم، خاصة فى مصر وفلسطين، وأثار دهشته فيهم ضبط النفس وإحتمال الرهبان ومقدرتهم على الصوم والسهرة، واحتمال البرد، والطريقة الخارقة للعادة التى يعاملون بها أجسادهم كأنها ماوى غريب يقومون به لفترة ما، وقد ظل بازيل يدرس لمدة سنتين تقريباً التقاليد الرهبانية المثالية التى ترجع إلى القديس أنطونيوس الكبير فى مصر، وكان ما رآه فى حياة الرهبان خلال رحلاته حاثاً له على الإسراع فى حياة الرهبانية، ولما عاد إلى وطنه باع ما يخصه من أملاك ومقتنيات ووزعها على الفقراء والمحتاجين، وبدأ يفكر فى أنسب الأماكن لإقامة دير يصح للرهبانية التى جالت فى خاطره. وانتهى به الأمر أن اختار بقعة فى إقليم بنطس تسمى إيبورا على نهر الأيرس، لما تمتاز به عن جمال طبيعى، وربما فعل هذا حتى يستميل صديقه جريجورى إلى التوحد معه فى هذا المكان، الذى كان على مقربة من الدير الذى تعيش فيه أمه إماليا وأخته ماكرينا مع بعض الراهبات.

وكتب إلى صديقه جريجورى يقول : " لقد أرشدنى الله إلى منطقة تتفق تماماً وطريقتى فى الحياة، إنها حقاً مكاناً نتوق إليه، فهو يقع على جبل عالٍ تكسوه غابة كثيفة، ترويهما فى الشمال جداول جاربه، وعند سفح الجبل يمتد سهل فسيح كثير الثمار، أما الغابة المحيطة حيث تتنوع الأشجار، فهى تعزلنى عن العالم، والبريه محاطة بواديين ضيقين عميقين، على أحد جانبيهما

ينحدر مجرى الماء بقوة من الجبل مكوناً حاجزاً من الصعب عبوره، وعلى الجانب الآخر حافة فسيحة تجعل الاقتراب منه أمراً صعباً، ويقع الكوخ على القمة وبذا أشرف على السهل الفسيح وعلى طريق الأيرس.."

هذه الصورة الخيالية تشير إلى أن تلك الحياة الرهبانية كان لها جانبها المثالي والشاعري بالنسبة إلى العقول المتقفة، بل أنها تعكس لنا إحساس بازيل المرهف وتذوقه للفن وجمال الطبيعة، متمشياً في ذلك مع المسيحية التي ترى في الطبيعة وما فيها من جمال كتاباً مفتوحاً تقرأ فيه عن قدرة الخالق وحكمته وإنعامه.

والحق أن القديس بازيل كان يعشق الطبيعة، وله تأملات كثيرة في السماء والنجوم والطيور وأجناسها، والأسماك، والحيوان، والنبات، وغيرها، وكان يصفها وصف عالم عاكف على دراستها، وكان يرى حكمة الله وراء جميعها.

وفي تلك البقعة الهادئة اعتقد القديس بازيل أنه قد تحرر من كل إهتمامات الحياة الدنيوية، وأنه يستطيع أن يخدم الله بطريقة مثلى، وبدأ القديس بازيل في خلوته في إقليم البنطس نظاماً رهبانياً شديداً، فلم يك يتناول في طعامه أكثر مما كان ضرورياً ليسد رمقه، وفي بعض الأحيان لم يكن ذلك الطعام شيئاً سوى الخبز والماء وبعض اللحم، كما كان يملك ثوباً خارجياً وآخر داخلياً فقط، وكان يرتدى في الليل لباساً من الشعر ينام به، ولم يك يرتديه بالنهار حتى يبدو متظاهراً بالرهانية، ولم يك ينام إلا قليلاً.

وسرعان ما عُرف بازيل في حياته الجديدة وذاع صيته فأصبح مركزاً تجمع حوله رهبان البنطس وكبادوكيا، ولم يك هو أول من أدخل الحياة

الرهبانية إلى البنطس، فقد سبقه إلى ذلك القديس جستينان من مدينة سبسطية الذي سجل القديس بازيل إعجابه بشخصيته الرهبانية.

والحقيقة أن نظام الجماعات الرهبانية في تلك الأصقاع كان جديداً، ويعزى إلى القديس بازيل فضل إظهاره، ويعتبر هو المؤسس له هناك دون شك، وما لبث أن انتشر مثاله، فتأسست جماعات من الرهبان من الجنسين في جميع أنحاء إقليم بنطس، وكان كل منها مركزاً فعالاً في التبشير بأراء مجمع نيقية المقدس والدفاع ضد الأريوسية.

وقد نجح القديس بازيل في جذب صديقه جريجورى إليه، وواظبا معاً على الصلاة والدراسة والعمل اليدوى، وجمعا مختارات من كتابات أوريجين وأخذ من كتاباته مادة لتدعيم الإيمان الحقيقى ضد الأريوسية.

وحتى ذلك الوقت لم يلاحظ أن القديس بازيل اشترك في نشاط عام، بل كان قابلاً في خلوته في البنطس، وبعد ذلك أقنعه جريجورى النزيازى بالذهاب إلى قيصرية لمعاونة يوسيبوس أسقف المدينة، فذهب إلى هناك ورُسم قساً بيد يوسيبوس سنة ٣٦٤م بعد تمنع شديد نتيجة لشعوره بعدم الأهلية لتلك الرتبة السامية، وصار بازيل الشخصية ذات الأثر الأكبر في كل المنطقة، وكان هذا عاملاً على إظهار ضعف شخصية يوسيبوس، الأمر الذى أدى إلى فتور العلاقات بين الاثنين، وسرعان ما زاد هذا الفتور حتى انتهى إلى القطيعة، فعاد بازيل إلى دير بصحبة صديقه جريجورى، وهناك أمضى الصديقان ثلاث سنوات في الوحدة، عكفا خلالها على الكتابة ضد الامبراطور جوليان (٣٦١-٣٦٣م) الذى ارتد عن المسيحية.

ولما ارتقى العرش الامبراطور فالنز الأريوسى Valens (٣٦٤-٣٧٨م) حاول بكل قوة أن ينشر المذهب الأريوسى، وفي هذه الأزمة

طالب الشعب بعودة بازيل إلى قيصرية، فحاول يوسيبوس أن يستميل جريجورى إلى جانبه، ولكن هذا الأخير رفض العودة بدون بازيل.

وأخيراً، بفضل مجهودات جريجورى تم التوفيق بينهما وعاد بازيل إلى قيصرية للتعاون بكل إخلاص مع يوسيبوس مستخدماً كل فصاحته وعلمه لإحباط هجمات الأريوسيين، وقد نظم المقاومة الأرثوذكسية ضد الأريوسيين الذين كانوا جادين فى نشر معتقدتهم فى كل أسيا الصغرى، وكرس جهوده فى تنمية قوة الأبرشيه مؤيداً سلطة يوسيبوس رئيس الاساقفة معاملاً إياه بما يليق بمركزه وسنه من إكرام، وأثبت بازيل بذلك أنه - على حد تعبير جريجورى - غدا عكاز يوسيبوس، ودعامة الإيمان الأرثوذكسى، وأكثر أصدقائه وفاء، وأكثر الخدام كفاءة.

ولم تكن الاحتياجات اللاهوتية وخدمة الكنيسة فى زمن بازيل لتمنعه من تكريس جزء كبير من طاقته لأعمال الرحمة، فمن المحتمل أن المؤسسة الديرية العظيمة التى أقامها فى ضواحي قيصرية لعلاج المرضى وإراحة المسافرين والفقراء، وقد وضع تصميمها فى أواخر سنى قسيسته، وقد عرفت هذه المؤسسة أخيراً باسم باسيلياذ Basiliad، وكانت بمثابة المؤسسة الأم، وسرعان ما قامت مؤسسات أخرى مشابهة فى المناطق القروية القريبة.

ومن أبرز الحوادث فى تلك الفترة المجاعات التى اجتاحت كل الإقليم سنة ٣٦٨م، وفى خلالها كان بازيل مثال الخادم الذى يضع نفسه من أجل مخدميه، فلم يكتف بحث الأغنياء والتجار على الرحمة وإنما باع ممتلكاته التى كانت قد آلت إليه مؤخراً بعد وفاة والدته ووزعها على المحتاجين، وخدم بشخصه كل المتألمين، وكان الخدم يحضرون إليه أكواماً من الأطعمة وهو يوزعها بيديه بينما يعزى بكلماته المتضايقين ويشجع المعذبين.

وفى نحو منتصف سنة ٣٧٠م توفى يوسيبوس نيس أساقفة قيصرية، وأصبح كرسى الأسقفية خالياً، وصار الأمل معقوداً عليه ليشغل هذا المنصب الكبير. وكانت مدينة قيصرية منقسمة إلى معسكرين: كان جميع الناس الأخيار مع الكهنة والرهبان يؤيدون إنتخاب بازيل بحماسة كبيرة، أما معارضوه فكانوا يتألفون من الأساقفة الأريوسيين، وبعض ذوى الغنى والمراكز ممن كانوا يعيبون عليه رهبانيته أو إنكار ذاته وزهده، وبعض الأشرار والفجار لمقاومته لهم وتوبيخه إياهم. أما بالنسبة إلى شعب قيصرية فقد كان بازيل هو الرجل الروحانى ذا المقدرة العظيمة الذى يستطيع صد تيارات الهرطقة، وقد استطاع بازيل بنفوزه أن يتغلب على كل الصعاب، وانتهى الأمر بتولية منصب رئيس أساقفة كبادوكيا.

كان لتعيين بازيل رنة فرح فى كل العالم الارثوذكسى، حتى أن البابا اثناسيوس، فى مصر أرسل من الإسكندرية مهنئاً كبادوكيا بهذا التوفيق، أما فى القسطنطينية فقد قوبلت رسامته بمشاعر مختلفة، إذ شعر الامبراطور فالنز أنها صدمة خطيرة له وللأريوسية، لأن بازل لم يك خصماً يستهان به، فهو - فضلاً عن قوة شخصيته - كان نفوذه كرئيس أساقفة قيصرية يمتد إلى ما واء حدود المدينة ذاتها، فكان رئيساً على أساقفة كبادوكيا كلها، وله نفوذ فى بلاط بنطس، وفى أكثر من نصف آسيا الصغرى، وكانت تتضوى تحت لوائه نحو إحدى عشرة مقاطعة، وكانت مدينة أنقرة وقيصرية الجديدة والطوانه وأسقفيات أخرى تعتبره الرئيس الكنسى لها.

ومن المشاكل التى واجهته أنه كان هناك فريق من الاساقفة قد رفضوا الاشتراك فى تنصيبه، وهؤلاء تحولوا من العداء المكشوف إلى المقاومة السرية، وكانوا يعاملونه باستخفاف، مظهرين رغبتهم التامة فى مشاركته فى كل خطته، وكان هذا المسلك غير المخلص من جانبهم سبباً فى إزدياد

مرضه، لكنه تمكن على أى حال من التغلب على معارضيه فى سنوات قليلة بالحزم الممتزج بالعطف.

صممت حكومة الإمبراطور على تقسيم كبادوكيا إلى إقليمين، وكان المقصود من ذلك أضعاف مدينة قيصرية، أو بالأحرى إضعاف القديس بازيل، وقد اختيرت مدينة الطوانه لتكون العاصمة الجديدة للإقليم الثانى. فطالب أنتيموس Anthimus أسقف مدينة الطوانه بتقسيم كنسى يتبع التقسيم الإدارى، وبأن تتمتع الطوانه بامتيازات المدينة العاصمة، كما تتمتع قيصرية، أما القديس بازيل فقد قاوم ذلك المطلب، لذلك حدث نزاع بينه وبين أنتيموس، ولكى يقوى موقفه عين بعض المقربين أساقفة على بعض المدن فى آسيا الصغرى.

لم يمض على القديس بازيل أكثر من إثنى عشر شهرا فى أسقفيته حتى دخل فى صدام علنى مع الامبراطور فالنز الذى كان يعبر آسيا الصغرى مصمما على ضرب العقيدة الارثوذكسية وإحلال الأريوسية محلها، وكان مصمما على إخضاع القديس بازيل بطل الارثوذكسية فى تلك الجهات. وكان تقدمه مظهرا من مظاهر انتصاره، فقد ضعف أمامه كثيرون، وقاومت منطقة بيثينيا، فصارت مسرحا لمأس مرعبة لذلك إستسلمت بعض الأماكن دون مقاومة، وكان مصير كبادوكيا يتوقف على بازيل، وهنا نصحه البعض أن ينحنى أمام العاصفة، ويهدئ من روع الامبراطور بخضوع وقتى، ولكنه رفض مشورتهم بإباء تشوبه الغيرة المقدسة.

دخلت حاشية الامبراطور على القديس بازيل بتهديدات شديدة، وكان أشدهم وقاحة كبير طهارة الامبراطور الذى هدده بالسكين فقابل القديس تهديداته بشجاعة هادئة. ثم تلاه رسول آخر أرسله فالنز إلى بازيل يخيره بين أمرين:



إما العزل وإما إعتناق المذهب الأريوسى، فاستدعاه الرسول وطالبه بالخضوع، فرفض القديس الأمر فهدده الرسول بمصادرة أملاكه والنفى والتعذيب والموت، فكان رد القديس على هذه الإهانة أن لا شئ من هذه التهديدات يرهبه، فليس له شئ يُصادر سوى قليل من الخرق وبعض الكتب، أما النفى فلا يمكن أن يبعث به إلى ما وراء أراضى الله، لأن الأرض عنده دار غربه، أما التعذيب لا يخيف جسماً مات بالفعل، أما الموت فإنه يكون كصديق يأتى ليصاحبه فى آخر رحلة إلى الوطن الحقيقى وينقله فى الحال إلى الله الذى يحيا له. وما أن سمع الرسول هذه الإجابة حتى صاح فى دهشة ممزوجة بكبرياء معلنا أن أسقفا لم يكلمه قط بمثل هذا الكلام، فأجابه بازيل فى هدوء: " ذلك لأنك لم تقابل أسقفا حقيقيا". ولما لم يفلح الرسول فى تهديده، أخذ يعده بامتيازات وبصداقة الإمبراطور وبتحقيق كل مطالبه، لكن شيئا من كل ذلك لم يلب عزيمة بازيل القوي، فأسرع الرسول ورفع تقريره إلى الإمبراطور.

وزار فالنز كنيسة قيصرية وأصغى باحترام إلى عظة القديس بازيل، وبعد نهاية الاحتفال ناقشه القديس فى الإيمان الأرثوذكسى، وبدا أنه مال ليكون صديقا للقديس بازل، ومنحه بعض الاراضى لنشاطه الخيرى. وفى الحقيقة فإن هذا الوفاق كان ظاهريا بين فالنز وبازيل، فالقديس لن يسمح للأريوسيين بالاشتراك معه فى القداس، والإمبراطور لن يطبق الرفض، وحينما ظل القديس مصمما على رفض قبول الأريوسيين، أقنع هؤلاء فالنز أن نفى بازيل أصبح ضروريا للسلام، فاستسلم الإمبراطور للمشورة وأمر بنفى بازيل، وأعد القديس عدته للرحيل، ورتب أن يكون ذلك ليلا تجنباً لأخطار الاضطرابات الشعبيه، وكانت المركبة بانتظاره على الباب، وإذا بأمر النفى يتوقف! لقد مرض جلاتوس Galatus ابن الإمبراطور الوحيد مرضا مفاجئا

وخطيراً، وعزت أمه دوميليكا Domilica مرضه إلى الأمر بنفى القديس، فأرسل الامبراطور رسولين إلى القديس لكي يصلى للطفل المريض الذى لم يكن قد تعمد بعد، فاشتراط القديس قبل ذهابه أن يعمد الطفل - بعد شفائه - على يد كاهن أرثوذكسى، ولكن الامبراطور حنث بوعده وعمد الطفل على يد أسقف أريوسى، فساءت حالة الطفل ومات فى تلك الليلة، فازداد نفوذ القديس جداً بسبب ذلك، حتى أن الناس كانوا يأتون من مسافات بعيدة طالبين بركته.

وفى حوالى سنة ٣٧٦م استعرت الحرب بين الفرس والبيزنطيين، وبينهم وبين القبائل الجرمانية من قوط وجرمان، وبدأت الامبراطورية تتفكك وينحسر سلطانها الذى عم الأرض، ثم اشتدت المنازعة بين تريانوس وفاللز، وفى آخر الأمر، لما أحسن فاللز بأن زمام الأمور يفلت من يده أخذ فى مهادنة المسيحية فسمح للأرثوذكسيين باسترجاع كنائسهم وأماكنهم، وأمر بإعادة الأساقفة إلى كراسيهم الأسقفية، فعم السلام فى الكنيسة، وخف طغيان الأريوسية، وشاهد بازيل وهو فى غروب الحياة أن السلام قد استقر فى الكنائس جمعاء، فبطرس خلف أثناسيوس العظيم فى كرسى الإسكندرية، وجريجورى أسقف نازيانزيوس Nazianzus تبوأ كرسى القسطنطينية، واستمر ملانيوس فى كرسى أنطاكية.

وفى هذه الأثناء كان بازيل يصارع الموت، وكان قد بلغ التاسعة والأربعين من عمره فقط، لكن صحته كانت قد اعتلت، فالأشغال كثيرة وهموم الكنائس والصوم والمضايقات والأحزان عجلت كلها على تقويض بنيان جسده، ورغم هذا استمر بازيل فى تنظيم الأمور وإسداء النصح وتوجيه الإرشاد حتى يتابع المسؤولون عمله الذى بدأه ولم يكمله، وما زال المرض يفتك به رغم

الاعتناء البالغ والصلاة لأجله من الجموع المحتشدة حول كرسي المطرانيسه، حتى توفي في الأول من يناير ٣٧٩م.

وكان موته انتصاراً له، فقد زحف الشعب كله لوداع أسقف كان له أبا ومعلماً وسنداً، وامتألت الشوارع حتى داس بعضهم بعضاً ومات كثيرون، واشترك في هذا المأتم اليهود والوثنيون وكل شعب قيصريه وإقليم كبادوكيا، وترأس الصلاة شقيق القديس جريجورى أسقف نيسا، وأبنته فى هذه المناسبة، كما أبنته سنة ٣٨١م القديس جريجورى النزانيازى وآخرون، وهذه المراثى والتأبين هى المصدر الاساسى لحياة القديس بازيل.

وارتفع صوت الشعب أن بازيل قديس، وأقرت الكنيسة بذلك، وأخذت تعيد له بعد سنين قليلة من وفاته، فى الأول من يناير، وبعد القرن التاسع نقلت الكنيسة الغربية عيده إلى الرابع عشر من يونيه من كل عام.

## القديسة ماكرينا

لم تكن القديسة ماكرينا Macrina (٣٣٠-٣٧٩م) هى الوحيدة بين النساء فى الامبراطورية البيزنطية التى اعتنقت الرهبانية، ولكنها كانت فى مقدمة هؤلاء الراهبات اللاتى يزخر بهن المصادر البيزنطية، كما أن هناك بعض المراجع المتخصصة فى الرهبانية النسائية قد تكلمت عن الراهبات، نذكر منهن القديسة ماري المصرية (٣٤٤-٤٢١م)، والقديسة ماترونا أف برج St. Matrona of Perge التى توفيت بين عامى (٥١٠-٥١٥م)، والقديسة ماري، وهى القديسة التى كانت تلبس زى الرهبان من الرجال وسميت بإسم مارينوس Marinós، وقد سجلت سيرتها فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع الميلادى، والقديسة ثيودورا أف

سالونيك St. Theodora of Thessalonike (٨١٢ - ٨٩٢م)، والقديسة  
أثناسيا أف إيجينا St. Athanasia of Aegina التي عاشت في القرن التاسع  
الميلادي، وأخيرا وليس آخرا ماري الصغيرة التي توفيت في عام ٩٠٣م.

والحقيقة أن حياة القديسة ماكرينا قد سجلها شقيقها جريجوري النيسى  
(٣٣٥-٣٩٥ تقريبا)، وهو من كبار رجال الكنيسة ومن الذين كتبوا عن تاريخ  
الكنيسة، وتاريخ شخصيات دينية أخرى، وقد سجل جريجوري حياة أخته  
ماكرينا تحت مجموعة من العناوين بدأها بالحديث عن والديها، وميلاد ماكرينا  
وطولتها، وخطبتها إلى أحد الشبان ثم موت هذا الخطيب قبل الزواج،  
وتصميم ماكرينا على عدم البعد عن والديها، وعودة أخيها القديس بازيل بعد  
غياب طويل بسبب دراسته في أثينا، ثم تحدث عن قصة أخيه نوقراطيس  
Noucratius، وموته بطريقة مأساوية، ومساعدة ماكرينا لوالديها، وكيف  
أصبحت الوالدة وابنتها ماكرينا تتجه نحو حياة الرهبانية، كما تكلم عن الأخ  
الأصغر لهما وهو بطرس، كما تكلم عن موت الأم، ثم موت القديس بازيل  
الكبير بعد حياة حافلة بالأمجاد الدينية. وحين جريجوري إلى أخته ماكرينا  
والرحيل لزيارتها في الدير، وأن جريجوري عندما وصل إلى الدير وجد أخته  
ماكرينا على فراش الموت والحديث الذي دار بينهما، وكيف أن ماكرينا طلبت  
من أخيها أن يطلب الراحة لنفسه. ويعود جريجوري مرة أخرى ويحدثنا عن  
طفولة أخته ماكرينا، وعن أيام ماكرينا الأخيرة، وصلواتها وهي على فراش  
الموت، وحزن الراهبات على ماكرينا القديسة ورئيسة الدير، وقدم سيده  
فاضلة تدعى فستيانا Vestiana لمساعدة جريجوري في دفن ماكرينا وإتمام  
مراحل الدفن، وقدم العديد لوداع ماكرينا والاستعداد للجنائز، ثم الوصول إلى  
الكنيسة، ومراسم الدفن، وحزن الأسرة على وفاة ماكرينا، وانتهاء مراسم  
الدفن، وعودة جريجوري إلى منزله، وأخيرا قصة الجندي وشفاء العيون.

ومن المعلومات التي قدمها المؤرخ الكنسى جريجورى النيسى وغيره من المصادر نستطيع أن نقدم معلومات طيبة عن القديسة ماكرينا، ولكن الصفحات القليلة في هذا الكتاب لا تسمح لنا بتقديم كل التفاصيل عن حياة هذه القديسة، وبذلك نوجزها ونقول: أن القديسة ماكرينا ولدت في قرية صغيرة بالقرب من مدينة قيصرية كبادوكيا عام ٣٣٠ وتوفيت عام ٣٧٩م، وكان والدها يدعى بازيل وأما تدعى إميليا Emmelia، وجدتها لأما هي القديسة ماكرينا الكبيرة، وكان لها أربعة أخوة وخمس أخوات. وقد تزوجت الأخوات وعشن حياتهن العادية، أما الأخوة الرجال فهم القديس بازيل الكبير الذى سبق الحديث عنه، وكان يليه نوكراطيس Naucratus وقد مات في حادث صيد في بنطس، أما الأخ الثالث فهو جريجورى اسقف نيسا والرابع هو بطرس اسقف مدينة سبسطيه Sebaste ومن ذلك يتضح أنها تنحدر من أسرة دينية عريقة قلما نجد مثلها في تاريخ الكنيسة، ويحتفل بعيدها في التاسع عشر من يوليو كل عام.

وواقع الحال أن ما قدمه جريجورى النيسى عن أخته ماكرينا كان عبارة عن خطاب كتبه جريجورى إلى أحد الرهبان ويدعى أوليمبوس Olympius كان معه في مجمع أنطاكية الذى عقد في عام ٣٧٩م في شكل مديح وإطراء للقديسة ماكرينا. وفي بداية هذا الخطاب يشير جريجورى النيسى إلى أن مصر هي أرض الرهبانية، وأشار إلى القديس أنطونيوس Antony (٢٩٠ - ٣٤٦م) ورهبانيته في وادى النطرون. أما عن فترة حمل الأم للجنين، فقد كانت ترى أحلاما طيبة، وانها كانت ترغب في تسميه المولد باسم تكلا Thecla تيمنًا بالقديس تكلا ورفيقه بولص، وبعد الولادة سميت الطفلة باسم جدتها ماكرينا، أما اسم تكلا فقد ظل داخل الأسرة فقط، أما بعد مرحلة الطفولة والدخول في مرحلة الصبا، فقد كانت والدتها هي معلمتها في

الشئون الدنيوية وقراءه بعض الأشعار، والشئون المنزلية بالاضافة إلى الشئون الدينية، فقرأت مزامير داود ودرست حكمه سيدنا سليمان، وكانت تتلو المزامير عندما تنهض من الفراش أو أثناء انشغالها بالأعمال المنزلية.

وعندما أصبحت ماكرينا في الثانية عشر من عمرها ظهرت أنوثتها، وكانت الصبية تتمتع بقسط كبير من الجمال فتمت خطبتها إلى محام شاب من عائلة فاضلة، ولكن هذا الشاب مات فجأة، وهنا قررت ماكرينا عدم الزواج. وعند هذه المرحلة قرر أخيها القديس بازيل - بعد وفاة والدها الترحال، فأخذ أمه واخته ماكرينا إلى ضيعة للأسرة تقع على نهر إيرس Iris في إقليم بنطس. ورحل بازيل للدراسة في عام ٣٥١ إلى جامعته أثينا وبقيت الأم والإبنة ماكرينا. وفي هذا المكان الذي يوجد فيه الأم والإبنة وبعض الخدم وجماعة أخرى قررا الابتعاد عن الحياة الدنيوية وكرسا نفسيهما لخدمة الله.

واجتمع في هذا المكان مجموعة أخرى تذكر منهم القديس جريجورى النازازيانى، ويوستاسيوس Eustathius أسقف سبسطيه فيما بعد، وتفقه هؤلاء جميعا في الدين المسيحى.

وبعد هذه المرحلة عاد القديس بازيل بعد خمس سنوات (٣٥٦م) منها دراسته في علم البلاغة بجامعة أثينا، وهنا طلبت ماكرينا من والدتها ترك الحياة الدنيا والاتجاه إلى الرهبانية، وساعدها على ذلك كل من أخويها القديس بازيل والأخ الأصغر بطرس، وتلى ذلك موت الأم فتولت ماكرينا رئاسة الدير الذى ازدهر كثيرا في أيامها. مات القديس بازيل في عام ٣٧٦م وبعد ثلاث سنوات سافر جريجورى النيسى إلى أنطاكية في عام ٣٧٩م ليحضر مؤتمرا كنسيا، ولما عاد اتجه لزيارة أخته فوجدها على فراش الموت، وقد لاحظ ذلك لأنه عندما وصل إلى الدير لم يجد أخته بين المصلين، وقد قاده أحد الرجال

إلى الحجرة التي ترقد فيها أخته وبعد ما فتح الباب لم يجد أخته، على السرير أو على الأريكة بل وجدها على الأرض فأسرع إليها وبعد محادثة قصيرة أسلمت الروح في عام ٣٧٦م.

## الرهبانية العمورية

هي نوع من الرهبانية الانفرادية قامت في بلاد الشرق، وقد اختار أصحاب هذه الرهبانية الحياة على تاج عامود أقاموه في أماكن ليست بعيدة عن الناس ليرى الناس زهدهم في الحياة الدنيا، كما أن المعيشة في زهد فوق العامود يجعلهم أقرب إلى السماء عن الذين يعيشون فوق الأرض، وكلما زاد ارتفاع العامود كلما كان قربهم من الخالق أكثر. وقد أخذ هذا النوع من الرهبانية مكانه في الجزء الأخير من القرن الرابع الميلادي. وقد تحدث عن هذه الرهبانية بعض المؤرخين الكنسيين والديويين.

ومن الذين كتبوا عن هؤلاء القديس جريجوري النازاني *Gregory of Nazanzian* (توفي عام ٣٨٥ أو ٣٨٦م)، وهو يخبرنا عن بعض الرهبان العموديين الذين عاشوا معاً لمدة سنين دون أن يستلقوا على ظهورهم أو جنوبهم. كما أن بلاديوس *Palladius* (٣٦٨-٤٣١م)، وهو مؤرخ من إقليم جالاتا *Galata* شمال القرن الذهبي يحدثنا عن بعض الرهبان الذين عاشوا في كهوف على قمة الجبال أكثر من خمسة وعشرين عاماً وهم يولون وجوههم نحو الغرب. كما سجل المؤرخ ثيودورت القورسي *Theodoret of Cyrus* صاحب الفصول الثلاثة (ولد حوالي ٣٩٣ ومات ٤٥٧م)، يؤكد أنه شاهد بنفسه راهباً ظل داخل أنبوب عشره أعوام، كما تكلم عن القديس سمعان العمودي. وأخيراً نذكر المؤرخ ايفاجريوس *Evagrius* (٥٣٦-٥٩٤م) وخاصة عن القديس سمعان العمودي في أحداث عام ٤٤٠م، ويذكر أن الامبراطور

البيزنطى ثيودوسيوس الثانى Thieodosius II (٤٠٨ - ٤٥٠ م) استمع إلى نصائحه والتمس منه البركة.

ويزيد إيفاجريوس أن القديس سمعان قضى من عمره ستة وخمسين عاما راهبا. قضى عشرة منها فى الدير، وسبع وأربعين فى ركن منعزل فى غرفه صغيره Mandara أو على عامود قصير فى بداية الأمر كان طوله حوالى سبعة أقدام، ثم ثلاثين عاما على رأس عامود لا تزيد مساحته عن أربعين قدما بالقرب من أنطاكية. وكان الأهالى من البلاد المجاورة يجتمعون حوله يلتمسون البركة. كما ذكر ثيودورت أن الحجاج المسيحيين كانوا يأتون لزيارته من بلاد فارس والحبشة وأسبانيا وبريطانيا، وأن القديس سمعان كان يلف جسده بسلسلة حديدية، وأنه كان ينحن أثناء الصلاة حتى يصل جبينه إلى قدميه. ومن هذه المصادر وغيرها وبعض المراجع المتخصصة استقى الكاتب المادة التاريخية عن القديس سمعان العامودى.

### القديس سمعان العمودى

بهذا الإسم عرف القديس لتمييزه عن قديسين آخرين حملوا الإسم نفسه، ولد القديس سمعان بين عامى ٤٨٩ - ٣٩٠م فى قرية سيس Sise الواقعة بين نهري سيحان وجيحان على الحدود بين شمال سوريا وقيليقية، وكان تلك الأرض أرض مقدسة، وقد رزق أبوا سمعان بعدة أولاد فلم يعش سواه وصبى آخر وأسمه شمس صار هو أيضا راهبا ومات قبله بوقت طويل. وكان والداه مسيحيين صالحين، فقدماه للعماد وهو طفل صغير فى المهد، وقد علماه رعاية المواشى دون أن يعلماه شيئا من القراءة والكتابة، وتكلم السريانية، وهى لغة وطنه ولهجة من اللغة الأرامية لغة السيد المسيح، وألم باليونانية لما دخل الرهبانية.



كُتِبَ المؤرخ ثيودورت تعلم أول " الأمر رعاية المواشى، لكي يكون على مثال الرجال العظام. وذات يوم تساقط الثلج غزيراً، فاضطرت الخراف إلى البقاء في أماكنها مما جعله ينتهز هذا الوقت من الفراغ ليمضى مع أبويه إلى الكنيسة، وقد سمعته يروى الخبر بلسانه الطاهر، قال إنه سمع بعض آيات من الانجيل جاء فيها : "طوبى للذين يبكون ويحزنون، والويل للذين يضحكون"، وسمع أيضاً "إن أصحاب النفوس الطاهرة أهل لأن يغبطهم الناس"، فسأل بعض الحضور ماذا يجب عليه أن يفعله فأشاروا عليه بالحياة الرهبانية وبينوا له سمو الحكمة. لهذا السبب ولغيره ذهب سيمون إلى جماعة من النساك القريبين منه وانضم إليهم وأقام معهم عامين (٤٠١-٤٠٢م)، وكانت الحياة الرهبانية قد ازدهرت في تلك الناحية، وزارها المؤرخ ثيودورت في العام ٤٢٥ فوجد في الدير وما في حوله مائة وخمسين راهباً، وفي دير برج السبع، على بعد كيلومترات منه، ثمانين راهباً، وليست هذه الكثرة بالأمر العجيب، فقد كان الإيمان المسيحي حياً في قلوب أهل الشرق بحيث كانت كل أسرة ترسل إلى الدير ولداً واحداً على الأقل من أولادها، وإذا فقد الرجل زوجته دخل الرهبانية ودخلها معه أولاده، وكان جميع أهل البلاد من المسيحيين، ويضيف ثيودورت ويقول: كان الراهبان العظيمان مانويل وتوسيبيوس قد اتخذا لهما مكاناً للرهبانية عند تلعاده، ولكن سمعان لم يذهب إليهما بل إلى دير آخر هو فرع له يدعى (دير برج السبع).

فقضى سمعان في هذا البرج عشرة أعوام (من ٤٠٢ أو ٤٠٣) إلى ٤١٢ أو ٤١٣م)، وكان معه ثمانون من الرهبان، فكان يتميز عليهم جميعاً، فقد كان هؤلاء يتناولون الطعام بعد انقضاء يومين، وأما هو فكان يبقى الأسبوع كله من غير أن يأكل شيئاً، فاستاء منه الرؤساء، ولم يكفوا عن مضايقته وهم يقولون أن تصرفه مخالف للنظام، بل إن سمعان قام بأعمال

أخرى أكثر منهم صرامه، فدعوه إلى مغادرة الدير لئلا يكون سبباً في هلاك الرهبان.

ذهب سمعان إلى الأماكن المقفرة من الجبل، فوجد جباً لا ماء فيه، وليس بكثير العمق نزل فيه ورفع ترانيمه لله، وبعد خمسة أيام ندم من بالدير على ما فعلوه، فأرسلوا إثنين للبحث عنه والعودة به، فجالا في الجبل حتى عثرا عليه، ثم أتيا بحبل وأصعداه بعد مشقه.

أقام سمعان عشر سنوات في برج السبع، ثم إتجه عام ٤١٣م إلى "تل النساء" الذي أصبح دير سمعان إكراماً لإسم سمعان الذي أقام به ثلاث سنوات قبل أن يصعد إلى حيث عاش معظم حياته في مكان قريب يقال له في أيامنا هذه "قلعة سمعان".

ويقول ثيودورت: لقد وجد سمعان هناك كوخاً صغيراً فقضى فيه ثلاث سنوات وهو حبيس، وطمع في أن يزيد رصيده من الفضيلة، فرغب في البقاء أربعين يوماً من غير طعام، أسوة برجلى الله موسى وإيليا. وكان باسوس Basus العظيم الشأن يسير في تلك المرحلة في المنطقة ليتفقد الكهنة، فحاول سمعان إقناعه ألا يترك شيئاً عنده، وأن يطلى باب بيته بالطين، فنبهه باسوس إلى صعوبة ذلك العمل، وقال له أن الانتحار لا يعد فضيلة، فهو أكبر الآثام وأعظمها، فقال "إذا، يا أبتِ ضع لى أنت ها هنا عشرة أرغفة وإبريق ماء، فإذا رأيت أن جسمى يحتاج إلى طعام، فسوف أتناولها"، فكان له ما أراد، فوضع الطعام والشراب وطفى الباب بالطين، ولما انقضت الأيام الأربعون عاد باسوس وأزال الطين واجتاز الباب إلى الداخل، فوجد الأرغفة كما هى، ووجد الإبريق وبه الماء، وأما سمعان فوجده ملقى على الأرض لا يقوى على التنفس ولا الحديث ولا الحركة، فطلب باسوس إسفنجة فبلل بها فم سمعان

وغسله وقرأ بعض الترانيم، فاستعاد بها قواه ونهض قائماً، وتناول شيئاً من الهندباء وبعض البقول، وهو يمضغها على مهل ثم يبتلعها، فدهش بأسوس كثيراً، وغاد إلى الرهبان وروى هذه الأعجوبة العظيمة.

قضى سمعان في ذلك الكوخ الصغير ثلاثة أعوام ثم جاء فسكن قمة الجبل وأمر بأن يقام سياج مستدير، وأعد سلسلة من الحديد طولها عشرون ذاعاً، فربط طرفها الأول بكتلة كبيرة، والطرف الآخر برجله اليمنى حتى يحميه من الخروج من محيطه، وصرف وقته كله وهو في الداخل لا ينفك يسمو بمخيلته إلى السماء ويتأمل الأمور السماوية العلوية.

ذاع اسم سمعان في كل مكان، وأقبل عليه الناس، لا أهل الأماكن المجاورة فحسب، بل من الشام ومن أوروبا، فأتوا بالمقعدين، وطلب آخرون الشفاء للمرضى والتمس غيرهم الإنجاب، وأصبح سمعان مشهوراً جداً في مدينة روما العظمى، على ما قيل، حتى أن صوراً صغيرة نصبت على عمود في مدخل جميع الحوانيت، لينالوا به هناك حراسة لهم ووقاية.

ولما كان عدد القادمين لا يحصى، وكانوا يحاولون أن يلمسوه وأن يحصلوا على بركة من ملابسه المصنوعة من الجلد، رأى في ذلك إفراط في التكريم غير المعقول، فضلاً عن أن ذلك التصرف سبب له إزعاجاً لا يطاق، فخطر له أن يقف على عمود، فطلب في أول الأمر، أن يقطع له عموداً طوله ستة أذرع، وبعد حين اثنتا عشرة ذراعاً ثم اثنتان وعشرون، حتى أصبح ست وثلاثون أو أكثر، وكأنه يطير نحو السماء ويغادر هذا المسكن الأرضي، ونسب إليه المؤرخون الكثير من المعجزات منها إشفاء المرضى، كما نسبوا إليه كثيراً من النبوءات وتحدثوا عن صلواته وصبره، وارشاداته إلى الشعب، وإقامة العدل، واهتمامه بشؤون الكنيسة.

توفى سمعان يوم الأحد السادس والعشرين من يوليو عام ٤٥٩م وهو فى الإحدى والسبعين من عمره بعدما قضى أكثر من نصف حياته فوق العامود، ومثلت حياته طوال هذه المدة معجزة تغلب الروح على الجسد فى سبيل حب الله. ولما علم الناس بخبر وفاته احتشد حول العمود جمع عظيم وهم يحملون الطيوب والشموع والمشاعل وسط صراخ وعويل على القديس الذى كان بمثابة الأب والمرشد والواعظ والمعلم والقاضى وطبيب الأجساد والأرواح، فكان عندهم الشمعة التى أنارت ظلام الجهل على مدار سبعة وعشرين عاماً، وكان من ضمن الجموع المحتشدة النساء اللواتى أنجبن بفضل بركاته ودعواته، وكذلك، ذلك القعيد الذى مشى بأمره كما مشى القعيد فى كفر ناحوم بأمر السيد المسيح. لقد شفى سمعان المرضى فى حين أنه ذاق الأمرين من القروح التى تفشت فى جميع جوانب جسده، وتقبل هو فى نفسه وجسده ما سأل الله أن يزيله عن غيره.

وضع جثمان القديس سمعان على مذبح من الرخام تجاه العامود وقبله جميع الأساقفة، ثم ساروا به إلى قرية يقال لها اليوم "شيخ الدير" فى سفح الجبل، ثم وضعوا التابوت على مركبة، وانطلق الموكب المهيب والمشيعون يحملون المشاعل ويحرقون البخور ويرتلون المزامير وينشدون الأناشيد، فتوافد أهل القرى التى على الطريق، فإذا بسيل من البشر يدفع بعضه بعضاً زاحفاً إلى المدينة العظيمة أنطاكية، مدينة القديسين بطرس وبولس الأولى قبل روما، ومدينة يوحنا الذهبى الفم قبل القسطنطينية، واجتاز الموكب خمسين كيلومتراً سيراً على الأقدام، وهو يتوقف حيناً بعد حين، ليتمكن الناس من تكريم جثمان القديس والتبرك به، ولم يصل إلى أنطاكية إلا فى آخر الأسبوع.

خرج أهل المدينة لاستقبال الموكب فانضموا إليه وهم يرتدون ثياباً بيضاء ويحملون في أيديهم الشموع والمشاعل، ثم وضع الجثمان في كنيسة قاسيانوس، ثم نقل بعد شهر إلى كبرى كنائس المدينة.

وروى كاتب السيرة أن الإمبراطور ليو الأول Leo I (٤٥٧-٤٧٤م) طلب نقل الجثمان إلى القسطنطينية، لأنه في رأيه كنز ثمين، فتوسل إليه أهل أنطاكية ألا يحرمهم إياه، وقالوا " لم يبق لمدينتنا أسوار، وقد جئنا به إليها ليقوم مقام الأسوار، ولكي يحمينا بصلواته"، فتخلى الإمبراطور آخر الأمر عما أراده. وفي آخر القرن الخامس طلب أول العموديين بعد سمعان الكبير، واسمه القديس دانيال، من الإمبراطور نقل جثمان القديس سمعان إلى القسطنطينية، فنقل في حفل عظيم رأسه بطريرك القسطنطينية وحضرها الإمبراطور وجمع لا يحصى من الناس.

## تعظيم الصور والتماثيل الدينية.

كان حب البيزنطيين لما لديهم من آثار مقدسة شاهد على النزعة الدينية لديهم، وكانوا يتفاخرون بما في العاصمة البيزنطية من آثار مقدسة. وقد بدأت هذه الفكرة منذ عهد الإمبراطور قسطنطين الكبير حيث قامت أمه هيلنا بجمع بعض الآثار المقدسة في مدينة القسطنطينية، وأضاف إلى ذلك الإمبراطور هرقل Heraclius (٦٤٠-٦٤١م) مجموعة ضمت أدوات صلب السيد المسيح بعد أن نقلها من مدينة بيت المقدس، وهي على ما يقال خشب صليب الصليبوت وتاج الشوك الذي توج به السيد المسيح في نهاية حياته والحربة المقدسة التي طعن بها السيد المسيح في جنبه، ورداء الصلب والمسامير. كما أحضرت بعض رفات القديسين إلى العاصمة أيضاً في عهد الإمبراطور قنسطانز الأول Constans I (٣٣٧-٣٥٠م). وفي عهد

الامبراطور أركاديوس Arcadius (٣٨٠ - ٣٩٥م) ثم نقل رفأت القديس صموئيل، وغير ذلك. ومن هنا توافد الحجاج المسيحيون فى كل أنحاء الأرض لزيارة هذه المخلفات والتبرك بها. يضاف إلى ذلك الصور المقدسة والأيقونات التى تحمل صور القديسين والشهداء حتى أصبحت محببه جدا إلى قلوب البيزنطيين.

وانتهى الأمر بأن أصبحت الأماكن المسيحية المقدسة تتمتع بنفس الاهتمام الذى كانت تتمتع به المعابد الوثنية، وبدا الناس يتزاحمون على كنيسة القديس داميان Damian والقديس قوزماس Kosmas باعتبارها من الأطباء المشهورين، وكانت كاتدرائية مدينة خونية Chonae ملجأ للعلاج والشفاء وغير ذلك. كما أن المدن البيزنطية قد وضعت نفسها تحت رعاية أحد القديسات أو القديسين.

فقد كانت مدينة القسطنطينية تحت رعاية السيدة مريم العذراء، كما وضعت مدينة سالوتيك تحت رعاية القديس ديمتريوس، أما مدينة الرها فقد عاشت فى سلام وأمان فترة طويلة اعتمادا على قول السيد المسيح بأنها لن تقع فى أيدي أعدائها. ورويدا رويدا بدأت ظاهرة عبادة الأيقونات أو الصور داخل الامبراطورية البيزنطية.

وقد تصدى لظاهرة عبادة الصور الامبراطور ليو الثالث الأيسورى Leo III (٧١٧ - ٧٤٢م) ويذكر المؤرخ ثيوفانس Theophanes (توفى حوالى ٨١٨م) أن هذا الامبراطور ولد فى إقليم ايسوريا Isauria فى إقليم قيلية بأسيا الصغرى من عائلة أرمنييه، ثم انتقل والده إلى إقليم تراقية غرب القسطنطينية واخذ يرعى الضأن، وأرسل منها خمسمائه رأس مع ابنه ليو إلى الامبراطور جستينان الثانى Justinian II (٦٨٥ - ٦٩٥م). ودخل ليو فى

خدمة الامبراطور وأصبح جندياً في الحرس الامبراطوري ثم قائداً لقوات إقليم الأناضول وظهرت كفاءته العسكرية فاختره الجيش امبراطوراً لانقاذ الامبراطورية من الخطر الإسلامي الذي هدد مدينة القسطنطينية. واشتهر ليو بقوة الإرادة والمثابرة، كما أنه كان صبوراً وسياسياً محنكاً، أعاد للامبراطورية الأمن والاستقرار، وأصلح نظام الضرائب وطبق العدالة وأعاد للملكية حكم الامبراطورية على أساس قوى.

وعندما كان ليو في آسيا الصغرى، قد سرت إلى نفسه فكره عبادة الأيقونات وموقف الاسلام واليهودية منها، ورأى اهتمام البيزنطيين بعبادة الصور. والحقيقة أن الكنيسة في أول أمرها كانت تكره إقامة التماثيل وتعتبرها من بقايا الوثنية، ولكن موقف الامبراطور قسطنطين من المسيحية والاعتراف بها ديناً داخل الامبراطور، ثم الاعتراف بها ديناً رسمياً للامبراطورية في عهد الامبراطور ثيودوسيوس، وما كان للبيئة والتقاليد والتماثيل اليونانية قد خفف من حدة مقاومة هذه الفكرة.

ومع كثرة عدد القديسين والشهداء نشأت الحاجة إلى التعرف عليهم وتذكرهم، فظهر الكثير من الصور وعظموها وأصبح لها قوة سحرية، وأطلق البيزنطيون العنان لفطرتهم فحولوا الصور والآثار والتماثيل المقدسة إلى معبودات سجدوا لها وأحرقوا البخور أمامها، وانتشرت هذه الصور والأيقونات والتماثيل في كل مكان داخل الأديرة والمنازل والمحلات والتجارية وأثاث المنزل وعلى الملابس والمجوهرات، واعتمد الناس عليها في دفع الأخطار التي تهددهم.

غضب الامبراطور من هذا التحول الخطير، وبدأ له أن الوثنية قد عانت مرة أخرى وسادت الامبراطورية. ولكي يتغلب على هذه الظاهرة

الخطيرة التي يؤيدها رجال الدين رأى إضعاف نفوذ رجال الكنيسة والرهبان الذين يصنعون هذه الصور والتماثيل في أديرتهم نظراً لما تدر عليهم من دخل كبير. وبدأ الامبراطور بالحصول على تأييد بعض المذاهب الدينية المسيحية المعارضة لعبادة الأيقونات مثل النساطرة واليعاقبة، وعقد مجلساً من الأساقفة وأعضاء مجلس الشيوخ وأعلن بموافقتهم في عام ٧٢٦م مرسوماً ضالماً فيه إزالة الصور والتماثيل من داخل الكنائس، وحرّم تصوير السيد المسيح والسيدة العذراء، يضاف إلى ذلك أنه أمر أن تغطي بالجص جميع الصور الموجودة على جدران الكنائس.

لم ينته الأمر عند هذا الحد فإن بعض الرهبان وشباب ورجال الكنيسة احتجوا على هذا المرسوم، ورغم ذلك بدأ الجنود البيزنطيون في تنفيذ تعليمات الإمبراطور، فثارت جموع الناس واشتبكت مع الجنود في الشوارع وداخل الكنائس والأديرة، ونادى العامة بخلع الإمبراطور وتولية آخر. وزاد الأمر سوءاً عندما سيرت بلاد اليونان بعض السفن لتستولى على القسطنطينية، ولكن الإمبراطور ليو دمر هذه السفن وقبض على المعارضين وأودعهم السجون.

تطور الأمر وانتشر داخل الامبراطورية حتى غرب أوربا، فقامت بعض المدن الإيطالية وعلى رأسها روما والبندقية ورافنا بطرد موظفي الامبراطورية، ودعا البابا جريجورى الثانى ٧١٥-٧٣١م إلى إجتماع لأساقفة أوربا، وقد أنزل هذا الاجتماع اللعنة على محطى الصور والتماثيل دون ذكر اسم الامبراطور، ويلاحظ هنا أن الامبراطور البيزنطى هو الذى كان يعين بابا روما حتى هذه المرحلة وبعدها بقليل.

عمت الثورة البلاد وانضم البطريرك البيزنطى انسطاسيوس Anastasius (٧٢٩-٧٥٢م) إلى الثوار، واستغل هذه الفرصة وعمل على



استقلال الكنيسة البيزنطية عن الامبراطور، والخروج من عبادة الامبراطور الذي يعين البطريرك في منصبه، واشتد الامبراطور ليو في معاملة البطريرك فخلعه من منصبه، ولكن الأخير لم يزعن للأمر وتمسك به.

وفي خضم هذه الحداث الجسام مات الامبراطور ليو وخلفه ابنه قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥م) فواجهه المشاكل بنفس سياسة أبيه. وللخروج من هذا لمأزق جمع الإمبراطور مجلسا من جميع أساقفة الشرق، واتفق في هذا المجلس على تحريم عبادة الصور والتماثيل، فأمر الامبراطور بإزالة وتدمير جميع الصور والتماثيل الموجودة في الكنائس وأية أماكن أخرى، وتعامل مع كل من عارضوه بالشدة، فسجن الرهبان وأنزل بهم ألوان العذاب، فسمت أعينهم وجدعت أنوفهم. ويروي المؤرخ ثيوفانيس أنه عذب القديس ستيفن Stephen رئيس دير جبل أوكسنتيوس Auxentius في آسيا الصغرى الذي تزعم الثورة ضد الامبراطور، رافضا الإنصياع لأوامر الامبراطور، وتخليه عن الثورة رغم محاولات الامبراطور. وفي نوفمبر من عام ٧٦٥م مات شهيدا في شوارع القسطنطينية بعد أن قطع جسده الحائقين عليه. وتجاوز الامبراطور كل هذا فأمر بغلق أديرة الرجال والنساء وصادر أموالها وحول المباني إلى أغراض دنيوية، ووزع أراضيها على مسانديه. كما قام حاكم مدينة إفسوس Ephesus بعد موافقة الامبراطور بجمع الرهبان والراهبات وخيرهم على الزواج من بعضهم أو القتل، ودام الحال على هذا المنوال خمس سنين.

ومات الامبراطور قسطنطين الخامس وتولى بعده ابنه ليو الرابع Leo IV (٧٧٥-٧٨٠م) بعد ما حمله مسئولية سياسية تحطيم الصور والتماثيل واجتزاز معارضيه، ولكن ليو الرابع كان معتل الصحة ولم يعيش طويلا، وتولى بعده ابنه قسطنطين السادس (٧٨٠-٧٩٧م)، وكان في العاشر من

عمره فتولت أمه الامبراطوره ايرين Irene الوصاية عليه. وكانت الامبراطوره تتعاطف مع مشاعر الشعب الدينية ومع بنات جنسها من الراهبات، فأوقفت في هدوء تنفيذ المرسوم الخاص بتحطيم الصور والتماثيل وأعدت الراهبان إلى أديرتم ودعت في عام ٧٨٧م إلى مجمع ديني في مدينة نيقية أعاد حوالى ثلاثمائة وخمسين من الاساقفة إلى كنائسهم، وقد أقر هذا المجمع تعظيم الصور المقدسة لا عبادتها، ورأى أن في هذه العبارة تعبير مشروع عن التقوى والإيمان.



**الفصل السادس**

**الدستور والقانون**



إن بقاء الامبراطورية البيزنطية منذ مطلع القرن الرابع الميلادي حتى نهايتها في عام ١٣٥٤م إنما يعود بالدرجة الأولى إلى التمسك بالدين، والنظام الإداري، والقانون. والحقيقة أن كل ذلك قد نُظِم بطريقة متوافقة حسب كل مرحلة من مراحل الامبراطورية بطريقة تحول دون بقاء السلطة في أيدي عديمي الكفاءة. وواقع الحال أن كل ذلك كان ميراثا انتقل من الامبراطورية الرومانية إلى الإمبراطورية البيزنطية، ولم يكن من عمل فرد أو أكثر إنما جاء ثمرة تعامل كل مؤسسات الدولة مع بعضها البعض.

وبداية وقبل الدخول في القانون البيزنطي، نقول أن لكل مجتمع نظام قانوني يحميه، ويأتي الدستور على قمة القواعد القانونية التي تنظم الحياة في كل دولة، ويمكن تعريف الدستور بأنه مجموعة القواعد الأساسية التي تبين شكل الدولة. ويبين الدستور نظام الحكم وتوزيع السلطات والهيئات التي تتولى هذه السلطات، وعلاقة كل هذه السلطات بالأخرى، كما يبين الدستور حقوق الفرد في الدولة، فالدستور يعتبر المصدر الرئيسي والأسمى للقواعد القانونية في الدول بما يتضمنه من مبادئ وأحكام أساسية تتعلق بتنظيم السلطات العامة في الدول وتحديد اختصاصاتها، وبحقوق الأفراد وبيان الاتجاهات السياسية والاجتماعية لنظم الحكم. وتأتي أهمية الدستور من خلال أسلوب التكوين، والمرتبة، والنطاق، والثبات، والاستقرار.

### أولاً: أسلوب التكوين:

إذا كان القانون (التشريع) يصدر عادة من طريق السلطة التشريعية (المجلس النيابي) فإن الدستور بالنظر إلى أهميته لا بد أن يصدر عن طريق الشعب. وهذا الأسلوب هو المتبع حالياً بتكوين جمعية تأسيسية لوضع الدستور أو بالجمع بينهما. ولكن الحال كان مختلفاً في الإمبراطورية البيزنطية، فكان

التشريع بأكمله يصدر من الإمبراطور كمنحة منه للشعب. وربما كان الأباطره  
محاطين ببعض المستشارين، ولكن الكلمة الأخيرة تكون للإمبراطور.

### ثانياً: المرتبة:

يأتي الدستور على قمة النظام القانوني لكل دولة، فالدستور يعلو على  
كافة القوانين والقرارات واللوائح، ولا بد أن تصدر كافة القوانين والقرارات  
الوزارية وغيرها متفقة مع نصوص الدستور، وإذا صدرت أية قوانين أو  
قرارات أو لوائح مخالفة لمبادئ ونصوص الدستور، فإنه يحكم بعدم  
دستوريتها.

### ثالثاً: النطاق:

والدستور شامل، فهو ينظم ويتناول المبادئ العامة التي تحكم الدولة،  
واختصاصات السلطات العامة (التشريعية - القضائية - التنفيذية) والعلاقات  
فيما بينهما. يضاف إلى ذلك أن الدستور ينص على حقوق وحرريات والتزامات  
الأفراد. وتختلف الدساتير فيما بينهما حول هذه المسألة وفقاً للنظام المتبع  
داخل الدولة.

### رابعاً: الثبات والاستقرار:

يتطلب الأمر ثبات التشريعات واستقرارها، فإذا كانت التشريعات  
تتغير من وقت لآخر، وفي أوقات متقاربة، فإن هذا يؤدي إلى عدم الثبات  
والاستقرار. ولذلك لا يعاد النظر في الدستور إلا بإجراءات منصوص عليها  
في الدستور ذاته، ويكون ذلك بأغلبية أصوات المجلس النيابي، واشتراط  
أغلبية الثلثين من الأعضاء في المجلس النيابي، يضاف إلى ذلك استفتاء

الشعب في بعض الأحيان، والمقصود بذلك تعقيد الإجراءات حتى لا تتلاعب أقلية في الدولة بالشعب.

بعد هذه المقدمة الإيضاحية حول الدستور وأهميته بالنسبة لكل دولة، نقول أنه لا يمكن تطبيق هذه القواعد في مجتمعات العصور الوسطى ومنها الإمبراطورية البيزنطية. وليس لنا في هذه الصفحات أن نتعرض للدستور أو القوانين داخل الإمبراطورية والوقوف على كل التفاصيل، فهذه دراسات يختص بها رجال القانون وتاريخ القانون، إنما يمكن القول أنني سوف أقوم بوضع هذا الأمر بصورة مبسطة يسهل على دارسى التاريخ أو غيره من غير المتخصصين في القانون الوقوف على ملامح الدستور والقوانين التي سادت الإمبراطورية، مع إعطاء بعض الأمثلة.

والحقيقة أن نظام الحكم داخل الإمبراطورية كان أوتوقراطياً Autocracy أى حكم الفرد. ومنذ أيام الإمبراطور دقلديانوس Diocletian (٢٨٤ - ٣٠٥م) كان الإمبراطور يحكم الإمبراطورية بمفرده، فكان هو أعلى سلطة في الإمبراطورية، وهو الذى يعين جميع الوزراء وعزلهم إذا شاء، وكان له أيضاً مطلق التصرف فى الشؤون المالية، وأن كان هناك وزيراً للمالية، كما كان بيده التشريع وله إصدار القوانين أو تعديل بعض القوانين السائدة أو إلغائها، وكان هو القائد الأعلى للقوات المسلحة، وأخيراً كان الرأس الأعلى لكنيسة رغم وجود بطريرك للإمبراطورية مقره العاصمة البيزنطية.

ومعنى ذلك إن إرادة هذا الإمبراطور هى التى تحرك الدولة، وتقرر مصير الملايين من المواطنين. وقد ظل هذا الحاكم يحمل لقب إمبراطور أو لقب أوجستا Augusta. وقد ظل اللقب الأخير ملازماً لحكام الإمبراطورية



حتى نهايتها في عام ٤٥٣م. ويلاحظ أن لقب إمبراطور كان له مدلول عسكري ثم اصطبغ هذا اللقب بالطابع الشرقي فتحول إلى لقب Autocrator أى يعنى انحكم المطلق. ونلاحظ أن لقب باسيلوس Basileus أخذ يطلق على الإمبراطور هرقل لأول مرة فى عام ٦٢٩م بعد هزيمة للقوات الفارسية، وعندما دخل العاصمة البيزنطية ظافرا، فقد حياه الناس هاتفين له بأنه سكيو الجديد New Scipio، وليس الإسكندر الجديد New Alexander وقابلوه بالمشاعل وأغصان الزيتون.

وفى واقع الأمر لم تكن هناك حدود لسلطة الإمبراطور، ورغم ذلك كانت هناك حدودا لا يتخطاها. وهذه الحدود هو أنه يشعر ويعترف دائما بأن عليه أن يحترم القوانين الرئيسية للشعب، وإن كان هو الذى يضعها. وإلى جانب ذلك فقد كان لدى الإمبراطور والشعب فكرة فى أعماق الناس جميعا بأن السيادة للشعب، وأن الشعب فوض سلطته للإمبراطور. ويحدثنا التاريخ عن واقعة توعدج أن للسيادة للشعب وأن على الإمبراطور أن يلجأ إليها إذا لزم الأمر، ومن ذلك أن المؤرخ ثيوفانيس يحدثنا أن الإمبراطور ستوراكيوس Stauracius (٨١١م) عندما كان يحتضر من جراء الجروح التى أصيب بها فى حروبه مع البلغار، ظهرت الخلافات بين زوجته ثيوفانو Theophano وأخته بروكوبيا Procopia، وهنا هدد الإمبراطور بأنه سوف يلجأ إلى الشعب لاختار من يشاء لمنصب الإمبراطور.

وإلى جانب القوانين والأعراف التى تقول بأن العرش فى المقام الأول يفوم على الانتخاب، فقد كان إلى جانب ذلك خاصة فى أوقات الأزمات ما أسماه أحد المؤرخين باسم "الحق الشرعى فى الثورة". ورغم أن حق الانتخاب كان للسناو والشعب والجيش، فقد كان على الإمبراطور الذى يتم انتخابه أن يند تتيجه بمراسم معينة. وبذلك يصير هو الحاكم الأوحده، فإذا ظهر عجز

هذا الإمبراطور لسبب عكسرى أو مرضى أو لآى سبب آخر، جاز لآى واحد أو اثنين من السلطات الثلاث أن تعلن عن إمبراطور آخر، والحقيقة أن الذى كان دائما ما يأخذ بزمام المبادرة هو الجيش.

ومن ذلك يحدثنا المؤرخ ثيوفانىس عن الاخطار التى واجهت الإمبراطورية فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الثالث (٧١٦ - ٧١٧م) وقيام المسلمين بمهاجمة القسطنطينية بقيادة مسلمه بن عبد الملك فى عام ٧١٧م وأن الإمبراطور ثيودوسيوس عجز عن مواجهة هذه الاخطار فإن البطريرك جرمانوس الأول Germanus I (٧١٥ - ٧٢٠م) قد تشاور مع السناتو والإمبراطور نفسه، وتم الاتفاق على أن يتولى عرش الإمبراطورية ليو الثالث Leo III (٧١٧ - ٧٤١م). والحالة نفسها نجدها مع الإمبراطور ليو الخامس الأرمينى (٨١٣ - ٨٢٠م)، ويحدثنا المؤرخ ثيوفانىس أيضا عن هذه الأحداث، فيذكر أن البطريرق ليو القائد الأعلى لقوات الأناضول، كان رجلا تقيا وأنه استحق ثقة الجيش، فقد كان الخطر البلغارى لازال قائما بعد موت الإمبراطور ستوراكيوس، وأثناء حكم الإمبراطور ميخائيل الأول (٨١١ - ٨١٣م) وكان لابد من وقف هذا الخطر. فقد تصدى ليو للقوات البلغارية ونجح فى إبعاد خطرهما عن العاصمة، ثم تبعهم وهزمهم هزيمة نكراء. ويرجع السبب الرئيس إلى تعيين ليو أن الإمبراطور ميخائيل ترك قواته فى مواجهة البلغار وهرب إلى العاصمة، وهنا اجتمعت القوات العسكرية ونادت بقائدهم ليو إمبراطورا عليهم. وكان على الإمبراطور الذى تولى العرش على هذا النحو أن يحمل شعب العاصمة والسناتو على قبوله إمبراطورا عليهم، وبذلك يصبح إمبراطورا شرعيا وأن كان فى الأصل مغتصبا للعرش.

وقد يتم تعيين أحد الأباطرة جراء مؤمراة تحدث فى البلاط، وكان على الإمبراطور الجديد أن ينال ثقة وموافقة القوات المسلحة ومجلس السناتو حتى

ينادى به إمبراطور فى أسرع وقت ممكن. ومن ذلك ما حدث مع نقفور الأول (٨٠٢ - ٨١١م) الذى كان يعمل وزيراً للمالية فى عهد الإمبراطورة إيرين Irene (٧٩٧ - ٨٠٢). ومع اشتداد الأزمات فى عهدا داخليا وخارجيا ثم القبض عليها فى هدوء وأرسلت إلى أحد الأديرة فى جزيرة الأمراء ببحر مزمرة ثم إلى جزيرة لسبوس Lesbos.

أما إذا خلا عرش الإمبراطور فى زمن السلم فإن مجلس السناتو هو الذى كان يأخذ زمام المبادرة ويقوم بترشيح من يراه صالحاً للجلوس على العرش الإمبراطورى. وواقع الحال أن مجلس السناتو كثيراً ما يكون واقعاً نأيير أحد القواد العسكريين أو الاحزاب المدنية. ومن ذلك أنه عند موت الإمبراطور مارقيان (٤٥٠ - ٤٥٧م)، كان بالامكان أن يتولى العرش أسبار Aspar أحد القادة العسكريين المشهورين فى غرب أوروبا، ولكنه كان من العناصر البربرية وليس ببيزنطياً، يضاف إلى ذلك أنه كان أريوسى المذهب فلم يكن باستطاعته تولى عرش الإمبراطورية، لذلك رشح أسبار ليو الذى عرف بالأول (٤٥٧ - ٤٧٤م) ليكون إمبراطوراً على عرش الإمبراطورية خلفاً للإمبراطور مارقيان. ولم يكن بوسع السناتو أن يرفض طلب أسبار، فوافق على ذلك وتوج ليو فى الميدان الكبير (الهدروم) فى السابع من فبراير عام ٤٥٧م.

وفى مناسبات أخرى كان الشعب نفسه هو الذى يرشح الإمبراطور، ومثال ذلك أن رومانوس الأول ليكابينوس Romanus I Lecapenus تزوج من والدة الإمبراطور القاصر قسطنطين السابع وبذلك أصبح على رأس الإمبراطورية (٩١٩ - ٩٤٤م) ولكنه كان ضحية أولاده فقد مات كريستوفر Christopher فى عام ٩٤١م، وعندما شعر ولديه الآخرين ستيفن وقسطنطين أن السن قد تقدمت بوالديهما، قلقا على مستقبلهما وأدركا أن بوفاته

يؤول العرش إلى قسطنطين السابع فقبضا على أبيهما ونفياها إلى جزيرة بروت Prote. والحقيقة أن ولدى رومانوس لم يحسنا التقدير، فقد انتهز قسطنطين السابع الفرصة، ووجد العون من الشعب الذي وقف بجانبه واعترف بحقه الشرعى فى وراثة العرش، فتسلم عرشه فى عام ٩٤٤م حتى وفاته عام ٩٥٩م.

ويحدثنا المؤرخ ميخائيل بسلوس أن الشعب أجبر الأميرة ثيودوا فى عام ١٠٤٢م على الانسحاب من الدير والعودة إلى القصر الإمبراطورى لتحكم إلى جانب أختها زوى Zoe (١٠٥٤ - ١٠٥٦م). كما أن الشعب لعب دورا كبيرا فى خلع الإمبراطور أندرونيقوس الأول كومنينين Andronicus I Comnenus (١١٨٣ - ١١٨٥م). فعندما عجز هذا الإمبراطور عن الدفاع عن مدينة سالونيك عندما هاجمها الأسطول النورمانى من صقلية فى عام ١١٨٥م، واتخذ طريقه إلى القسطنطينية، هب الشعب فى الثانى عشر من سبتمبر من العام نفسه، وهاجم القصر الإمبراطورى وسحب الإمبراطور إلى شوارع العاصمة وقطعه أربا، ولم يستطع أحد أن يوقف هذه الثورة العارمة، ثم أقامت بعده اسحق الثانى انجيلوس Issac II Angelus (١١٨٥ - ١١٩٥م).

ورغم أن حق الانتخاب كان هو المبدأ السائد فى الإمبراطورية، فإن هذا المبدأ كان يخضع لتدخل من جانب الإمبراطور المعين. فقد كان من حق الإمبراطور أن يؤمن عرشه حتى لا تتعرض الإمبراطورية لهزات وقت الشدائد إن وجدت، فقد كان بوسع الإمبراطور المعين أن يختار أو يضم إلى جانبه أباطرة آخرين ويصبحون شركاء له دون سلطات. وفى هذه الحالة كان الأمر يتطلب موافقة الناخبين على هذا الإجراء. وإذا تصفحنا التاريخ البيزنطى نجد أن معظم الأباطرة قد توجوا فى حياة أسلافهم.

ولم يكن هناك من قانون يحدد عدد الأباطرة المشاركين، فقد يكون واحداً أو أكثر. ففي عهد الإمبراطور رومانوس الأول ليكابينوس نجد أربعة من الأباطرة المشاركين، فقد كان قسطنطين السابع ولياً للعهد، وعندما توج الإمبراطور رومانوس ابنه كريستوفر من زوجته الأولى في عام ٩٢١م تباعد مركز قسطنطين السابع ليكون الثاني، ثم قام الإمبراطور نفسه بتتويج ولديه سيجن وقسطنطين من زوجته الأولى أيضاً في عام ٩٢٤م، تباعد مركز قسطنطين السابع ليكون الرابع. أما الابن الرابع من زوجته الأولى أيضاً ويدعى ثيوفلاكت Theophlact فقد إنخرط في السلك الكنسي منذ طفولته، فتولى عرش البطريركية (٩٢٣ - ٩٥٦م) رغم حداثة سنه إذا كان يبلغ من العمر ستة عشر عاماً عند تعيينه. ويلاحظ أنه في حالة وجود وريث للعرش أو خلف للإمبراطور، فإن السلطة تتم بصورة آليه إلى من يليه في الأسبقية. وبذلك يضمن الإمبراطور في توطيد قدم الأسرة الحاكمة التي يتوقف دوامها على كفاءة من يتولى السلطة بعده

وكان على الإمبراطور أن يتوج رسمياً ليصبح إمبراطور، وهي شعيره حرص البيزنطيون على أدائها. فقد كان هذا التتويج يضيف على سلطته إقراراً دينياً، وأنه أصبح من حقه أن يؤدي عمله بوصفه نائب الله على الأرض. والحقيقة أن فكرة التتويج هذه فكرة شرقية نقلوها البيزنطيون عن الفرس حيث كان كبير الكهنة يتوج الحاكم الفارسي، وأصبح بطريرك الإمبراطورية هو الذي يتوج الإمبراطور، وإن انعدم ذلك في حالات قليلة. ويلاحظ أن البطريرك أصبح بعد مرحلة ما، يقوم بتتويج الإمبراطور بصفته أبرز مواطني الإمبراطورية لا بصفته رجل دين.

وفيما يتعلق بعملية التتويج فقد كان الإمبراطور الأصلي يقوم بتتويج الإمبراطور المشارك، وفي هذه الحالة يحضر بطريرك الإمبراطورية حفل

التتويج خاصة إذا كان الإمبراطور الأصلي لم يصل بعد إلى سن الرشد. وربما يقوم الإمبراطور بهذه المناسبة بمنح بعض الامتيازات للبطريك. وربما يطالب رجال الدين قبل عملية التتويج أن يشاركوا فيها ببعض الضوابط التي تتعلق بالكنيسة. ومن ذلك أن البطريك كان يشك في عقيدة الإمبراطور أنستاس الأول Anastasius I (٤٩١ - ٥١٨م)، فطالبه بالمحافظة على النظم المعمول بها بالكنائس البيزنطية، والا ينزل أى عقاب بأعدائه السابقين. وفي المرحلة الأخيرة من عصر الإمبراطورية خاصة فى عصر أسرة باليولوجس كان هناك قسم عند تتويج الإمبراطور، فكان عليه أن يراعى ما تقرره المجالس الكنسية العامة، والحافظ على شعائر الكنيسة، وأن يحكم بالعدل ويعارض ما تعارضه الكنيسة.

وكانت عملية التتويج تتم في الهيدروم حتى إذا كان القرن السابع كان التتويج يتم في كنيسة آيا صوفيا. ويسجل لنا المؤرخ ثيوفانيس كيف قام الإمبراطور ليو الرابع Leo IV (٧٧٥ - ٧٨٠م) بتتويج ابنه قسطنطين السادس (٧٨٠ - ٧٩٧م) فيما بعد. فقد كتب ثيوفانيس أنه فى يوم الجمعة الحزينة لعام ٧٧٦ (يوافق ٢٢ أبريل) تم الاستعداد لعملية تتويج ابنه قسطنطين، واستغل ما فى خزانة الدولة من أموال خلفها له والده ووزعها بسخاء على الجيش وشعب القسطنطينية، وبدأ للبعض أنه رجل ورع وأنه قريب من الله والرهبان، وقام بتعيين العديد من رجال الدين والرهبان، واستدعى الكثير من قوات الولايات لتقوية الحرس الإمبراطورى، وقد دخل قادة هذه الألوية إلى العاصمة وطلبوا من الإمبراطور ليو الرابع أن يعين ابنه فى مركز شريك للإمبراطور. وقال ليو: أنه أبنى الوحيد وأنتى أخشى أن تحل بى كارثة وأن هذا الابن صغير السن، وربما يقتل ويختار غيره ليكون إمبراطورا، ولكن القادة أقسموا له أنه سيصبح هو الإمبراطور طالما بقى حيا.

ولما كان هذا الجمع موجوداً في الهيدروم في الفترة من أحد الزحف حتى يوم الثلاثاء الذي يليه، فقد طلب من كل الحاضرين وهم أعضاء السناتو وقادة الألوية والحرس الإمبراطوري وبطريك الإمبراطورية أن يقسموا له على ذلك. وفي يوم السبت (٢٣ أبريل) اتجه الإمبراطور وابنه القاصر قسطنطين إلى كنيسة آيا صوفيا كما هو متبع في مثل هذه المناسبات وبدل ملابسه وصعد منبر الكنيسة ومعه ابنه والبتريرك، وقال ليو لقد وفيت بما وعدت وأننى أقدم لكم أبني ليكون إمبراطوراً، وتقبل ليو ابنه من الكنيسة كما لو تقبله من يد السيد المسيح. وهنا صاح الجميع بصوت عال، لقد رضينا بابنك قسطنطين إمبراطوراً وسوف ندافع عنه حتى الموت. وفي اليوم الثانى وكان يوافق يوم عيد القيامة المجيد الموافق الرابع والعشرين من أبريل ٧٧٦م، ومع بزوغ فجر هذا اليوم ذهب البتريرك إلى الهيدروم حيث كان يجتمع الناس، فأقيمت مراسم التتويج بعد الصلاة. قد سجل الإمبراطور قسطنطين السابع هذه الإجراءات فى كتابه المراسم، وهى التى ظلت متبعه حتى نهاية عصر الإمبراطورية، وربما أضيف إليها تعديلات بسيطة مثل مسح رأس الإمبراطور بالزيت.

ومع هذه المراسم كان الشعب البيزنطى يشعر بأن عملية التتويج هذه تمنح الإمبراطور مكانة علوية مثل الله، وتجعل منه نائباً له. ورغم أن البتريرك هو الذى كان يتوج الإمبراطور فى كثير من الأحيان إلا أن الإمبراطور كان يشعر بأنه على رأس الكنيسة البيزنطية.

ولم تكن رئاسة الإمبراطور للبتريرك مسألة شرفيه، فقد مارس الإمبراطور هذا الحق، كما أن الأباطره البيزنطيين هم الذين كانوا يعينون البتريرك فى منصبه، يضاف إلى ذلك البابا فى روما ظل يحصل على موافقة الإمبراطور الغربى أو نائب الإمبراطور فى مدينة رافنا Ravenna حتى يصبح

بابا. ومن ذلك أن الإمبراطور ليو الأيسوري كان يرى أنه إمبراطور وكاهن وأنه نائب الله على الأرض المأمور أن يطعم الرعية كما أطعم القديس بطرس الرسول قطيعة. وإمعانا في ذلك كان يقص أو يحلق شعر ولي العهد، كان يراد به أن يكون أحد رجال الدين.

ورغم هذا كله والمكانة السامية والدينية التي يتبوأها الإمبراطور فإن الشعب كان لا يزال صاحب الكلمة العليا في انتخاب الإمبراطور وعزله إذا تطلب الأمر، لذلك كان على الإمبراطور أن يحافظ على مكانته. فكان من مراسم مقابلة الإمبراطور أن ينبطح الزائر أمامه بما فيهم السفراء الأجانب، يضاف إلى ذلك أن التعامل مع الإمبراطور كان يتم من خلال مراسم معقدة لتزيد من هيبه ومكانة الإمبراطور. وكان الإمبراطور يشرف بنفسه على هذه المراسم بصفته رئيساً للإمبراطورية والكنيسة. وكان عليه أيضا أن يكون في أتم صحة ونشاط.

ومن هذه الصفات الجسمانية، كان لا يجوز أن يعين الخصيان في منصب الإمبراطور، كما يجب على الإمبراطور أن يكون مكتمل الحواس فلا يجوز للضرب أن يتولى هذا المنصب، وكثيرا ما تم سمل أعين البعض حتى لا يصلوا إلى هذا المنصب أو يعودوا إليه أن كانوا أباطرة سابقين. ومن هذه الحالات ما حدث مع الإمبراطور قسطنطين السادس بعد ما سملت والدته إيرين عينيه ليظل على هامش الحياة. وربما يكون الإمبراطور قاصرا، وفي هذه الحالة يعين عليه مجلس وصاية أو وصى واحد مثلما حدث مع الإمبراطور قسطنطين السابع.

وفيما يتعلق بتولى المرأة عرش الإمبراطورية، فلم يكن هناك مانع دستوري يحول دون ذلك. ولكن الشعب البيزنطي كان يرى أن مثل هذا



المنصب فوق احتمال النساء، خاصة أن المرأة لا تستطيع أن تكون قائداً أعلى للقوات المسلحة، أو تكون في منصب البطريرك. ورغم هذا فقد كان بعض النساء قد تولين السلطة كاملة مثلما حدث مع الإمبراطورة إيرين بعد أن خلا لها العرش بعد سمل عيني ولدها ونفيه، وبذلك تقرر مبدأ أن الإمبراطور ليست بالضرورة أن تكون زوجة الإمبراطور.

أما زوجات الأباطرة فقد كان الأمر يتطلب تتويجهن في القصر وليس في الكنيسة ما لم تتوج مع الإمبراطور في حفل تتويجه. ومن المبادئ التي سادت الإمبراطورية أن تصبح زوجة الإمبراطور، إمبراطورة. كما يجوز للإمبراطور أن يتوج أخته كما فعل الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني عندما توج بولكريا Pulcheria في عام ٤١٤م. كما أن الإمبراطور الكسيوس الأول كومنين (١٠٨١ - ١١١٨م) قد توجه والدته إمبراطورة.

وكان تتويج الإمبراطورة سواء مع زوجها عند تعيينه، أو بعد ذلك عند زواجها فإن هذا التتويج قد يعطى لها جانباً في الولاية والسيادة. ومن ذلك أن الإمبراطورة ثيودورا زوجة الإمبراطور جستين الأول كانت تحضر بعض مجالس الدولة، وكان لها موقف شهير مع زوجها عندما حاول الفرار هرباً من ثورة نيقه. وتتضح سلطة الإمبراطورة بوضوح إذا ما أصبحت وصية على ولدها إن كان قاصراً، ففي هذه الحالة يكون للإمبراطورة الوالدة كافة الولاية والسيادة والإدارة، وهناك حالات أخرى أصبحت فيها الإمبراطورة الزوجة هي صاحبة الكلمة العليا، ومن ذلك أن الإمبراطورة صوفيا Sofia زوجة الإمبراطور جستين الثاني (٥٦٥ - ٥٧٨م) قد قامت بتصريف أمور الدولة عندما أصيب الإمبراطور بلوثة عقلية، وقد عاونها طيبريوس Tiberius قائد الحرس الإمبراطوري وابن جستين بالتبني، وقد منح لقب قيصر وظل حتى مات الإمبراطور جستين فأصبح هو إمبراطوراً (٥٧٨ - ٥٨٢م).

والدارس لتاريخ الإمبراطورية البيزنطية يرى أن الإمبراطورة الأم كانت لها الوصاية - كاملة أو جزء منها إن شاركها مجلس وصاية - مدى حياتها على ابنها القاصر. وفي بعض الأحيان لم يكن على العرش إمبراطورا، ولم تختار الأم أحدا، ومن ذلك أن إيرين ظلت تحكم بمفردها بعد أن خلعت ابنها من عرش الإمبراطورية وسلمت عينيه، ورغم أن هذا الحدث كان بدعه، إلا أن هذا التصرف لم يلق أية معارضة دستورية، وسجلت الوثائق الرسمية "إيرين الإمبراطور" بالتذكير لا بالتأنيث.

وكانت السلطات الدستورية التي لها حق انتخاب الإمبراطور، وهي السناتو والجيش والشعب تلعب دورا هاما بشكل أو بآخر عند انتخاب الإمبراطور، فقد كان للجيش بالضرورة دور فعال إلى حد كبير، كما كان للسناتو حقوقا قديمة وأن كانت من الوجهة النظرية، لذلك كان له وجود من وقت لآخر، أما الشعب فقد كان يخشى بأسه وكان له صدى معلوم. وفوق هؤلاء يأتي القانون الذي كان على الجميع احترامه.

أما فيما يتعلق بمجلس السناتو في العاصمة البيزنطية، فلم يكن له في يوم ما كان لقوة مجلس السناتو الذي كان في روما، وليس معنى ذلك أنه أصبح غير فعال بل أنه بلغ أوج ازدهاره في القرنين السادس والسابع. وكان مجلس سناتو الإمبراطورية البيزنطية أقل احتراما في نفوس الشعب البيزنطي. وكان هذا المجلس يتكون من جميع من هم في مستوى عال من أرباب الوظائف والرتب الحاليين والسابقين أو أولادهم. وفيما يتعلق بسلطات هذا المجلس، فلم تكن محددة، وكانوا يمنحون بعض المزايا والحقوق. والحقيقة أن هذا المجلس كان عبارة عن هيئة شبه دستورية تعبر عن آراء عليّة القوم. وقد تتجلى سلطة هذا المجلس إن كان مركز الإمبراطور ضعيفا مثلما كان الحال مع الإمبراطور جستين الثاني عندما أصيب بالجنون. وعندما يكون لمجلس

السنااتو دوراً فى تعيين إمبراطور تكون له الكلمة العليا، وعلى الإمبراطور الذى جاء من خلاله أن يعامله باحترام.

وفى عام ٦١٤م اتجهت بعثة إمبراطورية إلى الإمبراطور الفارسى باسم السنااتو حتى تكون مكانتها أعلى من البعثة التى يرسلها الإمبراطور، ويحدثنا المؤرخ ثيوفانيس، أنه فى عام ٦١٤م استولى الفرس على مدينة دمشق وأخذوا العديد من الأسرى، فأرسلت بعثة بيزنطية إلى الملك الفارسى لوقف سفك الدماء، وأن تدفع الإمبراطورية البيزنطية الجزية ويتم توقيع معاهدة للسلام، ولكن الإمبراطور الفارسى أعاد السفراء دون أن يحقق رغبتهم لأنه قد عقد الأمل على هزيمة الإمبراطورية البيزنطية.

ويسجل لنا المؤرخ ثيوفانيس أيضاً أنه فى عام ٦٤٣م أن الإمبراطور قنسطانز الثانى Constans II (٦٤٢ - ٦٦٨م) شكر مجلس السنااتو على مسانדתه له ضد زوجة جدة هرقل، وكانت تدعى مارتينا Martina، وطلب من المجلس إمداده بالنصائح لصالح الرعية، ثم وزع عليهم الهدايا العديدة.

وإذا كان مجلس السنااتو كانت له كلمة فى هذه المرحلة، فإنه فى مراحل أخرى نراه وقد انخفض صوته أو ربما انعدم. ومن ذلك أن الإمبراطور جستينيان قد عامله بقسوة، كما أن ليو الأيسورى كان لا يسمح بتدخل مجلس السنااتو فى شئونه، أما ليو السادس فقد أصدر مجموعة من التشريعات، وبذلك عطل الحقوق القديمة لمجلس السنااتو. ورغم ذلك ظل مجلس السنااتو قائماً كهيئة، يمكن للإمبراطور استدعاءها إذا لزم الأمر. ولكن أهميته السياسية لم ترتفع مرة أخرى، لأن الارستقراطية العسكرية هى التى توصلت فى القرن الحادى عشر إلى سدة الحكم، وكانت تعتمد على الجيش أكثر من أية جهة أخرى.

أما فيما يتعلق بالشعب ودوره في الجانب الدستوري، فالأمر هنا ينصب على شعب القسطنطينية، وواقع الحال أن العاصمة كانت تنقسم إلى أربعة أحياء تسمى ديماس Demas. وكان لكل من الأحياء لون يميزه عن الآخرين. فكان يوجد اللون الأزرق والأخضر والأبيض والأحمر. ثم تحولت إلى أحزاب، ويرجع ذلك إلى رياضة سباق الخيل الذي كان يقام في الهيدرورم، وفي هذا المكان أهتم سكان العاصمة بالسباق وتحمسوا له. وكان سائقو العربات يرتدون لون الحي الذي يشجعهم، فأنقسم المشجعون إلى أربعة أقسام وأصبح شعار كل قسم أو حزب اللون الذي يشجعه. وقد قام كل حزب بجمع التبرعات والاشتراكات للعناية بالفرسان وشراء الجياد. ومع مرور الوقت انقلب التضامن الرياضي إلى تضامن اجتماعي، وانضم البيض إلى الخضر، كما انضم الحمر إلى الزرق، وأصبح في العاصمة حزبان كبيران هما الخضر والزرق. ثم انقلب هذا التضامن إلى الناحية الدينية فساند حزب الزرق المذهب الأرثوذكسي، كما ساند حزب الخضر القول بالطبيعة الواحدة.

لقد أصبحت هذه الأقسام التي تحولت إلى أحزاب هي الهيئات التي تعبر عن رأى المدينة، وقد وصلت من القوة لدرجة معارضة الأباطرة وتهديد أمن الدولة. ومن حظ الحظ أن الخضر والزرق كانا لهما آراء متباينة، ومن أجل ذلك كان من الأيسر على الأباطرة الانحياز لفريق ضد الآخر: وفي عهد الإمبراطور أناستاس Anastasius (٤٩١ - ٥١٨م) حل بالزرق اضطهاد شديد لأن هذا الإمبراطور كان يميل إلى القول بالطبيعية الواحدة. وعند هذه المرحلة اتجه الزرق إلى الهيدرورم ونادوا بسقوط الإمبراطور، ولكن الهيدرورم الإمبراطور عالج الأمر بكل حكمة.

وفي عام ٥٣٢م قام الإمبراطور جستنيان الأول بفرض ضرائب فادحة فاتحد الجميع عليه وقامت ثورة نيفا، وعولج الأمر بالقوة العسكرية.

وعندما اعتلى الإيسوريون العرش أى مع بداية عصر الإمبراطور ليو الثالث صارت هذه الأحزاب أسماء فقط تستخدم فى تمثيل أحياء القسطنطينية فى الحفلات الرسمية، ومع إضمحلال هذه الأحياء فقد أهل القسطنطينية سلطتهم الدستورية.

وبعد السناتو وشعب القسطنطينية يأتى القانون، فبعد أن تم السيطرة على مجلس السناتو ووضع فى زوايا الأهمال، وشعب القسطنطينية الذى اقتصر عمله على حضور الحفلات، لم يعد غير القانون، ورغم أن الإمبراطور كان مصدر كل القوانين إلا أن هذا القانون ظل أعلى من الإمبراطور نفسه. ولا عجب فى ذلك فإن مجلس الشعب فى مصر هو المشرع لكل القوانين ورغم ذلك فإن سلطة القانون تعلو سلطة رئيس مجلس الشعب أو أى عضو آخر. ومن هنا كان حرص الأباطرة على مراعاة تنفيذ القانون. كما أن الإمبراطور ليو الأيسورى وضع أمام عينه ثلاثة أمور هامة، هى الكتب المقدسة أى التوراه والانجيل، وقرارات المجامع الدينية، مثل مجمع نيقية وغيره، وأخير القانون.

أما فيما يتعلق بتعديل القوانين أو الإضافة إليها، أود أن أقول أن القانون البيزنطى هو القانون الرومانى نفسه ثم أدخلت عليه إضافات وتعديلات حتى يسير بروح الديانة المسيحية لا بروح الديانة الوثنية كما كان الحال فى القانون الرومانى. وفيما يتعلق بالتعديل فإنه مع إرهابات الاعتراف بالديانة المسيحية، وفى حوالى عام ٣٠٠م قام المشرع جريجورىان Gregorian بتجميع التشريعات الرومانية منذ بداية عهد الإمبراطور Hadrian (١١٧ - ١٣٨م) حتى عام ٣٠٠م، وجاء بعده المشرع هرموجونيان Hermogonian وجمع التشريعات الصادرة من عام ٢٩٦ إلى ٣٢٤م. ويلاحظ هنا أن التوراه

والانجيل لم يكن لهما دخل في هذا التشريع لأن المسيحية لم يعترف بها ديناً رسمياً للإمبراطورية إلا في مجمع القسطنطينية عام ٣٨١م.

وفي عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠م)، وبالتحديد في عام ٤٢٩م أعطى الإمبراطور تعليماته بإعداد قانون يسير على نهج المشرعين السابقين، وقد عهد إلى تسعة شخصيات قانونية للقيام بهذا العمل من بينهم أبلس Apells الأستاذ في الجامعة التي انشأها ثيودوسيوس الثاني وتم افتتاحها في السابع والعشرين من فبراير عام ٤٢٥م لمناقسة جامعة الإسكندرية وجامعة أثينا. وقد تم الانتهاء من هذا العمل القانوني وطبعه بعد تسع سنوات مات خلالها بعض أعضاء اللجنة، ولم يشر عند طبعه إلا إلى اثنين فقط هما أنتيوخس Antiochus وثيودورس Theodorus. وقد تضمن هذا التشريع حوالي ستين مادة قانونية. ورغم هذا الجهد الكبير إلا أن هذه التشريعات لم تدخل الجديد بدرجة ملحوظة على القانون الروماني القديم.

ويأتى الإمبراطور جستيان الأول بعد ثيودوسيوس، ويدخل بكثير من القوانين التي أصبح بعضها جديداً على القانون الروماني، فقد وجد أنه من الصواب إعادة تنظيم مجموعة القوانين كلها. ولجا الإمبراطور إلى أحد كبار رجال القانون - وكان يتولى منصب الكويستر في العاصمة فيما بعد - يدعى تريبونيان Tribonian وكان وثياً، ووضعه على رأس لجنة من عشرة من رجال القانون ليساعده في هذا العمل كان من بينهم ثيوفيلوس Theophilus الأستاذ الشهير للقانون بجامعة القسطنطينية. وقد تم إنجاز هذا القانون في مدة وجيزة وصدر في السابع من إبريل عام ٥٢٩م. وبعد ذلك عين الإمبراطور ستة عشر من رجال القانون ليجمعوا من كل مؤلفات القانون الروماني ما يتمشى مع روح عصره وتكون ذات نفع للمواطنين. وبذلك يمكن جمع آراء كافة رجال القانون النفاة الذين قامت عليهم الإمبراطورية الرومانية. وقد صدر

هذا المؤلف المسمى بالموجز Digest فى عام ٥٣٣م وقد ظل هذا الأخير المرجع الأول فى جميع المسائل القانونية داخل الإمبراطورية كما عملت به معظم الدول الأوربية، وكان هو القاعدة الأولى لكل القوانين فى أوربا بعد ذلك. وفى العام الثانى ٥٣٤م طبعت نسخة جديدة ومنقحة من أعمال الإمبراطور القانونية. ومنذ عام ٥٣٤م حتى نهاية حكمه فى عام ٥٦٥م نشرت سلسلة كبيرة من القوانين التكميلية عرفت باسم القوانين المستجدة أو المتجددات Novellae. وعلى ذلك يمكن القول أن الكثير من التعديلات أدخلت على القانونى الرومانى حتى أصبح فى نهاية حكم جستينيان منقحا ومسائرا لتلك المرحلة.

وواقع الحال أن القوانين التى صدرت فى عهد الإمبراطور جستينيان سواء أكانت قانونا مدنيا أم جنائيا، لم تتعد القانون الرومانى نفسه، وكان الأمل أن يكون قد تمشى مع الروح الدينية التى سادت الإمبراطورية، ولكننا نجد أن العبودية أى الرق والطلاق ظلا يعمل بهما فى قوانين جستينيان رغم تحريم الكنيسة لهما. والحقيقة أن الإمبراطور جستينيان وضع نصب عينيه فى تعديل القوانين أو إصدارها ثلاثة مبادئ هامة، وهى ١- الإنسانية، ٢- سداد البديهة، ٣- المنفعة العامة. وقد أعطى الإمبراطور جانبا كبيرا من الإنسانية إلى مجموعة قوانينه، لذلك ألغى حق تسليم الأبن أو الأبنة نظير ما يلحق من ضرر بالآخرين. وكان هذا القانون يبيح للوالدين تسليم أطفالهم لمواطن آخر مقابل ما ألحقه به من ضرر. كما أنه زاد من حقوق المرأة مثل الحصول من زوجها على أملاك تعادل صداقها فى حالة وفاته، وشرع للأرملة الوصاية على أطفالها. وقد عمل الإمبراطور على زيادة الثقافة القانونية للمواطنين، فعمل على إصلاح مدارس الحقوق وأعاد فتح هذا النوع من المدارس الذى

كان قد أغلق، واهتم بتعليم القانون في جامعات القسطنطينية وبيروت، وبعد الفتوحات الإسلامية اقتصر ذلك على جامعات العاصمة.

ورغم أي نقد يوجه لقوانين جستينيان، فإنه كان يهدف أن يصل بالقوانين إلى مرحلة الكمال وأن تكون سهلة وميسرة للجميع لا غموض فيها بحيث لا تحتاج إلى أي تفسير أو تعقيب. وهناك مؤلفات أخرى صدرت بعد جستينيان لقصور في بعض قوانين جستينيان، ولكن القانون المدني ظل باقياً طوال قرنين من الزمان ثم تعرض لبعض التعديلات في عهد الإمبراطور ليو الثالث الأيسوري (٧١٧ - ٧٤١م).

وقد تمثلت السياسة الداخلية للإمبراطور ليو في موضوعين رئيسيين؛ أولهما الإصلاحات الداخلية التي تمثلت في إصدار القوانين التشريعية، وثانيهما الصراع اللايقوني. وما يهمنا في هذا الموضوع ما يتعلق بالمجال الأول. لقد ارتبط اسم ليو بمجموعة التشريعات المعروفة باسم إيكولوجا Ecloga أي المختارات القانونية، وهذه المختارات مستوحاة من قوانين جستينيان، وإن كانت قد اختلفت عنها بعض الشيء، فنجد تشريعات ليو استبدلت عقوبة الإعدام إلى الإقتصاص العضوي، مثل: قطع اللسان وبتز الذراع وسمل العين وصلم الأذن وما إلى ذلك. والإيكولوجا مقسمة إلى ثمانية عشر فصلاً، فمنها القوانين الجزئية والمدنية، وكانت تعتبر أفضل مرجع للقضاء يمكن الرجوع إليه. ومن العوامل التي سهلت استخدامها وتطبيقها بسهولة، فهمها من ناحية اللغة والصياغة، كما أنها في مجموعها لم تكن جديدة عليهم، فهي تعتمد على قوانين جستينيان. وقوانين جستينيان مرتكزة على قوانين ثيودوسيوس، أي أن فحوى هذه القوانين كان معروفاً منذ أكثر من قرنين. ولم تشذ قوانين ليو عن ما هو مألوف لدى البيزنطيين فيما يختص بالأسرة والزواج والميراث والوصاية على الأطفال. ورغم هذا كله فقد لقيت



قوانين ليو معارضة وكرهية من الشعب البيزنطي لأنها صادرة من إمبراطور اعتبروه مهرطقاً، لمعارضته عبادة الأيقونات.

وإذا ألقينا نظرة سريعة على الإيكولوجيا، نجد أنها تمثل نظرة متقدمة عن المؤلف في مجتمع العصور الوسطى المبكر. فلم يكن الزواج فيها مجرد خضوع الزوجة لسلطان الزوج بل كانت الحقوق والممتلكات شركة بين الزوجين، كما وضعت الأم فيما يتعلق بالأطفال في موضع مساو للرجل، وأصبح لها حق الوصاية على أطفالها بعد وفاة زوجها، وفي حالة وفاة الوالدين تكون الوصاية للدولة ويخسر الطفل ميراث والديه لو ساء السلوك. وإذا كان هذا ما يتعلق بالأسرة فإن القوانين أيضاً تناولت المجتمع ككل، وتضمنت النص في مستهل نصوصها القضاء على الرشوة والفساد وضرورة دفع المرتبات للموظفين من أكبرهم حتى أصغرهم.

وصدرت بقية القوانين في ثلاث مجموعات الأولى وتعرف بالقانون الزراعي Rural Code والثانية تختص بالقانون البحري Nautical Code والثالثة تتعلق بالقانون العسكري Military Code. والقوانين الزراعية خاصة بالأرض الزراعية والماشية وملكيات الأراضي الصغيرة لصغار الفلاحين. وكان الهدف من إصدار هذا القانون حماية صغار الملاك والحد من استعمال السخرة، والحد أيضاً من التوسع في الأراضي على حساب صغار الفلاحين. كما تضمن هذا القانون العقوبات المتعلقة بسرقة الماشية والحاصلات الزراعية والإعتداء على المراعي ومشارب المياه وسرقة الغابات. وعلى ذلك يمكن القول أن أحوال صغار الفلاحين قد تحسنت على عهد ليو. أما عن القانون البحري فقد تضمنت نصوصه بعض المواد التي شجعت على إنشاء الأساطيل التجارية لإنعاش التجارة البحرية. أما القانون العسكري فكان مرجعه إلى أن ليو عندما تولى حكم البلاد وجد جيشه اعتاد على الثورة والتمرد، فنص في

هذا القانون على الطاعة واستقرار الجيوش حتى يضمن قوة عسكرية ثابتة تدين للعرش بالولاء والطاعة.

ولعل في مجموع هذه القوانين ما عمل على استقرار الدولة عن ذي قبل، وإلى انتعاش خزائنها ودعم أركانها داخليا وخارجيا، وازدهار المصنوعات الداخلية مثل العاج والطرز والحريز، وتمكنت الإمبراطورية البيزنطية من السيطرة على التجارة الآتية من الشمال إلى الجنوب عبر منافذها، الأمر الذي عاد عليها بالربح الوفير. وأصبحت مدينة طرابيزون Trebizond والبحر الأسود منفذين رئيسيين للتجارة الآتية من الشرق الأقصى ومن ناحية الغرب، ولم تعد التجارة حكرا على تجار الشام أم المصريين أو اليونانيين أو غيرهم من سكان حوض البحر المتوسط كالبندقية Venice وأمالفي Amalfi. ويأتى بعد ذلك التشريعات التي وضعها الإمبراطور بازيل الأول (٨٦٧ - ٨٨٦م).

وبالرغم من أن الإمبراطور بازيل الأول، كان في الأصل فقيرا وضيع النسب، فقد كان يحمل في نفسه إعجابا شديدا بالحضارة اليونانية وفكرة الإمبراطورية الرومانية والقانون الروماني. وفي أثناء عهده استمرت الموجه الثقافية الكبيرة التي بدأت في عهد ثيوكتيستوس Theoctistus وظهر نشاطه بشكل قوي كرجل دولة مؤمنا بفكرة الإمبراطورية الرومانية، فهو أول حاكم بيزنطي منذ زوال أسرة هرقل، ينتهج سياسية نشطة في إيطاليا. ولكن شهرته العظيمة تكمن في إنجازاته التشريعية وفي مراجعة القانون الروماني. فهو الذي خطط لوضع مجموعة شاملة. ومراجعة لكتب جستينيان في القانون التي نشرت باليونانية، وكانت تحتوي بالإضافة إلى ذلك ملاحق من القانون الجديد.

وهذا العمل العظيم، وصفه الإمبراطور بعنوان "تصحيح وتنقية القانون القديم" يبدو أنه لم يكتمل، ولكنه شكل القاعدة التي اعتمد عليها ليو السادس بعد ذلك، واعتبر الحجر الأساس للباسيكا Basilica. وقد وصلنا كتابان صغيران للقانون اللذين اعتبرهما بازيل الأول مقدمة للعمل الكبير الذي أراد إنجازه. والأول هو القانون الميسر Procheiron Momos، وقد نشر بإسم الأباطرة بازيل وقسطنطين وليو، وعلى هذا فهو يرجع إلى الفترة ما بين ٨٧٠ - ٨٧٩م. وهو يحتوي على مختارات مأخوذة من المجموعة الكبيرة للقوانين السائدة، والأكثر استعمالاً سواء في القانون المدني أو القانون العام، مرتبة تحت أربعين عنوان حتى يكون في أيدي الناس كتاباً عاماً في القانون. والغرض من القانون الميسر كان مماثلاً للغرض من إيكلوغا ليو الثالث، التي كانت أيضاً كتاباً عملياً في القانون للاستخدام العام، يلبي حاجة القضايا التي تقابلهم كل يوم.

والواقع أن الإمبراطور بازيل الأول، الذي حاول إحياء القانون الروماني، عمل على تبرئة نفسه من الإمبراطور ليو الثالث اللايقوني، الذي وصفه بأنه "محطم القوانين الجيدة". وبالرغم من الهجوم القاسي على الإيكلوغا، فقد أخذ عنها القانون الميسر خاصة في الجزء الثاني منها الذي يختص بقوانين الموارث والقانون العام. وانتشر القانون الميسر إنتشاراً واسعاً في بيزنطة وظل محتفظاً بقيمته حتى انهيار الإمبراطورية. علاوة على ذلك فقد ترجم - مثل الإيكلوغا - إلى اللغة السلافية في وقت مبكر، وكان له قيمة عظيمة في أعين البلغار والصرب والروس. وبالإضافة إلى هذا يوجد الإباناجوج Epanagoge، وهو كتاب مختصر تم جمعه باسم الأباطرة بازيل وليو والسكندر، وقد وضع كمقدمة لمشروع مجموعة القوانين الكبيرة وهو ينتمي إلى الفترة ما بعد ٨٧٩م.

وتعد الإباناجوجه إلى حد كبير إعادة للقانون الميسر ولكن بتنظيم جديد وبعض التغييرات الهامة. وتعتمد الإباناجوجه بشكل أكبر على الأيكولوجيا، حيث إنها تأخذ منها قانون الزواج، بينما القانون الميسر يعتمد على قوانين جستينيان في هذه الناحية، ولم تعتمد على الأيكولوجيا إلا في فصولها الأخيرة. ولكن الإباناجوجه علاوة على ذلك تحتوي على فصول مبتكرة تستحق الاهتمام، وذلك فيما يختص بحقوق وواجبات الإمبراطور، والبطيريك وغيرهما من المناصب العلمانية والدينية الكبيرة. وفسر نظام الحكم في الإمبراطورية والكنيسة على أنه وحدة تتكون من وحدات وأعضاء كثيرين، يرأسها الإمبراطور والبطيريك كأعلى سلطتين في العالم، وواجبهما أن يعملوا معا في التحام تام وانسجام من أجل خير الإنسانية. ووضعت وظيفة السلطتين بمساواة تامة: فالعاهل المدني عليه أن يعمل على رخاء رعاياه ورفع مستواهم المادي، والعاهل الديني مهمته تحقيق سعادتهم الروحية. ومما لا شك فيه أن صاحب هذه النظرية في الحكم الثنائي هو البطيريك فوتيوس، الذي عاد إلى منصبه. وهذا يفسر حقيقة أن الإباناجوجه تنتهج علاقة مثالية بين السلطتين الدينية والديوية متمشية مع الأفكار السائدة في دوائر الكنيسة الأرثوذكسية. ويأتي بعد ذلك التشريعات التي وضعها الإمبراطور ليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢م).

والعمل الذي له أهمية تاريخية كبيرة في عهد ليو السادس، فهو التشريعات العظيمة، وهي التي أظهرته من أعظم واضعي القوانين وأغزرهم إنتاجاً منذ عهد جستينيان. ومع ذلك فمن الخطأ المبالغة في تقدير مشاركة ليو بنفسه في هذا العمل، رغم أنه مما لا شك فيه أن ثقافته واجتهاده كمؤلف كانت من عوامل إتمامه. وكما ذكرنا آنفاً، فإن الإعداد لهذا العمل يرجع إلى عهد والده، كذلك يجب أيضاً ملاحظة أن أعظم فترة من النشاط التشريعي تقع في

العشر سنوات الأولى من عهده، أي من الفترة التي كان فيها ستليانوس Stylianus بجانبه كمستشار له. وبمقارنة هذه الفترة من حكمه، فإن الجزء الثاني كان أقل في إنجازاته. وبالرغم من النفور العميق الذي ساد بين الأب وأبنه - بازيل وليو - وبالرغم من التفاوت الكبير في طبيعة كل منهما، فإن أهداف ليو السادس كانت مماثلة تماما لأهداف بازيل. ومراجعة بازيل لقوانين جستينيان أكملها ليو السادس في الأوامر الإمبراطورية Basilica

والقوانين الإمبراطورية للإمبراطور ليو الحكيم - والمقسمة إلى ستين فصلاً - تمثل ستة أجزاء، تشكل أكبر مجموعة للقوانين في الإمبراطورية البيزنطية في العصور الوسطى. وقد عهد بإعدادها إلى مجموعة من المحامين برئاسة سيمباتيوس Symbatius ونشرت في السنوات الأولى من حكم ليو السادس، وهي نفسها برهان على أنها تنقية للعمل الأول الذي قام به ليو السادس؛ ووضع في صورته النهائية في العمل الذي قام به ليو السادس.

والأوامر الإمبراطورية للإمبراطور، عبارة عن مجموعة لقوانين الكنيسة كما هي للقانون المدني والعام. وتعتمد الباسيليكا على قوانين جستينيان والمختارات. وهي أقل اعتماداً على متجددات Novels جستينيان، وأخيراً تعتمد على الأوامر الإمبراطورية بشكل ملحوظ وعلى القانون الميسر. ولم يشر علماء القانون في عهد ليو السادس - كما في عهد بازيل، إلى المصادر اللاتينية، إلا بالقدر اليسير، مستعملين بدلاً منها الترجمات اليونانية والتعليقات التي ترجع إلى القرنين السادس والسابع.

وبالمقارنة بمجموعة القوانين المدنية لجستينيان Corpus Juris، بالباسيليكا، نجد ميزة كبيرة لصالح البيزنطيين حيث إنها مكتوبة باليونانية، كما أنها كانت عملية وسهلة التطبيق. ذلك أن كل مواد القانون جمعت في عمل

واحد ونظمت تنظيمًا دقيقًا منهجياً. بينما تناولت مجموعة جستينيان الموضوع الواحد في أكثر من موضع، وأوضحت الباسيليكا في تعليقها أن ذلك هو أكبر أخطاء مجموعة جستينيان. ولهذا فإننا لا نعجب إذا كانت الباسيليكا قد أبعدت مجموعة جستينيان عن الاستعمال وأصبحت منذ ذلك الحين المرجع في دراسة القانون في الإمبراطورية البيزنطية في العصور الوسطى. وسرعان ما أضيف إلى النص العديد من الشروح، أهمها ما يسمى الشروح القديمة (Old Commentaries) التي ترجع إلى القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر. وقيمتها الأساسية ترجع إلى أنها تعطينا معلومات عن محتويات الأجزاء كلها التي لم تصل إلى أيدينا.

وبالإضافة إلى الباسيليكا هناك مجموعة (لائحة) من ١١٣ مادة تنسب إلى ليو السادس تسمى المتجددات Novels. وفي الواقع أن متجددات ليو السادس تعتمد اعتماداً تاماً على متجددات جستينيان، حتى في الشكل والتنظيم. ومهما كان الأمر، فإن الترجمة الحرفية لعنوان المجموعة هي: تنقيح وتنقية القوانين القديمة، وهو ما يلفت النظر مرة أخرى إلى الارتباط القوي بين العمل التشريعي لليو السادس والعمل التشريعي لأبيه بازيل الأول. وتتناول متجددات ليو السادس عدداً كبيراً ومختلفاً من الموضوعات، والتي يبدو أنها تأتي متتابعة دون منهج معين، وتلغي لأسباب مقنعة، القوانين القديمة مع التأكيد على قوة القانون الملزمة.

ومما يستحق الذكر بشكل خاص في متجددات ليو السادس أنها ألغت الحقوق القديمة لمجلس البلاط ومجلس الشيوخ. وعلى أية حال فقد سقطت حقوق مجلس البلاط منذ وقت طويل وصارت لا توجد إلا على الورق فقط. على أن إلغائها نهائياً بقانون يشكل أهمية كبيرة خاصة بعد أن تقرر أمرها في المتجددات الثلاثة، على أساس أن السلطة المطلقة أصبحت في يد الحاكم.

وتشير تشريعات ليو السادس إلى مسألة تاريخية هامة بلغت ذروتها في هذه المرحلة، فقد وُضعت السلطة المطلقة في الإمبراطورية في أيدي الحاكم والبيروقراطية الإمبراطورية. إن سلطة الإمبراطور المطلقة ونقل حكم الإمبراطورية إلى البيروقراطية بلغ أوج اكتماله تحت حكم الأسرة المقدونية، أما السناتو الذي كان يتكوّن من كبار موظفي الإمبراطورية أصبح وجوده الآن صورياً، فهو لم يفقد وظائفه التشريعية والإدارية فقط، بل فقط أيضاً الأهمية التي اكتسبها في القرنين السابع والثامن الميلاديين.

ووضعت السلطة العليا في الدولة في يد الإمبراطور وجهازه الحربي والإداري. والإمبراطور مختار من الرب وهو في حماية العناية الإلهية المقدسة. فهو السيد الأعلى لحكومة الإمبراطورية، وهو القائد الأعلى للجيش، وهو القاضي الأعلى والمشرع الوحيد، وهو حامي الكنيسة وحارس العقيدة المسيحية، وهو صاحب قرار الحرب والسلام، وكلمته هي الأولى والأخيرة التي لا يمكن إلغاؤها، وتشريعاته تعتبر وحياً من الرب. والواقع، كان على الإمبراطور مراعاة القوانين الموجودة فعلاً، ولكن كان من سلطته إلغاء القوانين القديمة وإصدار قوانين جديدة، وهو لا يراعي في ذلك، إلا مطالب العدالة. كرئيس أعلى للإمبراطورية كانت له سلطة مطلقة ولا يحدها سوى مبادئ الإخلاق والتقاليد. ولم تُحد سلطته المطلقة إلا في الشؤون الدينية فقط. رمهما كان نفوذه قوياً في الهيئات الكنسية، فهو ليس إلا رجل علماني، وعلماني هذا فهو ليس إلا حام للكنيسة وليس رئيساً لها.

وكان للكنيسة رئيسها الخاص، وهو بطريرك القسطنطينية، وكانت سلطته ونفوذه مستمدة من السلف. وعلى كل حال، فقد كان الإمبراطور في الواقع هو الذي كان يعيّن البطريرك، وبسبب سلطته كمشرّع للقوانين كان

شريكا في حكم الكنيسة. وله حق تعيين وعزل أصحاب المناصب العلمانية، ولكن عزل رؤساء الكنيسة، كان يتطلب موافقة رجال الدين.

وبرغم أنه كان من حق الإمبراطور تغيير القوانين التي وضعها سلفه، فإن الإمبراطور لم يكن يستطيع إلغاء أو تغيير قرارات المجامع الدينية. ومجلس الكنيسة هو أكبر محكمة للاستئناف في الكنيسة، وهو فقط المختص بحق إصدار القرارات المتصلة بالعقيدة. وكل ما يستطيع الإمبراطور عمله هو حماية العقيدة الموجودة فعلا. وبينما فقدت السلطات العلمانية - التي كانت في يوم ما رقبيا على سلطة الإمبراطور المطلقة - أهميتها السابقة، فإن سلطة الكنيسة كانت تتقدم وتقوى جنبا إلى جنب مع سلطة الإمبراطور.

وبلى بعد هذه التشريعات ما قدمه رومانوس الأول وقسطنطين السابع. وإذا كان الإمبراطور رومانس قد خطط على مستوى القصر والكنيسة ليكون أسرة حاكمة، فإنه قد خطط أيضا على المستوى الاجتماعي لدعم نفوذه ونفوذ أولاده من بعده، وبدأ يعمل على حماية الإمبراطورية من خلال القوانين التي سنها لحماية صغار ملاك الأراضي الزراعية وضرب الأرستقراطية الزراعية التي تشكل قوة بالغة الخطورة على مركزه وعلى مركز أولاده من بعده، ومن جانب آخر فقد كان رومانوس ابن فلاح بسيط، ولعل ما تعرضت له أسرته وأمثالها من جور الإقطاعيين الزراعيين هو الذي جعله يقاوم نفوذ هذه الطبقة، ويعمل على إضعافها. هذا بالإضافة إلى أن الإمبراطورية كانت تواجه في هذه المرحلة مشكلة بالغة الخطورة امتد أثرها إلى مركز الإمبراطور فيما بعد، وهي مشكلة شراء الأغنياء لأراضي الفقراء الذين ينزلون إلى مرتبة الاتباع للأرستقراطية الإقطاعية. ولم يقتصر أثر هذه المشكلة على زيادة نفوذ الإقطاعيين فحسب بل إلى موارد الإمبراطورية وقوتها العسكرية، لأن الإمبراطورية كانت تعتمد اقتصاديا وعسكريا على الملاك الصغار وعلى



الأراضي التي تمنح للجنود، فالملاك الصغار يؤدون الضريبة للدولة، كما تمنح الأراضي للجنود في مقابل الخدمة العسكرية، ومعنى ذلك أن امتصاص الأغنياء للملكيات الصغيرة يؤدي بالتالي إلى ضعف الإمبراطورية اقتصادياً وعسكرياً وسيطرة الأرستقراطية الزراعية.

والتفت رومانس إلى هذا الخطر الذي يهدد مركزه ومركز أولاده من بعده، وكانت خطوته في هذا السبيل إصداره لمجموعة قوانين جديدة *Novels* في عام ٩٢٢م، ونصت هذه المجموعة على إعادة حق الجيران في التملك بالشفعة، وهي قوانين كان ليو السادس قد أرسى قواعدها. وحول موضوع انتقال أراضي صغار الملاك سواء بالبيع أو الإيجار فإن القانون الجديد جعلها خمس طبقات يكون لها الحق بالترتيب في التملك أو الإيجار ليصعب انتقالها إلى أيدي كبار الملاك. فالطبقة الأولى هي الأقارب الذين يمتلكون أراضٍ مجاورة للأرض المراد بيعها أو تأجيرها، والثانية هي الملاك المجاورون من غير الأقارب، والثالثة هي أصحاب الأراضي التي تتداخل مع الأراضي المراد بيعها أو إيجارها. أما الرابعة فهي ملاك الأراضي الذين يدفعون ضرائب مماثلة. أما الخامسة والأخيرة فهي طبقة الملاك الآخرين من أصحاب الأراضي المجاورة، واشترط القانون عدم انتقال الأرض بالبيع أو الإيجار إلا بعد عرضها على الطبقات الخمس أولاً حسب ترتيبها.

والواضح أن الغرض من هذا القانون هو حماية صغار الملاك ومنع استمرار ذوبان الملكيات الصغيرة، لذلك كان الخارج على هذا القانون يرغم على إعادة الأراضي غير التابعة للجند إلى أصحابها دون تعويض، فضلاً عن تقديم غرامة مالية إلى خزانة الإمبراطورية. أما الملكيات التابعة للجند فكان على من اشتراها إعادتها إلى أصحابها دون تعويض ولا يدفع غرامة مالية.

ورغم وجاهة هذا القانون من الناحية النظرية، إلا أنه لم ينفذ كما ينبغي لعدة عوامل، منها أن شتاء عام ٩٢٧ - ٩٢٨م كان قاسي البرودة وطويلا على غير العادة، وتسبب ذلك في انتشار المجاعة والوباء لقلة الحصول، وترتب على ذلك أن قدم الفلاحون الجائعون أراضيهم بثمن بخس لكبار الملاك، يضاف إلى ذلك أن الطبقات الخمس التي أصبح لها الحق في الشراء قبل طبقة الاقطاعيين، كانت طبقات فقيرة وليس بوسعها الإيجار أو الشراء، ومعنى ذلك أن القانون كان تجميدا للبيع أو الإيجار، ولكنه اهتز أمام أول أزمة اقتصادية حلت بالبلاد.

ويبدو أن كل هذه الأسباب لم تكن خافية على الإمبراطور رومانوس، لذلك اكتفى بتوجيه اللوم إلى الأغنياء لأنانيتهم وإن كان في اللوم قسوة ومرارة، وأصدر متجددات أخرى في عام ٩٣٤م، أي بعد المجاعة بست سنوات وزال أثرها. وأعلن في المتجددات الأخيرة عدم شرعية كل ما أخذه الأغنياء من صغار الملاك، وخفف من صرامة قانون عام ٩٢٢م وأمر برد جميع الأراضي التي دفع في شرائها مبلغا يقل عن نصف ثمنها الحقيقي إلى أصحابها دون تعويض، أما إذا كان ما دفع للأرض ثمنا عادلا، فتعاد الأرض إلى صاحبها الذي عليه رد ما دفع فيها خلال ثلاث سنوات. وورد في المتجددات عدم جواز امتلاك الأغنياء لأراضي صغار الفلاحين مستقبلا وإلزامهم بإعادتها مع دفع غرامة لخزانة الدولة.

ورغم هذا كله، فإن الفلاحين الصغار لم يتجاوبوا مع حكومة الإمبراطورية لوقوفهم تحت وطأة الضرائب الباهظة، واختاروا التبعية لكبار الملاك بمحض إرادتهم ليهربوا من تعسف جامعي الضرائب ويكونوا في أمن وحماية الملاك الكبار. وقد سبب ذلك إزعاجا شديدا للإمبراطور رومانوس وعمل بكل قوة على تنفيذ القانون، حتى لا تتأثر إيرادات الإمبراطورية التي

كانت في أشد الحاجة إليها لمواجهة الأخطار الخارجية التي أحاطت بالجبهات الغربية والشرقية والشمالية.

وإن كانت هذه هي السياسة التي سار عليها الإمبراطور رومانوس، فإن الإمبراطور قسطنطين السابع عندما سيطر على مقاليد السلطة وعاد إليه حقه الشرعي عام ٩٤٥م، سار على نفس سياسة رومانوس، وأصدر في عام ٩٤٧م قانوناً يقضي بعودة الأراضي التي انتقلت إلى كبار الملاك منذ توليته دون تعويض. ويبدو أن الأمر لم ينفذ كما ينبغي، لذلك أصدر سلسلة من القوانين تلى بعضها البعض، وكلها تعمل على الحد من نفوذ كبار الملاك والاحتفاظ بالملكيات الصغيرة لأصحابها سواء من الفلاحين أم الجند، حتى لا تتأثر كفاءة الإمبراطورية وتتمكن من تعبئة الجند لمواجهة مشاكلها الخارجية.

وبعد هذا العرض الموجز لبعض القوانين التي صدرت تباعاً بالإمبراطورية، كان على كل موظف من موظفي الإمبراطورية أن يكون على معرفة بالقانون، وهذا أمر هام لتيسير أمور الدولة، ولكن واقع الحال أن الحصول على هذه القوانين لم يكن متوفراً بصورة دائمة، وليس لدينا معلومات إلى أي مدى ظلت مدارس الحقوق التي راعاها الإمبراطور جستنيان. وفي عهد الإمبراطور ميخائيل الثالث ٨٤٢ - ٨٦٧م أقام القيصر بارداس Bardas جامعة في العاصمة البيزنطية، وليس لدينا معلومات عن المواد القانونية التي كانت تدرس في هذه الجامعة. ويرى البعض أن العلوم البيزنطية بلغت زروتها في القرن الحادي عشر، وأن الإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس Constantine XI Monomachus (١٠٤٢ - ١٠٥٥م) لاحظ قلة العارفين بالقانون فأنشأ في عام ١٠٤٥م مدرسة خاصة للقانون، أما بعد سقوط القسطنطينية في عام ١٢٠٤م فليس لدينا معلومات عن الدراسات القانونية بعد هذه الفترة.

وكان القانون الروماني الذي أصبح القانون البيزنطي في تغير مستمر، وقد ظل هذا القانون جزءاً جوهرياً في الدستور البيزنطي، وهو السلطة الوحيدة التي لا يمكن تجاهلها، حتى الإمبراطور نفسه. وقد زاد القانون رفعة من درجة القضاة، فكان أعضاء المحاكم القانونية العادية لهم الأولوية على رجال البلاط الإمبراطوري.

ويتضح من العرض السابق أن الإمبراطورية البيزنطية اهتمت كثيراً بالتشريع وعلى وضع القوانين في حالة أقرب إلى الكمال. ومن هنا كان العمل المستمر من قبل السلطة البيزنطية لسد ثغرات القوانين والعمل على تنقيحها، ثم إصدارها في صورة مكتملة نوعاً ما أو قريبة من الكمال. والحقيقة أن هذه القوانين كثيرة ومتشعبة ويتعذر تقديمها في هذا الفصل من الكتاب لذلك سوف يكتفى الباحث بعرض نماذج منها للتعرف عليها.

ومن قوانين الإمبراطور ثيودوسيوس هذا القانون: *Theodosian Code XV1.1.2* وقد جاء في هذا القانون أن المسيحية أصبحت معترفاً بها منذ أيام الإمبراطور قسطنطين، ولكنها لم تصبح الديانة الرسمية للدولة إلا في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس، واعتبار الديانات الأخرى ديانات غير رسمية - وتوجد قوانين أخرى للإمبراطور نفسه، تتحدث عن بعض الأمور الدينية مثل الارتداد عن المسيحية، وتعظيم القديس بطرس، واحترام أيام الأحاد ويوم عيد الميلاد المجيد، وأعياد القديسين.

وإذا انتقلنا إلى عهد الإمبراطور جيسنتيان نجد مجموعة من القوانين، نعرض منها القانون الذي صدر في عام ٥٣٠م تحت رقم (VII.24.1) وهو يتعلق بحماية السيدات الأحرار إذا تزوجن من العبيد.

وفى عهد الإمبراطور جسييتيان أيضا صدر القانون (XI. 48 - XII) الذى صدر فى عام ٥٣٠م، وهو يتعلّق بإعادة العبيد الأبقين إلى أسيادهم. وكذلك القانون (XI. 48 - XXIV) فى العالم نفسه، وهو يتعلّق بالوضع الاجتماعى للأطفال الذين يولدون من زواج مختلط أى بين الأحرار من الرجال أو النساء من العبيد رجالا أم نساء. وفى العام نفسه صدر القانون رقم (XI. 51.1) الذى يجعل المواطن مرتبطا بالأرض التى ولد عليها.

وفى عهد الإمبراطور ليو الثالث صدرت مجموعة الإيكولوجا، ومنها القانون الذى صدر فى عام ٧٢٦م وهو صيغة عقد زواج. ويتضح من القانون أنه عقد اجتماعى شرعى ويجب احترامه والعمل به داخل الإمبراطورية، وجاء فى بنود هذا القانون أن الزواج بين المسيحيين والمسيحيات للذين يصل سن الرجل فيها خمسة عشر عاما، وثلاثة عشر عاما للفتاة. ويجب أن يتم الزواج كتابة وبشهادة الشهود. وعلى الزوج أن يحمى ممتلكات زوجته وبانتها، وإذا توفيت الزوجة قبل زوجها وليس لهما أولاد من هذا الزواج، فإن الزوج يرث الربع من حصة زوجته، والباقى يوزع على من يرد ذكر أسمائهم فى الوصية، والحال نفسه مع الزوج.

ويوجد أيضا فى الإمبراطورية قانون الجنديّة: The Military Law. وهو يتضمن مجموعة من العقوبات التى تطبق على الجنود إذا ارتكبوا بعض الجرائم، ومن ذلك عصيان الأوامر، أو الهروب من الخدمة، أو التمرد، أو ارتكاب الفاحشة. ويتضح منها مدى صرامة هذه العقوبات. والحقيقة أن هذا القانون بالنصوص الموجودة أمانا هو خلاصة من القوانين التى وضعها الإمبراطور جسييتيان وكذلك الإيكولوجا وعدة مصادر أخرى، والأرجح أنها صدرت فى عصر الأسرة الأيسورية.

ويوجد أيضاً القانون الزراعى *The Farmer's Law*، ويرجع تاريخه من القرن السابع إلى الثامن الميلادى. وسبب وضع هذا القانون يرجع إلى الهجمات التى تعرضت لها الإمبراطورية من الفرس والعرب والسلاف، وهى التى أحدثت تغييرات فى الاقطاعات الزراعية التى وقعت فى آسيا الصغرى بخاصة، والحدود الأخرى للإمبراطورية بعامة، وأصبح لزاماً عن هؤلاء المزارعين الجدد أن يدفعوا الضرائب للحكومة، وأن يمولوا الجيش الإقليمى، ومن هنا كان من الضرورى وضع نظم وقواعد لتحكم تصرفات هذه الطبقة من المزارعين الأحرار.

وبداية التعرف على هذا القانون يرجع إلى أنه تم العثور على نص قانونى يرجع تاريخه إلى القرن التاسع الميلادى، وقد وجد هذا النص فى عدة مخطوطات، ويتضح من هذا القانون أنه ينظم العلاقة داخل القرية أو البلية أو بين القرية الواحدة وما يجاورها.

وهناك جدل كبير حول تحديد تاريخ صدور هذا القانون وظروف إصداره، ويرى البعض أنه يرجع إلى القرن السابع، وآخرون إلى القرن الثامن، أى أنه معاصراً للمجموعة التى تعرف بإسم الايكلوجا. وأيا كانت ظروف وضع هذا القانون، فإنه يعكس ظروف المناطق الريفية فيما بين القرون السابع إلى التاسع الميلادى، كما أن سياق هذا القانون يختص بالنطاق الذى يتولى المزارعون الأحرار القيام بالعمل فيه. وهو لا يختص بأصحاب الاقطاعات الكبيرة، أما العبيد فقد ورد ذكرهم فى هذا القانون، وهم يمثلون طبقة الرعاة.

والقانون الزراعى يقع فى خمسة وثمانين مادة، تتعلق أربعون منها بتربية الماشية والأضرار التى تصيب المزروعات من جراء الرعى الخاطى،

وفيه ستة عشر بنداً تتعلق بنظام الزراعة وما يتصل بها، كما ورد به تسعة بنود تتعلق بالبساتين، ومادتان بالأدوات الزراعية، وأربعة للمساكن والأجران. وقد ظهر المزارعون في هذا القانون كملك لحصص زراعية أو نصيب فيها، كما ورد به من النصوص ما يفيد بوجود أراضي في القرية تعقير ملكية عامة للقرية كلها، وهي مخصصة للرعى.

ويهدف القانون في مجمله إلى تنظيم العلاقة بين المزارعين بعضهم البعض، وضمان ظروف أفضل لمعيشة هؤلاء المزارعين لضمان بناء هذه الملكيات الصغيرة، والحيلولة دون عودة نظام الملكيات الكبيرة وما ينتج عنها من نبتة إقطاعية متسلطة يخشى منها على الامبراطورية. وأقدم هنا بعض البنود التي تضمنها هذا القانون.

- يجب على المزارع الذى يعمل فى حقله الخاص ألا يتعدى على أراضى الآخرين، وإذا قام أحدهم بالتعدى، والقى ببعض بذوره وقت إلقاء البذور فسوف يفقد الحبوب التى وضعها فى حقل الآخر، أما إذا تم ذلك وقت الحرث فسوف يفقد حرثه.

- إذا اتفق مزارعان على مبادلة أرضهما بصفة دائمة. فيجب أن يتم هذا الاتفاق أمام شاهدين أو ثلاثة، ويجب احترام هذا الاتفاق والعمل به وضمان مفعوله.

- إذا اتفق مزارعان على تبادل أرضهما لموسم زراعى واحد، وأراد أحدهما التراجع، فلا يمكن التراجع عن هذا الاتفاق إذا تم بذر البذور.

- أما إذا كانت البذور لم تلق بعد فيمكن التراجع، أما إذا قام أحدهما بعملية الحرث والآخر لم يتم بعملية الحرث، فيجب أن يتاح للآخر الفرصة لأن يحرث حرثه.

- إذا تنازع مزارعان حول حدود أرضهما، فليحتكما إلى القضاة الذين عليهم أن يحكموا لصالح من له حدود أثبت ملكيتها قبل الآخر. أما إذا كانت هناك حدود قديمة ومعروفة فيجب مراعاة ذلك.

- إذا أضر تقسيم الأرض بأرض الغير، فيجب إبطال هذه القسمة.

- إذا قام أحد الرعاة بأخذ ماشية المزارعين للرعى بها وهربت منه احدهما وسببت ضرراً لأراضي الغير، فلا يجب أن يفقد أجره، بل يلزم فقط بدفع تعويض عما أحدث من ضرر.

- إذا ما ضبط حارس بستان متلبساً بسرقة ما يقوم بحراسته من ثمار، فسوف يفقد أجره ويجلد.

- إذا أقدم راع أجير على حلب شاة بدون علم صاحبها، وقام ببيع لبنها فسوف يفقد جره ويجلد.

- إذا قام مزارع بسرقة قش أو تبن من أرض غيره، فيلزم باعادته أو سداد قيمته مضاعفة.

والى جانب ذلك يوجد القانون البحرى المعروف باسم قانون رودس البحرى Rodian Sea Law. وهو قانون مؤلف من ثلاث مجموعات، تناولت المجموعة الأولى إقرار الاباطرة البيزنطيين على مر العصور بما جاء فيه من بنود، وهو الأمر الذى يضمنى المصدقية والفاعلية لهذا القانون. وفى



المجموعة الثانية البنود الخاصة بقواعد توزيع الأرباح وأنصبة طاقم السفينة. أما المجموعة الثالثة، وهي أهم المجموعات وأطولها، وتتكون من سبع وأربعين مادة. وهي تختص بالقواعد التي تحدد المسؤولية القانونية والعقوبات والجزاءات والتعويضات الناتجة عن التقصير في وقوع الحوادث أثناء عملية الإبحار.

وتحديد تاريخ لهذا القانون من المسائل الصعبة، لأن من القراءة الأولى لهذه البنود يتضح أن بعضها كان معروفا من قبل، وعمل بها في جميع مجالات الملاحة من قديم. ويرى البعض أن عملية جمع هذه المواد ووضعها في قانون واحد إنما تم في القرنين السابع والثامن الميلاديين، وأنها ترتبط في المضمون واللغة بمجموعة الإيكولوجا، ويرى البعض الآخر أن هناك تعديلات أدخلت على هذا القانون في مراحل لاحقة.

وواقع الحال أن ما يميز هذا القانون البحري عما سبقه من قوانين بحرية أو أعراف أنه اهتم بكثير من التفاسير والتفصلات، ووضعت في قالب قانوني ملزم. ومن الواضح فيها ما يتحملة صاحب السفينة أو صاحب البضاعة من الخسارة في حالة تعرض السفينة لعاصفة أو هجوم من قبل قراصنة البحر. كما تعرض القانون لأنواع السفن سواء كانت من سفن نقل البضائع أو الركاب، والأخطار المحتملة التي تتعرض لها السفن، وهل هي ناتجة عن جهل بالنظام لمن هم على متن السفينة، وإذا كانت السفينة في إحدى الموانئ أو في عرض البحر، أم هي أخطار بسبب الحرائق أم نقص في الإمدادات والتموين، أم بسبب تلف عارض، ومن هذه البنود الخاصة بقانون ردوس البحر ما يلي:

- يتعلّق البند الأول حتى الرابع بالاجراءات التى يجب اتباعها فى حالة تعرض الحمولة للسرقة.
- ومن البند الخامس إلى السابع، تكلم عن العقوبات والاجراءات الواجب اتباعها بسبب قيام نزاع بين البحارة.
- أما البند الثامن فاخص بالمسئولية الجنائية التى تقع على قائد السفينة والبحارة فى حالة استيلائهم على حمولة السفينة وفرارهم.
- وفيما يتعلّق بالبند التاسع فقد تضمن الإقرار من قبل كل من قائد السفينة والركاب بضرورة التشاور فى حالة اتخاذ قرار بتوقف السفينة عن الإبحار.
- وفى البند العاشر ورد ما قد يصيب السفينة من ضرر أو ارتطام مع سفينة أخرى الذى ربما يصل إلى درجة التدمير الجزئى أو الكلى، وحالة السفينة وقت وقوع الحدث من حيث حجم الحمولة ونوعيتها، وحجم الضرر سواء فى جسم السفينة أو الحمولة أو فى الأرواح، وقد تم تفصيل هذه الحالات فى البنود من السادسة والعشرين حتى الأربعة والأربعين.
- واختصت البنود من الحادى عشر إلى الثانى والعشرين بحالة السفينة وقت استجارها، ومبلغ التأمين المدفوع، والقروض المتعلقة باستجار السفينة وقيام الرحلة.
- وفيما يتعلّق بالبند الثالث والعشرين، فهو ينص على أن كل الإجراءات التى يتم اتخاذها والتعهدات والاتفاقيات، يجب أن توثق بعقد مكتوب من قبل موثق عدل قبل بداية الرحلة. وعلى ذلك يكون تنفيذ بنود العقد ملزم لكل أطراف المهمة البحرية.

- ويتناول البند الرابع والعشرون الاتفاق المبرم بين قائد السفينة والتاجر أو التجار أصحاب الحمولة والإجراءات المتفق عليها للرجوع إليها في حالة تراجع أحد الأطراف عن تنفيذ هذا الاتفاق.

- وحدد البند الخامس والأربعون ما يجب عمله في حالة عثور أى فرد على شئ تم انتشاله من سفينة غارقة في عرض البحر والوصول إلى البر.

- واختص البند السادس والأربعون بما يجب اتخاذه من إجراءات في حالة العثور على زورق مفقود من سفينة أخرى، وكذلك العثور على شئ تم انتشاله من بين حطام سفينة غارقة.

ونستنتج مما سبق أن القانون الرومانى هو الذى أصبح القانون البيزنطى، وأن مجلس السناتو ظل كما هو، ولكن سلطته ضعفت على مر الزمن، وأصبح وجوده وجوداً شرفياً، أما شعب روما قد أصبح شعب القسطنطينية، ويلاحظ أنه ظل موجوداً وله تأثيره الكبير فى مراحل مختلفة على مدى تاريخ الامبراطورية البيزنطية. أما القانون فقد ظل كما هو وإن اعتراه بعض التغير من وقت لآخر، ولم يتأثر بوضوح بالعقيدة المسيحية إلا بداية من عهد الامبراطور ليو الايسورى.

# **الفصل السابع**

## **الجيش والأسطول**



تداخل النظام العسكرى مع النظام الإدارى تداخلا كبيرا فى الامبراطورية البيزنطية، ويرجع ذلك إلى أن الأعداء كانوا يحيطون بالأراضى الامبراطورية من كل جانب، فقد كانت الامبراطورية تشعر دائما أنها معرضة للاخطار أو الغزوات أو لقيام ثورة داخلية ربما تهدد العاصمة نفسها. لذلك أصبح بقاء الامبراطورية فى موقف أمن يتوقف على لجم الشعوب المحيطة بها، الأمر الذى يتطلب وجود جيش وأسطول قوى حتى تستطيع أن تواجه بهما واجبات الدفاع الملقاه على عاتقها.

وعلى ذلك يمكن القول أن الضرورة هى التى ألزمت الامبراطورية بأن تكون نفسها على أسس عسكرية، وأن تعطى الأمور العسكرية الخاصة بالجيش والاسطول كل عناية ممكنة. ونظر لذلك كله فإن الامبراطورية البيزنطية ظلت طوال العصور الوسطى هى الحكومة الوحيدة التى كانت تُدرس فيها فنون الحرب والقتال وأدوات الجيش وتنظيمه بكل عناية وأهتمام. لذلك قدمت الامبراطورية سلسلة متصلة من الكتاب العسكرىين الكبار، حتى أن معظم مؤرخيها كانوا يهتمون بجانب فى الشؤون العسكرية سواء أكانت برية أم بحرية. ومن هؤلاء الكتاب والمؤرخين نستطيع أن نتتبع تاريخ العسكرية البيزنطية.

ومن أشهر الكتاب العسكرىين فى النصف الأول من القرن الرابع الميلادى فلافيوس فيجيتوس ريناتوس Flavius Vegetius Renatus الذى أعد كتابا عن العلوم العسكرية واسمها De Re Militari، وقد ترجمه يوحنا كلارك John Clarke، لأن هذا الكتاب وضع أصلا باللغة اللاتينية فى عام ٣٩٠م، وهناك جدل حول هذا التاريخ، ولكن المهم أن هذه الترجمة وضعت فى عام ١٧٦٧م ثم أعيد طبعها مرة أخرى فى عام ٢٠٠١م.

وقد اهتمت المعاهد العسكرية والقادة العسكريون على مر العصور بهذا الكتاب، وقالوا عنه أنه أعظم كتاب صدر في الامبراطورية الرومانية الشرقية يهتم بالشئون العسكرية، وأنه ظل ذا تأثير بالغ على العلوم العسكرية حتى القرن التاسع عشر الميلادي. كما قال عنه الفيلد مارشال الاسترالي أمير ليجن Prince de Ligne في عام ١٧٧٠م انه الكتاب الذهبي في العلوم العسكرية. كما أن ريتشارد قلب الأسد Richard Coeur de Lion ملك إنجلترا (١١٨٩-١١٩٩م) كان يحمل هذا الكتاب معه أينما ذهب، وكذلك فعل والده هنري الثاني Henry II (١١٥٤-١١٨٩م). وكل قادة أوربا في العصور الوسطى، وأن هذا الكتاب كان متداولاً في عصر الامبراطور شارلمان Charlemagne (ت ٨١٤م). حتى أن البعض قد وصفه بأنه الإنجيل العسكري الذي تناوله القادة العسكريون في العصور الوسطى وما بعدها.

والكتاب يقع في ثلاثة فصول مطوله، ومقدمة. أما الفصل الأول فله مقدمة ومجموعة من العناصر بلغ عددها ثلاثة وعشرين عنصراً، وعنوان هذا الفصل جاء تحت مسمى "اختيار وتدريب الجنود الجدد"، ومن عناصر هذا الفصل اختيار الجنود، والسن المناسب للجندي المستجد، وتدريب هؤلاء الجنود، والعلامات العسكرية، وتعلم السباحة، واستخدام السيوف والدروع والرمح والأقواس، والمقاليع، والمسيرات الشهرية.

أما الفصل الثاني فجاء تحت عنوان "تنظيم الجيش"، ومن عناصره، استقرار الشئون العسكرية، والفرق بين الجنود الجدد والجنود والمحترفين، وأسباب ضعف الجيش، وإدارات الجيش، وأعمال المشاه والفرسان، ووضع الجيش واستعداده للمعركة، ووضع أسماء الجنود على دروعهم وودائع الجنود، والموسيقى العسكرية، وأدوات الحرب والقتال.

وفيما يختص بالفصل الثالث فقد ورد عنوانه "إعداد الجيش للقتال".  
ومن عناصره؛ الأعداد التي يتكون منها الجيش، والوضع الصحي للقوات،  
والامدادات والتموين، والتقدم في أراضي العدو، والممرات والأنهار، وقواعد  
إقامة المعسكرات للجنود، ووضع الخطط العسكرية، وإعداد الصفوف،  
والإستعداد للقتال، واختيار ميدان القتال، وصدور الأوامر بالقتال، والتصرف  
في حالات الانتصار وفي حالات الانسحاب، وعربات القتال والأفيال.  
وعناصر أخرى.

وإلى جانب فلافيوس نجد مصدراً آخر عن العلوم العسكرية كتبه  
أوربيكيوس Uribicius الذي ظهر في أواخر القرن الخامس الميلادي،  
وبالتحديد في عهد الامبراطور أنستاس Anastasius (٤٩١-٥١٨م). كما  
أن المؤرخ بروكوبيوس القيصري Procopius of Caesarea (توفي ٥٦٢م)  
وهو مؤرخ عصر الامبراطور جستينيان Justinian (٥٢٧-٥٦٥م)، فقد أرخ  
لعهد هذا الامبراطور وكتب في الحروب الفارسية، والحروب القوطية،  
والحروب مع الوندال. فبذلك يكون مؤرخاً عسكرياً كذلك، وفي كتبه الكثير من  
العمليات العسكرية وخططها. كما أن الامبراطور موريس Marcian (٥٨٢-  
٦٠٢م) له كتابات في فن الحرب والقتال، وقد جاء هذا المؤلف تحت عنوان  
"الخطط العسكرية" Strategicon، وهو دراسة طيبة لأحوال جيش  
الامبراطورية في عصره. كما قام الامبراطور ليو السادس Leo VI (٨٨٦-  
٩١٢م) بوضع كتاب في الشؤون العسكرية جاء تحت عنوان "فنون الحرب  
والقتال" Tactica وقد وضع فيه كل ما يتعلق بشؤون الحرب والقتال. وفي  
عهد الامبراطور نقفور فوكاس (٩٦٣-٩٦٩م) قدم له أحد قواده كتيبا يعالج  
شؤون الحرب والقتال مع المسلمين في الجانب الشرقي للامبراطورية. وفي  
القرن الحادي عشر قدم أحد الجنود المحترفين ويدعى كيكومينوس



Kekoumenos خبرته في الفنون العسكرية في مدونه بأسلوب استطراري. كما أن المؤرخة البيزنطية أنا كومينا Anna Comnena (توفيت ١١٥٠م) التي أرخت لوالدها الامبراطور الكسيوس كومنين Alexeus Comnene (١٠٨١-١١١٨م)، قدمت جانبا كبيرا من أعمال والدها العسكرية على الجبهة الغربية والشرقية والشمالية وكذلك مع الصليبيين، ويستدل من كتاباتها أنها فهمت جانبا طيبا عن الشئون العسكرية. ومن كل هذه المؤلفات تكونت خبرات طويلة في الشئون العسكرية لرجال الامبراطورية البيزنطية، لا نجد لها مثيلا في الدول الأخرى في العصور الوسطى.

وواقع الحال أن الجيش البيزنطي كان في حاجة إلى إعادة التنظيم منذ إنشاء مدينة القسطنطينية، فقد كان القرن الثالث الميلادي حافلا بالاحداث التي كشفت عن سوء أحوال الجيش وطموح قادته، كما كان الحرس الامبراطوري ينصب الأباطرة ويخلعهم من عروشهم، يضاف إلى ذلك، أن قادة المقاطعات كانوا يسيطرون على قوات كبيرة، وكثيرا ما كانوا يتمردون دون رادع. وقد حاول كل من الامبراطور دقلديانوس ومن بعده الامبراطور قسطنطين إدخال بعض الإصلاحات التي تؤدي إلى إستقرار الأحوال داخل القوات المسلحة، فقد أقام جيوشا من الجند الوراثيين، يتناولون هم وأولادهم الجند من بعدهم أجورهم عن طريق منح الأراضي التي يعيشون عليها، واعتبرت هذه القوات قوات الحدود Limitanei ، ثم أقام جيشا في العاصمة سريع الحركة يمكن دفعه إلى أي مكان في الامبراطورية بصوره عاجله، وكان يتولى أمر هذه القوات الاحتياطية Comitatuses الامبراطور بنفسه. وبذلك يصبح تحت يد الامبراطور القوات الكافية للسيطرة على أي تمرد داخل القوات المسلحة أو تعزيز القوات المسلحة ضد أي خطر يواجه الامبراطورية.

وهناك نقطة هامة جداً في التاريخ العسكى البيزنطى، وهو أن القوات العسكرية البيزنطية كانت تعتمد على جندى المشاه المحمل بالدروع الثقيلة البطيئة الحركة. وقد اتضح من حروب الامبراطورية مع العناصر الجرمانية أن هذا الأمر لم يعد مناسباً أمام العناصر الجرمانية التى تعتمد على الفرسان سريعة الحركة، ولعل آخر انتصارات للمشاه على القبائل الجرمانية الوندالية كان عند مدينة ستراسبورج Strassburg فى عام ٣٥٧م بفضل القائد جوليان Julian الذى تولى عرش الامبراطورية تحت إسم جوليان المرتد (٣٦١-٣٦٣م). ولعل ما أظهر عدم قدرة قوات المشاه العسكرية على ملاقات الفرسان القوط ما حدث فى معركة أدرنه Adrianople عام ٣٧٨م، عندما هُزمت القوات للامبراطورية وقتل الامبراطور فالنز Valens (٣٦٤-٣٧٨م). وهنا ظهرت الحاجة إلى إعداد جيش يقوم على قوة الفرسان أكثر ما يقوم على قوة المشاه.

وعندما تولى الامبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٣٧٩ - ٣٩٥م) عرش الامبراطورية خلفاً للامبراطورية فالنز أدرك أهمية الفرسان للقوات المسلحة البيزنطية. ولما كان إعداد مثل هذه القوات يحتاج إلى بعض الوقت الذى ليس فى صالح الامبراطورية، لذلك لجأ الامبراطور ثيودوسيوس إلى إدخال نظام عرف باسم جند المحالفين Feoderati، وهذا النظام يقضى باستخدام فرسان من القبائل الجرمانية للعمل داخل صفوف قوات الامبراطورية نظير مبالغ مالية.

والحقيقة أن مثل هذا النظام أو المبدأ خطير للغاية، لأن اعتماد الامبراطورية على قوات أجنبية، إنما يوضح عجز المواطن البيزنطى عن الدفاع عن أرضه ونفسه. ولعل ما دفع الامبراطور البيزنطى إلى هذا الأسلوب. ربما يرجع إلى عدم إمكان إعداد قوات الفرسان فى وقت قصير.

وعلى أية حال لقد صدت هذه القوات المحالفة قوات الهون Huns بزعامة قائدهم أتيللا Allila (توفى ٤٥٣م)، وانتصرت القوات البيزنطية بقيادة القائد الجرمانى فلافيوس أيتيوس Flavius Aetius فى معركة شالون Chalons عام ٤٥١م. والحقيقة أن اعتماد الامبراطورية على قادة من العناصر الجرمانية قد استمر لفترة من الزمن، وقد قدّم هؤلاء القادة خدمات عسكرية جلية للامبراطورية وحملوا القابا عسكرية كبيرة فى الجيش البيزنطى، ومع مرور الزمن تضخم أمر هؤلاء القادة، ولم تعد الامبراطورية تستطيع معارضتهم، ومن هؤلاء القائد ريكيمر Ricimer الجرمانى الأصل الذى كانت له الكلمة العليا فى غرب أوروبا فى عهد الامبراطور الغربى هونوريوس Honorius (٣٩٥-٤٢٣م)، وأودواكر Odoacer ملك قبائل الهيرول الذى سيطر على ايطاليا ودخل روما عام ٤٧٦م وأسقط الامبراطورية الرومانية فى غرب أوروبا. ولكن الامبراطورية البيزنطية نجحت فى إيقاف مثل هؤلاء القادة عند حدودهم فى مرحلة تالية. وعندما نجح الأباطرة البيزنطيون فى تجنيد العناصر الأرمينية والايسورية من آسيا الصغرى وتدريبهم بمستوى عال كفرسان فى الجيش الامبراطورى، توقف خطر مثل هؤلاء القادة وما تحت ايديهم من قوات.

ومع بدايات القرن السادس الميلادى كان لدى الامبراطور فرسان الخيالة الثقيلة وهم الكاتفراكتة Cataphracti، وبذلك التزمت جنود المحالفين بالتعليمات الامبراطورية ولم يعودوا خطرا عليهما. والحقيقة أن قوات الكاتفراكتة لعبت دورا كبيرا فى حروب جستينيان ضد أعداء الامبراطورية فى الشرق والغرب، وسجل المؤرخ بروكوبيوس إعجابه الشديد لما أبلوه فى المعارك.

ورغم تخلص الامبراطورية من نفوذ جند المحالفين، إلا أن فكرة تنظيم هذه القوات قد ورثته الامبراطورية البيزنطية. وهذا الفكر والتنظيم يتلخص في أن القائد هو الذي كان يجمع جنوده ويتولى إعاشتهم وليس الحكومة المركزية، وعندما لجأت الامبراطورية إلى إعداد ما يعادل القوات المتحالفة، كان كل جيش يسمى باسم قائده وأطلق عليهم جميعاً اسم مرتزقه أو الجرايات أو التموين Bucellarii وعرف باسم البوكلارية. ومن مشاكل هذه القوات أن الامبراطور جستينيان لم يهتم كثيراً سواء مالياً أو السيطرة عليهم، وكثيراً ما واجه هذا الامبراطور تمرد قوات البوكلارية، وإن كان الامبراطورية قد حققت جانباً كبيراً من الانتصارات العسكرية في غرب أوروبا على القوط وفي شمال أفريقيا على الوندال، إنما يرجع إلى عبقرية القادة العسكريين الذي خدموا تحت إمرته.

ولما كانت حروب جستينيان قد كلفت خزانة الامبراطورية الكثير، فإن خلفاءه من بعده اضطروا إلى إنقاص عدد الجنود المحالفين، أما خلفاء جستينيان وبعد أن تركوا الجانب الأوربي من الامبراطورية خلف ظهورهم، وجنوحهم إلى الجانب الشرقي، اختفى نظام قوات البوكلارية؛ ولكن هذا الاسم ظل باقياً لوصف فرق الجيش البيزنطي.

ومن المصادر البيزنطية يمكن وضع نظام للجيش البيزنطي:

١- السرية، وهي تتكون من حوالي ثلاثمائة إلى أربعمائة من الجنود يتولى قيادتهم رائد Comes، أو تريبيون Tribune، وكانت كل سرية تنقسم إلى فصائل.

٢- الكتيبة، وهي تتكون من حوالي ست إلى ثمان سرايا، وكان يتولى قيادتها قائد كتيبة Moerarch أو دوق Dox .

وكان تجمع هذه الكتائب من اختصاص القائد العام إذا وقعت طبول الحرب. ولم يكن داخل القوات العسكرية البيزنطية إلا بعض الجند المحالفين وفرق البوكلاري، وبعض الجنود المختارين Optimati وهم بقايا الجند المرتزقة الأجانب الذين شكلوا جانبا من الحرس الامبراطوري.

وأضاف الامبراطورية مورييس (٥٨٢-٦٠٢م) بعض القوات المحلية للدفاع عن الأرض التي يسكنونها في الإقليم التي ليس بها قوات ثابتة، للدفاع عن انفسهم وقت اللزوم. وقد طلب الامبراطور من كل مواطن حر المولد أن يتعلم الرماية وأن يكون لديه رمح وقوسا، وكثيرا ما كان هؤلاء يستدعون لينضموا إلى جانب القوات المرابطة في الثغور ليقوموا بواجب الدفاع عن الإقليم.

والحقيقة أن هذا الجيش الذي أعاد تنظيمه الامبراطور مورييس هو الذي قاده الامبراطور هرقل ضد القوات الفارسية وأحرز به النصر في نهاية الأمر، ولكن هذا الجيش لم يصمد أمام القوات الإسلامية، كما أدت هزيمة هرقل إلى حرمان الامبراطورية من مصر والشام وشمال أفريقيا. وظلت قوات الامبراطورية في حالة من الاضطراب والفوضى حتى أعاد تنظيمها ليو الأيسوري بإنشاء ألوية الثغور المعروفة باسم الثيمات Themes.

وترجع فكرة إنشاء ألوية الثغور إلى وجود تجمعات ثابتة من الجنود في أقاليم محددة، ويتولى أمر هذه القوات قائد باسم Strategus، ثم تولى هذا القائد رئاسة الحكومة المدنية في هذا الإقليم. وفي بداية الأمر كان الإقليم يسمى باسم الفرقة التي تتولى الدفاع عنه، فيقال لواء المختارين أو لواء المرتزقة. وبعد أن هدأت الحدود إلى حد ما، أضيفت ألوية جديدة اشتملت على الأراضي التي استعادتها الامبراطورية، وأطلق عليها أسماء جغرافية فيقال

لواء الخرسون، أو لواء سلوقيه، أو لواء كبادوكيا، وكان من أهم هذه الألوية هو لواء الممرات مثل ممرات قيليقية بين الشام وآسيا الصغرى، ويسمى قائدها قائد لواء الثغور. وكانت الجنود البيزنطية ترابط في لواء الثغر بصفة دائمة. وكان لواء الأناضول أهم هذه الألوية على الاطلاق ويعتبر قائده هو القائد العام لقوات آسيا الصغرى بأكملها وظل كذلك حتى القرن التاسع الميلادي.

وفي القرن التاسع دخل على جيش الامبراطورية نوعا جديدا من الجيش هو التاجماتا Tagmata، وهي الفرق الأربع للحرس الامبراطوري. وكان هذا الجيش بأكمله يتكون من الفرسان ولهم قدرة عسكرية عالية، وكانت هذه القوات تعسكر بالقرب من العاصمة البيزنطية، إما في إقليم بثينا Bithynia في آسيا الصغرى، أو في إقليم تراقيا غرب القسطنطينية، وكانت هذه القوات ترافق الامبراطور إذا خرج للحرب، واذ لم يخرج الامبراطور لقيادتها تولى أمرها ضابط القصر وهو برتبة دومستق Domestic. ومن الطبيعي أن تقسم هذه الجيوش إلى كتائب ثم إلى سرايا وأخير إلى فصائل.

وكانت مهمة القوات العسكرية في الامبراطورية يخطط لها بعناية ومهماتها محددة بكل دقة. فكانت جيوش الألوية عليها حراسة المناطق المنوطة بهم والدفاع عنها. أما الغزوات الخارجية، فإذا حدث اعتداء من جانب الأعداء على منطقة من المناطق أبلغ القائد المحلي في الحال قائد اللواء، وعلى قائد اللواء إبلاغ الألوية المجاورة، وعلى قائد اللواء إرسال الفرسان للتصدي للمعتدين وملاحقتهم، وفي الوقت نفسه يعطى تعليماته إلى قوات المشاة للسيطرة على الممرات التي يحتمل أن تعود منها القوات المغيرة. وفي ذات الوقت تكون الألوية الأخرى قد استعدت للتوجه إلى الأماكن التي يحتمل أن يتجه إليها العدو. فإذا أحسنت القوات مجتمعه تنفيذ ما عهد إليها بكل دقة، تمكنت من السيطرة على الموقف وإنزال الخسائر بالعدو. ومن ذلك ما رواه

المؤرخ الطبرى فى أحداث عام ٢٤٩هـ، وقال فما كان فيها من ذلك غزو جعفر بن دينار الصائفة فافتتح حصنا ومطامير واستأذنه عمر بن عبد الله الاقطع (أمير ملطية) فى المصير إلى ناحية من بلاد الروم. فأذن له فسار ومعه خلق كثير من أهل ملطية فلقية الملك (يقصد به الامبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢-٨٦٧م) فى جمع من الروم عظيم بموضع يقال له إرز من مرج الأسقف فحاربه بمن معه محاربة شديدة قتل فيها خلق عظيم من الفريقين. ثم أحاطت به الروم وهم خمسون ألفا فقتل عمر وألفا رجل من المسلمين. وذلك فى يوم الجمعة للنصف من رجب (٢٤٩هـ / الثالث من نوفمبر ٨٦٤م).

وفى بعض الأحيان كان الأمر يتطلب مهاجمة بعض الموانى الاسلامية لاستعراض القوة البيزنطية، ومن ذلك ما قام به البيزنطيون من الهجوم على مدينة ديمياط فجاء، فقد روى الطبرى أنه فى عام ٣٢٨هـ "جاءت للروم ثلثمائة مركب ... وكانوا هم رؤساء البحر، مع كل واحد منهم مائة مركب فاتاح ابن قطونا (قائد بحرى بيزنطى) بديمياط، وبينهما وبين الشط شبيهة بالبحيرة يكون فيها الماء إلى صدر الرجل فمن جازها إلى الأرض أمن من مراكب البحر فجازها قوم فسلموا وغرق قوم كثير من نساء وصبيان واحتمل من كانت له قوة السفن فنجوا..."

ومن النادر أن تقوم القوات العسكرية البيزنطية بالهجوم داخل أراضي العدو، وفى هذه الحالة يكون هناك استعداد مسبق ومعد إعدادا جيدا. ثم يتولى الامبراطور أو الدمشق قيادة قوات الحرس الوطنى التى لم يتعد جنودها ستة آلاف مقاتل، وفى الطريق العسكرى الذى كان يخترق آسيا الصغرى يلحق به فى نقاط محددة فصائل من جند الألوية المختلفة ومعظمها كان من المشاه مع بعض الفرسان. وليس فى المصادر البيزنطية إلا القليل من المعلومات بعد ذلك حتى الفترة الى منتصف القرن العاشر الميلادى. وفى أيام الامبراطورين

نقفور فوكاس ٩٦٣-٩٦٩، ويوحنا الأول تزيمسكيس John I Tzimisces (٩٦٩-٩٧٦م) حيث قاد الأخير حملات على أعالي الشام وفلسطين، وإن الخطط العسكرية ليست واضحة في المصادر البيزنطية، وكل ما ذكرته بصفه أساسية هو حصار المدن التي هاجمها يوحنا تزيمسكيس.

والحقيقة الواضحة أمامنا أن الحذر كان أساسا في الخطط الحربية البيزنطية، وكان دفع الجزية أنسب كثيرا للامبراطورية البيزنطية وكانت تطلق عليها الاستثمار الحكيم لرأس المال، بمعنى أن تكلفة الحرب أكثر بكثير من دفع بعض الأموال للأعداء. ورغم هذا كله كانت غزوات البرابرة الجرمان في غرب أوروبا أو المسلمين في الشرق كانت كثيرة ومفاجئة بحيث لم يجد معها في معظم الأوقات أي استعداد مهما كان الحذر. ويلاحظ أن الجيش الإسلامي وجيش البرابرة كان خفيف الحركة وكثير العدد، على العكس من القوات البيزنطية كثيرة النفقة. ومن هنا كان الجميع يحذر من التسرع والتهور وتفادي الكمائن والهجمات المضادة، وعلى القادة البيزنطيين استخدام الطلائع لتكون بمثابة كشافه لهم لتقديم المعلومات عن العدو.

أما عن الجانب الأخلاقي في سلوك القوات البيزنطية خلال المعارك العسكرية فقد كانت هناك تعليمات محددة يجب على الجميع من القادة والجنود الالتزام بها ومن ذلك:

- يجب على القادة والجنود المحافظة على العهود التي يقطعونها على أنفسهم.

- الإبقاء على حياة الأسرى.

- عدم إيقاع الضرر بالنساء.



- يجب الا تكون شروط الصلح قاسية حتى اذا قاتل العدو بشجاعة.

- الدخول فى مفاوضات بقدر الامكان لفوائدها المتعددة ومنها كسب الوقت لاعداد القوات أو للتجسس على الأعداء.

- إبلاغ الأعداء ببعض الرسائل التى تثير الشبهات وتوقع بين القادة والجنود.

المحافظة على الروح المعنوية للجنود حتى ولو تم إبلاغهم بانتصارات وهمية.

وربما كان لكل هذه التعليمات وجاهاتها، ولكن كانت توجد بعض المشاكل ومنها؛ إلى أى مدى سيتم التزام الجنود البيزنطيين بهذه التعليمات، فكثيرا لا يلتزم الجنود بالتعليقات ويتجاوزونها، ولا نعرف إلى أى مدى تكون هذه التجاوزات التى تمليها عليهم ظروف القتال. والمشكلة الثانية أن أعداء الإمبراطورية كانوا يحيطون بها من كل جانب، فكان يوجد عناصر مختلفة مثل المسلمين والأرمن والكرج والمغول والروس، والبجناكيه والبلغار والسلاف والعناصر الجرمانية والصليبيين، ولكل من هذه العناصر طرقها الخاصة بالقتال والمناخ الذى اعتادوا القتال فيه وكذلك الأرض وتضاريسها، وهنا كان على البيزنطيين أن يدرسوا طرق الحرب التى يختص بها كل عدو من أعدائهم، وهذا يتطلب قدا كبيرا من الدراية والفتنة واستنباط خير الوسائل للتعامل بها حسب كل ظرف من الظروف، والحقيقة أن ذلك لم يكن بالأمر السهل لا على القادة البيزنطيين أو الجنود. والدارس للتاريخ العسكرى البيزنطى يلاحظ أن قدرة الجيش البيزنطى على الامدادات والتموين كانت سيئة. كما أن الجوع الذى واجه الجنود جعلهم كثيرا ما يتخلون عن مواقعهم لدرجة ربما تصل إلى حد الخيانة. ولما كان هناك جانب من الفساد داخل

القوات المسلحة فقد كان بعض الجنود يخرجون على طاعة قائدهم وينضمون إلى قائد آخر في حالة الثورة على الامبراطور.

وكانت أهم المشاكل التي تواجه القوات البيزنطية مكر أعدائهم وخفة حركتهم، لذلك كان الواجب على القادة البيزنطيين تجنب الوقوع في الكمائن، ولتجنب هذه المشكلة كان عليهم أن يلتحموا مع العدو في أسرع وقت ممكن حيث نتج الخيالة البيزنطية الثقيلة في إنزال أكبر الخسائر بالعدو في أقل وقت ممكن.

وإذا قدمنا مثالا عن الحرب مع الصقاليه أى السلاف نقول أن جيشهم كان يتكون من جند المشاة خفيفي الحركة خاصة في التلال الوعرة دون غيرها، ولذلك كانوا يفضلون أن يسحبوا القوات البيزنطية إليها على العكس من الأماكن المنبسطة حيث لا يستطيعون مواجهة القوات البيزنطية.

أما المسلمون فقد ظلوا في مواجهة مباشرة مع الامبراطورية، منذ أيام عصر الخلفاء ثم مع الدولة الأموية ويليها العباسية، أو مع جانب من الإمارات الإسلامية مثل الحمدانية ومن بعدهم سلاجقة الروم خاصة في آسيا الصغرى وأخيرا الدولة العثمانية. ومن الملاحظ أن المسلمين لم يك بوسعهم حشد قوات كثيرة على مر الحروب، ولكنهم كانوا يتحركون بسرعة مع نقص بقدر معين بفنون الحرب والقتال القائمة على الدراسة. أما المشكلة الكبرى لدى القوات الإسلامية فإن روحهم المعنوية في القتال كان يقابلها انخفاض في هذه الروح عند الهزيمة. كما أنهم كثيرا ما كانوا يشغلون أنفسهم بالغنائم، وهذا يؤدي إلى نقل حركتهم، وهنا يمكن مباغتتهم ليلا والنيل منهم. ويضاف إلى ذلك العوامل الجوية وانخفاض درجة الحرارة في آسيا الصغرى التي كانت دائما مسرحا للعمليات العسكرية بين الطرفين.

وكان لدى البيزنطيين قدرا مناسباً في فن الحصار في الأرض المكشوفة، وهو أمر يختلف عن فن حصار المدن. وكانت الامبراطورية البيزنطية تطور عملياتها العسكرية لتناسب كل موقف، ولعل خبرتها في حروبها مع عناصر مختلفة في الشرق والغرب والشمال جعلها في موقع أفضل لمواجهة الأعداء. كما اهتمت الامبراطورية البيزنطية كثيراً بتحصينات مدنها لمواجهة الأعداء. ومن أهم نقاط الضعف في الجيش الامبراطوري أن ضرورة الاقتصاد في النفقات كانت تقضى بحله في الشتاء. وهذا يترك الإمبراطورية عارية من قواتها المسلحة ويسهل اختراتها في هذا الوقت.

وفيما يتعلق بتكوين الجيش البيزنطي في القرن الحادي عشر فكان يتكون من الخيالة الثقيلة Caballari. وكانت هذه القوات تلبس بيضه من الصلب (خوذة) ودروعاً من الزد، والزد هو سلاسل متدخلة مع بعضها بحيث تشكل شبكة مرنة، وكان الضباط والجنود يضعون علامات من الصلب توضح رتبهم، واللواء الذي ينتمون إليه وكان لكل لواء يميزه، وهذا ما تعرف في العلوم العسكرية باسم الرنوك. وكانوا يستخدمون عباءات من التيل أو الصوف تبعاً لحرارة الجو. أما السلاح الذي استخدمته هذه الخيالة فكان السيف والخنجر، والرماح والنبال.

أما المشاة فكانوا من حملة النبال في بعض الألوية، والأخرى كانت تستعمل الرماح. وكان هناك أيضاً مشاة من لابسى الدروع ويحملون الأبطال أي البلط والرماح والسيوف والتروس، والأخيرة هي دروع يحملها الجندي على يده اليسرى ليصد بها سلاح العدو. وهؤلاء المشاة كانوا يتواجدون في الممرات الجبلية الوعرة التي لا تصلح للفرسان. كما استخدم البيزنطيون النار الأخرقية، وهي تستخدم في ضرب السفن أو لدفع المحاصرين عن المدن.

وفيما يتعلق بمرتبات الجنود فكانت تختلف من رتبة إلى أخرى، فقد كان قواد ألوية الثغور يتقاضون ما بين عشرين إلى أربعين رطلا من الذهب في العام، أما قائد الكتيبة فكان يتقاضى ثلاثة أرطال من الذهب في العام، وكان بقية الضباط يحصلون على رطل أو رطلين من الذهب في العام. وفيما يتعلق بالجنود فكان الواحد منهم يتقاضى نوميسما Nomisma ذهبية وهي تعادل  $\frac{1}{72}$  من الرطل ذهبيا في السنة الأولى للتجنيد، ثم تصبح إثنان في العام الثاني، وثلاثة في العام الثالث حتى تصل إلى إثني عشره أو ثمانى عشرة في بعض الحالات. وكانت من النصائح التي تقدم للباطره هو عدم قطع هذه الرواتب على مدار العام.

ويرى البعض أن عدد الجيش البيزنطى لم يك يزيد عن مائة وعشرين ألف مقاتل، منها حوالى سبعين الفا من ألوية الثغور الشرقية والباقي من الألوية الغربية والجيش المركزى. يضاف إلى هؤلاء ما يعرف بجنود الخدمة أو المتعقبة، وهم الذين يرافقون الجيش، فقد كان من الممكن اصطحاب الخدم والعييد حتى يقوموا بأعمال نصب الخيام وحفر الخنادق، يضاف إلى هؤلاء من يقومون باعداد الإمدات والتموين، وهيئة المهندسين والهيئة الطبية والاسعافات الأولية، وعمال إقامة الحمامات وكل هذا ما كان يميز الجيش البيزنطى عن غيره من الجيوش المعاصرة.

ورغم هذه التنظيمات والتعليمات الدقيقة، فقد كان الخروج عليها يسبب كارثة للجيش البيزنطى كله أو جانب منه. ومن ذلك ما حدث فى معركة ملاذكرد أو مانزكرت التى وقعت أحداثها فى عام ١٠٧١م بين الجيش البيزنطى بقيادة الامبراطور رومانوس الرابع ديوجينيس Romanus IV Diogene (١٠٦٨-١٠٧١م) ضد القوات السلجوقية بقيادة السلطان ألب ارسلان (٤٥٥-٤٦٥هـ / ١٠٦٣-١٠٧٢م)، ففى هذه المعركة تغاضى

الامبراطور البيزنطى عن كل القوانين العسكرية، فلقى هزيمة ضخمة لم يسترد بعدها الجيش عافيته، وتسببت هذه الهزيمة فى عزل الامبراطور وسمل عينيه. كما ترتب عليها وقوع جانب كبير من آسيا الصغرى تحت سيطرة سلاجقة الروم.

وقد حاول الاباطرة الذين خلفوه أن يعيدوا ترتيب هذا الجيش ولكنهم لم يوفقوا إلى حد كبير، حتى اذا تولى الامبراطور مانويل كومنين عرش الامبراطورية أخطأ مرة أخرى فى مواجهة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى حيث لقي هزيمة ثقيلة فى معركة ميريوكفالون Myriocephalon عام ١١٧٦م حيث مزق الجيش البيزنطى ولم تقم له قائمة بعد ذلك. وكان ضعف هذا الجيش سببا فى نجاح قوات الحملة الصليبية الرابعة فى إسقاط الامبراطورية فى عام ١٢٠٤م، وإن عادت هزيلة. مرة أخرى فى عام ١٢٦١م.

ومن قوات الجيش البيزنطى أن الاباطرة كانوا يتخذون من الاجانب حرسا خاصا لهم، وفى الوقت نفسه كان بعض الثائرين مثل برداس فوكاس Bardas Phocas الذى مات فى معركة أبيدوس Abydus فى الثالث عشر من أبريل عام ٩٨٩م، كان له حرسه الخاص من أبناء الكرج (جورجيا حاليا). وفى النصف الأول من القرن الحادى عشر كان لدى الاباطرة ما يعرف باسم الحرس الفارانجى Varangion ، وهذا الاسم هو الذى أطلقه البيزنطيون على المرتزقة من أهل الشمال. وكان هذا الحرس يتكون من عناصر روسيا وتركيا وآلانية وانجليزية وفرنجية والمانية وبلغارية، وكانت هذه العناصر تشترك فى بعض المعارك، ولكنها كثيراً ما كانت تهزم باعتبارها عناصر مدربة على الحراسة أكثر من القتال فى ميدان المعارك.

وواقع الحال أنه بعد هزيمة القوات البيزنطية في معركة منزكرت وتمزق الجيش البيزنطي لم يعد أمام الأباطرة إلا أن يجمعوا بعض القوات من الجنود المرتزقة وبقايا القوات المهزومة حيث لم يعد بالإمبراطورية ألوية للثغور، بالإضافة إلى الحرس الفارانجي. ومن هذه القوات أصبح يوجد بالإمبراطورية قوات للشرق وقوات للغرب يعين على كل منهما قائد أعلى عرف باسم الدوسستيق Domostic وبهذه القوات واجه الإمبراطور الكسيوس الأول كومنين الغزو الروماني من جنوب إيطاليا الذي قاده روبرت جويسكارد Robert Guiscard عندما تقدمت القوات النورمانية في عمق الساحل الارتياتيكي في شبه جزيرة البلقان، حيث انتصر النورمان في معركة دراخيوم Dyrrachiam في عام ١٠٨٥م. وكان في ذلك كارثة على الإمبراطورية لأن أهداف روبرت جويسكارد كانت الوصول إلى العرش البيزنطي، وأن سقوط دراخيوم يفتح الطريق أمامه إلى القسطنطينية. ومن ثقل هذه الهزيمة أن الإمبراطور الكسيوس طلب مساعدة البابا جريجوري السابع Gregory III (١٠٧٣ - ١٠٨٥م)، وهنري الرابع إمبراطور ألمانيا (١٠٥٦ - ١١٠٥م)، والبنادقة، ولم ينقذ الإمبراطورية البيزنطية من هذا الخطر الكبير سوى موت روبرت جويسكارد في العام نفسه.

ومن الواضح أن الإمبراطورية كانت تتعامل مع الشخصيات الأجنبية التي تعين داخل الإمبراطور بمنتهى الحذر. ومن ذلك أن القاعدة التي رسخت في القرن الحادي عشر الميلادي عدم تعيين هؤلاء الأجانب في أية مراكز عسكرية، ولكن هذا المبدأ قد تغير مع مر الزمن، ففي عهد الإمبراطور الكسيوس كومنين كان قائد الرفاق الأعظم يدعى أرجيروس كاراتزس Argyrus Karatzes وهو من عناصر السكيثيون Scyths وهي عناصر غير بيزنطية، ولعل ذلك مرجعه إلى أن هذا القائد كان مخلصا وحكيما ومحبا

للفضيلة وصادقا. أما في عهد الإمبراطور مانويل كومنين (١١٤٣ - ١١٨٠م) فقد أصبح للاتين دورا كبيرا داخل الإمبراطورية، ومرجع ذلك أنه تزوج من ماريا الأنطاكية الصليبية، وسيكون لذلك كله أثرا وخيما على الإمبراطورية في مراحل لاحقه.

وواقع الحال أن الإمبراطورية قد أصبحت تعتمد على الجنود المرتزقة، وهذا يتطلب وجود مبالغ كبيرة في خزانة الدولة، ولكن هذا المال بدأ يفسد بصورة كبيرة في الربع الأخير من القرن الثاني عشر، وعندها هاجم الصليبيون الإمبراطورية في عام ١٢٠٤م لم تتمكن الإمبراطورية من دفع رواتب الجنود المرتزقة فلم يدافعوا عن العاصمة، فسقطت في يد الدوج هنري داندلو Henry Dandolo قائد الحملة.

ومع قيام الإمبراطورية البيزنطية في المنفى واتخاذ مدينة نيقية على الجانب الأسيوي عاصمة لهم، لم يعد بوسع الأباطرة تدبير المال اللازم لجيش كبير، فاعتمدوا على جيش صغير، وعلى وجود بعض قوات الحرس الوطني على الحدود، ومنحهم بعض قطع الأراضي الزراعية الصغيرة للعيش عليها.

وبعد عودة الإمبراطورية البيزنطية من المنفى في عام ١٢٦١م، كانت مشكلة تشكيل جيش قوى من المشاكل الرئيسية التي واجهت أباطرة أسرة آل باليولوجس. فقد كانت هناك مشاكل داخلية ومشاكل خارجية من جنوه والبندقية، والصرب والأتراك العثمانيين. ورأى الإمبراطور أندرونيقوس الثاني Andronicus II (١٢٨٢ - ١٣٢٨م) أن يستعين بالعناصر الألانية القوقازية لوقف الحظر التركي، فكون جيشان من هذه العناصر وولى عليهما ابنه ميخائيل ودفع به في عام ١٣٠٢م لمواجهة الأتراك العثمانيين في آسيا الصغرى، ولكنه لم يوفق وهزم هزيمة ثقيلة - وخشى الإمبراطور من تطور

الموقف لغير صالحه، فاتجه إلى غازان خان المغول في إيران (١٢٩٥ - ١٣٠٤) وزوجة إحدى بناته غير الشرعية، ولكن غازان مات بعد أشهر قليلة، واضطر أندرونيقوس إلى اللجوء إلى المرتزقة.

ولجا هذه المرة إلى فرقة المغاوير الأسبانية، وهي فرقة قد سرحت بعد الحروب الأسبانية وتولى أمرها القائد روجر دي فلور Roger de Flor، وقد تم الاتفاق مع هذه الفرقة على أن تتقاضى ضعف ما يتقاضاه الجنود المرتزقة، وبعض شروط أخرى. وقد نجح الإمبراطور بمساعدتهم في إنزال هزيمة بالاتراك في آسيا الصغرى عند جبال طوروس في عام ١٣٠٥م، ولكنهم تمردوا بعد ذلك وسببوا متاعب كثيرة للإمبراطورية. وبدأ اضمحلال الجيش البيزنطي حتى إذا كان عام ١٤٥٣ لم تجد الإمبراطورية من يدافع عنها إلا القليل، فسقطت في يد الأتراك العثمانيين عام ١٤٥٣م.

وفيما يتعلق بالأسطول فالحقيقة أنه لم ينل الاهتمام الذي ناله الجيش، فقد كان الجيش هو سلاح الخدمة الممتازة داخل الإمبراطورية البيزنطية. وإذا كنا استعرضنا جانباً من الكتب التي ألقت في فن الحرب والقتال للجيش البريه، فعلى الرغم من ذلك لا نجد اهتماماً بوضع كتب عن فنون الحرب البحرية. والمطلع على كتاب الإمبراطور ليو السادس. فنون الحرب، الذي سبقت الإشارة إليه، لا تجد سوى القليل عن الحروب البحرية. كما أن كبير الأمناء بازيل Basil الذي عاش في النصف الثاني من العاشر قد وضع كتاباً في الشؤون البحرية عنوانه Naumazhia ولكنه لم يتداول. أما الإمبراطور قسطنطين السابع (٩٤٤ - ٩٥٩م) فقد وردت له بعض المعلومات العرضية في كتابه "إدارة الإمبراطورية" مثل النار الأخرقية التي اعتبرها من أسرار الإمبراطورية ولا يجوز تقديم معلومات عنها لأحد. وحتى المؤرخه أنا كومنيننا فقد وضعت أمر الجيوش البرية في مرتبه أعلى بكثير عن القوات



البحرية. ولذلك فإن معلوماتنا عن البحرية البيزنطية هي أقل من معلوماتنا حول القوات البرية.

ولعل عدم اهتمام الإمبراطورية بالبحرية في بداية الأمر، أن البحر المتوسط كان بحيرة رومانية ثم بيزنطية، ومعنى ذلك أن الحكومة البيزنطية التي ورثت الإمبراطورية الرومانية كانت تسيطر على البحر المتوسط والأراضي التي تقع على شواطئه وكانت كلها ولايات بيزنطية، فمن هنا لم يك هناك ضرورة إلى وجود أسطول عسكري، واكتفت الإمبراطورية بالأسطول التجاري. ولم يك معرضاً للأخطار الخارجية البحرية سوى مدينة القسطنطينية واكتفت الإمبراطورية بوضع قوات صغيرة لحراستها، خاصة أن العناصر الشمالية لم يك في وسعها أن تقوم بأى عمل بحرى في بدايات عصر الإمبراطورية.

ومع ظهور بعض الأساطيل في البحر المتوسط مثلما فعل الوندال في شمال إفريقيا أصبحت الحالة ملحة على الإمبراطورية لإعداد أسطول لمواجهة خطر الوندال الذين هاجموا روما عام ٤٥٥م. وإذا كان الإمبراطور جسيطيان قد نجح في هزيمة الوندال في شمال إفريقيا فإن ذلك يرجع إلى الخطط العسكرية التي أعدها القائد بلزارىوس Belesarius، وهي الخطة التي تجنب فيها مواجهة الأسطول الوندالى، كما أن الأسطول الوندالى قد أصابه الضعف في تلك المرحلة.

والحقيقة أن الفتوحات الإسلامية هي التي دعت الإمبراطورية البيزنطية إلى الاهتمام بالأسطول، فإن قوة المسلمين البحرية التي بدأت تنمو مع فتوحاتها الإسلامية في الشام ومصر وشمال إفريقيا هل التي دفعت الإمبراطور هرقل إلى إعداد أسطول بيزنطى، يضاف إلى الخطر الإسلامى

أن السفر برا داخل الإمبراطورية قد أصبح صعبا إلى حد ما، فكان اللجوء إلى الطرق البحرية يجعل المواطنين البيزنطيين أكثر أمنا في تحركاتهم ونقل تجارتهم. ولذلك كله أنشأت الإمبراطورية أتوية الثغور، وفي بداية الأمر أنشأ لواء كيبيراياتون Kibyraioton نسبة إلى مدينة كيبيرا Kibyra الواقعة في منتصف الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى، وقد تكفل هذا اللواء الذي تولى أمره قائد برتبة أمير بحر، بحماية الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى وكافة جزر بحر إيجه التي تشكل المدخل الطبيعي إلى بحر مرمرة. وقد نجح الأسطول البيزنطي في صد الأخطار التي واجهت القسطنطينية عندما هاجمها المسلمون في عام ٧١٨م.

ولكن المشكلة جاءت عندما أصبح للقوات البحرية شأنا كبيرا فتدخلت في شئون العرش البيزنطي وخلعت الإمبراطور ليونثوس Leontius ٦٩٥ - ٦٩٨م وعينت مكانه أبيسمار Apismaros المعروف باسم طيبيريوس الثاني (٦٩٨ - ٧٠٥م). كما أن القوات البحرية تدخلت مرة أخرى وعزلت الإمبراطور جسيتيان الثاني في عام ٧١١م. وتصادف زيادة خطورة القوات البحرية مع أضمحلال قوة البحرية الإسلامية بعد نقل العاصمة من دمشق إلى بغداد، فرأى خلفاء الأسرة الأيسورية إلغاء القيادة العليا للأسطول، وإنقاص عدد السفن البحرية لدرجة لم تعد له خطورة على عرش الإمبراطورية.

ومما لا شك فيه أن إنقاص قدر القوات البحرية كان عملا لا يصب في مصلحة الإمبراطورية، فإذا كانت البحرية الإسلامية قد ضعفت في الشرق فقد نمت كثيرا في شمال أفريقيا والأندلس، وترتب على ذلك سقوط كريت في أيدي المسلمين عام ٨٢٥م، وبدأ المسلمون من كريت يهددون سواحل بحر إيجه، أضف إلى ذلك سقوط صقلية في عام ٩٠٥م ومن هنا فكرت الإمبراطورية في إعادة الأسطول إلى سابق عهده وزادت في قدراته البحرية.

وفى أواخر عصر الأسرة العمورية نجد الإمبراطور ميخائيل الثالث وزوجته ثيودورا، ومن بعدهم مؤسس الأسرة المقدونية بازيل الأول ٨٦٧ - ٨٨٦م) يعملون على إعادة تنظيم القوات البحرية وإعادة نظم الألوية البحرية وإضافة لواءات أخرى مثل لواء ساموس Samos نسبة إلى جزيرة تحمل الاسم نفسه تقع بالقرب من الشاطئ الأسيوى قرب الجزء الجنوبى الغربى وشمال جزيرة كريت. وأهم من ذلك كله تقرر وضع أسطول بحرى كبير على مقربة من العاصمة البيزنطية، وتولى أمر الأسطول الأخير أمير البحر Grand Drungarius، وكان يقف على أعلى درجة من سلم الدرجات الوظيفية فى الدولة.

وأثبتت البحرية البيزنطية قدرتها على مواجهة البحرية الإسلامية، ولكنها لم تستطع استرداد جزيرة صقلية من يد المسلمين، وإنما نجحت فى استرداد جنوب إيطاليا من أيديهم، وجاء فى كتاب إدارة الإمبراطورية أنه فى عهد الإمبراطور بازيل الأول (٨٦٧ - ٨٨٦م) جاء المسلمون من إفريقيا فى ست وثلاثين سفينة ووصلوا إلى ساحل دالماشيا واستولوا على مدينة بوتوفا Butova ومدينة روسا Rossa ومدينة ديكاترا Decatera، ثم وصلوا إلى مدينة راجوزه Ragusa وحاصروها طيلة خمسة عشر شهراً، وتحت وطأة هذا الحصار أرسل إليهم الإمبراطور البيزنطى أمير البحر العظيم نيقثاس أوريفاس Nicetas Oryphas على رأس مائة سفينة حربية. وقد نجح هذا الأسطول فى فك الحصار عن مدينة راجوزه واستعادة مدينة بارى Bari فى جنوب إيطاليا بعد قتال استمر من ٨٦٦ - ٨٦٨م.

أما فى بحر إيجه فإن البحرية الإسلامية بقيادة ليو الطرابلس أغارت على مدينة سالونيك عام ٩٠٤م، ولم تتمكن البحرية البيزنطية من مواجهته. وظلت الحرب البحرية سجالات بين القوات البحرية الإسلامية بقيادة ليو

الطرابلسي، والقائد البحري البيزنطي هيمريوس Himerius حتى تمكن الأسطول البيزنطي من هزيمة ليو الطرابلسي في عام ٩٢٤م، واستمر القتال البحري مرة أخرى حول جزيرة كريت من عام ٩٦٠م حيث استعادتها بيزنطة، واستمرت حتى عام ٩٦٨ حتى استعادت البحرية البيزنطية جزيرة قبرص. وفي هذه المرحلة يمكن القول أن البحرية البيزنطية أصبحت لها اليد الطولى على الأسطول الإسلامي لفترة طويلة من الزمن، وحق للإمبراطور نقفور فوكاس أن يقول للسفير الإيطالي ليوتبراند أف كرمونا 'Liutprand of Cremona، "أنا وحدي الذي يملك السيادة على البحر". وقال أو إدعى الإمبراطور قسطنطين السابع حق السيادة على جبل طارق رغم مخالفة ذلك للواقع.

ويمكن القول أن البحرية البيزنطية بلغت ذروتها في تلك المرحلة، وأصبح لأمراء البحر قوة كبيرة داخل الإمبراطورية، فقد نجح أمير البحر رومانوس لسيكابنيوس في الوصول إلى عرش الإمبراطورية عندما تزوج من الإمبراطورة زوى Zoe أرملة الإمبراطور ليو السادس في عام ٩١٩م. ومن هنا تجدد الخوف من السلطة الكبيرة التي يتمتع بها أمراء البحر، وبدأ العمل على تخفيض قدرة القوات البحرية بحجة الاقتصاد في النفقات، وأنه لم يعد في البحر المتوسط أعداء يخشى بأسهم. والباحث في تاريخ البحرية البيزنطية يجد أن الإمبراطور بازيل الثاني قد كلف في عام ٩٩٢م جمهورية البنادقة بحراسة البحر الأدرياتيكي ونقل القوات البيزنطية إذا دعت الحاجة.

وفي محاولة من جانب الإمبراطورية التوفيق بين الخوف على العرش والحاجة إلى القوات البرية والبحرية، قد تدخلت فتوحات سلاجقة الروم في آسيا الصغرى واستولت على أراضي واسعة من أراضي الإمبراطور تكاد تصل إلى نصف مساحة آسيا الصغرى، فأفسد هذا التوسع كل نظم الألوية

البرية والبحرية. وحاول الكسيوس كومنين إعادة تكوين البحرية البيزنطية، وقد نجح في ذلك إلى حد ما مكنه من مقاومة الأسطول الجنيوى والبيزى، ولكن حفيده الإمبراطور مانويل كومنين أفسد كل ما تركه له أسلافه عندما انهزم أسطوله ومن حالفوه من الصليبيين أمام مدينة دمياط فى عام ١١٦٩م، وتلا ذلك بعد سبع سنوات فقط أن الجيش البرى البيزنطى قد لقي هزيمة ثقيلة فى عام ١١٧٦م فى معركة ميريوكيفالون أمام سلاجقة الروم، وبذلك تمزق الجيش البيزنطى كما سبق وأن دُمرت البحرية البيزنطية، حتى إذا كانت سنة ١٢٠٤م لم تجد العاصمة البيزنطية من يدافع عنها أمام قوات الحملة الصليبية الرابعة.

وبعد ما قامت الإمبراطورية البيزنطية فى المنفى واتخذت مدينة نيقية = صمة لها، أهتم الأباطرة بالعمارة البحرية. وعندما عادت الإمبراطورية إلى القسطنطينية مرة أخرى فى عام ١٢٦١م لم يكن لديهم غير أسطول صغير يكفى للدفاع عن أراضى الإمبراطورية فى وضعها الجديد وهى التى كانت تتكون من مدينة القسطنطينية وما حولها، وإمارة سالونيك وإمارة المورة، ورغم الصورة المصغرة للأسطول البيزنطى والقوات المسلحة إلا أن حال البحرية كان أفضل من الجيش، ولكنه كان أضعف من أن يصمد فى وجه الجمهوريات أو القومونات الإيطالية مثل جنوه وبيزه والبندقية. ومن تبقى من القوات البرية والسفن البيزنطية لم تصمد فى القتال الذى قام به الاتراك العثمانيين فى الحصار النهائى للقسطنطينية عام ١٤٥٣م.

أما عن أنواع السفن التى استخدمتها البحرية البيزنطية، فمن المعروف لدينا أهم أربعة أنواع رئيسة هى:

١- **الدرمونه: Dromond**، أو العداة، وهي سفينة ثنائية أي أنها تعمل بصفين من المجاديف، ويعمل عليها من مائتين إلى ثلاثمائة رجل، ويبدو أنها كانت من السفن سريعة الحركة. وقد قدم لنا ليو السادس في كتابه فن الحرب والقتال *Tactica* جانبا طيبا عن وصف هذه السفينة وكيفية القتال عليها.

٢- **البامفلية: Biremes** وهي من طراز يختلف عن الدرمنه، وهي ثنائية أيضا، وأسرع حركة كذلك. وكان أمير البحر البيزنطي يتولى أمر قيادة الأسطول من على مثل هذه السفينية، وبذلك عرفت بإسم سفينة العلم.

٣- **الشانیه: Galley**، وتعرف أيضا بأسم الغليون، وهي سفينة حربية كبيرة ومن أهم قطع الأسطول، وكان عليها صفوف من المجاديف، وتقام عليها الابراج للدفاع والهجوم.

٤- **الأشكيف: Skiff** وهي نوع من الزوارق الصغيرة، ويبدو أنها كانت تعمل بين السفن وبعضها البعض لنقل المواد في الموانئ، أو حالة رسو السفن البحرية في ميناء الأعداء.

وبالإضافة إلى هذه الأنواع من السفن فكثيرا ما لجأت الإمبراطورية إلى استخدام السفن التجارية كما حدث في عام ٩٤١م عندما أغار الروس على الإمبراطورية، وربما يرجع ذلك إلى عدم وجود السفن الحربية الكافية، أو أن الأسطول كان مشغولا بالقتال في مكان آخر.

وكانت السفن تسليح بوسائل عدة، ولعل أهمها النار الأخرقية، ولعل خير ما قدم معلومات عنها الإمبراطور قسطنطين السابع ٩٤٤ - ٩٠٩م، في كتابه إدارة الإمبراطورية الذي قدم فيه وصايا لابنه، ومن ضمن هذه الوصايا

ما ذكره عن النار الإغريقية، وجاء فيها "ويجب عليك أيضاً يا بنى أن توجه اهتمامك وتفكيرك إلى موضوع النار السائلة [النار الإغريقية] التى توضع داخل القوارير. وإذا ما طلبها أحد كما تُطلب منا كثيراً الآن فما عليك إلا الرفض والرد عليه ببعض العبارات منها: أن النار السائلة تعلمها واكتشفها الإمبراطور قسطنطين الكبير من الرب عن طريق الملاك، وقد أخذ الله منه هذا العهد عن طريق هذا الملاك، كما أكد لنا أبائنا وأجدادنا اللذين نثق بهم. وأن هذه النار لا تصنع إلا بمعرفة المسيحيين وفى المدينة التى يحكمونها، ويجب ألا ترسل أو تعرف طريقها إلى أى بلد آخر أياً كان. ولكى يتأكد الإمبراطور قسطنطين أن خلفاءه سيحترمون هذا العهد، فقد أعلن بأن اللعنات ستحل بمن يتجزأ ويعطى هذه النار إلى دولة أخرى، ويطرد من رحمة الكنيسة ولا يسمى مسيحياً، ولا يقبل فى أى وظيفة أو عمل، وإذا كان يشغل وظيفة ما يجب طرده منها، ويوصم باللعنة..." والحقيقة أن الذى اخترع النار الإغريقية شاب من مدينة بعلبك فى لبنان الآن يدعى كالينيكوس Callinicus حوالى عام ٦٧٣م، وكان الإمبراطور قسطنطين السابع يعلم ذلك جيداً ولكن ما ذكره لابنه هو وضع الأمور فى موضع الأسطورة التى تخيف الناس.

وواقع الحال أن المدن البحرية الكبرى فى الإمبراطورية كانت مخازنها تحتوى على هذه المادة. ويذكر لنا المؤرخ ثيوفانيس فى أحداث عام ٨١٢ - ٨١٣م أى فى عهد الإمبراطور ميخائيل الأول (٨١١ - ٨١٣م) أن خان البلغار كروم Krum استولى على مدينه مسمبريا Mesembria الواقعة على البحر الأسود، وأن القوات البلغارية استولت على ستة وثلاثين قاذف لهب، وكمية غير قليلة من النار السائلة (النار الإغريقية)، وكمية كبيرة من الذهب والفضه. وكان فى ذلك كارثة عظيمة على بيزنطة ليس بسبب الذهب والفضه، ولكن خشية اكتشاف سر النار الإغريقية.

أما فيما يتعلق بفنون الحروب البحرية فيقول ليو السادس في كتابه فن الحرب، يجب على القيادة البحرية تجنب المعارك الفاصلة إلا إذا كان أسطول العدو في وضع سيء، وأن عليها اتخاذ الحذر في كافة العمليات الحربية، مع استخدام المناوشات كلما أمكن. وكان يفضل أن تقاتل القوات البحرية في تشكيلة هلالية أي وضع السفن البيزنطية في شكل قوس. ويجب تدريب البحارة على إعطاء الإشارات التي كانت تتم بالأعلام أو استخدام النار ليلاً. وعلى القيادة البحرية أن تكون على معرفة تامة بالرياح واتجاهها والنوبات البحرية ومواعيدها، وكذلك التيارات المائية. وعلى القيادة أن تتجنب السواحل الوعرة. وليس لدينا بعد ما ذكره ليو السادس، أي بحث أو عمل أو كتاب فني يدرس بدقة العمليات البحرية. وإذا كانت الإمبراطورية البيزنطية قد ورثت مجد روما، فإنهم ورثوه ليتغنوا به وقرأوه دون تحمس، وأنهم فضلوا أساليب الحرب البرية عن الحروب البحرية.

والحقيقة أن الحديث والبحث في العمليات البرية والبحرية البيزنطية يحتاج إلى مجلدات، ولكن الباحث سوف يكتفي أن يقدم على هذه الصفحات إحدى المعارك البحرية، وهي الحملة على دمياط في عام ١١٦٩م، التي تولى أمرها ضد القوات البيزنطية والصليبية صلاح الدين الأيوبي، ومعاركة أخرى هي معركة ميريوكيفالون في عام ١١٧٦م التي تولى أمرها سلاجقة الروم في آسيا الصغرى بقيادة السلطان قلع أرسلان الثاني (١١٥٦ - ١١٨٨م). ويلاحظ أن الفرق بين المعركتين حوالي تسع سنوات، ويستطيع المطلع بعد ذلك أن يرى بنفسه إلى أي مدى أصبحت القوة البيزنطية البحرية والبرية في تلك المرحلة. وسوف أتناول المعركتين مباشرة دون الدخول في مقدمات.

وفيما يتعلق بالحملة البيزنطية الصليبية على دمياط. فقد كان الملك الصليبي عموري الأول Amalric I (١١٦٢ - ١١٧٣م) يفكر في غزو



مصر، وحاول البحث عن حلفاء في أوروبا ولكنه فشل فاتجه إلى الإمبراطورية البيزنطية التي وافقت على الفكرة وذكر مؤرخوها أن مصر كانت تابعة للإمبراطورية الرومانية ويجب أن تعود إليها مرة أخرى واستعدت الحملة البيزنطية. وتولى قيادة الأسطول البيزنطي أندرونيكوس كونتوستفانوس Andronicus Contostephanus. ويعاونه في هذه المهمة مايورك Maurice الذي كان يتمتع بالثقة الكبيرة لدى الإمبراطور، والكسندر أف كونفرسانا Alexandre of Gonversana أحد نبلاء أبوليا - نظراً لإخلاصه وولائه للإمبراطورية. وخرج الأسطول في الخامس عشر من يوليو عام ١١٦٩م/ الثامن عشر من ذي القعدة عام ٥٦٤هـ من مياه الدردنيل واتجه إلى قبرص فوجد في طريقه سفينتين مصريتين فأسرهما. ولعل ما قام الأسطول البيزنطي كان انتقاماً من مهاجمة بعض السفن المصرية لجزيرة قبرص عام ١١٥٨م. وعندما وصل الأسطول البيزنطي إلى جزيرة قبرص أرسل قائده حوالي عشرة سفن إلى عكا تحمل الأموال المتفق عليها اللازمة للصرف على القوات الصليبية، ولتحمل أيضاً إلى الملك عمورى خبر تجمع الأسطول في قبرص وأنها على استعداد للاقلاع إلى مصر عندما يكون عمورى وقواته مستعدين للرحيل. وظل الأسطول البيزنطي في قبرص حتى شهر سبتمبر دون أن يصل ما يفيد باستكمال استعداد القوات الصليبية للرحيل.

وعلى ما يبدو أن الملك عمورى كان يحتاج لبعض الوقت لإعداد القوات وتنظيم شئون دولته أثناء غيابه في مصر، وكان عليه أن يعد بعض القوات لحماية المملكة فترة تواجده خارج البلاد، وهذا يدل على أن الإمبراطور كان أكثر استعداداً وتحمسا لغزو مصر. ففي إعداد الأسطول في وقت مبكر ويمثل هذه الأعداد التي تفوق الأعداد المتفق عليها لخبر دليل على ذلك. ولعل الملك عمورى عندما شاهد ذلك خشى من التفوق الحربي البيزنطي

في غزو مصر والإنفراد بها مما دفعه إلى التردد بعض الوقت في الانضمام إلى الحملة، وعلى أية حال فإن سقوط مصر في أيدي البيزنطيين لا يهدد أمن الإمارات الصليبية بالقدر الذي تهدد به القوات الإسلامية التي أصبحت تسيطر على مصر والشام في ذلك الوقت. والواضح أن الملك عموري رأى الانضمام للحملة البحرية البيزنطية حتى لا تبقى مصر في أيدي حكام الشام المسلمين، أو تقع في أيدي القوات البيزنطية إذا رأت الإنفراد بالحملة ومهاجمة مصر.

استعدت القوات الصليبية وأرسل عموري في طلب الأسطول البيزنطي من قبرص، وأعطى أوامره لجميع القوات بالتجمع في عسقلان في الخامس عشر من أكتوبر عام ١١٦٩م/ آخر المحرم ٥٦٦هـ، ثم ما لبث أن وصل الأسطول البيزنطي إلى مدينة صور ثم تقدم إلى مدينة عكا ومنها إلى عسقلان. وكانت وجهة الحملة مدينة دمياط "ليتمكن القاصد لها من البر والبحر"، فإن ملكوها "يتخذونها ظهيرا يملكون به الديار المصرية". إذا كانت أطماع الصليبيين في مصر باتت واضحة، فلعل الإمبراطورية البيزنطية كانت ترمى أيضا من وراء السيطرة على مصر في هذا الوقت بالذات هو ضرب تجارة البنادق نظرا للصراع الدائر بينهما في ذلك الحين.

سار الجيش الصليبي من عسقلان في السادس عشر من أكتوبر/ أول صفر أي في اليوم التالي لتجمع القوات في عسقلان واتخذت طريقها إلى مصر، وقد وصلت إلى مدينة الفرما - التي كانت خربة في ذلك الوقت - بعد تسعة أيام، وحاولوا السير بمحاذاة الشاطئ ولكنهم اضطروا للابتعاد عن الطريق الساحلي لكثرة المياه التي تغمر هذه المنطقة واضطروا إلى الدوران حول المستنقعات ثم عادوا إلى الطريق الساحلي حتى وصلوا إلى بوغاز بحيرة تيس (المنزلة حاليا). وقد ساعدت بعض قطع الأسطول البيزنطي التي كانت تسير بحذاء الشاطئ على نقلهم إلى الجهة المقابلة ثم وصلوا مسيرتهم

حتى وصلوا إلى شمالي دمياط في السابع والعشرين من أكتوبر/ الثالث من صفر وعسكرت في المنطقة الواقعة بين البحر والمدينة. وظلت في انتظار تجمع الأسطول البيزنطي التي تباعدت معظم قطعه بسبب شدة الرياح وهياج البحر. ولكن هذا الانتظار لم يدم طويلاً فقد تجمعت السفن بعد ثلاثة أيام بعد هدوء الأمواج ودخلت فم النيل، ورسّت مقابل القوات الصليبية ولم تتمكن من السير في النيل بعد ذلك بسبب وجود السلسلة التي تمتد من دمياط إلى برج السلسلة.

وكان صلاح الدين الأيوبي قد خلف شيركوه في حكم مصر، ولما علم بأخبار هذه الحملة فقام بتحسين بلبس والإسكندرية والقاهرة ظناً منه أن الحملة ستسلك إحدى الطرق التي سلكتها في الحملات السابقة، وبقي صلاح الدين بالقاهرة خشيّة قيام مؤامرة شيعية ضده. ولما علم بوصول القوات المتحالفة عند دمياط أرسل إليها الرجال والسلاح بقيادة أخيه تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين. كما أرسل عدداً كبيراً من السفن اتخذت طريقها إلى الشمال في فرع دمياط لنجدة المدينة، وفي الوقت نفسه أرسل إلى نور الدين في دمشق يخبره بما حدث "ويشكو المخافة من تواجد الفرنج في دمياط" ويقول "أني أن تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج، وأن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها وأموالها بالشر، وخرجوا عن طاعتي وساروا في إثري، والفرنج من أمامي. فلا يبقى لنا بقية" فسير إليه نور الدين العساكر تبعاً كما قام بالاغارة على ممتلكات الصليبيين في الشام كعادته عندما تتعرض مصر للتهديد الصليبي.

وفي الوقت نفسه تشجعت القوات الصليبية بعدما وصل الأسطول البيزنطي وبدأت في إقامة معسكرها في الحدائق المنتشرة بين البحر والمدينة، وكان لهذا التأخير نتائج سيئة على الحملة ستظهر آثارها فيما بعد، لأن المدينة

قد امتلأت بالرجال وأبطال الفرسان والميرة وآلات الحرب، وبذلك ضاع أمل الصليبيين والبيزنطيين فى الاستيلاء على دمياط بسهولة، وكان عليهم بذل جهداً كبيراً حتى يتمكنوا من اقتحام المدينة. لذلك قاموا بأعداد برج خشبى ضخام مكون من سبعة طوابق حتى يتمكنوا من رؤية ما يجرى داخل المدينة من أعلاه. وأثناء العمل فى تشييد هذا البرج كانت المنجانيقات تضرب المدينة لتحمى العمال الذين يقومون بصنع البرج. ورغم ذلك كله فقد صبر أهل دمياط رغم كثرة القوات المتحالفة وشدة القتال. وعلى ما يبدو أن الصليبيين لم يتمكنوا من إنزال الضرر بالمدينة تمهيداً لاقتحامها. لذلك فكروا فى حيلة أخرى ليصلوا إلى قلب دمياط، وحاولوا إقامة بعض السراييب ليصلوا إلى المدينة من تحت الأسوار والواضح أن فكرة حفر السرايب قد باءت بالفشل نظراً لوجود المياه فى الخنادق التى تفصل بين الأسوار وتحيط بالمدينة، أو أن قذائف المدافع عن المدينة قد حالت دون ذلك.

عاد الصليبيون إلى استعمال البرج الخشبى مرة أخرى وضرب المدينة بالمنجانيقات، وقد تسبب ذلك فى هدم جزء من سور المدينة والمنازل المجاورة له، ورغم اشتداد هجمات القوات المتحالفة على دمياط إلا أن أهل المدينة ظلوا ثابتين على قتال المهاجمين، وعلى ما يبدو أن ما تهدم من السور كان جزءاً بسيطاً، وفى مكان مرتفع لا يسمح بدخول الصليبيين إلى المدينة.

ويروى المؤرخ وليم الصورى أن القوات الإسلامية لم تقف مكتوفة الأيدي إزاء محاولات القوات المتحالفة اقتحام المدينة، فقاموا بتشيد برج متحرك مماثل للبرج الصليبي وشحنوه بالمقاتلة لمقاومة الجهود الصليبية البيزنطية بالفكرة نفسها، وقد ردوا على اعتداءات المهاجمين بالعنف نفسه. ويضيف نفس المؤرخ مشيداً بالجهود الضخمة والمهارة الفائقة التى أبدتها المسلمون فى الدفاع عن مدينتهم وأنهم تفوقوا على القوات المتحالفة التى

سعرت بهذا التفوق في الوقت الذي انهارت فيه الروح المعنوية للمتحالفين وأصبحوا لا يلتزمون بجدية القتال. وليس ذلك فحسب فقد أصيبت القيادة المتحالفة بالارتباك؛ والدليل على ذلك أن القوات المتحالفة أعدت بعض الأبراج الخشبية المتحركة ليقاتلوا بها القوات الإسلامية التي تتمركز في أبراج المدينة، ولكن القوات المتحالفة قامت بمهاجمة النقط الحصينة في المدينة رغم وجود بعض الأماكن الضعيفة التي لم تكن محمية بما فيه الكفاية بالقوات الإسلامية وكان يمكن السيطرة عليها بسهولة، وبذلك لم تتمكن القوات المتحالفة من إنزال أي ضرر سوى هدم كنيسة السيدة العذراء التي كانت ملاصقة للسور.

وإذا كان ذلك هو الحال مع القوات البرية فإن الأسطول البيزنطي لم يتمكن من الدخول في فرع دمياط بقدر يسمح له بمهاجمة المدنية، وبذلك أصبح عاجزاً عن تقديم المساعدة العسكرية التي كانت متوقعة، وليس ذلك فحسب فإن القوات البحرية البيزنطية كانت تحمل معها المؤن التي تكفيها لمدة ثلاثة أشهر منذ إبحارها من مياه الدردنيل في منتصف يوليو عام ١١٦٩م ولم يكن بوسع جزيرة قبرص أن تمد القوات البيزنطية بالأقوات اللازمة بعد التخريب الذي لحق بها من جراء غارات رينو أف شاتيون Renault of Chatillion (أرناط) وما لحق بها من زلزال بعد ذلك في عام ١١٥٨م. كما أنها لم تستطع الحصول على المؤن اللازمة من مدينة عكا وبذلك كانت المؤن البيزنطية قد أوشكت على الانتهاء فور إبحارها من عسقلان في منتصف أكتوبر عام ١١٦٩م، لذلك بدأت القوات البيزنطية تعاني من نقص الأقوات فور وصولها إلى دمياط ثم ما لبثت أن نفذت الأقوات تماماً، ولم تجد القوات البيزنطية ما تقف به سوى ثمار النخيل التي حصلوا عليها من البساتين المجاورة للمدينة، ولكن هذه الثمار قد نفذت هي الأخرى بعد ثلاثة أيام،

وكادت القوات البيزنطية تهلك جوعاً واضطرت لأكل الأعشاب. وهكذا انشغل البيزنطيون بأمر الطعام لا بأمر الحرب. وفي الوقت الذي كانت فيه القوات البيزنطية تموت جوعاً، كانت القوات الصليبية تحتفظ بكمية وفيرة من الطعام ولكنها ضنت بها على القوات البيزنطية، لأن الصليبيين كانوا يخشون من طول فترة القتال فيتعرضون للمجاعة بعد ذلك.

بدأ شبح الهزيمة يحوم حول القوات المتحالفة بعد هذه المجاعة ولا شك أن تصرف الصليبيين إزاء حلفائهم البيزنطيين وعدم إمدادهم بالأقوات قد بذر بذور الشقاق بين القوات المتحالفة. كما بدأت ملامح النصر تبشر القوات الإسلامية وذلك بفضل الإمدادات التي كان يرسلها صلاح الدين بصورة متلاحقة إلى دمياط. وزاد اقتراب المسلمين من النصر كارثة أخرى تعرضت لها القوات المتحالفة التي تعسكر بين المدينة والساحل، فقد هبت عاصفة شديدة مصحوبة بسقوط كمية كبيرة من الأمطار أدت إلى إغراق خيام القوات المتحالفة وسببت لهم خسائر جسيمة في المعدات واضطروا لحفر الخنادق حول خيامهم لتجنب المياه، ومن الواضح أن حفر الخنادق حول الخيام قد أدى إلى انعزال القوات عن بعضها. كما أن حفر الخنادق حول الخيام يؤثر إلى حد كبير في كفاءة القوات القتالية ويعوق من حركتها مما يسهل مهمة القوات الإسلامية في إنزال الهزيمة بالمعتدين.

وفي وسط هذه الكوارث التي لاحقت القوات المتحالفة لاحت للمسلمين فكرة استغلال الرياح الجنوبية التي هبت على منطقة دمياط في ذلك الوقت. فأحضر المسلمون قاربا وشحنوه بالأخشاب والقطران وبعض المواد الأخرى القابلة للاشتعال وأضرموا فيها النار وساعدت الرياح الجنوبية على دفع القارب المشتعل في اتجاه السفن البيزنطية المكدسة في النيل شمالي دمياط، وبينما كان القارب يسير ملتعباً على ظهر النيل في طريقه إلى السفن البيزنطية

دب الذعر فى القوات المتحالفة بعامّة وفى البحارة البيزنطيين بخاصة لا سيما أن البحارة كانوا داخل معسكراتهم شمالى دمياط، وعلى ما يبدو أن الوقت كان ليلا بدليل ما قام به الملك عمورى عندما علم بأمر القارب بدور ملحوظ فى ايقاظ البحارة الذين حاولوا بكل الطرق الحد من الكارثة المقبلة، ولكنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى سفنهم الا بعد ما اصطدم القارب بالسفن البيزنطية وأحرقت منها ست شوانى وأتت عليها تماما. وأخيرا نجح البحارة البيزنطيون فى فصل السفن عن بعضها لانقاذ البقية الباقية.

وبعدما لاحظ المسلمون الحالة السيئة التى تعاني منها القوات المتحالفة بسبب المجاعة والأضرار التى لحقت بهم بعد ما اجتاحت السيول معسكراتهم يضاف إلى ذلك إحراق المسلمين لبعض السفن البيزنطية تشجعت القوات الإسلامية وشعرت بالثقة، وتحولت للهجوم على معسكرات القوات المتحالفة ونقلوا ميدان المعركة خارج مدينة دمياط، وتمكنوا من شن الهجوم على المعسكر البيزنطى. فقد نجح المسلمون فى التسلل عبر بعض الفتحات السرية فى سور المدينة وقاموا بهجوم مفاجئ على القوات البيزنطية التى انهارت قواها بسبب المجاعة ولم يعد لديها القدرة على الحرب، وحاول القائد البيزنطى أندرونيكوس كونتوستفانوس الدفاع عن المعسكر وأبدى شجاعة ملحوظة فى دفع القوات الإسلامية. ولكن الواضح لنا أن القوات الإسلامية قد نجحت فى إنزال الخسائر بالقوات البيزنطية، وفى الوقت نفسه صممت المصادر التى تحت أيدينا عن موقف القوات الصليبية من الهجوم على إخوانهم البيزنطيين مما يدفعنا إلى القول أن القوات الصليبية تراخت فى الدفاع عن المعسكر البيزنطى.

وبعد هذه المعركة بدأت الشائعات تتردد داخل خيام القوات المتحالفة، ولعل هذه الشائعات كانت بسبب سوء نية القوات المتحالفة وخوف كل فريق

من الآخر من أن يستأثر بمدينة دمياط لنفسه عند سقوطها، كما بدأت القوات المتحالفة تشعر بضرورة العودة إلى أوطانها حتى لا يهلكون جوعاً أو بحد السيف في أرض مصر، لذلك بدأ التفكير في عقد الهدنة مع المسلمين للانسحاب إلى بلادهم، خاصة وأن نور الدين قد ألهب بلاد الصليبيين بالغارات. ويفهم من رواية وليم الصوري أن القادة الصليبيين والبيزنطيين اشتركوا في وضع شروط الهدنة وتنفيذ بنودها. فقد روى أن بعض القادة الصليبيين هم الذين تولوا عقد الهدنة مع بعض القادة المسلمين وأن أحد القادة البيزنطيين يدعى جيفيلينو Jovelino هو الذي تولى تنفيذ شروط الاتفاق بكل دقة. ويتضح من ذلك أن الصليبيين هم الذين شرعوا أولاً قبل البيزنطيين في عقد الهدنة مع المسلمين. ولا يعنى ذلك أن البيزنطيين لم يكونوا راغبين في الاتفاق على الانسحاب من مصر بدليل قيام أحد القادة البيزنطيين بتنفيذ شروط الهدنة، كما وأن حالة القوات البيزنطية عند دمياط كانت تشير إلى سوء حالتهم وأن الأفضل لهم العودة إلى أوطانهم بأسرع وقت.

وإذا قمنا بتحليل العوامل التي أدت إلى هزيمة الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط نرى أن بعضها يرجع إلى الجانب البيزنطي وبعضها الآخر إلى الجانب الصليبي وأخيراً كانت هناك أسباب ترجع إلى الجانب الإسلامي. وفيما يتعلق بالجانب البيزنطي نرى أن القائد البيزنطي أندرونيكوس قائداً برياً، وليس قائداً بحرياً لذلك لم يستخدم الأسطول البيزنطي استخداماً عسكرياً في الهجوم على مدينة دمياط، وأن الدور الذي قام به الأسطول اقتصر على نقل القوات حتى ساحل دمياط، ومما يدل على ضعف بصيرة القائد البيزنطي هو ترك السفن البيزنطية متلاصقة في النيل مما سهل مهمة القوات الإسلامية في إحراق عدد منها. كما أن القيادة البيزنطية كانت متراخية ومتساهلة في إصدار التعليمات العسكرية التي تكفل أمن سفنها حتى



ترك البحارة البيزنطيين يبيتون خارج سفنهم أثناء العمليات العسكرية. ومن الأسباب التي تتعلق بالجانب البيزنطي أيضاً انتشار المجاعة بين القوات البيزنطية، ويروى وليم الصوري في هذا الصدد أن الإمبراطور وعد بارسال الأموال اللازمة ولكنه لم ينفذ وعده، ولذلك قاسى الجيش البيزنطي من المجاعة، وفي تصوري أن عدم ارسال الإمبراطور مانويل للأموال ليس بالسبب الذي يؤدي إلى المجاعة، لأنه لو جاءت الأموال للحملة وهي عند سواحل مصر فإن هذه الأموال ستصبح عديمة الفائدة لأن أهل مصر ربما لا يبيعون الأقوات للحملة، والسبب الرئيسي في هذه المجاعة يرجع إلى قائد الأسطول البيزنطي لأنه أبحر إلى دمياط ومؤنه على وشك النفاذ. وربما يرد على ذلك بأن الملك عموري لم يكن مستعد للبحار فور استعداد الأسطول البيزنطي وأنه السبب في تأخير رحيل الحملة حتى نفذت الأقوات، وهنا يمكن القول أن قائد كل قطاع مسئول عن قطاعه وأعلم بثنونه، وأن القائد البيزنطي كان عليه تدارك الأمر قبل قوات الأوان إلا إذا كان القائد البيزنطي كان يرى أنه سيستولى على دمياط بين يوم وليلة وفي هذا خطأ آخر يرجع إلى غروره وقلة بصيرته.

أما عن الأسباب الخاصة بالجانب الصليبي فيمكن ارجاعها إلى الملك عموري، لأن القوات الصليبية أخرت الهجوم على المدينة لمدة ثلاثة أيام حتى يصل الأسطول البيزنطي. وربما يكون للقيادة الصليبية عذرها إذا كانت قواتها قليلة العدد، ولكنه إذا كان حجم القوات البيزنطية قد وصل إلى حوالي خمسة وعشرين ألف فالأرجح أن تكون القوات الصليبية بالعدد نفسه استناداً إلى الاتفاق الخاص بغزو مصر الذي يقضى باقتسام مصر بين البيزنطيين والصليبيين. والمهم أن تأخير الهجوم على المدينة قد أعطى الفرصة للمسلمين لتحصين المدينة وإمدادها بالرجال والسلاح لمقاومة القوات المتحالفة. وعامل

ثان تقع مسؤوليته على الجانب الصليبي، وهو أنانية القوات الصليبية التي ضنت على القوات البيزنطية بالأقوات وهي تراها تهلك جوعاً، وإن كان عذر الصليبيين في ذلك هو الخوف من مجاعة تلحق بقواتهم فيما بعد فانهم بهذا العمل قد منعوا القوات البيزنطية من التعامل عسكرياً مع المسلمين وأصبحت القوى البيزنطية عديمة الفائدة بعدما خارت قواها. وعامل ثالث يعزى إلى القيادة الصليبية وهو أنه عندما نقل المسلمون ميدان المعركة خارج مدينة دمياط وانقضوا على المعسكر البيزنطي المنهار من جراء المجاعة نرى القوات الصليبية تتف موقف المتفرج ولا تدافع عن القوات البيزنطية.

وبعدما قمنا بتحليل مسؤولية الجانب البيزنطي والجانب الصليبي كل على حده، نرى أن بعض جوانب فشل الحملة يرجع إلى الجانبين معاً. وأول هذه الأسباب يرجع إلى اختيار الوقت الذي قدمت فيه الحملة إلى مصر وهو فصل الشتاء وكان من نتيجة ذلك تعرض الحملة للعواصف والسيول التي أغرقت معسكرات القوات المتحالفة وأثرت على كفاءتها القتالية. والسبب الثاني يرجع إلى اختيار المكان الذي عسكرت فيه القوات المتحالفة وهي المنطقة التي تمتد من دمياط شمالاً حتى البحر وقد قدرها المؤرخ وليم الصوري بحوالي ميل واحد، وتمتد بطول الساحل، فإن هذه المنطقة لا تكفي لاستيعاب قوات الحملة التي بلغ عددها ما يقرب من خمسين ألفاً إلا إذا حشرت فيها وبذلك تصبح صيدا سهلاً لقذائف المسلمين، وإذا انتشرت شرقاً على طول الساحل فإن الجزء المواجه للمدينة من القوات المتحالفة لا يكفي لاسقاط المدينة. وإذا كان السبب الأول يتعلق بالزمان والسبب الثاني يتعلق بالمكان فإن السبب الثالث يختص بعدم وجود قيادة موحدة للحملة، ومثال ذلك ما نراه من الخلل الذي أصاب عمليات الهجوم على المدينة ومن وجود بعض الأقوات عند الصليبيين ولا تراها عند البيزنطيين وعدم مساندة الصليبيين

للبيزنطيين عندما شن المسلمون الهجوم على المعسكر البيزنطي. ولا شك أن عدم وجود قيادة موحدة تتولى قيادة الحملة قد أدى إلى سوء التفاهم بين الجانبين وعمل على نشر الشائعات داخل معسكراتهم واتهام كل جانب منهم الجانب الآخر بأنه السبب في فشل الحملة، ويروى ميخائيل السرياني أن البيزنطيين حاولوا خداع الصليبيين للاستيلاء على دمياط لصالحهم.

أما عن الأسباب التي أدت إلى فشل الحملة وتتعلق بالجانب الإسلامي، فأول ما يطالعنا منها هو صمود شعب مدينة دمياط في وجه المعتدين، خاصة وأن المدينة لم تكن محصنة بما فيه الكفاية لمواجهة مثل هذه الاعتداءات. والسبب الثاني يرجع إلى سرعة ارسال صلاح الدين للقوات والمؤمن والسلاح للدفاع عن المدينة وفي مقدمتهم ابن أخيه تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين بالإضافة إلى مجموعة من الأعيان، ولا شك أن وصول مثل هذه الشخصيات إلى دمياط قد رفع من الروح المعنوية لأهل المدينة. ثالثاً، اتحاد القوات الإسلامية في مصر والشام بهدف دفع المعتدين - بصورة خالصة النية لم تكن مألوفة بين مصر والشام في هذا الوقت، وهي نقطة في غاية الأهمية وسيكون لها أثرها البعيد في منطقة الشرق الأدنى بأكملها. رابعاً، القدرة العسكرية للقوات الإسلامية وحسن بصيرتها ومن ذلك أن القوات الإسلامية عندما فكرت في مهاجمة معسكرات القوات المتحالفة لم تقم بمهاجمة معسكرات الصليبيين بل قامت بمهاجمة المعسكرات البيزنطية حيث تهلك القوات البيزنطية جوعاً، لذلك كانت غارات المسلمين مؤثرة وفعالة. وأخيراً فقد كان لموقف نور الدين الذي قام بارسال القوات تبعاً إلى مصر وقيامه كعادته بالضغط على الصليبيين بالشام، ومهاجمة أملاكهم الأمر الذي ساعد على إنهاء العمليات العسكرية في مصر والعودة إلى بلادهم. وفي ختام هذا التحليل نوضح سرعة وحسن تصرف القوات الإسلامية وابتكار أساليب جديدة

فى فنون الحرب، وذلك عندما استغل المسلمون ظاهرة هبوب الرياح الجنوبية ليشعلوا قارباً إسلامياً لتدفعه هذه الرياح إلى السفن البيزنطية فتتزل بها أفدح الخسائر.

وبكل هذه الأسباب مجتمعة فشلت الحملة وعقدت الهدنة بين الطرفين، وبعد ما عقدت الهدنة سمح المسلمون للقوات البيزنطية والصليبية بالانتقال بين المعسكر ومدينة دمياط وكان المسلمون فى غاية الكرم فاقاموا الأسواق لأعدائهم ليحصلوا على ما يحتاجون إليه من الأقوات، وقد ظلت الأسواق لمدة ثلاثة أيام استعدت خلالها القوات المتحالفة للرحيل، بعدما أحرقت ما ثقل عليها حملة من المنجانيقات وغيرها، واتخذت طريقها إلى بلادها فى الخامس والعشرين من ربيع الأول عام ٥٦٥هـ/ السابع عشر من ديسمبر عام ١١٦٩م أى بعد حوالى خمسون يوماً من القتال. واتخذت القوات الصليبية طريقها براً إلى الأراضى المقدسة، أما السفن البيزنطية فقد أبحرت من دمياط ولكنها تعرضت لعاصفة عنيفة أغرقت معظمها وقذفت الأمواج بجثث البيزنطيين إلى الساحل الشامى وظلت البقية الباقية تحت رحمة الأمواج التى دفعت بعضها إلى سواحل قيليقية ومنها سفينة القائد البيزنطى أندرونيكوس الذى اتخذ طريقه براً من قيليقية حتى القسطنطينية.

أما فيما يتعلق بمعركة ميريوكيفالون وهى من المعارك البرية الهامة فى التاريخ البيزنطى فقد كان الصراع بين سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ضد الإمبراطورية لم يتوقف إلا قليلاً، فكان سلاجقة الروم يرون دفع البيزنطيين عن آسيا الصغرى بأكملها وأن يكون البحر فاصلاً بينهما. وكان هناك معارك كثيرة أذكر منها معركة ميريوكيفالون التى دارت أحداثها فى عام ١١٧٦م عند قلعة خربه تحمل هذا الاسم فى وسط ممرات وعرة كان لها أثرها الكبير على هذه المعركة.

والمهم هنا أنه في صيف عام ١١٧٦م/ أواخر عام ٥٧١هـ بدأت القوات البيزنطية تستعد لمهاجمة السلاجقة وقام الإمبراطور مانويل بتقسيم قواته إلى قسمين، القسم الأول منها لمهاجمة السلاجقة من الشمال وتولى قيادته أندرونيكوس فاتازس Andronicus Vatases ابن عم الإمبراطور ومعه ذو النون حاكم سيواس الذي طرده قلع أرسلان، وبلغ تعداد ما تحت أيديهما من قوات ما يقرب من خمسين ألفاً تحسب رواية ميخائيل السرياني. وكانت وجهتها مدينة نيكسار التي كانت داخلة تحت حكم ذي النون من قبل وذلك لوجود بعض الموالين لآل دانشمند في هذه المدينة. اتجه فاتازس وذو النون والقوات البيزنطية - التي كانت معظمها قد جمع من إقليم بفلاجونيا - إلى الشمال وتمكنت القوات البيزنطية من حصار مدينة نيكسار. وعلى ما يبدو أن الحصار كان شديداً على المدينة لضخامة القوات البيزنطية وقربها من إقليم بفلاجونيا البيزنطي الذي أمدّها بالرجال والسلاح، لذلك لجأ السلاجقة إلى الحيل لضرب القوات البيزنطية. وتنفيذاً لذلك قام حاكم المدينة الذي أطلق عليه ميخائيل السرياني "التركي الماكر" بالقاء خطابات إلى داخل المعسكر البيزنطي موجهة إلى القائد البيزنطي ويعني ما ورد بها أن الدانشمندان الذين سلمت لهم القيادة يريدون أن يوقعوا بالقائد في أيدي السلاجقة الذين أعدوا له الكمان وهم ينتظرون الفرصة المناسبة. فلما أطلع القائد البيزنطي على هذه الخطابات صدق ما ورد بها وبدأ يتوقع خيانة ذي النون. وبعدما انتشر خبر هذه الخطابات داخل المعسكر البيزنطي وبدأ التوتر ينتشر بين القوات البيزنطية لجأ السلاجقة إلى حيلة أخرى وأشاعوا خبر موت الإمبراطور مانويل فانتشر الذعر داخل المعسكر البيزنطي واضطروا إلى رفع الحصار والانسحاب في حالة من الفوضى الأمر الذي سهل مهمة السلاجقة في تعقب القوات البيزنطية وأنزلوا بها هزيمة ساحقة. وقتل في هذه المعركة القائد البيزنطي وحملت رأسه إلى السلطان قلع أرسلان.

هرعت القوات البيزنطية التي نجت من الكارثة إلى الإمبراطور مانويل الذي كان يتولى قيادة القسم الثاني من القوات البيزنطية وهو القسم الرئيسي متخذاً طريقه إلى قونية لقتال السلاجقة لتبلغه بالكارثة التي حلت بالقوات البيزنطية عند نيكسار ومقتل فاتازس. وقد انزعج الإمبراطور لهذه الأخبار أشد الانزعاج. وعلى ما يبدو أن الإمبراطور مانويل قد ظن أن القوات السلجوقية لازالت عند نيكسار وأن العاصمة السلجوقية قونية أصبحت خالية من القوات. لذلك نجده يحاول الوصول إلى قونية في أقرب وقت ممكن لكي يفاجيء السلاجقة. ولم يسلك طريق ضروليوم وهو الطريق المعتاد بل اتجه ومن معه إلى القوات إلى مدينة لاودكيا الواقعة على نهر المياندر في السابع عشر من سبتمبر عام ١١٧٦م/ الحادى عشر من ربيع أول عام ٥٧٢هـ، واخترق وادى النهر حتى وصل إلى مدينة سوبلايون ثم سار شمالى بحيرة إجردير Egerdir واتجه إلى الجبال الضخمة المعروفة باسم سلطان داغ التي تقع إلى الغرب من قونية، وحاول عبور الممر الواقع في هذه الجبال المعروف باسم ممر تزيبرتز Tzibritze الذى يقع فى نهايته قلعة ميريوكيفالون الخربة ليكون فى مواجهة مدينة قونية مباشرة.

بدأت المتاعب تحقيق بالقوات البيزنطية عندما بدأت تعبر هذا الممر الجبلى ويصف الإمبراطور مانويل نفسه حالة الجيش البيزنطى، فروى أن العربات التي كانت تجرها الثيران كانت كثيرة العدد كبيرة الحجم يضاف إلى ذلك معدات الحصار التي كانت ترافق الجيش، ونظراً لضيق الممر اضطرت القوات البيزنطية أن تسير إلى جانب العربات والمعدات والدواب متلاصقة إلى جوار بعضها، وليس ذلك فحسب بل أن القوات البيزنطية أصيبت بمرض أدى إلى انتشار الاسهال فخارت قواها لدرجة أن الإمبراطور مانويل قد وصف أجساد قواته فى هذه المرحلة بأنها كانت لينة كالشمع.

لم يكن تقدم القوات البيزنطية إلى قونية مفاجأة للسلاجقة، ولعل السلطان قلعج أرسلان قد علم بتقدم الإمبراطور ومكان تجمع القوات البيزنطية من بعض الأسرى البيزنطيين الذين وقعوا في أيدي القوات السلجوقية عند نيكسار، وعن طريق القبائل السلجوقية الرحل التي تجوب المنطقة. وتروى المصادر البيزنطية أن قلعج أرسلان كان قد أرسل في طلب النجيدات من أمراء الشرق الإسلامي حتى أصبحت القوات التي كانت تحت قيادة السلطان السلجوقي أكبر من حجم القوات البيزنطية أو على الأقل مساوية لها. والواقع أن المصادر العربية لم تشر إلى مثل هذه النجيدات ولعل الإمبراطور حاول أن يصور للملك الانجليزي في الخطاب الذي أرسله إليه كبر حجم القوات التي هاجمته، وأنه كان يحارب القوات الإسلامية كلها بمفرده. والواضح أن القوات السلجوقية كانت متمرسه على قتال البيزنطيين وتجيد فنون القتال في الممرات، ومن خير الأدلة على ذلك قتال السلاجقة لجيش كونراد ولويس السابع.

ومن فنون القتال التي مارسها السلاجقة في هذه المرحلة أنهم لم يدخلوا في صراع مباشر مع القوات البيزنطية في أول الأمر بل قاموا بحرق المحاصيل التي تقع في الأراضي المارة بها القوات البيزنطية. كما قاموا أيضا بتسميم الآبار حتى تحرم الجيش البيزنطي من المأكل والمشرب، واكتفت القوات السلجوقية في هذا الوقت بمناوشة الجيش البيزنطي في بعض المواقع ثم ما لبثت أن تراجعته. ولعل القوات السلجوقية كانت تقصد من وراء هذا الانسحاب دفع القوات البيزنطية إلى التقدم داخل الممر في أسرع وقت ممكن. وعند هذه المرحلة من القتال يروى المؤرخ البيزنطي نيكيتاس أن السلطان قلعج أرسلان عرض الصلح على الإمبراطور مانويل، ولهذا السبب قام الإمبراطور بدعوة مستشارية وقواده للتداول في أمر الصلح مع السلاجقة ولكن العناصر

الشابه التي حضرت الاجتماع رفضت عرض السلطان وأصرت على مواصلة الحرب. ولعل انسحاب السلاجقة بعد المناوشات التي قاموا بها قد فسرت لدى القادة الشبان بأن القوات السلجوقية غير قادرة على الحرب.

والواقع أن الإمبراطور نفسه كان متحمسا للقتال خاصة بعد كل هذه الاستعدادات الضخمة التي أعدها للمعركة، لذلك انساق وراء قواده الشبان الرافضين للصلح لخوض المعركة، وعلى أية حال فعندما علمت القوات السلجوقية برفض الإمبراطور للصلح، كانت قد اكتسبت بعض الوقت في إعداد نفسها، ولجأت كعادتها إلى حرب الكمان والمناوشات، وهم يرصدون تحركات القوات البيزنطية عبر ممر تريبيرتز الجبلي وهي في طريقها إلى قونية. وكان على الجيش البيزنطي أن يعبر هذا الممر الجبلي الذي يبلغ طوله عشر أميال في أسرع وقت حتى تتمكن من الخروج من هذا المضيق الوعر إلى السهل المبسط أمام مدينة قونية، لذلك اندفع البيزنطيون وما يصاحبهم من العربات والمعدات حتى تكسبت بداخله وتعذرت مسيرة الجيش البيزنطي - بعدما حشرت داخل الممر حشرا - في أي اتجاه وقد تسببت المقدمة التي كانت تحت قيادة الأخوان يوحنا وأندرونيكوس أنجيلوس والمؤخرة بقيادة أندرونيكوس كونتوستفانوس في غلق الممر من الأمام ومن الخلف على القوات الرئيسية للجيش التي كانت تحت قيادة قنسطنطين ماكروذكاس Cohnstantine Macroducas وأندرونيكوس لامبارداس Lambardas وموروزوميس Morozomis وبلدوين شقيق ماريا زوجة الإمبراطور.

كانت القوات السلجوقية تراقب وترصد تحركات القوات البيزنطية بكل دقة وتأخذ أماكنها على قمم الجبال وفي بعض الأماكن المختفية عن أعين القوات البيزنطية عبر الوديان، وفي الوقت الذي حشرت فيه القوات البيزنطية تماما داخل الممر كانت القوات السلجوقية تحيط بها من كل جانب مركزة



تواجدها على جانبي الممر في الأماكن المرتفعة. وفي اللحظة المناسبة قام السلاجقة بضرب المقدمة لإيقاف محاولة الجيش البيزنطي التقدم وشل حركته، وقد نجحت المقدمة إلى حد ما في الصمود أمام القوات السلجوقية وتمكنت من الاحتماء ببعض التلال المجاورة. ومن الواضح أن القوات هي التي لجأت إلى التلال أما المعدات فقد ظلت بالممر وأدت إلى وقف مسيرة بقية الجيش البيزنطي تماما حتى يمكن القول أن القوات البيزنطية أصبحت أسيرة في أيدي السلاجقة.

وبعدما تمكن السلاجقة من إيقاف مسيرة الجيش البيزنطي انتقلوا لمهاجمة الجيش الرئيسي بغرض شطر القوات إلى شطرين وقد نجح السلاجقة في هذه المهمة وأنزلوا أفدح الخسائر بالقوات التي كانت تحت قيادة بلدوين الأنطاكي الذي لقي حتفه في المعركة، وسرعان ما دبت الفوضى في صفوف القوات البيزنطية، وتمكن السلاجقة من محاصرة النصف الخلفي للجيش البيزنطي وأنزلت فيه القتل، كما اقتربت من القوات البيزنطية وظلت تهاجمها بالطريقة التي تحلو لها حتى يمكن القول أن القوات السلجوقية كانت تستعرض نفسها أمام الجيش البيزنطي.

ولما كانت قوات السلاجقة تمتاز بخفة الحركة انتقلت مرة أخرى إلى المقدمة وركزت سهامها على الثيران التي تجر العربات وقتلت عددا كبيرا منها، ثم بدأت في دفع كتل الأحجار من أعلى قمم الجبال لتزيد من خسائر العدو. وهكذا نجح السلاجقة في اصطیاد القوات البيزنطية بعدما حشرت تماما داخل الممر. وبهذه الصورة أصبح الجيش البيزنطي تحت رحمة القوات السلجوقية التي ظلت تمطره وإبلا من النبال. وحاولت القوات البيزنطية الخروج من هذا المأزق بأي طريقة وفشلت جميع المحاولات التي قامت بها - بعدما سد عليها السلاجقة كافة السبل - للخروج من هذه المقبرة إذا جاز لنا

هذا التعبير. ودب اليأس في نفوس البيزنطيين بعدما انهارت قواهم وفقدوا شجاعتهم على القتال. وحاول بعضهم اللجوء إلى بعض التلال المجاورة. ولكن تحرك هذه القوات إلى أعلى قد أثار التراب الموجود في المنطقة مما استحال معه رؤية القوات لبعضها فاصطدمت ببعضها وسقط الفرسان وخيولهم على الأرض ووقعوا تحت سنايك الخيل، وقتل البيزنطيون أنفسهم في هذه المحاولة، وزادت خسائر الجيش البيزنطي في الأرواح والمعدات.

ولكى يفت السلطان قلع أرسلان في عضد القوات البيزنطية الباقية أحضر رأس فاتازس وحملها أحد السلاجقة على عصا طويلة وطاف بها أمام القوات البيزنطية، وبعد ما رأى البيزنطيون هذا المشهد حاول بعضهم النجاة بأنفسهم رغل صعوبة هذه المحاولة، وكان من أول ضرب المثل على الهرب الإمبراطور نفسه بعدما أصبحت حياته معرضة للخطر لأول مرة في حياته، ونجح الإمبراطور في التسلل إلى أحد شعاب الوديان المتفرعة من الممر الجبلي، كما استطاعت بعض قواته اللحاق به، ولكن السلاجقة كانوا لهم بالمرصاد وانقضوا على الإمبراطور والفارين معه وأنزلوا فيهم القتل، ومن نجا من القتل وقع في الأسر، وتمكن الإمبراطور مانويل من الأفلات باعجوبة عندما لجأ إلى أحد الوديان المتطرفة البعيدة عن أعين السلاجقة.

خرج مانويل من هذه المحنة وقد امتلأت خوذته بالتقوب وعلامات سهام السلاجقة ظاهرة على درعه، وظل يتنقل بين الوديان في محاولة منه للاتصال بالمقدمة المحتمية بالتلال بعدما لحق به أندرونيكوس كونتوستفانوس قائد المؤخرة وبعض القوات، وأخيراً نجح مانويل في الانضمام لجنود المقدمة بعدما تعرف على مكانهم بصعوبة واحتمى مانويل ومن معه بهم. فقد كان السلاجقة يطاردونهم ويسيروا في أثرهم، ثم ما لبث الإمبراطور والقوات البيزنطية الهاربة معه وجنود المقدمة أن وجدوا أنفسهم محاصرين من كل

جانب. وبدأت هذه القوات تشكل صيدا سهلا للقوات السلجوقية خاصة وأن المؤمن قد نفذت تماما بعدما استمر القتال لمدة سبعة أيام متتالية في ظروف غير عادية.

كان حال الجيش البيزنطي يدعو للرتاء فقد قتل وأسر منه العديد، والبقية الباقية إما تهيم على وجهها في شعاب الوديان أو جريحة في أرض المعركة، أو محتمية بالتلال ومحاصرة من كل جانب. وعلى أية حال لم ينقذ القوات البيزنطية المحاصرة من الهلاك بعدما لجأ إليها الإمبراطور سوى حلول الظلام. ورغم ذلك لم تدع القوات السلجوقية القوات البيزنطية المحاصرة تنهأ بالراحة، فكان السلاجقة يرددون نداءات طول الليل تشير إلى أنهم أعدوا العدة لآبادة القوات البيزنطية مع بزوغ الفجر، وكان لهذه النداءات أسوأ الأثر في نفوس القوات المحاصرة وباتوا يتوقعون نهايتهم مع نهاية هذه الليلة وظلوا يودعون بعضهم البعض الوداع الأخير.

كانت ليلة عصبية على البيزنطيين فلم تعد لديهم الفرصة على الفرار بعد ما أحكم عليهم السلاجقة الحصار، كما لم يكن لديهم القدرة على الحرب بعدما انهاروا جسديا ومعنويا. وفي وسط هذه الظروف العصبية عزم الإمبراطور مانويل على الفرار، وقد سبب إعلان مانويل لهذا النبا الفرع في القيادة البيزنطية، وهب أندرونيكوس كونتوستفانوس محتجا على هذه الفكرة ووجه اللوم إلى الإمبراطور الذي تسبب في إبادة جزء كبير من القوات البيزنطية المحشدة هناك وإضاعة أموال الإمبراطورية بسبب حماقته وقلة بصيرته. وعلى ما يبدو أن أندرونيكوس هذا قام بدور ملحوظ في إعادة تنظيم القوات البيزنطية. ومع بزوغ فجر اليوم التالي كان البيزنطيون قد جمعوا قواتهم استعدادا للدفاع عن أنفسهم ضد ما يدبره السلاجقة من هجوم، ثم ما لبثت القوات السلجوقية أن بدأت في مناوشة القوات البيزنطية استعدادا

للمعركة. وعند هذه المرحلة يروي المؤرخ ميخائيل السرياني أن الإمبراطور مانويل أرسل إلى السلطان قلعج أرسلان يعرض عليه الصلح وتسليم المدن التي قام الإمبراطور بتحسينها - ضروليوم وسوبلايوم - مقابل إنقاذ القوات البيزنطية والسماح لها بالانسحاب.

أما المؤرخ البيزنطي نيكيتاس فيروي أن السلاجقة اندفعوا تجاه البيزنطيين وتولى اثنان من القادة البيزنطيين وهما يوحنا وماكرودكاس أمر تنظيم الدفاع عن القوات البيزنطية، وفي هذه اللحظة ظهر أحد القادة السلجوقيين ويدعى جابراس Gabras أو جابر وأصدر أوامر للقوات السلجوقية بالكف عنه القتال ثم تقدم إلى الإمبراطور مانويل وقدم له جوادا مسرجا كهدية من السلطان وطلب منه عقد الهدنة مقابل تدمير تحصينات ضروليوم وسوبلايوم. ويلاحظ أن معركة دمياط البحرية ومعركة ميريوكيفالون البحرية أن لهما أثرا كبير على القدرات العسكرية للإمبراطورية وعجلا بالنهاية بعد وقت قصير في عام ١٢٠٤م.

# **الفصل الثامن**

## **التعليم والعلوم والفنون**



## التعليم والعلوم:

إن الكتابة عن التعليم والحياة العلمية فى الإمبراطورية البيزنطية التى أمتد عمرها منذ الإنتهاء من بناء القسطنطينية فى عام ٣٣٠م حتى سقوطها فى عام ١٤٥٣، أى حوالى ألف ومائة وثلاثة وعشرين عاماً أمر غير سهل. يضاف إلى ذلك مساحة هذه الإمبراطورية التى بدأت وهى تحكم ما حول البحر المتوسط من أراضى شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً. ومما لا شك فيه أن المتعلمين الذى عاشوا فى عهد قسطنطين الكبير، أى فى أوائل القرن الرابع الميلادى. قد تعلموا فى مدارس الإسكندرية وأثينا وأنطاكية وبيروت وغيرهما من المدن الشهيرة فى تلك المرحلة.

ومن الأقوال الشهيرة فى بداية عصر الإمبراطورية أن القديس بازيل الكبير قال، علينا إذ نبذل كل ما فى طاقتنا للنزول إلى معترك الحياة المسيحية، وينبغى علينا أن نعاشر الخطباء والشعراء والمؤرخين وغيرهم من الذين يمدوننا بالمساعدة لتتقيد أنفسنا، كما أن القديس جريجورى النازانيزى، إعتقد أن كل هؤلاء الذين لديهم الإحساس بالمعرفة يدركون أن التعليم هو أثنى ما نملكه. ومن هنا كان الحصول على قسط مناسب من التعليم يعتبر هدفاً لكل مواطن بيزنطى.

لقد أصبحت المسيحية ديناً فى عهد الإمبراطور قسطنطين، ثم ديناً رسمياً للإمبراطورية فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول، ولكن ذلك لم يحدث تغييراً كبيراً عما كان عليه الحال قبل ذلك. وربما وجد رجال الدين قليلو المعرفة أن العلوم والمعارف الوثنية القديمة نوعاً الردة إلى الوثنية. ولكن كبار رجال الدين المسيحى من الرهبان والقساوسة والبطاركة لم يبعدوا عن الثقافة الوثنية ولم يجدوا ما يدعو إلى الابتعاد عنها، حتى الإباطرة البيزنطيين

أنفسهم كان لدى الكثير منهم رغبة قوية في الإهتمام بالجامعات ورفعة شأبها، وزيادة عدد الاساتذة، والعمل على جمع المخطوطات الأدبية اليونانية وغيرها. ولم تسر الأمور التعليمية على نحو طيب داخل الإمبراطورية، فقد وجه الإمبراطور جوليان المرتد عن المسيحية ضربه إلى كل ما هو مسيحي داخل الإمبراطورية خاصة الكنيسة، حتى أنه منع المسيحيين من التدريس في المدارس. ولكن ذلك لم يمنع الآباء الأوائل للكنيسة المسيحية ومنهم من عاصروا جوليان وتلقوا معه تعليماً جامعياً وثنياً في مدارس أثينا. كما أن القديس بازيل الكبير كان من أنجب تلاميذ الفيلسوف اللبناي الوثني ليبانوس، واعتبره معاصروه أنه خليفه استاذة.

وإذا أردنا أن نتتبع خطوات التعليم التي كان يتدرج فيها شباب الإمبراطورية البيزنطية بعامة، فيكون ذلك من الأمر الصعب لقلة المادة التاريخية في المصادر، ولكننا سوف نتتبع خطوات التعليم التي كان يتدرج فيها صبي من الطبقة العليا في القرن الرابع الميلادي لوجود مادة تاريخية معقولة في المصادر التاريخية وغيرها.

كان الصبي في الإمبراطورية البيزنطية يبدأ في تعلم القراءة والكتابة منذ حوالي الخامسة أو السادسة من عمره، وهذا يرجع إلى أن جميع الوعاظ في الكنائس كانوا يحثون الآباء على تعليم أولادهم. ولم يك الآباء يبذلون جهوداً في تعليم الأولاد بل كان العبء كله يقع على كاهل المدرس الذي غالباً ما يكون غير كفاء لهذه العملية التعليمية. وكان البعض يرى أن يتولى هذه المهمة الرهبان. وكانت المادة الرئيسة التي يتعلمها الصبي هي مادة النحو. وكان النحو في تلك الأيام لا يقتصر على تصريف الأسماء والأفعال وقواعد تركيب الجملة، بل كان يضم أيضاً دراسة الآداب القديمة.



وحقيقة الأمر أن الصبي كان يبدأ يتعلم قراءة الجملة، ثم تفسير الكلمات الصعبة، والإشتقاقات الصرفية في الجملة، والمعنى العام الذي يقصده الكاتب في العبارة وقيمتها الأدبية، وكان ذلك كله لا يُعرف إلا باستخدام المعاجم وبعض الشروح. وكان هذا الصبي يبدأ بدراسة أشعار هيمروس Homer، وهو الشاعر اليوناني الوثني صاحب محلمتى الإلياذة Iliad والأوديسة Odyssey، قبل أن يقرأ للشعراء الآخرين. ويخبرنا سينييسيوس Synesius الذي عاش في القرن الخامس، في إحدى رسائله وهو يفتخر بذلك، أن ابن اخته كان يحفظ في اليوم الواحد خمسين بيتاً من أشعار هيمروس، وأنه يكررها دون تخطئ.

والحال نفسه في مصر فقد ورد في إحدى البرديات وهي رسالة من أم لابنها تتصح به بأن يبحث عن مدرس جيد حتى يتلقى العلم، وتطلب منه ألا يتخلى عن دراسة أشعار هيمروس إلا بعد أن يبلغ الكتاب السادس. يتضح من ذلك أن الأم نفسها لم تك أمراً عادياً بل متففة إلى درجة طيبة. وفي بردية أخرى توضح لنا كيف كان المدرسون يشرحون للتلاميذ أشعار هيمروس، وفي متن البردية، وقد وردت النصوص الأصلية، وترى شرحاً للكلمات الصعبة باللغة اليونانية الدراجة في مصر.

وفي القرن الحادى عشر الميلادى يرى المؤرخ البيزنطى ميخائيل بسلوس وهو من الطبقة الوسطى وقد حفظ الإلياذة كلها فى سن مبكره جداً. كما أن المؤرخة البيزنطية أنا كومنينيا أيضاً كانت تقتبس من أشعار هيمورس فى كتابها الألكسياد The Alexiad دون إشارة لذلك، وكان الأمر أصبح مألوفاً لدى القراء. وهذا يدل على أن المواطن البيزنطى كان يقرأ القصائد لشعراء آخرين. كما كان إمتحان التلاميذ فى هذه السن المبكرة لا يخلو من أسئلة تتعلق بما جاء فى الإلياذة والأوديسة، وبعض المشاهير الآخرين. ويبدو

أن مشكلة حمل التلميذ للكتب كانت ظاهرة قديمة، فكان يصاحبه عبد يحمل له حقيبته الثقيلة، كما أن البعض كان يشتكى أيضاً من غلاء أسعار الكتب. وإلى جانب ذلك كان على الأطفال دراسة الجانب الديني، وكان يتولى أمره رجال الدين، وقد يتطلب الأمر أن يقوم التلاميذ بحفظ الانجيل تماماً، وبذلك سار التعليم الديني إلى جانب التعليم الديني. ويلاحظ أن التعليم في هذه المرحلة وما بعدها كان يتم باللغة اليونانية، واعتبرت اللاتينية لغة البرابرة.

وبعد دراسة النحو بالقدر المناسب يكون التلميذ قد وصل إلى سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، فينتقل إلى علم البلاغة، وعندئذ يدرس كتب عدة مؤلفين من كتاب النثر مثل ديموستين Demosthenes وهيرودت Herodotus وثوكديدس Thucydides وسقراط Socrates وليسياس Lysias، وكان بعض هذه الكتب يحفظ عن ظهر قلب، وكان التعليم في هذه المرحلة يتم قراءة جانب من هذه المؤلفات بصوت عالي لتظهر بذلك مقدرة الصبي على فهم ما يقرأ، وعندما يعود الطالب إلى بيته عليه أن يتدرب على القراءة بصوت مرتفع، وله أن ينغم ما يقرأ حتى يردده على أسماع أستاذه وزملائه في فصل الدراسة.

وبعد هذه المرحلة تأتي المرحلة التي يقوم فيها التلميذ بكتابة موضوعات بسيطة، أو يتناول شخصية من الشخصيات البارزة في التاريخ إما بالمقارنة مع بعضها البعض أو المدح أو الهجاء، أو يكتب في موضوعات عامة. ثم تأتي مرحلة أخرى وهي مرحلة كتابة الرسائل، وهي فن على التلاميذ أن يتعلموه. ويجب أن يتجلى في هذه الرسالة شخصية كاتبها، وأن تكون قصيرة، سهلة اللغة مع وضع الأمثلة المناسبة التي يقتبسها الكاتب من البلاغاء. وكان المدرس يختار من هذه الرسائل أفضلها ويتولى كاتبها قراءتها بصوت مرتفع في المدرسة تشجيعاً لزملائه على أن ينهجوا نهجه.

وكان التلاميذ ينتقلون من مدينة إلى أخرى، فمن الإسكندرية إلى غزة، وإلى صيدا، وإلى بيروت وإلى أثينا. ويلاحظ أن الأستاذ كان يجلس في مكان مرتفع نسبيا، أما التلاميذ فكانت مقاعدهم واطئة. كما كانت السنة الدراسية تبدأ في الخريف وتستمر حتى بداية فصل الصيف كما هو الحال في أيامنا هذه. وكانت الدروس تلقى في الصباح. وفي المساء كانت هناك بعض المحاضرات العامة كجانب ثقافي للمواطنين. أما في الأعياد الرسمية سواء الدينية أو غيرها مثل ميلاد الأباطرة أو تتويجهم، فكانت الدراسة تعطل فيها. وكانت بعض الأيام تخصص أثناء الدراسة لإبراز مواهب الطلاب في الخطابة، كما كان الأساتذة يقدمون نماذج للتلاميذ، وفي هذه الحالة يسمح لأولياء الأمور والأصدقاء بالحضور.

وبعد هذه المرحلة تأتي مرحلة دراسة الفلسفة والفنون الأربعة، وهي الحساب والهندسة والموسيقى والفلك، وبعد ذلك تكون دراسة القانون والطب وعلم الطبيعة.

والحقيقة أن المرحلة التعليمية في هذه الآونة لا تكاد تقدم لنا المصادر معلومات كثيرة عنها، وقد نرى أن التعليم كان يتم عن طريق المدارس التي تتولى أمرها الحكومة أو عن طريق مدرسين خصوصيين. ومن المدارس التي ذكرتها المصادر المدرسة التي انشأها الإمبراطور قسطنطين في الرواق ثم نقلها ابنه قسطنطينوس إلى الكابيتول Capitolium الذي بنى على التل الثاني من تلال القسطنطينية. ومع تولى الإمبراطور جوليان المرتد (٣٦١ - ٣٦٣م) أوقف أو ألغى التعليم المسيحي في هذه المدرسة، وأعاد المدرسين الوثنيين للتدريس في المدارس.

وفى عهد الإمبراطور ثيودوسوس الثانى (٤٠٨ - ٤٥٠م) وهو فترة طويلة، نرى أن هذا الإمبراطور كان تحت وصاية أخته بلاخريا Pulchera فى بداية الأمر، ثم تزوج من يودكيا الأثينية وهى ابنة استاذ البيان الوثنى فى جامعة أثينا، وكان لها تأثيرا على الإمبراطور، فطلبت منه إنشاء مدرسة لتدريس العلوم الدينية والكلاسيكية، وهذه المدرسة ستتحول إلى جامعة فى مرحلة قادمة. وقد قام بالتدريس فيها مدرسون من اليونانيين لتدريس النحو اليونانى ومن اللاتين لتدريس النحو اللاتينى، وخمسة من أستاذة الفلسفة اليونانية وثلاثة من أستاذة الفلسفة اللاتينية، وإثنان من رجال التشريع. وإلى جانب ذلك وجدت مكتبة عامة يقال أن كان بها مائة وعشرون ألف مجلد، وهى المكتبة التى أسسها الإمبراطور جوليان المرتد، ووضع فيها ما أمكنه من الكتب الكلاسيكية. ولكن هذه المكتبة أحرقت بعد ذلك بما فيها من كتب لها فكر وثنى.

ويلاحظ أن التعليم فى المرحلة التالية من الزمن أصبح مسئولية الكنائس والأديرة، لأننا لا نرى ذكر للمدرسة بعد عهد جستينيان، فقد أغلق مدرسة أثينا وصادر أموالها، وأنه لم يسمح بتعليم القانون إلا فى القسطنطينية وروما وبيروت واشترط ألا يقوم بالتدريس فى هذه المدارس إلا أستاذة من المسيحيين.

لقد قل التعليم كثيرا فى القرن السابع الميلادى، ومن هنا كان من يريد التعلم أن يدرس على أيدى مدرسين خصوصيين، بالإضافة إلى ما تقوم به الكنائس والأديرة. وحتى المدرسة التى شيدها الإمبراطور هرقل كانت تحت إشراف الكنيسة، وبدأنا نقرأ من مدارس ملحقة بدير الاستوديوم وكنيسة الأربعين شهيدا، وكنيسة الرسل، وهى مدارس كان التعليم فيها علمانيا. ويلاحظ أن الكنيسة بدأت تضيق على التعليم العلمانى، لما له من ماضى يرتبط بالوثنية. وقد زادت شكوك الكنيسة فى التعليم العلمانى أثناء فترة تحطيم

الصور، ونلاحظ أنه بعد هذه المرحلة كانت الكنيسة أقل خوفاً على الديانة المسيحية، ومع تحسن العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والعالم الإسلامي بدأت الإمبراطورية تهتم بالعلوم الإسلامية الدنيوية.

وبعد هذه المرحلة حدث انتعاش في العملية التعليمية، وظهر رواد أواخر مثل فوتيوس Photius، وهو العالم والفيلسوف المتفهم الذي درس في دير ستوديوم على يد كبار رجال التعليم في الإمبراطورية، والرجل العسكري الذي رافق العديد من العمليات العسكرية، والذي أصبح سكرتير الإمبراطورية البيزنطية، وهو السفير الذي أرسل إلى بغداد حوالي عام ٨٣٨م في عهد الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ / ٨٣٣ - ٨٤٢م)، ومن الواضح أن ذلك كان في المرحلة الجرجة التي قام بها الخليفة المعتصم بغاراته على آسيا الصغرى، وهو بطريرك القسطنطينية مرتين ٨٥٨ - ٨٧٦م، ٨٧٧ - ٨٨٦م، وهو صاحب القطيعة الصغرى بين كنيسة روما والقسطنطينية في عام ٨٦٧م، والذي كانت له صولات وجولات في المجامع الدينية، وإلى جانبه كان يوحنا النحوي John Grammatius بطريرك الإمبراطورية (٨٣٧ - ٨٤٣م).

وفيما يتعلق بالجامعة فيمكن القول أن الفضل لإعادتها أو إنشائها في صورة جديدة يرجع إلى القيصر بارداس Bardas، وهو أخو الإمبراطورة ثيودورا أم الإمبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢ - ٨٦٧م) وبالتالي فهو خال الإمبراطور نفسه الذي كان قاصراً عند وفاة أبيه الإمبراطور ثيوفيلوس (٨٢٩ - ٨٤٢م). ورغم أن بارداس كان له تطلعات سياسية، إلا أنه كان مفكراً محباً للعلوم والآداب وحامياً للعلم والعلماء، ومن هنا جاء اهتمامه بإعادة إحياء جامعة القسطنطينية، وتأسيس العلوم الدينية المسيحية والعلوم الكلاسيكية،

واستعد بارداس لذلك واستدعى علماء زمانه إلى القصر، وجمعهم في مدرسة عالية في العاصمة البيزنطية أطلق عليها اسم الماجناورا (Magnaura).

والحقيقة أن جامعة القسطنطينية التي قامت في قصر الماجناورا، أصبحت أهم مركزاً للتعليم البيزنطي، وقد درست بها العلوم التي كانت معروفة في تلك المرحلة، وقد درس في هذه الجامعة نخبة من كبار العلماء مثل ليون الرياضي، وهو رجل موسوعي، وكان يدرس في المدرسة الملحقة بكنيسة الأربعين شهيداً، كما درس بها العالم فوتيوس الذي أشرنا إليه. والحقيقة أن قيام هذه الجامعة بتدريس العلوم الكلاسيكية الوثنية قد أثار معارضة البعض، ولكنها لم تؤثر على مسيرة الجامعة.

وبعد هذه المرحلة زاد العلم والعلماء انتشاراً، حتى أننا نجد أن البلاط البيزنطي قد أصبح في عهد الامبراطور قسطنطين التاسع مزاراً للعلماء، ولعل ذلك مرجعه أن فترة إقصاء أو إبعاد هذا الامبراطور عن العرش وهي فترة طويلة، دفعت هذا الامبراطور إلى وضع عدة مؤلفات منها إدارة الامبراطورية، وكتاب المراسم، وكتاب الثيمات. ومما لا شك فيه أنه جمع حوله في البلاط عدداً من العلماء المساعدين، ولذلك كاد البلاد البيزنطي أن يصبح أكاديمية لدراسة التاريخ.

وللأسف أن الدراسة بعد هذه المرحلة قد توقفت، ويقال أن الامبراطور بازيل الثاني هو المسئول عن ذلك، ولعل ذلك يرجع إلى ما ورد في أحد المصادر من مقولة ترى أن الإفراط في التعليم كثير النفقة، ولم يعد على الإمبراطورية شيء، ومع بدايات القرن الحادي عشر كان من يريد العلم أن يتولى أمره بنفسه، أو أن يعتمد على بعض المدرسين الخصوصيين أو في مدارس الكنسية أو الأديرة.

وإذا وصلنا إلى عهد الامبراطور رومانوس الثالث (أرجيروس) (١٠٢٨ - ١٠٣٤م) نرى أن هذا الامبراطور الذي كان متقفاً وبفتحر بذلك لم يقدم شيئاً إلى العملية التعليمية، ولكن هذا الأمر لم يدم طويلاً، ففي عهد الامبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس Monomachus (١٠٤٢ - ١٠٥٥م) نجد أن الحال قد تغير كثيراً، فقد أستاذ هذا الامبراطور عندما علم أن جميع رجال القانون الذين يعملون في سلك المحاماه، قد علموا أنفسهم بأنفسهم، وأدرك أن مثل التعليم لا يصل إلى الدرجة المطلوبة مع أهمية الدراسات القانونية، فأسس مدرسة للحقوق في عام ١٠٤٥م، واشترط حصول المحامين على إجازة هذه المدرسة حتى يتمكنوا من مزاولة أعمالهم.

كما أعاد الدراسات الكلاسيكية إلى جانب الدراسات الدينية. وفي هذه المدرسة أصبح المؤرخ ميخائيل بسلوس استاذاً للفلسفة، والقاضي يوحنا كزيفيلين Xiphilinus استاذاً للقانون، وقد ظلت هذه الجامعة حتى سقطت الامبراطورية في أيدي قوات الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤م.

والمتتبع للحركة العلمية منذ إنشاء هذه الجامعة أن الأباطرة عملوا على تسهيل العملية التعليمية، ويرى أن الامبراطور ألكسيوس كومنين قد أنشأ مدرسة للأيتام. كما أن الجامعة والمدارس كانت تحت إشراف الدولة ويرأسها الامبراطور. فكان هو الذين يعين المدرسين ويتولى دفع أجورهم، ويعزلهم إذا تقاعسوا عن أداء مهامهم. وتذكر المصادر أن الامبراطور كان يقوم بالتفتيش على الجامعات والمدارس بنفسه ويختبر التلاميذ والطلاب وقد يستمع إلى بعض المحاضرات. ولا زالت المصادر تذكر أن الامبراطور ميخائيل السابع دوкас Michael VII Docas (١٠٧١ - ١٠٧٨م)، كان في الجامعة وتعلم على يدى المؤرخ ميخائيل بسلوس واستمع اليه. ومن هنا كان بسلوس هو المستشار للإمبراطور بعد ذلك.

وفي عصر أسرة آل كومنين كان الأباطرة ينصحون بدراسة الكتاب المقدس قبل أي دراسة أخرى، ورغم ذلك فإن الطلاب في عصرهم كانوا يقبلون على الدراسات الكلاسيكية، ولعل ذلك مرجعه إلى زواج الامبراطور مانويل كومنين من ماريا الانطاكية الصليبية، ومن العلماء الذين في هذه المرحلة الشاعر ثيودور برودروموس Theodore Prodromos.

وفيما يتعلق بالكتب والمكتبات فقد كان وجودها من الصعوبة بمكان، فمنذ عام ٤٧٦م لم يكن في الامبراطور مكتبة عامة، ولكن الأديرة وما كان بها من مخطوطات قد عوض هذا النقص كثيراً، وكان يسمح للجميع بالدخول إليها واستخدامها. ولقد لعب الناسخون وكانوا كثرة، ومعظمهم من غير رجال الدين وأن انضم إليهم بعض الرهبان، أن يلعبوا دوراً كبيراً في زيادة عدد الكتب وقد زينوها بالصور. ورغم هذا كله فقد كانت الكتب غالية الثمن.

وقبل عام ١٢٠٤م كانت الحركة التعليمية والدراسات الكلاسيكية قد بلغت شأناً كبيراً، ولكن الصليبيين وما قاموا به من أعمال النهب داخل المدينة قد أضاعت الجهد الكبير الذي أقامه البيزنطيون من أجل النهضة العلمية، عندما أضرمو النار في المدينة بما فيها المكتبات.

ورغم ما أصاب الامبراطورية البيزنطية من ضياع سياسي، إلا أن الحياة العلمية قد ظلت حية داخل الامبراطورية إلى حد ما، وسرعان ما تركزت هذه العملية حول بلاط الامبراطورية في منفاها بمدينة نيقية، عندما نقلت جامعة القسطنطينية إليها. ويؤكد ذلك أن الامبراطور اللاتيني في القسطنطينية بلدوين الأول Baldwin I (١٠٤ - ١٢٠٥م) قد طلب من البابا إنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨ - ١٢١٦م) أن يصرح له بإقامة مدرسة



لاتينية أى على نمط الطراز الأوربي، ولكن جامعة باريس أفسدت هذا المسعى حتى لا تكون منافسة لها.

وفى جامعة نيقية نجد العالم بليميداس Balamedes الذى تعلم على يد مدرسن خصوصين بعد سقوط القسطنطينية، وقد نجح هذا العالم فى جمع عددا كبيرا من المخطوطات من أنحاء البلاد، وقد نجح أيضا فى الارتقاء بمستوى التعليم فى جامعة نيقية على درجة عالية. وتحدثنا المصادر عن المروخ جورج أروبوليتا George Acropolita (١٢١٧ - ١٢٨٢م)، وهو من أشهر الشخصيات العلمية والسياسية فى هذه الفترة، وقد درس فى جامعة نيقية إذا جاز لنا هذا المسمى ثم فى جامعة القسطنطينية بعد عام ١٢٦١م، ويذكر أن أروبوليتا هذا كان يرى أن سبب الخسوف هو وقوع القمر بين الشمس والأرض، ولكن هذا الرأى لم يعجب إيرين Iren زوجة الامبراطور يوحنا فاتاتزيس John Vatatzes (١٢٢٢ - ١٢٥٣م)، ولكنها اعتذرت لهذا الرجل وهو العالم المؤرخ والسفير والمستشار الأعظم للامبراطورية فى المنفى، والذى عاد للتدريس فى جامعة القسطنطينية بعد عام ١٢٦١م، والذى مثل الامبراطورية فى مجمع ليون بفرنسا عام ١٢٧٤م.

أما عن تعلم البنات فإن المصادر البيزنطية لم تذكر إسم مدرسة واحدة للبنات، ولكن المتخصص فى التاريخ البيزنطى يجد أسماء نساء كثيرات بلغن من العلم مبلغا كبيرا خاصة فى القرون المتقدمة من تاريخ الامبراطورية، ومن ذلك والدة المؤرخ ميخائيل بسلوس التى ساعدت ابنها وهو صغير، والمؤرخة أنا كومنيننا وبنات كثيرات أو سيدات من الأسر الحاكمة، ويمكن القول أن بنات الطبقة العليا قد تلقين التعليم نفسه الذى تلقاه الرجال على يد مدرسين خصوصيين داخل المنزل أو القصر، أما التعليم فى الطبقات الوسطى للبنات فيبدو أنه اقتصر على معرفة القراءة والكتابة.

وعن اللغات التي كانت تدرس في الامبراطورية البيزنطية، فنجد على رأسها اللغة اليونانية التي كانت تدرس بقدر كبير وعناية خاصة، وظهر بهذه اللغة أعمال شعرية ونثرية على رأسها أعمال سنيوسوس Synesius الفيلسوف الذي درس الأفلاطونية الحديثة في شمال أفريقيا، والشاعرة سابو أف لسبوس Sappo of Lesbos، وهي شاعرة يونانية من القرن السابع الميلادي حيث ولدت في جزيرة لسبوس حوالي عام ٦٣٠م، ولها مجلدات كثيرة من الشعر العاطفي وغيره. ويلاحظ أن البيزنطيين كانوا يستمتعون بقراءة المؤلفات بأكملها، ولا يحبون الاختصار.

أما اللغة اللاتينية فقد ماتت في عهد الامبراطور جستنيان وإن تكلم هو اللاتينية، ومع بدايات القرن الثامن نجد أن اللغة اليونانية قد أصبحت هي اللغة التي استعملها البيزنطيون، وعلى العكس من ذلك في روما. ومع ذلك فقد كانت الحروف اللاتينية لا زالت تستخدم على العملة البيزنطية حتى أوائل القرن العاشر. وعادت صحوة أخرى لدراسة اللاتينية بينما حدثت نهضة في روما للدراسات اليونانية، وبذلك عادت اللغة اللاتينية وأصبحت مالوفة داخل الامبراطورية. وتحتم على رجال القانون أن يتعلموها أيام الامبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس. ومن رسائل الامبراطور الكسيوس كومنين من كتب باللاتينية إلى دير مون كاسينو في ايطاليا، وإن كانت غير دقيقة، ومع الغزو اللاتيني للامبراطورية شاعت اللغة اللاتينية داخل أراضي الامبراطورية.

وفيما يتعلق ببعض اللغات الأخرى مثل العربية والأرمينية ولغة الخزر والعبرية، فقد كان في الامبراطورية من يعرفونها. كما كان في البلاط بعض منهم لأغراض الترجمة في الاتصالات الدبلوماسية، كما أن هذه اللغات وهي لغات الدول المجاورة كانت تستخدم في بعض الأعمال التجارية أو

المعاهدات أو فى عقود أعمال بحرية. ورغم هذا كله فقد كان البيزنطى محباً  
للغة اليونانية.

ومن العلوم التى درست بمدارس الامبراطورية وجامعاتها علم  
التاريخ، والحقيقة أن عدد مؤرخى الامبراطورية البيزنطى قد بلغ عددهم من  
الكثرة التى تفوق أى دولة فى أوربا فى العصور الوسطى. وقد كان  
البيزنطيون يحبون أن يقرءوا تاريخ أسلافهم وما سجل فيه من أعمال مجيدة،  
وتعمق كتاب التاريخ فى الماضى البعيد حتى وصلوا إلى أيام سيدنا آدم، ولعل  
ذلك مرجعه إلى نزعة دينية، وهذه النزعة هى التى اتصفت بها الشعب  
البيزنطى.، وكان البيزنطيون ينظرون إلى أمجاد الأباطرة السالفين نظرة  
تمجيد وفخار، وفى أشد المواقف تحريكا لعواطفهم، الأحداث المتعلقة بانتصار  
هؤلاء الأباطرة فى معركة هنا أو هناك على المسلمين أو البلغار، ولعل أشد  
هذه المواقف هو استرداد مدينة القسطنطينية عام ١٢٦١م. وأن آخر الأباطرة  
البيزنطيين وهو قسطنطين الحادى عشر (١٤٤٨ - ١٤٥٣م)، لم يك أمامه فى  
اللحظات الأخيرة للامبراطورية عندما هاجمها الأتراك العثمانيون سوى حث  
جنوده بكلمات عن جراءة وشجاعة أجدادهم.

وكان علم الفلسفة محبباً لدى الشعب البيزنطى، وكان رجال الدين من  
رجال الكنيسة والرهبان يعرفون تماماً الفلاسفة اليونانيين ويمجدون  
الأفلاطونية الحديثة. وفى القرن السابع وهو عصر الفتوحات الإسلامية،  
والقرن الثامن وهو الزمن الذى ظهرت فيه مشكلة الأيقونات قبل الإقبال على  
العلوم الفلسفية، ورغم هذا كان هناك بعض الاستثناء إذ نجد الراهب قوزماس  
Cosmas فى عام ٧١٠م يقرأ فلسفة أرسطو وأفلاطون كما ذكر يوحنا  
الدمشقى. وأن بعض الفلاسفة مثل ليون كان يفضل أرسطو بخاصة، وإن كان  
قد تعامل مع فلسفة أفلاطون وأبيقور وغيرهم من أصحاب الفلسفة الحديثة.

وتزعم المؤرخ ميخائيل بسلوس الفلسفة الحديثة في القرن الحادى عشر، ويرى أنه وحده هو الذى أعاد إحيائها وإن كان فى ذلك شيئاً من المبالغة، ولعل نفوذه فى البلاط الإمبراطور رومانوس الثالث شجعه على تعليم الامبراطور ورجال بلاطه أن يتفهموا الأفلاطونية الحديثة: وكان من المعاصرين لنموذج بسلوس الأسقف يوحنا موروبس John Mauropus، وقد اهتم هو أيضاً بالأفلاطونية الحديثة. والمهم هنا أن الفلسفة اليونانية أصبحت جزءاً من المواد التى تستخدم فى تربية المتعلمين، وأُعترفت بها الامبراطورية. يضاف إلى ذلك أن بيزنطة لم يظهر بها فيلسوف أتى بجديد فى هذا العلم، كما أن الكنيسة لم تعارض تدريس الفلسفة اليونانية فى مدارس الامبراطورية وجامعاتها، رغم علمها أن التمسك بالفلسفة اليونانية والعقيدة المسيحية كان أمراً صعباً.

أما علم اللاهوت وهو العلم المتعلق بكافة جوانب الديانة المسيحية، فقد كان تحت الإشراف الدقيق للكنيسة البيزنطية. وكانت كافة الشعائر الدينية تدرس بكل دقة وعناية والوصول فيها إلى أدق التفاصيل. والحقيقة أنه كان بالإمبراطورية بعض العلماء الممتازين الذين تعمقوا فى هذا العلم، ومن هؤلاء فوتيوس البطريرك والعالم، ومرقص الإفسوسى Mark of Ephesus الذى لعب دوراً كبيراً فى مجمع فلونسا Florence بإيطاليا عام ١٤٣٨م وإن كان فى أواخر عصر الامبراطورية. وكان المتعلمون حتى العلمانيين منهم لابد لهم أن يلموا بجانب من شئون الدين، وكان يتحتم على الأباطرة، باعتبارهم الرؤساء الأعلى للكنيسة، كان عليهم أن يدرسوا إلى حد كبير علم اللاهوت وإن كان بعضهم كان غير ذلك. وتذكر لنا المصادر أن المؤرخة أنا كونيستا كانت من أشد المعجبين بالكاتب الدينى القديس ماكسيموس المعترف St-Maximus the Confessor (٥٨٠ - ٦١٢م).

وفي الرياضيات عاش البيزنطيون على أمجاد علماء اليونانيين الأقدمين، ولم يضيفوا إليها شيئاً، وكان الحساب مشكلة المشاكل لديهم لأنهم استخدموا الحروف الأبجدية في الأعمال الحسابية حتى تعلموا الأرقام عن طريق العرب، وكانت هندسة إقليدس هو المرجع الأول والأخير لديهم طوال عصر الإمبراطورية، شأنهم في ذلك شأن العالم كله في العصور الوسطى.

وعاش البيزنطيون في علم الفلك على ما سجله العالم اليوناني بطليموس، وقد حاول قوزماس Cosmas الملاح وهو اليوناني الأصل الذي عاش بمصر في مدينة الاسكندرية في القرن السادس الميلادي، أن يقدم نظرية حول شكل الأرض، وذكر أنها مسطحة ومستطيلة، وأنها مثل صندوق أو غرفة من طابقين، الطابق الأرضي هو الأرض، والثاني هو الجنة والثالث هو السماء. وذكر أن الشمس أصغر من الأرض ويحجبها في الليل جبل مخروطي الشكل مرتفع في الطرف الغربي للحجرة، وحول هذه الأرض المحيط، ومن ورائه الأرض التي يعيش عليها الناس اللذين في مأمن من الطوفان، أما المؤرخة أناكومينا فقد كانت تعتقد في نظرية الأفلاك الدوارة، وجعلت من الكرة الأرضية مركزاً لمجموعة الكرات الأرضية، ويجمع الجميع مركز واحد. والحقيقة أن هذه الفكرة قديمة ظهرت في بلاد اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد.

وفي علم الجغرافيا كان لدى البيزنطيين معلومات طبية عن مواقع ما سجل في مؤلفات البيزنطيين، أما عن رسم الخرائط فلا يوجد لدينا سوى خريطة مرسومة بالفسيفساء ترجع إلى القرن السادس الميلادي وهي تمثل خريطة فلسطين، وقد عثر على هذه الخريطة في منطقة مادبا التي تقع بالمملكة الأردنية حالياً عند أقصى الطرف الشمالي من البحر الميت إلى اليمين. ومما هو مسجل في كتاب الإدارة الإمبراطورية نجد الإمبراطور

قسطنطين السابع الذى ينسب إليه هذا الكتاب يقدم معلومات طبية عن كافة الشعوب التى تحيط بالامبراطورية من جميع الجوانب بداية من الجزيرة العربية ومصر وشمال افريقيا والأندلس متجهاً فى أوربا من الغرب إلى الشرق، وإن كانت الأخطاء قليلة للغاية، ولكنه لم يقدم خريطة عن هذه الأقاليم.

وقدمت المؤرخة أناكونينا بعض المعلومات عن الرياح، وذكرت أن والدها أمر بوضع خريطة عن البحر الإدرىاتيكي والمدن الواقعة عليه. ولعل ذلك يرجع إلى الخطر النورمانى الذى كان يهدده من هذا الجانب. وحاول البعض أن يقدم تفسيراً لحدوث البرق والرعد فى وقت واحد، والحقيقة أن المعارك التى وقعت بين الامبراطورية وأعدائها تشير إلى تفهم الامبراطورية لجغرافية الأرض المحيطة بها، كما أن استخدام الأسطول البحرى لابد وأن يتحرك طبقاً لقواعد علمية جغرافية مدروسة.

واهتم البيزنطيون كثيراً بالعلوم الطبية، ورغم ذلك لم تتقدم النظرية الطبية عندهم كثيراً عن العلوم اليونانية منذ عصر أبوقراط، وهذه النظرية تعتمد على توافق الأمزجة الأربعة للجسم، وهى الدم والبلغم والصفراء والسوداء، والدرجات الأربع هى الحر والجفاف والبرد والرطوبة، والعملية الصحية للانسان تعتمد على التناسب الصحيح بين هؤلاء. وكان هناك الطب الشعبى المرتبط بالأغذية، وهى الفكرة التى تطالب الناس بما يأكلوه فى كل موسم من مواسم العام، بمعنى أن لكل موسم أمراضه وفى الطعام والفاكهة والخضروات ما يكفى لوقاية الانسان المتوافق شر هذه الأمراض. وآمن البيزنطيون بالحجامة والكي رغم أنهما لم يوصلا إلى نتائج جيدة. كما استخدم البيزنطيون العقاقير وأثبت الواقع أنها تعود ببعض المنافع. كما أوصى البعض بأداء بعض التمارين الرياضية المنتظمة لوقاية الجسم من الأمراض.

وواقع الحال أن العملية الطبية كانت تصل إلى صورة طبية داخل المستشفيات فقد كان هناك مستشفيات للقوات المسلحة، كما كان يوجد بالامبراطورية مؤسسات خيرية كبرى تملك المستشفيات حيث العناير عالية الكفاءة بالمرضى، ومن هذه المستشفيات مستشفى دير الإله القاهر Pantocrator وهو الدير الذى أسسته ايرين زوجة الامبراطور يوحنا كومنين وأشار اليه المؤرخ يوحنا كيناموس John Kinnamos، لذلك أغدق الامبراطور نفسه الهبات عليه، ويذكر أنه فى عهد الامبراطور وبالتحديد فى عام ١١١٢م. كان يوجد بهذه المستشفى عشرة أطباء من الرجال ومعهم طبيبة، بالإضافة على اثنا عشر مساعدا من رجال التمريض، وأربع مساعدات من النساء، وأثنان من أطباء الباثولوجى وهو علم يهتم بأسباب الأمراض وأعراضها.

وكان بالامبراطورية مستشفيات أصغر فى أماكن كثيرة داخل البلاد. ويلاحظ أن المستشفيات كانت تلحق بأديرة الرجال أو النساء أو بيوت الضيافة للفقراء، وكان على بعض الرهبان أو الراهبات أو الأصحاء من بيوت الفقراء تقديم الخدمة لهؤلاء المرضى. وتدلنا المصادر على أن كثيرا من الأباطرة والنبلاء كانوا يتبرعون بالأموال لمثل هذه المستشفيات التى لا نستطيع أن نقدر عددها داخل الامبراطورية، وأن كل ما لدينا من قدرة هو التقاط بعض المعلومات عنها من بطون المصادر البيزنطية، وخاصة مما كتبه رجال الدين. ومما لا شك فيه أنه كان يوجد الكثير من المرضى فى القرى النائية لا يعلم عنهم شيئا ولم تمتد اليهم الأيدي لمعالجتهم. وفيما يتعلق بالطبيبات فالأرجح أن عملهن كان داخل المستشفيات فقط خاصة أديرة النساء. ويستدل من المصادر أن مرض النقرس Gout كان شائعا فى الامبراطورية، وقد تم التعرف على

أسبابه، ولذلك وضعت محاولات طبية لازالة الأحماض من الجسم. ووجد الأطباء أن التدليك، والراحة والدفء يخفف من آلام هذا المرض.

والحقيقة أن مزاوله مهنة الطب لم تكن قاصرة على الأطباء فقط، كان هناك البعض غير المؤهلين يزاولونها، وقد تركت لنا بعض المصادر أسماء بعض المشاهير الذين زاولوا هذه المهنة. ومن هؤلاء المؤرخ بسلوس والمؤرخة أنا كونيئا، فقد ورد عنهما أنهما ذكرا أن معلوماتهما لا تقل عن معلومات الأطباء. أما الامبراطور مانويل الثانى كومنين فلم يتكلم عن نفسه ولم تذكر المصادر البيزنطية أنه اهتم بالعلوم الطبية. ولكن معلوماتنا عن ذلك جاءت من خطاب أرسله الامبراطور كونراد الثالث Conrad III ملك ألمانيا، إلى ويبالد Wibald رئيس دير كورفي Corvey فى عام ١١٤٨م خلال أحداث الحملة الصليبية الثانية يذكر فيه أنه وقع فريسة للمرض، وأن الامبراطور نقله على وجه السرعة إلى القسطنطينية ليعالجه بنفسه. كما ذكر المؤرخ الصليبي وليم الصورى أن الامبراطور مانويل قدم الرعاية الطبية وأنه وضع الضمادات والأربطة بنفسه على ذراع الملك الصليبي بلدوين الثالث Baldwin III ملك مملكة بيت المقدس (١١٤٤ - ١١٦٢م) عندما سقط الملك من على فرسه وكسرت ذراعه فى إحدى رحلات الصيد قرب مدينة أنطاكية.

وتوجد علوم أخرى اشتغل بها البيزنطيون، وعلى رأس هذه العلوم تأتي مادة الكيمياء، وأهم ما قدموه فى هذا العلم هو النار الأخريرية، وذلك باستعمال مادة قابلة للاشتعال عندما يقذف بها على الأعداء، وقد أدركوا أهمية هذه العملية وجعلوها سرا من أسرارهم. أما علم الميكانيكا فقد تقدم فيه البيزنطيون كثيرا، ومن ذلك الساعات واللعب وتمثيل الأسود التى تزار، وهى أمور جعلت كل زوار القصر الامبراطور من الدبلوماسيين خاصة يتعجبون



لمثل هذه الأعمال، وأن الانسان يندم كثيرا عندما يعلم أن كل هذه الإبداعات قد نهبها الصليبيون مع الحملة الصليبية الرابعة.

وفيما يتعلق بالجانب العلمى بعد سقوط القسطنطينية، فيمكن القول أن الشاغل الأكبر لأباطرة نيقية فى المنفى ١٢٠٤ - ١٢٦١م كان العمل على إعادة الامبراطورية إلى سابق عهدها واسترداد أراضيها، وكل ما عدا ذلك كان يقع فى الاهتمامات الثانوية. وفيما يتعلق بالأحوال فى تلك المرحلة، تقول؛ كان يوجد الأباطرة ورجال الدين والعلماء. أما الأباطرة فكان عليهم استرداد أراضي الامبراطورية وهذا لا يتأتى إلا بعمل عسكري والامبراطورية غير قادرة على ذلك، وكان الأمل فى مساعدات أوربية وعلى رأسها الباباوية خاصة أن الأتراك السلاجقة كانوا فى الشرق يتطلعون إلى أراضي الامبراطورية. وإذا قلنا الاعتماد على أوربا، فكيف يأتى ذلك وأوربا نفسها هى التى دفعت قواتها فى الحملة الرابعة للاستيلاء على القسطنطينية. ومن هنا أصبح الاعتماد على الباباوية، ولم يك يرض الباباوية سوى اتحاد الكنيسة الشرقية والغربية، وهذا الأمر قد رضخ له الأباطرة نظريا ولكنهم قاوموه عمليا يساندهم ويشد من أزهرهم رجال الدين.

أما فيما يتعلق بالعلماء فإنهم عادوا بذاكرتهم إلى الخلف إلى علوم الأقدمين فضلا عن جميع الدراسات الدينية، وظهر فى هذه المرحلة بعض العلماء الذين اهتموا باللغة والأدب، كما تأثر البعض منهم بفلسفة توماس الأكويني Thomas Aquinas (١٢٢٥ - ١٢٧٤م) وهو الايطالى صاحب الفلسفة التى تنسب إلى اسمه وهى التومانية أو الكلامية وكانت شائعة فى أوربا العصور الوسطى. كما أن مدينة سالونيك كانت تدار بها حلقات للدراسة تناقش أفضل المؤلفات الأدبية. أما إمارة طرابزون (١٢٦١ - ١٤٦١م) فقد ظهرت بها بعض الأبحاث الفلكية، كما لمع أسماء بعض الفلكيين الذين درسوا فى بلاد

قارس مثل جريجورى خونىادس Gregory Chioniads ، وتلميذه جورج خريسوكوكيس George Chrysokokkes الذى اهتم بالطب والجغرافيا. ويلاحظ أن إمارة طرابيزون أصبحت فى هذه المرحلة تفتخر بجامعتها، كما أنها أصبحت مركزا للباحثين، وجمعت الترجمات الخاصة بالعلوم الفلكية والرياضية من أعمال الفرس والعرب، وأن ما قام به جريجورى خونىادس قد أتمه الراهب مانويل الطرابيزونى Manuel of Trebizond. وظلت طرابيزون منارة للعلم فى البحر الأسود، وأصبحت حلقة وصل بين العلوم العربية والفارسية إلى العالم، وظلت هكذا حتى أخضعها الأسطول العثمانى عام ١٤٦١م فى عهد السلطان محمد الفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١م) واستسلم آخر حكام الإمارة داود كومنين David Komnenos (١٤٥٨ - ١٤٦١م).

## الفن البيزنطى

يُعتبر الفن البيزنطى أصدق مرآة لكافة أنواع ومركبات الحضارة البيزنطية، والحقيقة أن بيزنطة قدمت للعالم أعظم ما لديها من تراث دام على مر الزمن. ومع العناصر الفنية التى قدمتها بيزنطة، تداخلت حضارات ومركبات كل من اليونانيين والرومانيين والأراميين والایرانيين، وإن كانت بنسب مختلفة، إلا أنها امتزجت امتزاجاً متناسقاً جعل من الفن البيزنطى فناً متكاملًا فريدًا وأصيلًا فى نوعه رغم تنوع مصادره. وواقع الحال أن الفن البيزنطى هو فن العاصمة البيزنطية. ويرى البعض ولديهم الحق فيما يقولون أن الفن البيزنطى كان فناً دينياً، ولكنه لم يكن فناً مسيحياً، وهى عبارة تحتاج إلى فهم دقيق لأن الصلة وثيقة بين الاثنين. وتفسير ذلك أن الفن البيزنطى كان ناتجاً عن انتصار المسيحية على الوثنية، وقد يكون ذلك واضحاً فى أيام دقلديانوس الذى أراد أن يرفع من عظمة الامبراطورية، وفن تشييد الكنائس

قبل عصر قسطنطين. ولكن قسطنطين مزج بين سمو الديانة المسيحية وعظمة الامبراطورين، وجعل مبن نفسه ظل الله ونائبه على ارض الامبراطورية. ومن هنا كان الفن الذي يمجد الديانة المسيحية كان أيضا يمجد الامبراطورية. ومن هنا اختلفت الرمزية التي مارسها المسيحيون عند بناء الكنائس، وحل محلها فن مبعثه الإلهام.

ومن المعروف أن الفن اليوناني اتجه نحو محاكاة الطبيعة بصورة مرتبة تتم عن الذوق الرفيع، وهذا الفن اليوناني قد ازداد تمثيلا في العصر الهلنستي، ثم زاد ذلك في عصر الامبراطورية الرومانية مع مزيد من الاتقان والتفاصيل والحجم، وأصبح الفن على هذه الصورة يحتاج إلى مهارات وجهد خاص.

ومع بدايات القرن الرابع كان للفن الشرقي سواء أكان مصريا أم سوريا أم آراميا أو ايرانيا تأثيره على كل أنحاء العالم ومنه الامبراطورية البيزنطية، وكان للفن الشرقي طابعه الخاص الذي تطلب أن يتحدث إلى الناس مباشرة دون تدخل من الفنان، ومن هنا كانوا يستغنون عن رقة الرسم ونسب التراكيب. وقد تقبل المسيحيون هذه الفكرة بكل إرتياح، فاليونانيون كان يصورون الإله أبولو في أجمل صورة، وكان لا يمكن للمسيحيين أن يصوروا السيد المسيح على هذه الصورة الجميلة، فهو الذي تحمل العذاب، وهو المخلص، وهو العظيم. وكان ينبغي لكل من يشتغل بالفن المسيحي أن يظهر السيد المسيح في شكل من هذه الأشكال حتى يحس به على الفور كل مسيحي. ومن هنا كان ينبغي أن ترسم على وجهه خطوط الآلام التي تحملها، والجدية والصرامة والاحساس بالخير الإلهي، ولذلك كان الفن البيزنطي فنا إنطباعيا. وقد عرف هذا المذهب باسم المذهب الإنطباعي Impressionism، وقالت عنه المراجع أنه من الإنطباعية، وذكرت أنه حركة ثورية حديثة ترجع أصلا

إلى فرنسا، وهو ينطبق على الفن والأدب والموسيقى، وأنه يهدف إلى قيام الفنان بنقل إنطباعات بصره أو عقله للجمهور وليس التصوير الواقعي الموضوعي. وفي الفن البيزنطي، فقد اقتصر هذا الفن على الجانب الفني فقط.

وقد أضاف الشرق إلى الفن البيزنطي عنصراً آخر، وهذا العنصر هو السيادة التي جاءت من الساسانيين من بلاد فارس، وهذا الفكر الجديد كان فيه قدراً من العظمة والوقار التي تتسم بالبساطة. ولعل ما مهد لذلك هو ديانة ميثرا Mithras ، وهو دين يتعلق بعبادة الشمس المكلفة بهالات المجد، وكان لهذه الديانة فناها الخاص، وهو فن رمزي يؤثر على النماذج والتصميمات بعقل الفن الأرامي.

ومن هذه المكونات جميعاً ظهر هذا الفن بُعيد عهد الامبراطور دقلديانوس، ويتضح ذلك من التماثيل التي عبرت عن الحكومة الرباعية، وقد حل محلها تصوير الامبراطور في مراحل لاحقة، وفيها الفن الرمزي غير الشخصي، ولا يظهر فيها الامبراطور في صورة بدنية رائعة، بل في صورة رمزية توضح عظمة الامبراطورية في مواجهة الغزوات الجرمانية، ثم تدخلت الفكرة الدينية بطريقة عاطفية مباشرة دون الالتزام بالإبداع الفني.

ولقد كان الفن البيزنطي واضحاً ومباشراً، ولكنه لم يك سهلاً، لأن العبادة وخاصة عبادة الامبراطور عليها أن تمتاز بالفخامة لدرجة كبيرة، وقد نجح الفنان البيزنطي في إظهار هذه الفخامة بوسائله الخاص، وما توفر له من مواد في البيئة التي يعيش فيها.

وبلغ الفنان البيزنطي مكانة كبيرة في التصرف في كافة مناحي الفنون؛ ومن ذلك أنه تصرف في استخدام الفسيفساء واختيار القطع ذات الألوان المناسبة بدلاً من الألوان في عمل لوحات التصوير أو الصور الجصية

على الجدران. واستعمل باقتدار خلفية من الذهب في تصوير الصزر الجصية،  
واستخدم الذهب أيضا في المخطوطات المحلاة بالصور، كما أضيف البرونز  
الملون بالذهب في التماثيل، وأضاف الفنان خيوط الذهب في الأقمشة خاصة  
الحرير. وإذا كان الذهب مكلفا في معظم الأوقات فإن الفنان البيزنطي استخدم  
معايير مصفرة في هذه الحالات. وقد استعمل هذه المعايير الصغيرة القائمة  
على الأتزان المتكامل في المنتجات الصغرى مثل النقش على العاج أو في  
أشغال المينا.

وفيما يتعلق بفن العمارة فالحقيقة أن فن العمارة البيزنطي قد تفرد عن  
كل ما عداه من الفنون التي أخذت خطوة إلى الوراء من حيث الأصول الفنية،  
أما الفن المعماري فقد واصل مهندسوه التقدم بإطراد في منهج مهارى في  
إطار أصول فنية.

ومن المعروف أن الامبراطورية لم تعترف بالديانة المسيحية إلا بعد  
ما يزيد عن ثلاثة قرون، وعلى ذلك لم يسمح الأباطرة الرومان للمسيحيين  
ببناء دور خاصة بهم يؤدون بها شعائرهم الدينية، وظلوا يمارسون صلواتهم  
 واجتماعاتهم في الخفاء. والراجح أنهم كانوا يؤدونها في بعض المعابد الوثنية  
النائية وفي دورهم الخاصة، ولم يقدموا على بناء كنائس خاصة بهم في هذه  
المرحلة. وعلى ذلك لم يظهر للفن المسيحي أثر واضح إلا في مقابرهم ذات  
قباب التي شيدت من الطوب اللبن، وبعض الصور التي سجلت على جدران  
المقبرة من الداخل

وبعد الاعتراف بالمسيحية أقام المسيحيون شعائرهم علانية، وبدأوا  
يتطلعون إلى إقامة مراكز دينية خاصة بهم، فحصلوا بإذن من الامبراطور  
على بعض المعابد الوثنية سواء بمقابل أو بدون مقابل وحولوها إلى كنائس، ثم

بدأوا يشرعون في إقامة كنائس جديدة. وفي هذا الوقت أيضاً لم يظهر لهم فن مسيحي قائم بذاته، لأن المعابد الوثنية ظلت باقية بفنها الروماني القديم، وما أقاموه من كنائس جاء تقليداً لما كان سائداً من الطرز المعمارية التي ألفوها في تلك المرحلة. وفي الفترة الممتدة من القرن الرابع حتى القرن السادس الميلادي بدأ الفن المسيحي المعماري يتخذ طرازاً خاصاً من ناحية التصميم المعماري. فنجد الطراز الدائري الذي انتشر في بلاد اليونان والشرق أي في المناطق التي كانت خاصة بالامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية)، كما تشاهد الكنائس المستطيلة Basilica التي سادت أنحاء غرب أوروبا. ومع هذا يلاحظ أنه لم يكن هناك خط جغرافي فاصل بين الكنائس الدائرية والكنائس المستطيلة، فقد وجدت بعض الكنائس الدائرية في الغرب وبعض الكنائس المستطيلة في الشرق، ولكن ما نود أن نوضحه أن الكنائس المستطيلة أصبحت سمة مميزة لفن بناء الكاتدرائيات والكنائس في الغرب، في حين أصبحت الكنائس الدائرية محور بناء الكنائس في الشرق سواء أضيف إلى هذه الكنائس الدائرية القباب أم لم تضاف.

كانت الامبراطورية البيزنطية هي الجزء الشرقي في الامبراطورية الرومانية، وعندما بنى الامبراطور قسطنطين القسطنطينية لتكون مركزاً لحكمه، كان للفن الروماني واليوناني أثره الواضح في العمارة. وعندما بنيت الكنائس الشرقية التي يمكن أن نطلق عليها الكنائس البيزنطية، والتي حملت فيها سمة العمارة البيزنطية، كان أثر العمارة اليونانية والرومانية واضحاً في هذه الكنائس. ومع مرور الوقت تأثرت الكنائس الشرقية بالعمارة الشرقية التي وجدت في فارس وآسيا الصغرى واكتسبت طابعاً مميزاً عن الغرب. هذا الطابع هو الفن المعماري البيزنطي، أي أن فن العمارة البيزنطية هو مزيج

بين فن العمارة اليونانى والرومانى والشرقى مع إضافة العامل الدينى والعامل الجغرافى.

ومن أهم ما تميزت به الكنائس البيزنطية شكلها المربع والقباب نصف الدائرية. ولكى تتخذ الكنيسة الشكل العام للصليب أضيف إلى ذلك المربع ذراعان جانبيان وهو أمر يتعلق بالجانب الدينى فى فن العمارة المسيحى بعامة. ومن الملاحظ أن الكنائس المسيحية فى هذه المرحلة قد بنيت من الأجر، ولعل ذلك يرجع إلى تعذر الحصول على الأحجار أو أن القائمين على أمر المسيحية فى هذه المرحلة كانوا يودون إقامة كنائسهم على وجه السرعة فلم ينتظروا حتى يحصلون على الأحجار، أو أن بناء الكنائس بالأجر فيه نوع من الزهد والبعد عن مباحج الحياة، وهو مبدأ حرصت المسيحية على تطبيقه خاصة فى عصورها الأولى.

وعلى أية حال فإذا كان ما يطالعنا عند مشاهدة الكنيسة من الخارج، هو الأجر، فإن جدرانها من الداخل قد غطيت بالرخام المنقوش على هيئة صور رمزية للقديسين والسيدة مريم والسيد المسيح. والحقيقة أن زخارف الكنيسة فى الشرق بلغت درجة من الرقى فاقت ما كان عليه الغرب بكثير لفترة ليست بقصيرة، وهى الفترة التى امتدت حتى القرن الحادى عشر الميلادى حين ظهر الفن المعمارى الرومانسكى. أما فيما يتعلق بأعمدة الكنائس البيزنطية فكانت مثل الأعمدة الرومانية مع تجديد هيئة التيجان التى غابت عليها صفة الاستدارة. كما تماسكت الأعمدة مع بعضها بعقود مقوسة أو على شكل حدوة الحصان. ونخلص من هذا كله إن الكنيسة البيزنطية فى هذه المرحلة بنيت من الأجر على شكل مربع ذو ذراعان تعلوه قبة، غطيت جدرانها فى الداخل بالنقوش الدينية.

وكانت كنيسة أيا صوفيا أعظم ما أعاد بناءه الامبراطور جستنيان Justinian (٥٢٧ - ٥٦٥م) وابقى على الدهر من فتوحه وقوانينه. ولم تكن أيا صوفيا هي الكنيسة الوحيدة التي أعاد بناءها جستنيان، بل كان في العاصمة البيزنطية ما يقرب من أربع وعشرين كنيسة أخرى بناها جستنيان أو أعاد بناءها في عاصمة ملكه، ويروى المؤرخ بروكبيوس Procopius ويقول: "إنك لو رأيت كنيسة منها بمفردها لحسبت أن الامبراطور لم يبن كنيسة سواها، بل قضى سنى حكمه جميعها في بنائها وحدها". وانتشرت حمى البناء في جميع أنحاء الامبراطورية طول حياة جستنيان، حتى كان القرن السادس الميلادي أكثر العصور ازدهاراً في تاريخ العمارة البيزنطية. وانتشرت الكنائس في إفسوس بآسيا الصغرى وفي أنطاكية وغازة، وبيت المقدس والاسكندرية وسانتيك ورافنا وروما. وكافة البلاد الممتدة من جنوب البحر الأسود حتى شمال أفريقيا.

والواقع أن الفن اليوناني والروماني والشرقي والمسيحي لم يكن قد امتزج قبل عهد جستنيان. ولكن ثورة نيقا Nika التي دارت أحداثها في عام ٥٣٢م أتاحت الفرصة للامبراطور جستنيان لبناء عاصمته من جديد. ذلك لأن السوق في لحظة من لحظات نشوة الحرية أحرقوا العديد من المباني، وكسان بين ما أحرق كنيسة البطريرك الكبرى. وكان في وسع جستنيان أن يعيد بناء ما أحرق حسب التخطيط القديم، فلا يتطلب هذا منه أكثر من عام أو اثنين، ولكنه لم يفعل ذلك وعقد العزم على أن ينفق في بناء الكنيسة مزيداً من الوقت والمال، وأن يستخدم في هذا البناء عدداً كبيراً من الرجال وأن يجعل عاصمة ملكه أجمل من روما. وأن يقيم بها كنيسة لا يدانيها صرح آخر في العالم كله. وكانت بداية عمله أن وضع في ذلك الوقت منهجاً للأبنية شمل الحصون والقصور والأديرة والكنائس.



وبدأ أول ما بدأ بكنيسة أيا صوفيا الجديدة فقد بدأ العمل بها بعد حوالي أربعين يوماً من أخماد نار ثورة نيقا، واستدعى لهذا الغرض المهندسين من أنحاء الإمبراطورية وعلى رأسهم أنتيموس أف ترالس Anthemius of Tralles، وأبولودورس الدمشقي Appollodorus of Damascus، وأزدورس أن مليتسوس Isidorus of Miletus ليضعوا رسوم البناء ويشرفون على التنفيذ. واستخدم الإمبراطور في العمل عشرة آلاف عامل، كما أمر حكام الولايات بأن يبعثوا إلى الكنيسة الجديدة بأجمل ما بقي من المخلفات القديمة، وجئ بعشرات الأنواع والألوان من الرخام من مختلف الأقطار، وصبت في النقوش والزينات مقادير هائلة من الذهب والفضة والعاج والأحجار الكريمة، واشترك جستنيان نفسه اشتراكاً عملياً في تخطيط البناء وإقامته. فقد كان يتردد يومياً على العمال وعليه ثوب أبيض وفي يده عصا طويلة، وعلى رأسه منديل، يشجع العمال ويحثهم على أن يتقنوا العمل ويتموه في الموعد المقرر. وقد تم بناء الكنيسة في حوالي ست سنوات.

وقد خط بناء الكنيسة على شكل صليب يوناني طوله ٢٥٠ قدماً وعرضه ٢٢٥، وغطى كل طرف من أطراف الصليب بقبة صغيرة، وقامت القبة الوسطى على المربع البالغ ١٠٠×١٠٠ قدم والمكوّن من الضلعين المتقاطعين. وكانت ذروة القبة تعلو عن الأرض مائة وثمانين قدماً وقطرها مائة قدم، وبنيت هذه القبة من الأجر. ويتخلل محيط هذه القبة أربعون نافذة مرتبة وفق نظام هندسي بديع، يكفل دخول قدر كاف من الضوء إلى داخل الكنيسة. وليست ميزة القبة في حجمها بل في دعائمها، فهي لا تقوم على بناء دائري، بل على عقود بين حافتها المستديرة وقاعدتها المربعة.

أما الكنيسة نفسها فهي مبنية من الأجر. وكان الناظر إليها من الداخل يرى صورة من الزخرف البراق، فقد كانت أرضها وجدرانها من المرمر

المتعدد الألوان. أبيض وأخضر، وأحمر، وأصفر، وأرجواني، وذهبي. وأقيم من هذا المرمر صفوف من الأعمدة يخيل إلى الناظر إليها أنها حديقة من الأزهار. وكانت تيجان الأعمدة والعقود وما بينهما والأفاريز مغطاة بالنقوش. أما الجدران والقباء فقد غطيت بالفسيفساء التي لا مثيل لها في الروعة. وإن ما يحس به الناظر إلى هذه الكنيسة من سعة تبعثها في نفسه أجنحتها الطويلة وبنائها الرئيسي، والفناء الخالي من الأعمدة تحت القبة الوسطى. وقد أعيد بناء قبة الكنيسة بعد أن دمرها زلزال عام ٥٥٨م. وظلت هذه الكنيسة باقية على حالها حتى عام ١٢٠٤م حين سقطت القسطنطينية في أيدي الصليبيين فأتلّفوا جانباً منها. وبقيت الكنيسة قائمة حتى الفتح العثماني للقسطنطينية عام ١٤٥٣م، فحولها الأتراك إلى مسجد وأضافوا إلى بنائها أربعة مآذن رشيقة تتناسب أتم التناسب مع أشكال القباب، وبعض التعديلات الأخرى التي تتناسب وضعها الجيد كمسجد، وما فعله الأتراك بالكنيسة أن غطوا الصور الداخلية المصنوعة من الفسيفساء بالجص. ولكن الحكومة التركية أذنت في عام ١٩٢٤م إلى طائفة من الباحثين بالمعهد البيزنطي في مدينة بوسطن أن يكشفوا عن هذه النماذج الفنية من أعمال الفسيفساء التي لا تسمو عليها نماذج أخرى، فأصبحت متحفاً للفن المعماري البيزنطي والتركي.

أما المباني الدنيوية فيصبح من الصعب الحديث عنها كثيراً لقلّة ما تبقى منها. وإذا بدأنا بالقصور نجد أن القصر كان به الكثير من القاعات مثل قاعة الطعام الذهبية، وقاعة الاستقبال. وكان القصر الأكبر مشيداً من ناحية الشكل العام مثل الكنائس ذات القباب والحنيات وغرف القربان. وإلى جانب القاعات في القصر الكبير كانت توجد الأروقة والحمامات وغرف الحرس وغرفة السلاح ومكتبة وأجنحة بها غرف للمعيشة والنوم، ويقال أن كان به متحف ربما يجمع بعض المخلفات الدينية أو الدنيوية، ولكن كل هذا قد جمع

فى مكان واحد هو القصر الكبير فى مجموعات رئيسية ثلاث دون أى وحدة فى التصميم.

وكان بالريف أيضاً بعض القصور، ولعل أشهرها القصر الريفى المثلالى الذى عاش فيه الشاعر ديجنس أكريتاس Digenis Acritas. وهو الشاعر أو الأمير العربى الأصل الذى تزوج أبوه من فتاة مبيحية وعاش على الحدود العربية البيزنطية. والحقيقة أن إسم هذا الشاعر الأصلى هو بازل Basil، أما كلمة ديجنس فمعناها أنه مولود من عنصرين مختلفين، أما أكريتاس فتعنى المدافع عن الحدود. ولسنا لنا فى هذه الصفحات أن نخوض فى الحديث عنه، والمهم هنا أن قصر هذا الشاعر كان يحتوى على ثلاث قباب، وأنه كان يتكون من أربع طوابق، وهو الأمر النادر الحدوث.

أما منازل الأحياء السكنية فعادة ما كانت تبنى من طابقين، وكانت غرف الطابق الأرضى تطل على صف من العقود، أما الدور الأول فكانت به غرفة المعيشة الرئيسية. وكانت هناك الأبراج التى تشكل الدفاعات العسكرية التى تقع على أسوار المدينة، أو فى أماكن منعزلة، وجداول المياه التى تعلوها القناطر التى صممت على الشكل الرومانى بالعقود النصف دائرية. كما أن السيرك قد بنى على الطراز الرومانى. يضاف إلى ذلك الصهاريج التى تتجمع فيها المياه لاستخدامها وقت جفاف نهر ليكوس Lycus الذى يغذى القسطنطينية. وقد بنيت هذه الصهاريج تحت الأرض خاصة فى القرون الأولى للإمبراطورية، وكانت هذه الصهاريج ذات أعمدة كثيرة حتى تتحمل ثقل السقف، ولا زال بعضها موجوداً حتى الآن كمزار سياحى مثل صهريج Bin-birDirk، الموجودة فى العاصمة إسطنبول.

وفيما يتعلق بالأبواب في المباني كلها فقد كانت مربعة القمة. أما النوافذ فقد اختلفت في المباني الدينية عنها في الدنيوية، فكانت ذات عقد مقوس وكانت كلها مستطيلة وضيقة، وكانت كل نافذة منها تتكون من ثلاث وحدات مستقلة مع وجود قواعد رخامية أو خشبية أسفل النافذة. وأحياناً نجد القمرات المستديرة المصنوعة من الزجاج في أغلب الأحيان.

وفيما يتعلق بالمواد التي صنعت منها المباني فكانت تختلف من منطقة إلى أخرى، فالأقاليم التي تكثرت بها الحجارة تكسى الحوائط بالأحجار المشغولة. وفي مدينة القسطنطينية كانت المباني تبنى من الطوب الأحمر، وكان يتم استخدام الأحجار أيضاً في أشكال متداخلة مع الطوب من أجل زخرفة المبنى، كما كانت الجدران الداخلية ذات الأهمية تكسى بمواد زخرفية مثل بعض الرخام المتنوع الألوان ويعلوها فسوص من الفسيفساء، وفي بعض الأحيان كانت تزين بالصور الجصية (الفريسكو أو لوحات). وفي المباني التي كانت بداخلها بعض الأعمدة كانت تيجان هذه الأعمدة تتحت بكل عناية.

أما فن النحت فقد أصبح فناً شرقياً بدلاً من النحت الكلاسيكي ذو الأبعاد الثلاثية، ويعتبر البعض أن ذلك يعد إنقلاباً لا تطوراً، وكان النحت الشرقي المأخوذ عن الآرامى يرى الأشياء مسطحة ولها بعدين إثنين ويحسب بها من الناحية التصويرية لا الناحية النحتية، وقد ظهر النحت الآرامى فى بلاد فارس. لذلك كان النحت البيزنطى فى حد ذاته صورة أكثر منه نحتاً. وفيما يتعلق بالثياب التي تتحت على الثياب فقد كانت تسير وفق نماذج هندسية بدلاً من المنحنيات الواقعية التي سار عليها الفن الكلاسيكي. ويوجد تمثال يرجع إلى أواخر القرن الرابع الميلادي يمثل مرحلة الانتقال من الفن الكلاسيكي إلى الفن البيزنطي، ويكاد يكون التمثال صورة، وعلى المشاهد أن ينظر إليه من الأمام. ويظهر وجه التمثال في صورة مبسطة مع المبالغة في

الخطوط التي تعلو الشفاة إلى الأنف لتضفى على الشكل رمزا للجلال الصارم للتعبير عن الولاء لعقيدة الامبراطور.

وسرعان ما تحول فن النحت إلى فن حفر بارز حفيف البروز مع اتخاذ الظلال بدلا من الألوان. والحقيقة أن أفضل أنواع الحفر البارز هي التي كانت تصنع فى أشكال صغيرة الحجم، سواء من المعادن أو الحجر، ولكن معظمها كان من العاج مثل علب المجوهرات أو علب الآثار المقدسة. ويتضح من هذا الحفر البارز التأثير الشرقى بصورة واضحة حتى نهاية القرن التاسع الميلادى. وبعد ذلك دخلت بعض عناصر الرشاقة على المشغولات النحتية دون القضاء على بساطة المدرسة الشرقية، ويرى البعض أن أفضل منحوتات بيزنطة هي التي صنعت فى تلك المرحلة مثل لوحة رومانوس الرابع وزوجته يودكيا. وبعد القرن الحادى أضمحل هذا النوع من الفن لغلو ثمنه. وإلى جانب ذلك كان هناك النحت الزخرفى وهو الشغل المتقرب، وأشغال المشبكات، والنحت التطريزى، والنحت الشامبلى، والأخير من نوع من أشغال المنيا الذى يتم بوضع مساحيق زجاجية فى شقوق معدنية.

ولعب التصوير دورا كبيرا بمؤثراته الشرقية وتفوق على فن النحت، وأدخل الفنان الشرقى خاصة الأرامى عناصر جديدة على العناصر الكلاسيكية التي ظلت تسير جنبا إلى جنب مع الأفكار الجديدة التي ترى فيها عمق الإحساس.

وفى ميدان التصوير البيزنطى فاقت الفسيفساء أى تصوير آخر، ويلاحظ أن فنانى الفسيفساء جعلوا مصدر الهامهم صورا مصغرة رقيقة وصغيرة حتى يسهل حملها من مكان إلى آخر، وإن ذلك لم يمنع من صنع فسيفساء على الأرض كبيرة الحجم. واستمرت المدرسة الكلاسيكية لفن

الفن البيزنطى. مع المدرسة الجديدة، بعد أن كُفِت نفسها إلى حد ما لتساير مطالب الزمن. ويلاحظ أن الفنان كان يملأ خلفية الصورة أيضا. وتتجلى المؤثرات الشرقية فى صور الطواويس التى زخفت من بلاد فارس إلى الفن البيزنطى.

ومع بداية القرن السادس الميلادى بدأ التأثير الشرقى يتدخل بقوة فى هذا المضمار، وبدأت صور الفسيفساء تأخذ نوعا من الصلابة مع قوة التأثير، ومن ذلك لوحة الامبراطور جستيان وزوجته ثيودورا وحاشية البلاط فى كنيسة سان فيتالى St. Vitalis فى مدينة رافنا Ravenna بإيطاليا، وهى الكنسية التى أكملها الامبراطور بعد ما ستعاد ايطاليا من أيدي القوط الشرقيين. كما أن الفسيفساء التى رسمت فى كنيسة آيا صوفيا بالقسطنطينية تسير فى نفس الاتجاه، ويمكن للزائر أن يراها الآن بعد إزالة الجص الذى وضعه الأتراك العثمانيون. أما كنيسة القديس ديمتريوس Demetrius فى مدينة سالونيك، فقد ظلت أعمال الفسيفساء تحتفظ بالكثير من العناصر الكلاسيكية، ولعل ذلك مرجعه إلى وقوع المدينة فى بلاد اليونان أى فى غرب الامبراطورية لا فى شرقها.

كما أن فسيفساء الأرضيات تباعدت عن الروح الكلاسيكية، وتضمنت طراز من الزخرفة ذات حلقات أكثر، وهو طراز شاع فى سوريا وفلسطين، والواضح أنها من صنع الأرمن وأهل الاسكندرية. وكان هؤلاء الصناع يتمسكون فى بداية الأمر بالعناصر الكلاسيكية. أما الأرمن فقد كانوا يرسمون الفسيفساء على الأرض طبقا للمؤثرات الايرانية التى جمعت بين النموذج الأرمينى والتمشى مع الطبيعة. وبعد القرن السادس بدت فسيفساء الأرض نادرة للغاية، وحل محلها كسوات أرضية هندسية مصنوعة من الرخام الملون فى أشكال صارخة.

ومن الفنون البيزنطية تجميل المخطوطات بالصور التي تعود إلى أصول سكندرية، وكانت هذه النماذج تنتقل إلى جميع أنحاء العالم البيزنطى، وضت بالطابع الكلاسيكى حتى القرن السادس الميلادى. وهناك مجلدات منسوخة استخدم فيها فن المنظور وإظهار الأشخاص فى جميع الأوضاع والاتجاهات، وكانت الصور تموه بألوان مجردة. كما أنها كانت مدرجة تدريجاً رشيقيًا. وهناك صور ظهرت فى مخطوطات القرن السادس مثل مخطوط قوزماس الملاح وفيها وردت الصور العلمانية بطريقة كلاسيكية، أما الصور الدينية فقد اتضح فيها الطابع الشرقى القوي. وبذلك يكون فن التصوير البيزنطى قد دخل فى مرحلة جديدة فى تكوينه وتركيبه، وأصبح العنصر الشرقى هو العنصر الغالب فى الفن البيزنطى. ويرى البعض أن أهم ما صنع من الفسيفساء ما أقيم بقبة الصخرة فى بيت المقدس وفى فناء المسجد الأموى بدمشق، وقد يرى البعض أن الحكام المسلمين فقد استخدموا الفنانين والمعماريين البيزنطيين بينما يرى البعض الآخر أن هذه الأعمال قد تمت بإيدى عمال وطنيين. وعبارة وطنيين، ربما تعود إلى أهل بلاد سوريا وليس العرب. وعلى أية حال فما هو موجود فى قبة الصخرة كان يتكون من أشكال أوراق الشجر المكس فوق بعضه، ومن حليه هندسية ذات تأثير فارسى. أما المسجد الأموى فكان فيه سلسلة فاخرة من المناظر الشجرية والتلايىة والمنازل، وهى موضوعة برشاقة وزاهية الألوان. وربما استخدم الفنان البيزنطى مع جانب من الفكر الإسلامى.

ولعبت فكرة عبادة الأيقونات دوراً كبيراً فى تحطيم الصور، وحقيقة الأمر أن الصور التى رسمت على الأيقونات جمعت بين الطابع الأرامى واليرانى والهلنىستى حتى انتصر الأخير. وعندما أصدر الامبراطور ليو الأيسورى مرسوماً يقضى بتحطيم الأيقونات، أصبحت هذه الصناعة صناعة

سرية يتولى أمرها الرهبان، وحل محلها في العلن بتشجيع من الحكومة فنا قائما على الأشكال الهندسية، أى أنه اصطبغ بالطابع الدنيوى. وطورت صور الطيور والحيوانات والأشجار إلى عناصر أخرى رضى عنها الأباطرة من أنصار محطى الصور. ولما كان المواطن البيزنطى أصبح شرقيا بدرجة كبيرة جعلته يعشق القصص، وقد وجد نفسه لا يستطيع أن يرسم الصور الدينية، ولا صور السيد المسيح أو القديسين، لذلك عاد إلى الأساطير الأغريقية التى قوبلت صورها بارتباح، وتدخل فى رسم الاشكال الكلاسيكية الجامدة وصورها فى أوضاع رشيقة، وبذلك عاد فن المنظور إلى الصورة مرة أخرى. وزاد هذه الأشكال رشاقة ما أضيف إليها من النماذج الشرقية مثل صور أوراق الشجر المجدول وبعض الطيور مثل الطواويس.

والحقيقة أن كل هذه النماذج إندثرت، وهذا ما أطلق عليه الفن الدنيوى. ولم يبين ما نعرفه عنها إلا ما هو مسجل فى المصادر البيزنطية. وعلى ذلك يمكن القول أن من نتائج تحطيم الصور إعادة الدين إلى حظيرة الفن، وأصبح على الفنانين البيزنطيين أن يكتفوا أنفسهم مع هذا النوع الجديد الذى أطلق عليه الفن الهلينستى الحديث Neo-Hellenism. وقد نجح هذا المزيج نجاحا كبيرا. وظهر فى القرن العاشر والقرن الذى يليه أبداع مرحلة ظهر فيها فن التصوير البيزنطى، ويتجلى ذلك فى زخرفة كنيسة القديس لوقا فى ولاية فكس Veccos، وهى الكنيسة التى شيدت فى أواخر القرن العاشر. وهناك مخطوطات سارت على النظام نفسه؛ وهناك العديد من الأمثلة على ذلك تضيق بها هذه الصفحات.

وواصل التأثير الكلاسيكى على الفنون فى القرن الثانى عشر، ولكنه قام على حساب القوة والوحدة. ومن ذلك الفسيفساء التى أمر الامبراطور البيزنطى مانويل (١١٤٣ - ١١٨٠م) بإنشائها فى كنيسة بيت لحم فى فلسطين



عام ١١٦٩م، وقد سجلت المصادر هذا الحدث، وذكرت أنه يوجد نص مكتوب باللغة اليونانية واللاتينية في كنيسة السيدة العذراء في مدينة بيت لحم، ومضمون هذا النص أن زخرفة هذه الكنيسة قام بها الفنان إفرم Ephrem، ويتضح من الاسم أنه أرميني، وأن ذلك تم في عهد الملك الصليبي عموري ورالف أسقف الكنيسة، والامتثلة على ذلك كثيرة. ويتضح من هذه الآثار أن العمل كان ذات قيمة زخرفية، ولكن الحدة التي اتصف بها الفن البيزنطي غابت عن هذه الزخارف:

وبعد عام ١٢٠٤م وسقوط مدينة القسطنطينية تشتت السكان وتوقفت الأعمال الفنية، ولم تعد السنوات التالية تسمح للفنون بالازدهار. وحتى بعد إسترداد القسطنطينية لم تعد موارد الدولة كافية لإعادة أعمال الفسيفساء غالية النفقة، ولذلك اتجه الفنان البيزنطي إلى الصور الجصية الجدارية (الفريسكو). وقد اتخذت هذه الصور أسلوب الفسيفساء المعاصر لها، وبدأت الصور الجصية أهم فروع التصوير مع إدخال عوامل جديدة وهي إظهار قدر من الانفعال، كان يصعب وضعه في أعمال الفسيفساء.

وفي عصر أسرة آل باليولوجس زادت الأعمال الكلاسيكية، فعاد إلى الظهور الرسم المنظور وتصوير الإنسان في صورة معقدة مع إضافة الخلفيات. والحقيقة إن كانت الكلاسيكية قد عادت بأسلوبها المرح، فإن القوة كانت موجودة وإن كانت بصورة عشوائية، كما احتفظت الرسومات بالزرعة الصوفية الأرثوذكسية مع قدر معين من المرونه. وبدأ هذا الفن يقارب الفن الإيطالي في تلك المرحلة، وبدأ وكان الشرق البيزنطي والغرب الأوروبي على اتصال وثيق في هذه الآونة، وإن كانت النقوش المسجلة تفيد أن الفنون البيزنطية على الصورة الجديدة هم أقدم من الإيطالية. ويمكن أن نجد هذا الفن المشترك للتصوير البيزنطي والإيطالي المتأخر في المخطوطات الأرمينية في

أقليم قيليقية بجنوب شرق آسيا الصغرى، وفيها تظهر المخطوطات محلاة بالصور التي تجمع بين القوة والرشاقة التي لم تك موجودة في الامبراطورية من قبل. كما عادت فكرة تجميل الصورة عند البيزنطيين فاتجهت إلى النماذج الكلاسيكية، ومنها أسلوب مدرسة الاسكندرية مع قليل من الزخرفة.

ومع بدايات القرن الرابع عشر الميلادي انطبع هذا الأسلوب على قطع الفسيفساء النادرة التي ظهرت في تلك المرحلة. ومن هذه التحف النادرة ما قام به عام اللاهوت والفيلسوف والمستشار الأعظم ثيودور ميتوخيتس Theodor Metochites في كنيسة خورا Chora وهي الآن Kahrieh Djami في مدينة القسطنطينية. وهي مجموعة ضخمة من أعمال الفسيفساء تتجلى فيها العظمة والجلال مع ضعف للروح الكلاسيكية، وتعتبر هذه الأعمال عن العواطف الانسانية أكثر مما تعبر عن القوة الروحية التي كانت سائدة في القرون السابقة. وفي هذه المرحلة ذهب الفنانون البيزنطيون إلى بلاد الصرب وأقاموا أعمالاً فنية في عدة كنائس في الفترة الممتدة من (١٣١٤ - ١٣٤٩م)، وهي أعمال تعبر عن مستوى عالي مثل ما صورت به السيدة العذراء. كما امتدت أعمال الفنان البيزنطي في عصر أسرة آل باليولوجس إلى بلاد البلغار مثل الأعمال التي وجدت في كنيسة القديس نيقولاس Nicholas. وحتى بعد سقوط الإمبراطورية في عام ١٤٥٣م نجد رسومات في شمال مولدافيا Moldavia، وقد حملت بصمات الفنان البيزنطي. وفي بلاد روسيا ومنها مدينة نوفجورد Novgord وحولها نجد أعمالاً فنية من القرن الرابع عشر الميلادي، ومنها بعض أعمال الصور الجصية (الفريسكو) تنسب على الفنان البيزنطي ثيوفانيس اليوناني Theophanes The Greek.

وعلى مدى ثلاثة قرون، انقسم الفن البيزنطي إلى مدرستين في الجانب الشرقي من الامبراطورية، وكانت المدرسة الأولى هي المدرسة المقدونية، ونرى أعمالها في القرن الرابع عشر في كنائس مقدونيا والصرب وهي من أثنى ما قدمه الفن البيزنطي، ومنها ما هو موجود في كنائس إمارة ميسترا Mistra ، وما هو موجود حول مدينة نوفجورد في روسيا. وفي المرحلة ذاتها نجد المدرسة الكريتية Cretan ، ونجد من أعمالها بعض لوحات في إمارة ميسترا في نهاية القرن الرابع عشر.

ويلاحظ أن المدرسة المقدونية قد بدأت من الجبل المقدس حيث يقع جبل أثوس Athos، قرب مدينة سالونيك وتأثرت بالفن الإيطالي من منطقة سينايا Siena ويظهر على فن هذه المدرسة الاحساس بالمأساة البشرية. أما المدرسة الكريتية فقد كانت أكثر ارتباطاً بالفن الإيطالي وخاصة فنون البندقية، وقد اكتسبت لونا من العواطف. وقد تفوقت المدرسة الكريتية على المدرسة المقدونية حتى في كنائس جبل أثوس.

وإلى جانب ذلك وجدت الفنون الصغرى، وقد تفوق البيزنطيون في هذا المضمار تفوقاً في جميع ما يتصل بهذا الفن، والحقيقة أن مثل هذه الأعمال ترتبط بالمواد الثمينة مثل الذهب أو أشغال المينا أو صناعة الحرير. وقد اتسمت هذه الفنون بالتححرر مع البساطة الدينة بحيث يبدو العمل فاخراً.

ومن الواضح أن الحرير جاء إلى الامبراطورية من بلاد الصين عبر بلاد فارس، ومن الطبيعي أن تتأثر صناعة الحرير بالفن الفارسي. واتخذت من هذا الفن التصميمات والرسوم، وأصبح يصور على الحرير أحداث الحياة اليومية برسوم زخرفية، وهذا النوع يطلق عليه Genre، وهكذا استعمل الفنان

البيزنطى الديباج الموشى المماثل للفن الإيرانى مادة له وأن تأسر بالرشاقة الكلاسيكية.

كما اهتمت الامبراطورية البيزنطية بفن صناعة المينا Enamel، وهذا الفن الشرقى الأصل يأت عن طريق حشو الفراغات الموجودة فى الأجسام مثل الخواتم أو الأيقونات بمادة من السيراميك ذات ألوان متناسبة، وكان الفنان البيزنطى سباق فى هذا المضمار، والحقيقة أن هذا الفن ليس بجديد على الفنون، فقد وجدت أمثلة قليلة للغاية فى مصر ترجع إلى عصر الامبراطورية الرومانية. ولكن الإضافة التى قدمها البيزنطيون هى المينا المتجزئة Cloisonné، وهو فن من أشغال المينا يفصل بين أجزائها شرائط متعددة، والحقيقة أن مثل هذا الفن كان من الصعب بمكان لأنه يحتاج إلى مهارة عالية للغاية، خاصة أنه يتدخل فى عملياتها صهر المعادن فى درجة حرارة عالية. والواضح أن صناعة المينا أصبحت فى أواخر عصر الامبراطورية من المواد الفنية الفاخرة عالية الثمن بحيث تعذر الإكثار من صناعتها وبيعها.

ومن الفنون البيزنطية أشغال النل Niello. وهى صناعة ترتبط باستخدام خليط معدنى فاحم اللون تملأ به الرسوم المنقوشة على الصفائح المعدنية، وكذلك الأشغال الدمشقية، وهذا النل لا يختلف كثيراً عن تصميمات أشغال المينا المعاصرة لها.

وأخيراً فن صناعة الزجاج والخزف، والحقيقة أنه لم يبق من الأعمال الزجاجية أثر حتى الآن، فربما تُظهر الاكتشافات المزيد من هذه الأعمال، أما الخزف البيزنطى فكانت أعماله متدنية للغاية، وكان مصدر هذه الأعمال يرجع إلى بلاد فارس. والواقع أنه حتى الآن لا توجد غير أيقونة

واحدة خزفية موجودة في كنيسة باتلينا Patlina في دولة بلغاريا يرجع تاريخها إلى القرن العاشر وعليها صورة القديس ثيودور Theodore، وهي مصنوعة من القرميد Tile الملون.

وإذا توفف الانسان أمام هذه الأعمال الفنية، قد لا يشعر أنه أمام عمل فنى، وإنما أمام عاطفة متدفقة صورها الفن، لقد كان الراهب البيزنطى مدفوعا بحماسة الدينة إلى الزهد طلباً للراحة النفسية، وقد وجد الفنان فى هذه السكينة عاطفة ألهمت الفن البيزنطى.

## الفصل التاسع

الإسلام والبيزنطيون. الحياة الاقتصادية.  
الدبلوماسية البيزنطية.



## الإسلام والبيزنطيون

### مقدمة:

بعد سنوات قليلة على ظهور الإسلام نجح المسلمون في فتح بلاد الشام والعراق ومصر، وتلى ذلك تقدم العرب إلى الغرب في شمال أفريقيا، وعند نهاية القرن السابع الميلادي تمكن المسلمون من فتح شمال أفريقيا كله، وأعقب ذلك فتح إسبانيا. وعلى هذه الصورة أصبح المسلمون يسيطرون على السواحل الشرقية والجنوبية والغربية للبحر المتوسط. ولم يكن للمسلمون أسطولاً ولا خبرة بحرية، لذلك استعانوا بأهل البلاد المفتوحة وتمكنوا من فتح جزيرة قبرص في منتصف القرن السابع واتخذوا من هذه الجزيرة محطة بحرية هامة، انطلقوا منها إلى جزيرة كريت وتقدموا حتى بحر إيجه وحاولوا فتح القسطنطينية ولكنهم لم يوفقوا.

وأصبح فتح العاصمة البيزنطية هدفاً كبيراً للسياسة الإسلامية لذلك كانت حملة عام ٧١٧م، ولكن الإمبراطورية البيزنطية تصدّت لهذه المحاولة بقيادة الإمبراطور ليو الأيسوري وارتد المسلمون عن العاصمة البيزنطية، وظلت فكرة الاستيلاء على القسطنطينية باقية في أذهان المسلمون. وعلى أية حال يمكن القول: إن الصراع بين الدولة الأموية والإمبراطورية كان صراع وجود بمعنى أن الدولة الأموية وضعت في أهدافها السياسية الأساسية إسقاط القسطنطينية.

وفي العصر العباسي وهو العصر الذي تلى فترة الحكم الأموي انتقلت العاصمة من دمشق إلى بغداد، وظل الصراع قائماً بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية، ولكن أهداف هذا الصراع في هذه المرحلة اختلف



من المرحلة السابقة، فكثيراً ما نسمع عن تدخل الجيوش العباسية في عمق آسيا الصغرى مثلما تم في عهد هارون الرشيد والخليفة المعتصم، ولكن مثل هذه المعارك يمكن أن نطلق عليها غارات عسكرية القصد منها الحفاظ على هيبة الدولة العباسية أكثر من الاحتفاظ بالأراضي البيزنطية، وكثيراً ما عقدت الهدن بين الدولة العباسية والإمبراطورية وتم تبادل الأسرى وهو ما عرف في المصادر الإسلامية باسم الفداء. وعلى ذلك يمكن القول: إن الصراع بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة العباسية كان صراع حدود، بمعنى أن كل طرف من الطرفين حاول جاهداً الحفاظ على حدوده كما هي رغم ما عرف بأسم الصوائف والشواتي عند المسلمين.

وخلال الصراع الطويل الذي قام بين المسلمين والبيزنطيين، ظلت آسيا الصغرى على حالها مسيحية تابعة للإمبراطورية. ولكن الموقف السياسي تغير في آسيا الصغرى عندما بدأ السلاجقة يزحفون إلى آسيا الصغرى. ففي عام ١٧٠١م، هزم السلاجقة الجيش البيزنطي هزيمة قاسية أفقدت الإمبراطورية توازنها وأسروا الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع في معركة مانزكرت. وفي العام نفسه تقدم السلاجقة واستولوا على بلاد الشام من أيدي الفاطميين واستولوا على مدينة القدس. ومنذ هذه المرحلة صار الإسلام خطراً كبيراً عاد يهدد الإمبراطورية البيزنطية، وأكملت الدولة العثمانية سياستها ضد بيزنطة بعد زوال دولة سلاجقة الروم.

وكانت معركة مانزكرت ونتائجها سبباً من أسباب الحروب الصليبية. والواقع أن موقف الإمبراطورية البيزنطية خلال الحروب الصليبية كان شديد التعقيد، ولم يك لدى بيزنطة أية فكرة عن الحروب الصليبية، ولم يك من سياسة بيزنطة العمل على استعادة القدس، ولم يكن داخل بيزنطة أيضاً من يحرضون البيزنطيين على قتال المسلمين. ولكن الإمبراطورية البيزنطية

دخلت رغماً عنها معترك الحروب الصليبية، فقد استفادت من قوات الحملة الصليبية الأولى واستعادت من سلاجقة الروم أراضي كبيرة في آسيا الصغرى.

وإذا كانت الإمبراطورية البيزنطية قد سايرت الحروب الصليبية مضطرة واستفادت منها، إلا أن الصليبيين اعتبروا كل فشل صادف الحروب الصليبية تتحمل مسؤوليته الإمبراطورية البيزنطية، وإن كان في ذلك تجني عليها. ولقد دفعت بيزنطة ثمن ذلك غالباً عندما انحرفت الحملة الصليبية الرابعة في عام ١٢٠٤م واستولت على القسطنطينية وأسقطت الإمبراطورية حتى عام ١٢٦١م. وعندما قامت أسرة باليولوجوس في عام ١٢٦١م لتعيد إحياء الإمبراطورية كانت أضعف من أن تقوم بأي محاولة لاستعادة ما فقدته بيزنطة على أيدي السلاجقة في آسيا الصغرى ومن بعدهم العثمانيين فاستمر صراع الوجود، أي أن سلاجقة الروم قد وضعوا ضمن أهدافهم السيطرة على آسيا الصغرى، وزاد الأمر من ذلك أيام الأتراك العثمانيين.

### السفارات:

ولما كانت الحرب شبه دائمة بين المسلمين والبيزنطيين، فقد كانت العلاقات السياسية بين الطرفين أمراً أساسياً بينهما. ومن ذلك أن الطرفين اهتمتا إهتماماً كبيراً بأمر السفارات. وقد كانت مراسم استقبال السفراء المسلمين الذين وفدوا إلى العاصمة البيزنطية في فترات الهدن أو الصلح تجري في نظام دقيق. وكانت الإمبراطورية تستقبل السفراء وترحب بهم وتحيطهم بكل مظاهر الاحتفال والمجاملات الدبلوماسية وما يصاحب ذلك من عرض للقوات العسكرية البيزنطية استعراضاً للقوة. وفي كتاب المراسم الذي وضعه المؤرخ الإمبراطور قسطنطين السابع وصفاً للاستقبال الودي الذي

استقبلت به الإمبراطورية سفراء بغداد والقاهرة وغيرها من العواصم.

وأولت الإمبراطورية عناية خاصة بسفراء دمشق وبغداد، فقد كان سفراء المشرق يجلسون في أماكن أشرف من أماكن سفراء الغرب، كما كان سفراء المسلمين بعامة يجلسون على المائدة الإمبراطورية في مقاعد أعلى من مقاعد سفراء الفرنجة. كما أن سفراء البيزنطيين عندما كانوا يفدون على بغداد أو عاصمة أخرى، كان الحاكم الإسلامي يستقبلهم إستقبالا رسمياً مع إقامة العروض العسكرية.

ومن مظاهر استقبال سفراء الإمبراطورية البيزنطية في الأندلس عام ٩٤٧م أن الإمبراطور قسطنطين السابع أرسل سفارة إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر حيث استقبلها في قصر قرطبة. ويذكر ابن خلدون في صدد ذلك "ووفدت عليه سنة ست وثلاثين [وثلاثمائة] رسل صاحب القسطنطينية هديته، وهو يومئذ قسطنطين بن ليون بن شل، واحتفل الناصر للقائهم في يوم مشهود، وكُتب [جعلها كتائب] فيه العساكر بالسلاح في أكمل هيئة وزين القصر الخلفي بأنواع الزينة وأصناف الستور، وجعل السرير الخلفي بمقاعد الأبناء والأخوة والأعمام والقراية. ورتب الوزراء والخدمة في مواقفهم، ودخل الرسل، فهاهم ما راوا وقربوا حتى أدوا رسالتهم. وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا في ذلك المحفل، ويعظموا أمر الإسلام والخلافة، ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه وأعزازه".

وحول هذه السفارة أيضاً يروي المقرئ "ورحل الناصر لدين الله من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لدخول وفود الروم عليه، فقعد لهم... في بهو المجلس الزاهر قعوداً حسناً نبيلاً، وقعد عن يمينه ولي العهد من بنيهِ، الحكم. ثم عبد الله ثم عبد العزيز ثم الأصبغ ثم مروان، وقعد عن يساره المنذر، ثم

عبد الجبار، ثم سليمان، وتخلّف عبد الملك لأنه كان عليلاً لم يستطيع الحضور، وحضر الوزراء على مراتبهم يمينا وشمالاً، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالي الوكلاء وغيرهم، وقد بسط صحن الدار أجمع بعثاق البسط وكرائم الدرانك [جمع درنك وهو بساط ذو خمل قصير]، وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفيع الستور، فوصل رسل ملك الروم حائرين مما رأوا من بهجة الملك وفخامة السلطان ودفعوا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية العظمى قسطنطين بن ليون، وهو في رق مصبوغ لونه سماوياً مكتوب بالذهب بالخط الإغريقي، وداخل الكتاب مُدرجة مصبوغة أيضاً مكتوبة بفضة بخط أغريقي أيضاً فيها وصف هديته التي أرسله بها وعددها، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل، على الوجه الواحد منه صورة المسيح، وعلى الوجه الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده، وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع، وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج".

ومن الملاحظ أنه كان في ترجمة عنوان هذا الكتاب في سطر منه: "قسطنطين ورومانوس [ابنه] المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم، وفي سطر آخر إلى العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس، أطال الله بقاءه".

ويقدم لنا المؤرخ ابن شداد وصفاً ممتعاً عن السفارة التي قدمت إلى صلاح الدين الأيوبي في عام ٥٨٥هـ / ١١٨٩م من قبل الإمبراطور البيزنطي إسحاق الثاني أنجيلوس ١١٨٥ - ١١٩٥م. ويقول ابن شداد "وكان بين السلطان رحمة الله عليه - وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة، وكان وصل منه رسول إلى الباب السلطاني بمرج عيون في رجب سنة خمس

وثمانين وخمسمائة في جواب رسول كان أنفذه السلطان - رحمة الله عليه -  
إليه بعد تقرير القواعد وإقامة قانون الخطبة في جامع قسطنطينية، فمضى  
الرسول، وأقام الخطبة، ولقي باحترام عظيم وإكرام زائد، وكان قد أخذ معه  
في المراكز الخطيب والمنبر وجمعا من المؤذنين والقراء، وكان يوم دخولهم  
إلى قسطنطينية يوما عظيما من أيام الإسلام شاهده جمع كثير من التجار،  
ورقي الخطيب المنبر، واجتمع إليه المسلمون المقيمون بها والتجار، وأقام  
الدعوة الإسلامية العباسية ثم عاد، فعاد معه هذا الرسول يخبرنا بانتظام الحال  
في ذلك، فأقام مدة. ولقد شاهدته يبلغ الرسالة، ومعه ترجمان يترجم عنه،  
وهو شيخ أحسن ما يفرض أن يكون من صدر المشايخ، وعليه زيهم الذي  
يختص بهم، ومعه كتاب وتذكرة، والكتاب مختوم بذهب، ولما مات وصل إلى  
ملك القسطنطينية خبر وفاته، فأنفذ هذا الرسول في تمة ذلك، ووصل معه  
الكتاب في جواب ذلك وصوره ما فسر من الكتاب الواصل منه ووصفه، إنه  
كتاب مدروج عرضا، وهو دون عرض كتاب بغداد، مترجما في ظاهره  
وباطنه بسطرين، بينهما فرجة، وضع فيها الختم والختم من ذهب مطبوع كما  
يطبع الخاتم في الشمع على ختمه صورة ملك، وزن الذهب خمسة عشر  
دينارا، مضمون السطرين المكتوبين، ما هذا صورته: من ايساكْيوس [إسحاق]  
الملك المؤمن بالمسيح...، المتوج من الله المنصور العالي أبدا... المدير من  
الله القادر الذي لا يغلب، ضابط الروم بذاته أنكليوس [أنجليوس] إلى النسيب  
سلطان مصر صلاح الدين"..... وأما ما فسر من الكتاب فهذا: المحبة المودة،  
وقد وصل خط نسبك الذي أنفذت إلى ملكي، وقرأناه وعلمناه منه أن رسولنا  
توفي وحرزنا أنه توفي في بلد غريب، وما قدر أن يتم كلما رسم له ملكي،  
وأمره أن يتحدث مع نسبك، ويقول في حضرتك، ولا بد لنسبتك أن تهتم بانناذ  
رسول إلى ملكي ليعرف ملكي ما بعثت إليك مع رسولي المتوفي. وأما  
القماش الذي خلفه بعد موته ينفذ إلى ملكي لنعطيه أولاده وأقاربه، وما أظن

أنه سمع نسبته أخباراً رديئة، وأنه قد سار في بلاد الألمان، وما هو عجب فإن الأعداء يرجفون بأشياء كذب على قدر أغراضهم، ولو تشتت أن تسمع الحق فإنهم قد تأذوا وتعبوا أكثر مما آذوا فلاحى بلادى، وقد خسروا كثيراً من المال والدواب والرحل والرجال، ومات منهم كثير، وقتلوا، وتلفوا، وبالشدة قد تخلصوا من أيدي أجناد بلادى، وقد ضعفوا بحيث أنهم لا يصلون إلى بلادك، وإن وصلوا كانوا ضعافاً بعد شدة كثرة، ولا يقدر أن ينفعون جنسهم، ولا يضررون نسبته، وبعد ذلك كله العجب كيف قد نسيت الذي بينى وبينك، وكيف ما عرفت لمكى شيئاً من المقاصد والمهمات، ما ربح ملكى محبتك إلا عداوة الفرنج وجنسهم.....

وقد علم صلاح الدين بترجمة هذا الخطاب، وأكرم الرسول وأحسن مسواه، وكان شيخاً حسن الخلق، مهيباً، عارفاً بالعربية واللاتينية واليونانية.

والمهم أن هذه الرسالة قد حملت معلومات في غاية الأهمية، فهي توضح لنا العلاقات الطيبة التي كانت بين الإمبراطورية البيزنطية وبين صلاح الدين وما كان من أمر جامع القسطنطينية والمنبر والخطيب والقراء. ويوضح لنا الخطاب الحركة التجارية أيضاً بإشارته إلى حضور جمع كثير من التجار هذا الاحتفال، ويشير أيضاً أن جماعة من المسلمين كانوا يعيشون في القسطنطينية وإلى جانب ذلك إشارة إلى أن الخطبة في المسجد التي كانت الدعوة فيها للخلافة العباسية.

ويتضح من النص الذى أورده ابن شداد أيضاً أنه كان هناك زياً خاصاً للسفراء وأنه كان يحمل معه "تذكرة" وهي أشبه بخطاب الاعتماد في أيامنا هذه. وتشير النصوص أيضاً إلى أن الخطاب الذى أرسل إلى صلاح الدين كان أقل عرضاً من الخطابات التي ترسل إلى الخليفة العباسي في بغداد. كما يتضح أيضاً طريقة وضع الأختام الذهبية المطبوعة في الخطاب.

ويُفسر الخطاب أيضاً طريقة توريث المتوفي عندما أشار إلى الشمس الذي سوف يعطي لأولاده وأقاربه. وفوق هذا كله، فالخطاب يقدم تحذيراً لصلاح الدين عن أخبار قدوم الحملة التي قادها فريديريك بباروسا امبراطور ألمانيا الذي تولى قيادة قواته ضمن قوات الحملة الصليبية الثالثة التي قدمت من أوروبا لمحاولة استعادة مدينة القدس بعد ما استردها صلاح الدين عام ١١٨٧م. وفي النهاية يوضح الإمبراطور مدى العداوة التي لحقت به من جانب الصليبيين لأنه على علاقة طيبة مع المسلمين.

### الرحالة المسلمون:

وخلال فترة الحروب الصليبية وما بعدها زار القسطنطينية مجموعة من العرب وتركوا لنا معلومات قيمة عن المدينة، ونذكر من هؤلاء الرحالة أبو الحسن علي بن أبي بكر الهروي المتوفي بحلب عام ٦١١هـ، وقد سجل الهروي مشاهداته في كتابه كتاب الإشارات إلى معرفة الزيات. وكانت زيارة الهروي للعاصمة البيزنطية في عهد الإمبراطور مانويل كونييوس. وما يعيننا في هذا الموضوع ما ذكره الهروي عن الآثار الإسلامية والتسامح الديني داخل الإمبراطورية البيزنطية. فقد ذكر أنه في جانب من مدينة القسطنطينية قبر أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، واسمه خالد بن زيد. ولما قتل دُفنه المسلمون وقالوا للروم "هذا من كبار أصحاب نبينا، فوالله أن نبش لادق بناقوس في أرض العرب أبداً" وهذا القبر موجود حتى أيامنا هذه. ويضيف الهروي أن بها الجامع الذي بناه مسلمة بن عبد الملك والتابعون، وبه قبر رجل من ولد الحسين. وفي نهاية حديث الهروي عن القسطنطينية يشير إلى التسامح الديني وحسن معاملة الإمبراطور مانويل له، واختتم الحديث بقوله: "وهذه المدينة هي أكبر من إسمها فالله تعالى

يجعلها دار الإسلام بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى".

وعندما تحدّث الهروي عن مدينة عمورية ذكر أن بها قبور جماعة استشهدوا مع الخليفة المعتصم رضي الله عنهم، وعندما تحدث عن مدينة قيصرية كبادوكيا أورد أن بهذه المدينة حبس محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب، وبها جامع محمد البطل. وتحدث الهروي أيضاً عن جزيرة قبرص وقال ورأيت بجزيرة قبرص مكتوباً على حجر ما هذه صورته بعد البسمة وسورة الاخلاص: "هذا قبر عروة بن ثابت توفي في شهر رمضان سنة تسع وعشرين للهجرة".

ومن الذين زاروا القسطنطينية الرحالة ابن بطوطة، وقد ترك لنا وصفاً في عدة صفحات عن المدينة والإمبراطور وكنيسة آيا صوفيا وبعض الأديرة وقاضي القسطنطينية المسلم. وسوف نسجل بعض لمحات من هذه الزيارة، فقد ذكر: "وكان دخولنا عند الزوال أو بعده إلى القسطنطينية، وقد ضربوا نواقيسهم حتى ارتجت الأفاق لاختلاط أصواتها. ولما وصلنا بابا من أبواب قصر الملك وجدنا به مائة رجل معهم قائد لهم فوق مكانه، وسمعتهم يقولون: سراكنو، ومعناه "المسلمون".

ويذكر ابن بطوطة عندما سمح له بمقابلة الإمبراطور أنه وصل إلى قبة والسلطان على سريرته وعن يمينه ستة رجال وعن يساره أربعة وكلهم بالسلاح، فأشار إليّ قبل السلام والوصول إليه بالجلوس هنية ليسكن من روعي، ففعلت ذلك، ثم وصلت إليه، فسلمت عليه وأشار إليّ: أن أجلس، فلم أفعل، وسألني عن بيت المقدس وعن الصخرة المقدسة وعن كنيسة القيامة وعن مهد عيسى عليه السلام، ثم عن دمشق ومصر والعراق وبلاد الروم، فأجبتّه عن ذلك كله واليهودي يترجم بيني وبينه، فأعجبه كلامي، وقال



لأولاده: أكرموا هذا الرجل وأمنوه، ثم خلع عليّ. وأمر لي بفرس مسرج ملجّم، ومظلة من التي يجعلها الملك فوق رأسه، وهي علامة الأمان، وطلبت منه أن يعين من يركب معي بالمدينة في كل يوم حتى أشاهد عجائبها وغرائبها، وأذكرها في بلادي، فعين لي ذلك. ويضيف ابن بطوطة أن من عوائد البيزنطيين "أن الذي يلبس خلعة الملك ويركب فرسه يطاف به في أسواق المدينة بالأبواق والأنفار والأطبال ليراه الناس".

ويضيف ابن بطوطة أنه كان يوماً مع الرومي المعين للركوب معه، فرأى والد الملك وكان هذا الوالد قد سلك الرهبانية فلما رآه الرومي نزل وقال لي: إنزل فهذا والد الملك فلما سلم عليه الرومي سأله عني، ثم وقف وبعث لي فجئت إليه فأخذ بيدي وقال لذلك الرومي، وكان يعرف اللسان العربي: قل لهذا السراكنو، يعني المسلم، أنا أصافح اليد التي دخلت بيت المقدس، والرجل التي مشت داخل الصخرة والكنيسة العظمى وبيت لحم، وجعل يده على قدمي ومسح بها وجهه، فعجبت من اعتقادهم فيمن دخل تلك المواضع من غير ملتهم.

### العلاقات الثقافية:

ويبدو لغير المتخصصين في التاريخ البيزنطي أن مصالح الإمبراطورية والدول الإسلامية لا يمكن لها أن تلتقي، لأنهما العدوين قد فرقت بينهما السياسة والعقيدة، إلا أن الواقع كان غير ذلك، فإن الأعمال العسكرية بين الطرفين لم تمنع قيام علاقات ثقافية بين الطرفين. والحقيقة أنه خلال العصور الوسطى كانت هناك مجموعة من المراكز الثقافية العالمية. فقد كانت القسطنطينية وهي المدينة الغنية وأبرز مدن أوروبا في العصور

الوسطى. وهي أيضا المدينة التي زارها الجغرافي والمؤرخ المشهور المسعودي. وقد ترك لنا وصفا ممتعا وقال: "ولم تزل الحكمة باقية عالية زمن اليونانيين، وبرهة من مملكة الروم، تعظم العلماء، وتشرف الحكماء، وكانت لهم الآراء في الطبيعيات والجسم والعقل والنفس، والتعاليم الأربعة، وهي الإرتماطقي، وهو علم الأعداد، والجومطريقي وهو علم المساحة والهندسة، والأسترنوميا وهو علم النجوم، والموسيقى وهو علم تأليف اللحن، ولم تزل العلوم قائمة السوق، مشرقة الأقطار قوية المعالم، شديدة المقاومة، سامية البناء، إلى أن تظاهرات ديانة النصرانية في الروم، فغفوا معالم الحكمة، وأزالوا رسمها ومحووا سبلها، وطمسوا ما كانت اليونانية أبانته، وغيروا ما كانت القدماء منهم أوضحته. والحقيقة أن ما ذكره المسعودي سليما إلى حد كبير ولكن علينا أن نقرأه بحذر خاصة فيما يتعلق بزوال المعرفة في الإمبراطورية البيزنطية ولكن ما حدث أن الإمبراطورية تطرقت إلى علوم اليونان من خلال نظرة مسيحية وليست وثنية كما كانت عند اليونان.

وبالإضافة إلى القسطنطينية كانت هناك مراكز إسلامية عديدة في العصور الوسطى، فقد كانت دمشق في بداية الأمر حيث كانت عاصمة الأمويين، وتلى ذلك مدينة بغداد حاضرة الخلافة العباسية وما كان لها من أمجاد حتى اجتاحتها المغول في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي. وقد كانت القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية ثم الأيوبيين ثم المماليك، وما كان لهؤلاء من أمجاد شهد لها التاريخ الأوروبي قبل الإسلامي. ومن العواصم الإسلامية أيضا قرطبة حاضرة الأندلس وما كان لها من دور حضاري رائع قريب من أوروبا، يضاف إلى ذلك جزيرة صقلية أثناء الحكم الإسلامي وحتى بعد أن استولى عليها النورمان. والحقيقة التي أود أن أركز عليها أن صقلية، كانت مركزا علميا إسلاميا كبيرا لأن أوروبا أفاقت من غياهب العصور

الوسطى لتجد نفسها أمام حضارة إسلامية شامخة البناء، فأخذ أهل أوروبا يقبلون على الحضارة الإسلامية. ومن علماء المسلمين في صقلية الأدريسي الجغرافي الذي ولد في مدينة سبته حوالي عام ١١٠٠م وتلقى علومه في قرطبة وكتب في مدينة بالرمو عاصمة صقلية استجابة لطلب روجر الثاني ملك صقلية (١١٢٩ - ١١٥٤م) كتابه المسمى "نزهة المشتاق في اختراق الأفاق". ولست في حاجة إلى الحديث عن بغداد ولكنني أكتفي بأن أقول أن بغداد كانت حديقة حقيقية للمعرفة والعلم والفنون. أما مدينة قرطبة التي كانت أكثر المدن الأوروبية حضارة فقد أثارت دهشة العالم وإعجابه، وكان بها حوالي سبعين مكتبة وتسعمائة حمام.

ولقد كانت الولايات البيزنطية والفارسية التي فتحها العرب على اتصال وثيق بالثقافة الهلنستية، وبذلك انضم إلى المسلمين عديد من المراكز الثقافية الكبيرة مثل الإسكندرية وأنطاكية وبيروت وقيصرية وغازة، وأصبحت مدارس هذه المراكز ومتاحفها وسكانها المشبعين بالحياة الفكرية الهلنستية جزءاً من العالم الإسلامي. وعن طريق هذه المراكز عرفوا آثار القدماء ومعارفهم في ميدان العلوم والفنون وقد أضافوا إليها الكثير حتى خرجت الحضارة الإسلامية بالصورة التي نعرفها، حيث ألفوا علوماً خضعت للمنهج التجريبي بعد أن كانت نقلاً وتعريباً.

ولقد شاهدت العلاقات البيزنطية الإسلامية سلسلة من أعمال الحرب والسلام والعداوة والصداقة وغير ذلك، إلا أن ما نلاحظه في هذا الصدد عدم وجود حقد عنصري أو عقائدي، فقد كان الإمبراطور نقفور الأول كما تقول المصادر العربية من أصل عربي، فقد ذكر ابن الأثير "وكان يملك الروم أنه من امرأة اسمها ريني [إيرين] فخلعها الروم وملك نقفور، وتزعم الروم أنه من أولاد جفنة بن غسان".

وفي عهد الإمبراطور ليو الأيسوري، وهو الإمبراطور الذي دافع عن القسطنطينية وهزم القوات الإسلامية والحملة البحرية التي أرسلها سليمان بن عبد الملك، تم بناء جامع القسطنطينية، حتى أن المصادر البيزنطية وصفت الإمبراطور ليو بأنه كان ذا عقلية عربية، ولعل هذه التسمية راجعة أيضاً إلى موقفه من عبادة الأيقونات.

كما كتب البطريرك نيقولا مستيقوس في عام ٩١٣ أو ٩١٤ رسائل إلى الخليفة العباسي وليس إلى أمير كريت كما يرى البعض. وقد ورد في هذه الرسائل عبارات طيبة منها "وعلى الذين توحد بينهم القوة الإلهية أن يتصلوا ببعضهم عن طريق الرسائل والمبعوثين، وهذا ينطبق بخاصة على القوتين العظيمتين وهما الرومان (يقصد البيزنطيون) والمسلمون. ومن هذه الرسائل أيضاً عبارة يا أشهر رؤساء المسلمين، ويا صاحب الجلالة، وفيها أيضاً عبارة إلى صديقنا الأسمى والأمجى الذي نصبه الله حاكماً لأمة المسلمين. ورغم أن هذه الرسائل كانت تتعلق بأمور سياسية إلا أن العبارات التي وردت بها تتم عن العلاقات الطيبة بين الدولتين.

ولقد كانت الثقافة الهلنستية هي التي قرّبت بين الدول الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية، فبعد ما فتح المسلمون الشام ومصر عاش الرهبان في أديرتهم وقد انكبوا على دراسة وترجمة المؤلفات العلمية والدينية، وكان أرسطو على سبيل المثال يحتل مكانة عالية بين الفلاسفة، كما كان أبقراط وجالينوس يحتلان مكانة سامية بين أصحاب المؤلفات الطبية.

وقد ساعد على ذلك النساطرة الذين اضطهدتهم الإمبراطورية بعد إدانتهم في مجمع أفسوس عام ٤٣١م، وقد لجأوا إلى دولة فارس حاملين معهم العلوم اليونانية، وقد قام عدد كبير منهم زمن الخلفاء العباسيين بأعمال

## الترجمة من اليونانية إلى العربية.

ومن العلاقات الثقافية، ما قام به الخليفة العباسي الواثق بالله الذي أرسل ما يمكن أن نطلق عليه البعثات العلمية. فقد أرسل الخليفة في أيامه محمد بن موسى المنجم وهو عالم عربي له شهرته وذلك بإذن من الإمبراطور ميخائيل الثالث إلى مدينة أفسوس لزيارة الكهف الذي حنط فيه رفات أهل الكهف. وحول هذا الحديث يروي ابن خردادبة في كتابه "المسلك والممالك"، وأما أصحاب الرقيم فبخزعة رستاق بين عمورية ونيقية، وكان الواثق بالله وجه محمد بن موسى المنجم إلى بلاد الروم لينظر إلى أصحاب الرقيم وكتب إلى عظيم الروم بتوجيه من يوقفه عليهم، فحدثني محمد بن موسى أن عظيم الروم وجه معه من صار به إلى قرة ثم سار أربع مراحل وإذا جبل قطر أسفله أقل من ألف ذراع وله سرب من وجه الأرض ينفذ إلى الوضع الذي فيه أصحاب الرقيم قال فبدأنا بصعود الجبل إلى ذروته فإذا بئر محفورة لها سعة تبين الماء في قعرها ثم نزلنا إلى باب السرب فمشينا فيه مقدار ثلثمائة خطوة، فصرنا إلى الموضع الذي أشرفنا عليه، فإذا رواق في الجبل على أساطين معقودة وفيه عدة أبيات منها بيت مرتفع العتبة مقدار قامه عليه باب حجر منقورة فيه الموتى ورجل موكل بحفظهم ومعه خصيان روقة وإذا هو يحيد من أن نراهم أو نفتشهم ويزعم أنه لا يأمن أن يصيب من التمس بذلك آفة التمويه ليدوم كسبه بهم، فقلت له دعني أنظر إليهم وأنت برئ فصعدت بشمعة غليظة مع غلامي فنظرت إليهم في مسوح تتفرك في اليد وإذا أجسادهم مطلية بالصبر والمر والكافور ليحفظها وإذا جلودهم لاصقة بعظامهم غير أنني مررت يدي على صدر أحدهم فوجدت خشونة شعر وقوة نباته، وأحضرت الموكل بهم طعاماً وسألنا الغذاء عنده فلما ذقنا طعامه أنكرنا أنفسنا فتهوعنا، وإنما أراد أن يقتلنا أو يعضنا فيصبح له ما كان يدعيه عند

ملك الروم من أنهم أصحاب الرقيم، فقلنا له إنما ظننا أنك ترينا موتى يشبهون الأحياء، وليس هؤلاء كذلك. ويلاحظ أن المقدسي تحدّث في كتابه أحسن التقاسيم عن الرقيم ذكر أنها قرية تقع على بعد فرسخ من عمان تخوم البادية.

وقد يكون السبب الرئيسي في حدوث هذه البعثة العلمية ذلك الميل الاعتزالي الذي شمل الدين منذ عهد المأمون. ومن البعثات العلمية أيضاً ما أعدها الخليفة الواثق أيضاً عندما أرسل بعثة كبيرة على رأسها المترجم سلام الذي كان يجيد العديد من اللغات، وقد توجه سلام إلى آسيا الصغرى للبحث عن السور الذي بناه الإسكندر المقدوني، هذا السور الذي يقول فيه بعض الآثاريين أنه بنى أيام ياجوج وماجوج، وقد دامت أعمال هذه البعثة طويلاً وبعدها كافأ الخليفة رجال البعثة على ما قاموا به من أعمال بعد ما قدموا له تقريراً عن أعمالهم.

وكانت هناك مفاوضات كثيرة دخل فيها الإمبراطور ثيوفيل مع الخليفة المأمون حول العالم البيزنطي والمهندس الفلكي "ليو" فقد كان الخليفة يود رؤية هذا العالم ليستفيد من علمه الواسع في الرياضيات. ولكن هذا العصر الذي بدأ بالمأمون وعاصره الوثائق لم يدم طويلاً ولم يلبث أكثر من قرنين، هما القرن التاسع والعاشر.

ونختم هذه الصفحات بالحديث عن سماحة الإسلام. ومن ذلك على سبيل المثال أن يوحنا الدمشقي كان يعيش في ظل الخلافة الأموية، وكان من المدافعين عن عبادة الأيقونات، وذلك عندما أصدر الإمبراطور ليو الأيسوري منشوراً في عام ٧٢٦م يقضي بتحريم عبادة الأيقونات. وقد مارس يوحنا الدمشقي من أرض الخلافة الدفاع عن عبادة الأيقونات وواصل عمله دون

إزعاج من السلطات الإسلامية أو من كتاباته المتعددة حول العقيدة المسيحية والجدل الديني عدة مقالات تضمن الرد على الذين يحطون من شأن عبادة الصور، حتى أن المجمع اللايقوني الذي عقد في عام ٧٥٤م هاجم يوحنا الدمشقي واتهمه بالميل إلى الإسلام.

وقد عكّر صفو هذا التسامح ما قام به الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله عندما أمر بهدم كنيسة القيامة في القدس، ولكن الحال عاد إلى ما كان عليه بعد وفاته عام ١٠٢٠م، فقد عادت العلاقات الطيبة مع خلفه الخليفة الظاهر والامبراطور قسطنطين الثامن، عندما اتفقا عام ١٠٢٧م على أن يدعى للخليفة الفاطمي في جميع مساجد الإمبراطورية البيزنطية، وإعادة بناء جامع القسطنطينية الذي هدم ردا على هدم كنيسة القيامة، كما وافق الخليفة الظاهر على السماح بإعادة بناء كنيسة القيامة.

### الحياة الاقتصادية

لقد ترتب على الهجرات الجرمانية إلى أوروبا تقويض دعائم اقتصاد الإمبراطورية في غرب أوروبا، وحاول الإمبراطور جستينيان إحياء التجارة في الجانب الشرقي، وقد نجح في ذلك إلى حد ما. كما ترتب على الفتوحات الإسلامية وسيطرة المسلمين على بلاد الشام ومصر والساحل الأفريقي تغيير هام في الاقتصاد البيزنطي، ذلك لأن المسلمين اقتطعوا أغنى ولايات الإمبراطورية وأكثرها انتعاشا ورفقا، وبعد سيطرة المسلمين على قبرص وكريت وصقلية أصبح البحر المتوسط بحرا إسلاميا.

وقد يظن المرء أن كيان الإمبراطورية الاقتصادي قد انهار تماما، وأن العلاقات التجارية البيزنطية مع الشرق قد انتهت، ولكن واقع الحال كان

غير ذلك، فقبل ظهور الإسلام كانت القوافل تخرج من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام ومصر، وكانت الطرق التجارية آمنة من اليمن جنوباً إلى بلاد الشام ومصر. وكانت أغنى المدن الواقعة في هذا الطريق مدينة مكة المكرمة. وبعد ظهور الإسلام لم يختلف الأمر عن ذي قبل ولكنه زاد تماسكاً وترابطاً حتى أصبحت الجزيرة العربية والشام والعراق ومصر مرتبطة برباط اقتصادي قوي تحت سلطان دولة واحدة. ولما لم يك للمسلمين عملة في بداية أمرهم، فقد استعملوا العملة البيزنطية في تعاملهم حتى عهد عبد الملك بن مروان الذي عرّب الدواوين والعملة، وربما استاء البيزنطيون في بداية الأمر عند تغيير عملتهم ولكنهم استوعبوا الموقف وسارت الأحوال الاقتصادية سيراً طبيعياً بعد ذلك مثلما كانت من قبل.

والواقع أن الحياة الاقتصادية في الولايات التي فتحها المسلمون كانت قائمة على أساس متين قبل أن يستولي عليها المسلمون، وأصبحت كذلك بعد الفتح الإسلامي، والدليل على ذلك أن أهالي البلاد المفتوحة في مصر والشام واصلوا عملهم في ظل الحكم الإسلامي ولم يهجروا أراضيهم. ومما لا شك فيه أن الاقتصاد البيزنطي قد تأثر كثيراً عندما فقدت الإمبراطورية الضرائب التي كانت تجنيها من سكان ولاياتها الشرقية والجنوبية أي الشام ومصر وشمال أفريقيا.

وبعد انتهاء فترة الحروب وثبات الحدود البيزنطية الإسلامية إلى حد ما عاد الاقتصاد البيزنطي إلى الإفادة بطريقة غير مباشرة عندما استطاعت الإمبراطورية تجديد علاقاتها التجارية مع مصر والشام. والحقيقة أن المسلمين والبيزنطيين قد تبيينوا أهمية قيام العلاقات التجارية بينهما، وبذلك ظهر التجار البيزنطيون في كثير من المدن الإسلامية، كما أن التجار العرب تقدموا في الأراضي البيزنطية وحتى العاصمة القسطنطينية لانجاز أعمالهم



وتضريف بضائعهم.

ويصف ابن رسته في كتاب الأعلاق النفسية مدينة القسطنطينية كمدينة تجارية ويقول "وفيها أسواق عظام وفي كل سوق قناتان عظيمتان من ماء، وأسواقها كلها مبلطة برخام أبيض وفيها أربعون ألف حمام، وفيها مجامع أسواق يقام فيها التجارات خمسة وتسعون موضعاً. ويذكر ابن بطوطة أيضاً أن أسواقها وشوارعها مفروشة بالصفاح، متسعة وأهل كل صناعة على حدة لا يشاركونهم سواهم، وعلى كل سوق أبواب تسد عليه بالليل وأكثر الصناع والباعة بها من النساء"، ثم يضيف في حديثه عن أهل القسطنطينية ويقول وجميعهم أهل تجارة، ومرسأهم من أعظم المراسي، رأيت به نحو مائة من السفن الكبيرة وعدد لا يحصى من السفن الصغيرة.

ولقد أصبحت مدينة طرابيزون الواقعة في شمال الأسود في القرن العاشر من أهم المراكز التجارية للمسلمين وغيرهم، ويقول المسعودي عن هذه المدينة، وهي مدينة على شاطئ هذا البحر لها أسواق في السنة يأتي إليها كثير من الأمم للتجارة من المسلمين والروم والأرمن.

وعندما نجح الإمبراطور نقفور فوقاس في استعادة جزيرة كريت عام ٩٦١م وجزيرة قبرص عام ٩٦٥م، استعادت الإمبراطورية معها بعض المراكز التجارية الهامة، وتفاخر الإمبراطور نقفور بأن أسطوله أصبح قويا وأن سفنه أصبحت تسير بحرية في البحر المتوسط. والحقيقة أن العلاقات التجارية مع البيزنطيين كانت في غاية الأهمية، لأن الإمبراطورية نجحت في تعزيز مكانتها الدولية التجارية من خلال التجارة العربية، لأن أكثر التجارة العربية كانت تنقل إلى بلاد أوروبا من خلال التجار البيزنطيين، وكانت الامبراطورية تحقق أرباحاً كثيرة بفصل قيامها بدور الوسيط في التجارة بين

الشرق والغرب، ولكن الحروب الصليبية أضاعت هذه الوساطة وتلاشى  
ازدهار الإمبراطور منذ عام ١٢٠٤م عندما استولى الصليبيون على  
القسطنطينية وانتقلت السيادة الاقتصادية إلى المدن الإيطالية وعلى رأسها  
البندقية وجنوه وبيزا وأمالي وغيرها.

لقد كان لموقع القسطنطينية عند ملتقى الطرق العالمية التجارية بين  
الشمال والجنوب عند بحر مرمرة، نتائج هائلة على الحركة التجارية  
للإمبراطورية البيزنطية، والحقيقة أنه قل ما استمتع من المدن بهذا الموقع  
الفريد الذي استمعت به هذه المدينة في العصور الوسطى. يضاف إلى ذلك  
عامل هام أيضاً هو المهارة التجارية لدى البيزنطيين خاصة العناصر  
الأرمينية واليونانية، هذا إلى جانب عوامل أخرى جعلت من العاصمة  
البيزنطية لعدة قرون رمزاً للثراء ومطمع الدول.

ويوضح هذه الفكرة أن خط سير التجارة في العصور الوسطى كان  
يبدأ من الشرق الأقصى إلى البحر المتوسط. وكانت دول البحر المتوسط  
تستطيع أن تكتفي بما تنتجه من أغذية ومستلزمات. ولكن هذه الدول كانت  
ترغب في حياة أكثر رفاهية، فتطلعت إلى السلع الكمالية التي كان الشرق  
الأقصى يستطيع أن يصدرها إليها.

وكانت أوروبا تستورد الأعشاب وخشب الصندل من الهند، كما  
استوردت الحرير المصنع والخام من بلاد الصين، كما صدرت منطقة البحر  
المتوسط الزجاج. والمواد المشغولة بالمينا، ولكن أثمان هذه الصادرات لم  
تكن تغطي احتياجاتها من الواردات، لذلك ذهبت ثروات أوروبا إلى الشرق  
الأقصى ثمناً للواردات، الأمر الذي أدى إلى الكساد المالي الذي حاق  
بالإمبراطورية البيزنطية في نهاية عهدها. وإذا كانت أوروبا تستطيع أن

تستغني عن بعض السلع التي تستوردها من الشرق الأقصى، إلا أنه لم يكن بوسعها الاستغناء عن الحرير، وهو أمر شغل بال أوروبا لمدة طويلة.

وحقيقة الأمر فقد كانت التجارة تأتي من الشرق الأقصى إلى البحر الأبيض عبر طرق عديدة، ومن الطرق البحرية طريق المحيط الهندي حتى الخليج ثم إلى بلاد الشام أو إلى البحر الأحمر إلى مصر. أما الطرق البرية فمن الصين إلى تركستان ثم إلى بحر قزوين ثم إلى نهر الفولجا فالبحر الأسود عن طريق مدينة خرسون، أو عبر شمال إيران إلى مدينة نصيبين إلى مدينة طرابيزون أو عن طريق الهند وأفغانستان ووسط إيران إلى بلاد الشام.

ولما كانت الحرب تقع بين الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية ثم البيزنطية، كان على بيزنطة أن تتجنب مرور تجارتها عبر فارس. ولم يكن هناك سوى طريقين لا يمران بالأراضي الفارسية، الأول هو الذي يمر بالبحر الأحمر إلى مصر والثاني الذي يمر بالشمال الأقصى عبر روسيا. وبالإضافة إلى أخطار الحروب، فقد كانت الإمبراطورية الفارسية تفرض رسوماً جمركية عالية على البضائع التي تمر عبر أراضيها. ولهذين السببين بذلت الإمبراطورية البيزنطية كل جهد لضمان وصول تجارتها عبر الطرق الآمنة، وذلك بالتفاوض مع دولة الحبشة التي كانت تتحكم في البحر الأحمر أو مع قبائل الهون في الشمال الأقصى لقارة آسيا.

ويعتبر القرن السادس الميلادي، العصر الذهبي لتجارة الشرق خاصة تجارة الحرير التي كانت تصل إلى مدينة دارا أو نصيبين ومنها إلى مصانع الشام في صور وبيروت أو إلى مصانع القسطنطينية أو يصل جزء منها عن طريق البحر الأحمر أو الخليج العربي.

وكانت البضائع التي تأتي من الشرق الأقصى أو من البحر الأحمر

وغير ذلك من الأماكن تتجمع في جزيرة سيلان حيث تتم عملية البيع والشراء، ومن البضائع الشرقية الحرير من بلاد الصين وخشب الصندل والقرنفل واللوز من الهند الصينية، والفلفل من ملبار والنحاس من نواحي مدينة بومباي والخروع والمسك من السند. ومن جزيرة سيلان اشترى التجار الفرس الحرير وحملوه إلى بلادهم عبر الخليج. أما بقية السلع الأخرى فقد كانت تأخذ طريقها بالبحر الأحمر. ولعل ما جعل لجزيرة سيلان هذه الأهمية ما ذكر في كتاب عجائب الهند عندما ذكرت هذه الجزيرة "ومن الجزائر الموصوفة التي ليس مثلها في البحر جزيرة سرنديب وتسمى سيلان، وفيها مغاص اللؤلؤ النقي وجبلها حصين وهو جبل الياقوت والألماس. وفيها تراب أحمر وهو هذا السبادج الذي يخرط به البلور والزجاج وقشور أشجارها القرفة، وحشيش هذه الجزيرة أحمر يصبغ به الثبات والغزل وهو صباغ يفوق البقم والزعفران والعصفر وكل صبغ أحمر، وبها من غرائب النباتات مما يطول شرحه"، كما أن الرحالة ابن بطوطة تكلم أيضاً عن مغاص الجواهر والياقوت عندما زار جزيرة سيلان. ومن الملاحظ أن التجار في جزيرة سيلان كانوا يتعاملون بالعملة البيزنطية.

وقامت مملكة الحبشة بدور كبير في العملية التجارية، وقد ساعدها على ذلك موقعها المطل على البحار وعلى عمق قارة أفريقيا، وكان تجار الحبشة يقومون برحلة تجارية إلى قلب أفريقيا مرة كل عامين وقد يصل عددهم إلى حوالي خمسمائة حتى يتمكنوا من حماية أنفسهم من القبائل الأفريقية، وكان هؤلاء التجار يحملون معهم الماشية والملح وأسياخ الحديد حتى إذا وصلوا إلى ما يبغون أقاموا سورا من الحديد حولهم، ثم قاموا بذبح الماشية ليقتاتوا. وفي هذا المكان يعلق التجار الأحباش بضائعهم ويبتعدوا عنها، فيتقدم المواطنون الأفارقة ويضعون على كل سلعة عددا من القطع

الذهبية يتناسب مع قيمتها ويُرجعون إلى أماكنهم، فيتقدم التجار الأحباش فإذا أعجبهم الثمن أخذوا قطع الذهب وتركوا البضائع وإذا لم يرق لهم الثمن تركوا الذهب مكانه وهنا يفهم المواطن الأفريقي أن الثمن لم يعجب الحبشي، فإما أن يأخذ الأفريقي ما وضعه من ذهب أو يضيف إليه. وقد يستمر هذا السوق حوالي أربعة أيام أو أكثر ثم يعود التجار الأحباش قبل موسم الأمطار بعد أن يكونوا قد أمضوا حوالي ستة أشهر في الذهاب والعودة.

وظلت التجارة تسير سيراً طبيعياً مع الإمبراطورية البيزنطية والفارسية طالما سادت العلاقات السلمية بين الطرفين، ولكن نشوب الحروب خاصة في عهد الإمبراطور جستينيان أوقفت تجارة الحرير عبر فارس، فارتفع سعره داخل الإمبراطورية. وحتى يقضي الإمبراطور على هذه الظاهرة، لجأ إلى شراء مصانع الحرير وبذلك تحولت صناعة الحرير إلى احتكار إمبراطوري وتحكم في أسعاره وأصدر منشوراً يقضي بعدم بيع رطل الحرير بأكثر من خمسة عشر صليدي ذهباً. ولكن هذا المنشور لم يؤد إلى النتيجة المطلوبة، بل جاء بالعكس، فقد رفض تجار الحرير الفرس بيع الحرير إلى الإمبراطورية، فأفلست تجارة الحرير وتوقفت تجارتها.

وحدث في هذه المرحلة أن بعض الرهبان النساطرة قد ساعدوا على حل هذه المشكلة بطريقة عملية، وحول ذلك الموضوع يروي المؤرخ بروكوبيوس في معرض حديثه عن حرب الإمبراطورية مع القوط في إيطاليا أنه في حوالي ذلك الوقت يقصد ٥٥٢ - ٥٥٤م، فإن بعض الرهبان قد قدموا من الهند وعلموا أن الإمبراطور جستينيان لديه رغبة شديدة في عدم قيام البيزنطيين بشراء الحرير من أهل فارس. وقد ذهب هؤلاء الرهبان إلى الإمبراطور ووعدوه بالعمل على عدم شراء الحرير من الفرس أو أية دولة أخرى. وقال الرهبان للإمبراطور لقد قضينا وقتاً طويلاً في الدول العديدة

التي تقع شمال الهند وخاصة في الدولة التي تدعى سرنيدا Sernida وأنهم تعلموا في هذا المكان كيف يمكن إنتاج خام الحرير في الأراضي البيزنطية.

ويضيف المؤرخ بروكوبيوس أنه عند هذه المرحلة أبدى الإمبراطور جستينيان عناية فائقة عندما عرف بهذه المعلومات، وسأل الرهبان عدة أسئلة ليتأكد من سلامة المعلومات. وقد شرح له الرهبان أن هناك دودة معينة تضع الحرير بطريقة طبيعية. ولما كان من الصعب نقل هذه الديدان حية، فإنه من السهل نقل الشرائق. وقد وعد الإمبراطور بتقديم هدايا قيمة لهم إذا نفذوا ما وعدوا به. وقد عاد الرهبان مرة أخرى إلى سرنيدا ثم عادوا بالشرائق إلى بيزنطة، ومنذ هذه المرحلة قد أصبح بالإمكان إنتاج الحرير في أراضي الإمبراطورية داخل عيدان شجر البامبو (البوص). وبعد مرحلة أصبحت تربية دودة القز واسعة الانتشار في أراضي الإمبراطورية، وبدأ استيراد الحرير من الشرق في الاضمحلال.

ولقد كان فتح العرب للشام ومصر والعراق أثرا كبيرا على تجارة الإمبراطورية البيزنطية، وقد عانت القسطنطينية في بداية الأمر الكثير ولكن وجود العرب كان أخف ضررا بكثير من الحروب الفارسية. وبعد فترة انتعشت التجارة رويدا رويدا عبر آسيا الصغرى وإلى البحر الأسود عند مدينة طرابيزون ومنها إلى العاصمة البيزنطية. ونمت صناعة الحرير وازدهرت وصار لمصانع الإمبراطورية شأنا كبيرا في صناعة الحرير، وجنت الإمبراطورية من وراء ذلك أرباحا طائلة، فقد كان العرب في الشرق وأوروبا في الغرب وأهل الخزر وغيرهم في الشمال يسارعون لشراء الحرير البيزنطي.

والحقيقة التي صاحبت دخول العرب للشام والعراق ومصر أن تجارة

البحر المتوسط على الجانب الشرقي أي في بلاد الشام ومصر قد قلت كثيراً، فقد توقف استيراد الإمبراطورية البيزنطية للقمح من مصر، كما أن العمليات العسكرية البحرية في شرق البحر المتوسط قد أوقفت جانباً كبيراً من التجارة في هذه المنطقة، يضاف إلى ذلك أن العرب سيطروا تماماً على تجارة المحيط الهندي.

وقد فكر الخليفة هارون الرشيد في حفر قناة تربط بين البحر الأحمر عند مدينة القلزم - وهي السويس حالياً - وبين البحر المتوسط عند مدينة دمياط الحالية تقريباً. ويروي المسعودي أنه قد رام للخليفة هارون الرشيد أن يوصل بين هذين البحرين مما يلي النيل من أعالي مصبه من نحو بلاد الحبش وأقاصي صعيد مصر، فلم تتأت له قسمة ماء النيل، فرام ذلك مما يلي بلاد الفرما نحو بلاد تيس، على أن يكون مصب بحر القلزم إلى البحر الرومي أي البحر المتوسط. ولكن هذه الفكرة لم تتفذ، فقد خاف المسلمون من قيام البيزنطيين بالإبحار بنفسهم عبر هذه القناة والدخول إلى البحر الأحمر والوصول إلى الأماكن المقدسة وإلحاق الأذى بالحجاج المسلمين. وفي ذلك يضيف المسعودي "أن يخطف الناس من المسجد الحرام والطواف ذلك أن مراكبهم تنتهي من بحر الروم إلى بحر الحجاز، فتطرح سراياها مما يلي جدة، فيخطف الناس من المسجد الحرام ومكة والمدينة.... فامتنع عن ذلك الخليفة.

وقد أدى عدم حفر القناة إلى أن مدينة طرابيزون على البحر الأسود قد أصبحت الميناء الشرقي الهام. وعندما استعاد الإمبراطور يوحنا تريميسكس عام ٩٧١م مدينة أنطاكية تقدمت التجارة من مدينة حلب إلى أنطاكية وإلى مدينة سلوقية في الجنوب الشرقي في آسيا الصغرى. وهذا لا يعني أن كل التجارة البيزنطية قد اتخذت هذا الطريق بل جانباً منها فقط.

وظل الطريق الشمالي الآمن في تقدم ملحوظ، حيث كانت تجارة الفراء والأسماك المجففة، ومن مدينة القسطنطينية أو مدينة سالونيك تحمل هذه التجارة إلى غرب أوروبا.

وفي إيطاليا كانت مدينة باري عاصمة الإقليم البيزنطي في إيطاليا، وقد ازدهرت هذه المدينة بفضل أسطولها الخاص وإن كان محلياً، ولكنه استطاع أن يبعد العناصر اليونانية عن التجارة مع أوروبا شيئاً فشيئاً، ومعنى ذلك ازدهار بعض المدن الإيطالية الأخرى مثل أمالفي، ثم أعقب ذلك مدينتا بيزا وجنوة، وهكذا بلغت التجارة رويداً رويداً ذروتها في القرن العاشر الميلادي.

وأعطت بيزنطة بعض الامتيازات للمدن التجارية الإيطالية في العاصمة البيزنطية فقد صار لمدينة أمالفي مندوباً يقيم في القسطنطينية فزادت جاليتها، وانتقلت التجارة من القسطنطينية إلى باري أو أمالفي إلى مدينة البندقية التي كانت تعتبر ميناء أوروبا الرئيسي، وقد ساعدها موقعها على أن تتولى عبء التجارة في شمال إيطاليا وألمانيا. ومن الامتيازات التجارية ما منحه الإمبراطور بازيل الثاني للبنادقة، فقد سمح لهم بدفع ضريبة مخفضة على بضائعهم التي تصدر من القسطنطينية مقابل حمايتهم لشواطئ البحر الأدرياتيكي ونقل قوات الإمبراطورية إذا لزم الأمر. وتعددت أنواع السلع التي نقلها البنادقة إلى العاصمة البيزنطية، وكان أهم أنواع هذه السلع هي الأسلحة والخشب والقماش الخشن، كما اشتهر سوق البندقية بالرقيق وذاع صيتها في هذا المضمار.

ومع ظهور السلاجقة في العراق وسيطرتهم على الخلافة العباسية ثم تقدمهم إلى آسيا عقب معركة ما نزكرت عام ١٠٧١م بدأ اضمحلال التجارة



البيزنطية في هذا الجانب، فلم تعد البضائع تنقل إلى طرابيزون أو عبر آسيا الصغرى لأن السلاجقة سيطروا على هذه المناطق. يضاف إلى ذلك أن مملكة النورمان في جنوب إيطاليا وصقلية بقيادة روجر الثاني قد أغارت في عام ١١٤٧م على أملاك الإمبراطورية الغربية واستولت على جزيرة كورفر، ومن هذه الجزيرة حُمل العمال المهرة في صناعة الحرير ومعهم معداتهم إلى بالرمو في صقلية، وبذلك خسرت الإمبراطورية جانباً كبيراً من جراء احتكارها لصناعة الحرير منذ عهد الإمبراطور جستينيان.

ومع بداية الحروب الصليبية عام ١٠٩٥م تغيرت طرق المواصلات في الشرق والغرب على السواء. فبعد أن سيطر الصليبيون على المدن الساحلية الشامية نقلت التجارة رأساً من هذه الموانئ عن طريق السفن الإيطالية إلى غرب أوروبا مباشرة، ولم يبق للإمبراطورية البيزنطية سوى التجارة الشمالية فقط.

وضاعت التجارة الشمالية من الإمبراطورية البيزنطية عندما توسع آل كومنين في منح الامتيازات التجارية للمدن الإيطالية التجارية، وذلك مقابل تقديم هذه المدن العون العسكري للإمبراطورية ضد أعدائها. وقد منحت الإمبراطورية الامتيازات للبنادقة في بداية الأمر ثم إلى جنوه وبيزا. وقد سمحت الإمبراطورية لتجار هذه المدن بدفع الرسوم الجمركية بقيمة لا تتجاوز الأربعة في المائة بعد أن كانت عشرة في المائة. وليس هذا فحسب فقد منحت الإمبراطورية أيضاً مناطق كاملة في العاصمة وبعض المدن الأخرى لهؤلاء التجار الإيطاليين حتى بلغ عدد تجار المدن الإيطالية في المدن البيزنطية حوالي ستين ألفاً في نهاية عهد الإمبراطورية مانويل الأول عام ١١٨٠م. ولعل ذلك راجع إلى أن زوجة الإمبراطور مانويل كانت لاتينية الأصل وهي أميرة صليبية تدعى ماريا ابنة حاكمة أنطاكية. وقد أدى التوسع

في هذه المنح وتفضيل العناصر اللاتينية في البلاط البيزنطي إلى نتائج سيئة عقب نهاية حكم الإمبراطور مانويل. وعندما تولى الإمبراطور أندرونيكوس الأول، كان كره العناصر البيزنطية للعناصر اللاتينية قد نما، فأثرل البيزنطيون أعمال الذبح في العناصر اللاتينية خاصة الإيطاليين منهم على نطاق كبير في أنحاء الإمبراطورية. كما ألغى الإمبراطور الامتيازات التي منحت لهم، وقد نتج عن هذا كله عداء مرير بين الغرب الأوروبي والبيزنطيين، مما أدى إلى مهاجمة الحملة الصليبية الرابعة للعاصمة البيزنطية وانهيار الإمبراطور عام ١٠٢٤م حتى عام ١٢٦١م عندما استعادتها أسرة آل باليولوجوس.

وعندما نجحت أسرة باليولوجوس في استعادة الإمبراطورية لم تستعد كافة أراضيها، ولم تعد الإمبراطورية كسابق عهدها. كما أن أهل جنوه قد ساعدوا آل باليولوجوس على استعادة الإمبراطورية وطالبوا بالثمن، وكانت مكافأتهم هو ما تبقى للتجارة البيزنطية وهي تجارة الشمال حيث البحر الأسود. وقد جنى أهل جنوة أرباحا طائلة من هذا الطريق التجاري كرد فعل لرخاء الإمبراطورية المغولية في الشرق، هذا بالإضافة إلى منح جنوة ضاحية بيرا أو جالاتا الواقعة على الضفة الشمالية للقرن الذهبي في مقابل القسطنطينية. والواقع أنه مع بداية حكم آل باليولوجوس أضمرت القسطنطينية وازدهرت ضاحية جالاتا حيث حُمِلت كل أنواع التجارة إلى هذه الضاحية، في حين بقيت مدينة سالونيك كسابق عهدها لبعض الوقت.

وحددت الإمبراطورية البيزنطية رسوما تعادل عشرة في المائة على البضائع المصدرة منها والمستوردة إليها. وحددت مدينة أبيروس في الجنوب لجمع رسوم البضائع الآتية عن طريق بحر إيجه، ومدينة هيريا Hieria المقابلة لمدينة القسطنطينية على الضفة الآسيوية للبضائع الآتية من البحر

الأسود، أما ضريبة البضائع الصادرة، فكانت تدفع في القسطنطينية، ولم يكن بوسع أية سفينة أن تعبر البوسفور أو الدردنيل إلا بعد دفع الضرائب المستحقة عليها. والحقيقة أن مثل هذا الضرائب قد أمدت خزانة الإمبراطورية بثروة هائلة، كانت الدول المحيطة بالإمبراطورية في حالة من الرخاء تمكنها من استخدام المواد التي تستوردها من الإمبراطورية، أو تصدرها إليها. وهناك نقطة يجب أخذها في الاعتبار وهي ضرورة وضع خاتم الدولة على البضائع التي كانت تصدر إلى الخارج.

وفيما يتعلق بالسلع التي صدرتها الإمبراطورية، فقد كان معظمها من المصنوعات المحلية، وهي من أدوات الترف حيث أنتجتها مصانع القسطنطينية خاصة مصانع الحرير الإمبراطوري والديباج الموشى. والأقمشة المقصبة التي أثارت بهجة العظماء والأمراء والملوك. يضاف إلى ذلك مشغولات الفضة والذهب والأحجار الكريمة. وفوق ذلك كله ما أنتجه الصناع البيزنطيون من أكواب الذهب أو الفضة أو علب المخلفات وحواملها المكسوة بالمينا، ومنتجات من العاج، وصنعت الخمر في العديد من مدن الإمبراطورية. ومن الملاحظ أن تصدير مثل هذه السلع كانت تحت رقابة مشددة من قبل الإمبراطورية لأنها لم تسمح بشيوع تصدير سلع الترف أكثر مما ينبغي خارج الإمبراطورية حتى تحتفظ بندرتها وارتفاع أثمانها. يضاف إلى ذلك أن الإمبراطورية لم تسمح بإنزال بعض أنواع الأقمشة إلى السوق، وتم تصنيعها بكميات محدودة واقتصر أمرها على إرسالها كهدايا إلى بلاط الدول الأجنبية.

أما أهم الواردات من الشرق إلى الإمبراطورية، فقد كان خام الحرير حتى نهاية القرن السادس الميلادي، هذا بالإضافة إلى الواردات التي تأتي من الهند كالتوابل وغيرها، بالإضافة إلى السجاجيد الفارسية. ومن الشمال كانت

الأخشاب والفراء. أما من الغرب فقد كان تجار البندقية يجلبون الأسلحة والرقائق. وكانت هذه الواردات تخضع للرسوم الجمركية بما يوازي عشرة في المائة في أبيدوس إذا كانت قادمة من الجنوب أو في مدينة هيريا إذا كانت قادمة من الشمال. وكانت الإمبراطورية تلجأ في بعض الأوقات إلى تقديم إعفاءات جمركية على بعض البضائع الواردة مثلما حدث في عهد الإمبراطور قسطنطين السادس وأمه إيرين. وفي أحيانا أخرى لجأت الإمبراطورية إلى فرض خطر تام على الواردات الأجنبية مثلما حدث في عهد يوحنا الثالث فاتزيس امبراطور امبراطورية نيقية في المنفى. وتولى ديوان المالية عن طريق رجال الجمارك التابعين له تحصيل الرسوم الواجبة على البضائع الواردة والصادرة.

وكان ولاية المدن البيزنطية التجارية يتولون الإشراف على التجار والتجارة الأجنبية الواردة، وكان على التجار الأجانب أن يقدموا أنفسهم إلى مقر والي المدينة عند وصولهم، وكان لا يصرح لأي تاجر أجنبي أن يبقى في المدينة أكثر من ثلاثة أشهر، فإذا فرغ من بيع بضائعه قبل هذه المدة عليه الرحيل، وإذا لم يتيسر له التصرف في بضائعه فعليه أن يترك ما تبقى منها للوالي الذي يتولى أمر بيعها ثم يحتفظ بقيمتها المالية طرفه حتى قدوم التاجر في العام التالي. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان التجار الأجانب يوضعون تحت رقابة مشددة للتأكد أنهم لم يخرقوا قوانين الإمبراطورية.

ورغم الشدة البالغة التي فرضتها الإمبراطورية على صادراتها والبضائع الواردة إليها، فإنها لجأت في بعض الأوقات ولظروف سياسية أو عسكرية إلى منح بعض الإمتيازات، فقد منحت الإمبراطورية روسيا في عام ٩١١م، ٩٤٤ بعض الإمتيازات التجارية لأسباب سياسية، فقد كان أمير كييف يتولى تنظيم البعثة التجارية المتوجهة إلى القسطنطينية، وكان ينضم إلى هذه

البعثة بعض تجار المناطق المجاورة ليكونوا في حماية القوات الروسية من هجمات قبائل الخزر. وكانت هذه القافلة التجارية تأخذ طريقها جنوباً في نهر الدنيبر، ولما كانت الشلالات تعترض هذا النهر في أماكن متفرقة، فقد كان على التجار أن ينزلوا من سفنهم ومعهم بضائعهم لينقلوها براً حتى يتفادوا مخاطر الشلالات. ويقدم لنا كتاب إدارة الإمبراطورية وصفاً دقيقاً لهذه الرحلات التجارية وما كانت تلاقيه من مخاطر غارات القبائل القريبة من النهر، حتى إذا وصلت السفن إلى مياه البحر الأسود أصبحت في حماية الإمبراطورية البيزنطية بفضل المعاهدة المعقودة بين الروس والإمبراطورية.

ومنحت الإمبراطورية للروس مساكن وإقامة ووجبات مجانية خارج أسوار العاصمة في حي القديس ماماس Mamas، وكان يسمح للتجار الروس بدخول المدينة من البوابة القريبة من إقامتهم في حدود خمسين فرداً في المرة الواحدة دون سلاحهم، كما كانت البضائع الروسية لا تخضع للضرائب. وفي مقابل ذلك كله تحالف الروس مع الإمبراطورية لمواجهة أخطر القبائل القاطنة في شمال البحر الأسود خاصة بلغار شبه جزيرة القرم. وكان التجار الروس يجلبون معهم الفراء الروسي والشمع والرقيق، وكانت هذه البضائع تستبدل بالأقمشة الحريرية والخمور وبعض الفواكه. وعند عودة هذه القافلة الروسية إلى بلادها كانت الإمبراطورية تمدّها ببعض الأدوات اللازمة للملاحة مثل الحبال والأشرعة والخطاطيف.

ومن الامتيازات التي قدمتها الإمبراطورية كانت المنح والتسهيلات التجارية التي قدمتها للبنديقية، عندما عقد الإمبراطور بازيل الثاني في عام ٩٩١م معاهدة تجارية مع البندقيّة، وقد أصبح ذلك دليلاً قوياً على أن البندقيّة لم تعد مدينة بل دولة تجارية لها شأنها في شمال البحر الأدرياتيكي. وعندما سيطر النورمان على صقلية وجنوب إيطاليا واحتدم الصراع بينها وبين

الإمبراطور، لجأ الإمبراطور الكسيوس الأول في عام ١٠٨٢م أي بعد توليه  
بعام واحد إلى عقد معاهدة مع البندقية منح بموجبها التجار البنادقة حرية  
التجارة في أنحاء الإمبراطورية مع إعفائهم من الرسوم الجمركية مقابل  
مساعدة البنادقة للإمبراطورية في حروبها مع النورمان. وخاف الإمبراطور  
يوحنا بن الكسيوس من زيادة النفوذ التجاري للبنادقة، فقرر إلغاء هذه  
الامتيازات ومنح أقل منها لمنافستها جنوة، ومنح الإمبراطور مانويل  
امتيازات تجارية لمدينة بيزا Pisa في عام ١١٧٠، وهكذا تسابقت المدن  
الإيطالية التجارية للحصول على الامتيازات التجارية البيزنطية. وقد كسبت  
البندقية المعركة في النهاية فقد كان الصراع بين الإمبراطورية البيزنطية  
والبندقية هو صراع بين الأرستقراطية الزراعية في القسطنطينية وبين  
الأرستقراطية التجارية في البندقية حتى انتهى الأمر بالحملة الصليبية الرابعة  
التي استغلها البنادقة في مهاجمة القسطنطينية وسقوط الإمبراطورية البيزنطية  
في عام ١٢٠٤ حتى عام ١٢٦١.

وخضعت التجارة البيزنطية للعديد من النظم والقوانين، وعملت الدولة  
على حماية منتجاتها واحتكرت بعضها خاصة صناعة الحرير والأسلحة  
والخبز، والتزم الجميع بمراعاة كافة القواعد والنظم التجارية وقلمًا خالفها  
أحد، وعندما منح الإمبراطور ليو السادس بعض الامتيازات التجارية لبعض  
المقربين له، اعتبر هذا العمل فضيحة كبرى.

وكان الوالي هو موظف الدولة المسؤول عن الرقابة التي تقوم بها  
الدولة على الأعمال التجارية والصناعية، وقد تم ذلك كله عن طريق  
النقابات، فقد كان لكل صناعة أو تجارة نقابتها، ولا يحق للفرد أن يلتحق  
بنقابتين في وقت واحد، وتولى أمر النقابة رئيس يختاره أعضاؤها ويوافق  
عليه الوالي. وكان العمل الرئيسي للنقابة شراء المواد الخام التي تلزم

صناعتها، ثم تقوم بتوزيع هذه المواد على أعضائها الذين يصنعونها، ثم يحدد الوالي سعرها ويتم بيعها في مكان عام محدد لها، وبذلك لم يعد لتجار الجملة مكاناً. وإذا استعان أحد أعضاء النقابة ببعض العمال في تصنيع المواد الخام فإن ساعات العمل وأجور هذه العمال كانت محددة وواضحة للجميع ولا يجوز الخروج عليها.

وعاقبت النقابات من يخرج على قواعدها، وكانت هذه العقوبة تصل إلى الطرد من عضوية النقابة، وربما أضيف إليها بتر أحد أعضاء الجسم إذا كان الجرم كبيراً. وقد تكلف الدولة النقابة بأداء بعض الأشغال العامة إذا لزم الأمر، فقد كان أصحاب السفن يطالبون بتقديم المساعدة في حالة الكوارث البحرية. وقد كان فصل العمال من الأمور باللغة التعقيد، وإذا فصل أحد العمال وكان صحيح الجسم ألزمت الدولة بتشغيله في الأعمال العامة أو ألزمت الدولة بصرف إعانة له حتى يعمل، وبذلك لم تعرف الإمبراطورية البطالمة، فقد كان مبدأها أن الكسل يورث الجريمة.

### الدبلوماسية البيزنطية

لم يكن بالإمبراطورية البيزنطية جهازاً دبلوماسياً بالمعنى المفهوم في العصر الحديث، فلم يكن هناك سفارات دائمة الإقامة في الدول الأجنبية شأنها في ذلك شأن جميع الدول الأخرى المعاصرة لها. فقد كانت السفارات تعدّ بطريقة مركزية في العاصمة أو بطريقة غير مركزية عندما تبدو في الأفق مشكلة يتطلب حلها الإتصال بدولة أخرى، فإذا ما انتهت السفارة من مهمتها عادت أدرجها مرة أخرى. ومن هنا سميت بالسفارة لتعدد سفراتها.

والحقيقة أنه لا يوجد لدينا إلا قدر ضئيل من المعلومات المتناثرة في

المصادر البيزنطية وغيرها نستطيع أن نتلمس منها جانباً عن كيفية تنظيم الجهاز الدبلوماسي البيزنطي. ومن هذه المعلومات نستطيع أن نقول أنه كان بالإمبراطورية البيزنطية رئيساً لوزارة الخارجية، وهو منصب من أهم المناصب يتولى صاحبه أمر الخيل والبريد والمراسلات المتبادلة بين الإمبراطور وكافة الإدارات داخل الإمبراطورية، وقد يطلق على صاحب هذا المنصب لقب المستشار. ولشدة خطورة متولي هذا المنصب كان عليه مقابلة الإمبراطور يومياً لتصريف شؤون الدولة. وكان من واجبات هذا الرئيس إعداد الترتيبات اللازمة داخل القصر الإمبراطوري وخارجه لاستقبال سفراء الدول التي قدموا إلى العاصمة، وكان عليه أيضاً إعداد البعثات الدبلوماسية إذا تطلب الأمر لإرسالها إلى الدول الأخرى. ورغم هذا كله فقد كان الإمبراطور هو الموجه الرئيسي للسياسة الخارجية.

ومن السفارات التي أعدت مركزياً في العاصمة السفارة التي تولى أمرها المندوب الإمبراطور بولس Pauls ليتولى أمر المعاهدة التي عقدها جستينيان الثاني مع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. ومنها أيضاً السفارة التي أرسلها الإمبراطور بازيل الأول إلى إقليم دالماشيا، وسبب ذلك أن أهالي دالماشيا أرسلوا مبعوثين دبلوماسيين من طرفهم يرجون الإمبراطور أن يسمح لهم بتعميد من لم يعتمد منهم، كما أعلنوا خضوعهم وتبعيةهم للإمبراطور كما كانوا من قبل. وقد استجاب الإمبراطور بازيل لطلبهم وأرسل إليهم مبعوثاً إمبراطورياً يرافقه عدد من رجال الدين.

وقد أولت الإمبراطورية إلى عناصر الروس والبجناكية والأتراك والخزر وغيرها من عناصر السهوب الشمالية أهمية دبلوماسية خاصة، لذلك أوجدت قاعدة دبلوماسية خاصة في مدينة خرسون. وكان المندوب الإمبراطوري المكلف بمهمة مع أحد هذه العناصر، أن يصل أولاً إلى مدينة



خرسون حيث يتخذها قاعدة له، ومن هناك يتولى الاتصال بالعناصر التي يراد التعامل معها.

وقد ورد في كتاب الإدارة الإمبراطورية للمؤرخ قسطنطين السابع أهمية عناصر البجناكية للإمبراطورية، فقد ذكر أن البجناكية يقطنون بجوار إقليم خرسون ويتبادلون التجارة معه، ويؤدون خدمات لأهل الإقليم، وللإمبراطورية في المناطق الروسية والخزرية وكل المناطق المجاورة. ويوضح المؤلف أنه عندما يذهب المندوب الإمبراطوري في مهمة إلى البجناكية، فيجب عليه أن يصل أولاً إلى مدينة خرسون، ومن هناك يرسل إلى البجناكية ويطلب منهم الرهائن ومرافقين لحمايته. أما إذا اتجه المندوب الإمبراطوري من القسطنطينية على سفن حرّية، فلا يتجه إلى مدينة خرسون بل يتجه إليهم مباشرة، ولكنه لا يغادر سفينته بل يبعث إليهم بالرسائل وعندما يأتي مندوبو البجناكية يقدمون إليه الرهائن ثم يبدأ بتقديم الهدايا، ثم يعقد معهم الاتفاق على ما يشاء سواء أكان عمل عسكري أم اقتصادي.

أما في الجانب الغربي من الإمبراطورية، فقد كان البلقان حيث العناصر البلغارية والصرب والكروات. وفي أوروبا كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة في ألمانيا والملكية في فرنسا، والبابوية في روما، ومدن إيطاليا وأخيراً المسلمون في صقلية لبعض الوقت وشمال أفريقيا والمسلمون في الأندلس. وقد أولت الإمبراطورية إلى هذا الجانب أهمية خاصة. ففي الأمور البسيطة كان يتولى القائد البيزنطي المحلي معالجة الشؤون التي تطرأ من وقت لآخر، أما إذا كان الأمر من الأهمية فقد تقوم الإمبراطورية بإعداد البعثات المناسبة للقيام بالمهام التي توكل إليها.

ومن الواضح أنه كان بالإمبراطورية طبقة خاصة معينة من

الموظفين المدربين والمعددين لهذا الغرض، هي التي كانت ترسل دائماً كسفراء عند الحاجة، ومن ذلك لسفير ليو Leo الذي أرسل في عدة سفارات إلى البلغار وإلى المسلمين في بغداد. وجرت العادة على إيفاد السفراء أنفسهم إلى البلاد التي تولوا مهام رسمية فيها إذا نجحوا في مهمتهم، يضاف إلى ذلك أنه كان من الأفضل إرسال سفراء ممن يجدون لغة الدولة الموفدين إليها. وكان السفراء الذين يقدون إلى البلاد الإسلامية خاصة في الشرق يبحثون أمر الهدنة مع المسلمين أو تبادل الأسرى على الحدود، وهو المعروف في المصادر العربية باسم الفداء. ويحدثنا كتاب إدارة الإمبراطورية عن السفير قسطنطين لبس Lips المشرف على مائدة الإمبراطور الذي تولى أمر عدة سفارات في بلاد القوقاز خاصة مع أمير بلاد طارون.

وكان سفراء الإمبراطورية إلى بلاد أخرى يسافرون في حاشية فاخرة محملة بالهدايا الرائعة فيها من الذهب والجواهر والحلل الموشية، كما كانوا يعودون أيضاً محملين بالهدايا المناسبة لهداياهم، ويتوقف ذلك على نجاح المهمة الموفدين إليها.

وجرت العادة في العاصمة البيزنطية أن يتم استقبال سفراء الدول الأجنبية في رسميات جامدة، وكان يراد من وراء ذلك رفع مكانة الإمبراطورية إلى درجة كبيرة. ومن ذلك أنه إذا وصل سفير أجنبي إلى العاصمة عومل بكل أنواع آداب السلوك الرفيعة، وكانت هناك تعليمات مشددة تقضي بعدم مقابلة السفير القادم لأي شخص غير مسؤول، فإذا حان موعد استقبال السفير للإمبراطور استقبل بالدور إذا تعدد السفراء حسب ترتيب أهمية دولته لدى الإمبراطورية.

وعرفت الإمبراطورية نظام الدول الأولى بالرعاية في المعنى

الحديث. ومن ذلك أن الإمبراطورية عقدت معاهدة مع بطرس البلغاري ٩٢٧ - ٩٦٩ في العام الأول من حكمه، وبموجب هذه المعاهدة حصل بطرس على لقب قيصر، مع الاعتراف بالبطيريركية التي أقامها البلغار في عاصمتهم، وتم زواج بطرس من الأميرة ماريا ليكاينا Maria Lecapena حفيدة الإمبراطور رومانوس ليكاينوس. وعلى ذلك فإنه منذ عام ٩٢٧م أصبح سفراء البلغار وهم الذين يمثلون ملكاً مصاهراً للإمبراطور، يمنحون أسبقية خاصة على جميع السفراء. وقد ظل هذا الإمتياز قائماً حتى قضى الإمبراطور يوحنا تزميسكس على استقلال بلغاريا وعزل حاكمها بوريس ٩٧٦م.

وكان سفراء الدول الأجنبية يوضعون تحت رقابة مشددة، فلا يجوز لهم أن يعلموا أو يطلعوا على شئ لا ترغب فيه الإمبراطورية. وكان عليهم أيضاً توخي الحذر في كل تصرفاتهم وأحاديثهم وإشاراتهم حتى لا يحدث منهم تصرف يستدل منه عدم احترام نظم الإمبراطورية أو عاداتها أو ديانتها أو تقاليدها.

ولم تعرف الإمبراطورية الحصانة الدبلوماسية، فإذا خرج أحد السفراء عن العادات المألوفة في الإمبراطورية، أو كانت أوراق اعتماده مكتوبة بطريقة غير لائقة كان جزاؤه السجن، ومن ذلك أو أوراق مندوب البابا حنا الثالث عشر ٩٦٥ - ٩٧٢م التي قدمت إلى الإمبراطور نقفور فوقاس في عام ٩٦٨م قد ألقى في السجن، لأن أوراق اعتماده كانت تحمل عبارة إمبراطور اليونان وليس إمبراطور الرومان.

والتزمت الإمبراطورية بتنفيذ المعاهدات لدرجة كبيرة، ولكن علاقاتها بالشعوب في غير ذلك كانت لا تكثر كثيراً بالقيم الأخلاقية، فقد كان من القواعد الأساسية في السياسة الخارجية البيزنطية دفع بعض الدول لضرب

أعداء بيزنطة، وقد ظل البيزنطيون يجيدون فن تحريض الدول أو القبائل على بعضها البعض.

والأمثلة عن القبائل متعددة، نذكر منها: أن الإمبراطور ليو السادس - أثناء صراعه مع الملك سيمون البلغاري المسيحي الديانة - تحالف مع عناصر الماچيار غير المسيحية لضرب سيمون في عام ٨٩٤م. كما أن الإمبراطور نقفور فوقاس قد استعان بالعناصر الروسية لضرب البلغار لأنه كان مشغولاً في ذلك الوقت بالصراع مع المسلمين في المشرق. وقد استجاب الروس لطلب نقفور واجتاحوا أراضي بلغاريا.

أما الأمثلة عن استخدام الإمبراطورية للدول لضرب أعوانها فهي كثيرة أيضاً، نذكر فيها أن المسلمين استولوا على مدينة باري في إيطاليا عام ٨٤٦م. وحتى تستعيد بيزنطة هذه المدينة التجارية الهامة التي تقع في البحر الأدرياتيكي إلى الجنوب، أرسل الإمبراطور بازيل الأول إلى لويس الثاني إمبراطور ألمانيا يطلب منه المساعدة على استرداد المدينة، وقد نجحت قوات لويس في الاستيلاء على المدينة عام ٨٧١م، وفي نهاية عام ٨٧٦م فتحت مدينة باري أبوابها أمام الحاكم العسكري البيزنطي، فعادت المدينة إلى الإمبراطورية البيزنطية.

ومن الأمثلة الواضحة على ذلك أيضاً أن الإمبراطورية البيزنطية استعانت بالقوات الصليبية في الحملة الصليبية الأولى لضرب سلاجقة الروم في آسيا الصغرى. وقد استغلت الإمبراطورية الصليبيين أثناء عبورهم آسيا الصغرى في عام ١٠٩٧م لضرب سلاجقة الروم واستولت عدد من المدن السلجوقية مثل العاصمة نيقية ومدينة ضرورليوم وغير ذلك من الأراضي حتى تراجعت القوات السلجوقية إلى مدينة قونية التي أصبحت عاصمة

لهد، وبذلك استعادت الإمبراطورية حوالي نصف أراضي آسيا الصغرى في عام واحد.

ووجدت الإمبراطورية البيزنطية مدخلا آخر في الدبلوماسية البيزنطية، فقد لعبت المصاهرة دورا كبيرا في هذا المضمار. فقد تزوج الأباطرة أنفسهم من أجنبيات كما زوج الأباطرة البيزنطيون بناتهم أو أميرات بيزنطيات من حكام أجنبي. ومما لا شك فيه أن هذا الزواج السياسي كانت له دوافعه وأسبابه. والحقيقة أن فكرة الزواج من أجنبيات أو العكس كانت من الأمور المحرمة في رأي المؤرخ الإمبراطور قسطنطين السابع، فقد ورد في كتابه إدارة الإمبراطورية في شكل نصائح ابنه ثلاث محرمات؛ الأولى منح التاج الإمبراطوري أو الملابس الإمبراطورية لغير بيزنطي من الأسرات الحاكمة، والثانية سر النار الأخرقية، والثالثة هو زواج الأجنبي.

وقد سجل قسطنطين السابع في كتابه حول زواج الأجنبي وقال: لكل دولة عادات وتقاليد مختلفة تتميز بها عن غيرها ولها نظام خاص بها، وعلى الدولة اتباع الأعراف السائدة فيها واحترامها والمحافظة عليها". واعتبر أيضا أن الزواج بأجنبيات مخالف لتعاليم الكنيسة ووصاياها ويلحق العار بالإمبراطورية.

وعلى أية حال فقد تمت مصاهرات بيزنطية في جوانب متعددة، يمكن تقسيمها على النحو التالي؛ زواج الأباطرة البيزنطيين من أجنبيات، وزواج حكام أجنبي من أميرات بيزنطيات، وزواج بنات من عائلات كبيرة للحكام الأجنبي.

ومن الأمثلة على النوع الأول وهو زواج الأباطرة من أجنبيات، فقد كانت له أسبابه السياسية. ومن ذلك أن الإمبراطور جستينيان الثاني لجأ إلى

خان الخزر بعدما خلع عن عرش الإمبراطورية واستعان به لاستعادة عرشه وتزوج من ابنة الخان ودخلت في الديانة المسيحية وحملت اسم ثيودورا. وللغرض السياسي أيضا فإن ليو الأيسوري تحالف مع الخزر لإمكان دفع العرب عن بلاده وتزوج أبنة قسطنطين الخامس من ابنة خان الخزر في عام ٧٣٣م. كما تزوج الإمبراطور رومانوس الثاني من ابنة هيو أف بروفنس .Hugh of Provense

ومن النوع الأول أيضا وهو زواج الأباطرة من أجنبيات، فالأمثلة على ذلك كثيرة، فقد نرى الإمبراطور مانويل الأول وقد تزوج مرتين: الأولى كانت من برتا أف سالزباخ الألمانية والثانية هي: الأميرة الصليبية ماريا أميرة إنطاكية، كما أن الإمبراطور ألكسيوس الثاني قد تزوج من أجنس التي عرفت باسم أنا Anna وهي ابنة الملك الفرنسي لويس السابع، ثم أصبحت أنا هذه زوجة للإمبراطور أندرونيقوس الأول. وكانت مارجريت الهنغارية هي الزوجة الثانية للإمبراطور إسحاق الثاني أنجيلوس.

وبعد سقوط القسطنطينية في عام ١٢٠٤م وقيام الإمبراطورية في المنفى ازدادت الحاجة إلى مثل هذا الزواج السياسي. فنجد الإمبراطور ثيودور الأول لاسكارس إمبراطور نيقية ١٢٠٤ - ١٢٢٢ وقد تزوج من ماري أف كورتقاري الفرنسية لتكون زوجته الثالثة. كما أن ثيودور الثاني لاسكاريس تزوج من هيلينا ابنة آسن الثاني قيصر بلغاريا (١٢١٨ - ١٢٤١م). وتزوج الإمبراطور يوحنا الثالث دوкас فاتازس (١٢٢٢ - ١٢٥٤م) من كونستاس ابنة الإمبراطور فريدريك الثاني وعرفت باسم أنا .Anna

وحتى بعد أن استعاد البيزنطيون الإمبراطورية، فإن الامبراطور

أندرونيقوس الثاني تزوج من أنا Anna البلغارية. وحذا حذوه خلفه الامبراطور أندرنقيوس الثالث وتزوج من أن أميرة سافوى.

أما عن زواج الأجانب من أميرات بيزنطيات، فالأمثلة عليه عديدة أيضاً، ومن ذلك زواج الأميرة ماريا ليكابينا من بطرس ملك البلغار ٩٢٧ - ٩٦٩م مكافأة له على الصلح الذي عقده مع الامبراطورية بعد الحروب الدامية التي شنها والده سيمون على الامبراطورية. كما نرى زواج الأميرة ثيوفانو من الامبراطور الألماني أوتو الثاني فى عام ٩٧٢م. وتزوج فلاديمير أمير كييف الروسى من الأميرة أنا Anna ابنة الامبراطور رومانوس الثانى. وزوج الامبراطور مانويل الأول ابنته إلى الأمير الهنغارى بيلا Bela الذى اتخذ اسم ألكسيوس. والأكثر من ذلك أن مانويل جعل من بيلا وريثاً لعرشه لكى يؤمن وحده عرش بيزنطة وهنغاريا، ولكنه أقلع عن هذه الفكرة بعد ما رزق بمولود ذكر. وتزوجت يودكيا ابنة ألكسيوس الثالث من ستيفن ملك الصرب (١١٩٦ - ١٢٢٨).

ومن الأمثلة على زواج الأميرات البيزنطيات من حكام أجانب، زواج الملك الصليبي بلدوين الثالث (١١٤٤ - ١١٦٢م) من الأميرة البيزنطية ثيودورا فى عام ١١٥٨م، وزواج الملك الصليبي عمورى الأول (١١٦٢ - ١١٧٣م) من الأميرة البيزنطية ماريا فى عام ١١٦٧م. وكان للسياسة الصليبية والبيزنطية دوافعها فى هذه المرحلة، فقد أراد الصليبيون التحالف مع البيزنطيين ضد المسلمين فى بلاد الشام ومصر، كما أراد البيزنطيون تغلغل نفوذ الامبراطورية فى المنطقة نفسها.

ومن هذه الأمثلة ما حدث بعد سقوط الامبراطورية عام ١٢٠٤م. فقد تزوجت الأميرة تامار Thamar ابنة نقفور حاكم إيبروس ١٢٧١ - ١٢٩٦م

من فيليب أمير تارنتو Tarento. كما تزوجت الأميرة ثيودورا أخت  
الأمبراطور أندريثقوس الثالث (١٣٢٨ - ١٣٤١م) من القيصر البلغاري  
ميخائيل شثمان (١٣٢٣ - ١٣٣٠م). وآخر الأمثلة هي زواج ثيودورا  
كانتاكوزين ابنة يوحنا السادس (١٣٤٧ - ١٣٥٤م) من السلطان العثمان  
أورخان (١٣٢٦ - ١٣٦٢م).

والمثال الثالث الخاص بزواج بنات من عائلات بيزنطية للحكام  
والأمراء الأجانب، فيمكن القول أن الدول التي كانت تقع إلى الشرق من  
الامبراطورية خاصة القوقازية أو الأرمينية كانت ترى في الامبراطورية  
البيزنطية قمة حضارة العالم في ذات الوقت، ولذلك كان التماس الزواج من  
البيوت البيزنطية يعتبر شرفاً كبيراً لهم. وكان المقصود من هذا الزواج بث  
روح التحضر في الجهات الأخرى. وحول مثل هذا الزواج سجل الامبراطور  
قسطنطين السابع في كتابه إدارة الامبراطورية أنه جاء إلى العاصمة  
البيزنطية بانكراتيوس Bankratios أكبر أبناء أمير طارون الراحل، وقد مثل  
بين يدي الامبراطورية فأنعم عليه بلقب الشريف وعينه حاكماً عسكرياً في  
طارون. كما طلب بانكراتيوس أن يتزوج إحدى سليلات البيت الامبراطوري،  
وقد زوجه الامبراطور من أخت الماجستير ثيوفيلكت. وبعد زواجه كتب  
بانكراتيوس وصية قال فيها "إذا أنجبت أبناء من هذه السيدة فإنهم يرثون  
الحكم في بلادى". وبناء على ذلك طلب من الامبراطور أن يمنحه ضاحية  
لتكون مقراً لزوجته على أن تعود الضاحية إلى الامبراطور في حالة وفاتها،  
ووافق الامبراطور على ذلك، وسمح له بالعودة إلى بلاده بعد أن حملته  
بهدايا كثيرة.

ومن الدبلوماسية البيزنطية ما يعرف حالياً باللجوء السياسى، فقد  
اهتمت الامبراطورية البيزنطية بجمع عدد كبير من الثائرين على الحكومات



الأجنبية أو المدعين لعروشها. ولم يخل البلاط البيزنطى من مطانين بتاج دولة أخرى حيث عاشوا فى العاصمة البيزنطية وتزوجوا من بيزنطيات. ومن ذلك أن الأمير تورنيكيوس عندما تضايق من أبناء عمه أمراء طارون طلب من الامبراطور رومانوس ليكابينوس إرسال أحد رجاله لى يصحبه إلى العاصمة البيزنطية. وعندما قام توماس الصقلى بثورته ضد الامبراطور ميخائيل العمورى، وسانده الخليفة المأمون، رد عليه الامبراطور ثيوفيلوس بمساندة بابك الخرمى الذى ثار على الخلافة العباسية. كما أن الامبراطور مانويل استضاف نصره الدين أخ نور الدين زنكى لبعض البعض، وذلك عندما اختلف نصره الدين مع أخيه. واستضاف الامبراطور مانويل أيضا، أمراء من آل دانشمند الذين خرجوا عن طاعة السلطان السلجوقى قلع أرسلان.

لقد كانت الدبلوماسية البيزنطية باهظة التكاليف، لأن الامبراطورية قدمت الكثير من الهبات والهدايا للشعوب العديدة المحيطة بها، وهى أمور كلفت خزانة الامبراطورية الكثير من المال. ومن فلسفة الدبلوماسية البيزنطية أيضا هى دفع الأموال للدول المجاورة حتى لا تجتاح أراضيها. وقد اعتبرت الامبراطورية هذا المال بمثابة رشوة لأعدائها بينما اعتبر هؤلاء الأعداء أن هذه المبالغ هى جزية مفروضة على الامبراطورية. ورغم أن الامبراطورية كان لديها جيشا كبيرا وأسطولا قويا إلا أنها كانت تفضل عدم استخدام قواتها مقابل بعض المال، ولم تستخدمها إلا عند الضرورة، ولذلك فضلت الامبراطورية سياسة الإيقاع بين الدول الأجنبية المحيطة بها وبذلك يكون لديها نوع من التوازن الذى يمنع غزو أراضيها كلما أمكن. وعلى ذلك تكون الدبلوماسية مزدهرة إذا ما كثرت أموالها والعكس هو الصحيح، ولم تكن الامبراطورية ترى فيما يسميه البعض جزية إلا استثمارا حكيما لنفقات الجيش والأسطول.

## ثبت

### للأباطرة البيزنطيين

#### أسرة قسطنطين

|         |                        |
|---------|------------------------|
| ميلادية |                        |
| ٣٣٧-٣٠٦ | قسطنطين الأول (الكبير) |
| ٣٦١-٣٣٧ | قسطنطين الثاني         |
| ٣٦٣-٣٦١ | جوليان (يوليان)        |
| ٣٦٤-٣٦٣ | جوفيان                 |
| ٣٧٨-٣٦٤ | فالنز                  |

#### أسرة ثيودوسيوس

|         |                          |
|---------|--------------------------|
| ٣٩٥-٣٧٩ | ثيودوسيوس الأول (الكبير) |
| ٤٠٨-٣٩٥ | أركاديوس                 |
| ٤٥٠-٤٠٨ | ثيودوسيوس الثاني         |
| ٤٥٧-٤٥٠ | مارسيان                  |
| ٤٧٤-٤٥٧ | ليو الأول                |
| ٤٩١-٤٧٤ | زينو                     |
| ٥١٨-٤٩١ | أناستاس                  |

## أسرة جستينيان

ميلادية

٥٢٧-٥١٨

٥٦٥-٥٢٧

٥٧٨-٥٦٥

٥٨٢-٥٧٨

٦٠٢-٥٨٢

٦١٠-٦٠٢

جستين الأول

جستيان الأول

جستين الثاني

طبير يوس الأول

موريس

فوقاس (مغتصب)

## أسرة هرقل

٦٤١-٦١٠

٦٤٢-٦٤١

٦٦٨-٦٤٢

٦٨٥-٦٦٨

٦٩٥-٦٨٥

٦٩٨-٦٩٥

٧٠٥-٦٩٨

٧١١-٧٠٥

٧١٣-٧١١

٧١٦-٧١٣

٧١٧-٧١٦

هرقل

قسطنطين الثالث

قسطنطين الثاني

قسطنطين الرابع (بوجوناتوس)

جستينيان الثاني

ليونتئوس (مغتصب)

طبير يوس الثاني

جستينيان الثاني (عودته)

فيليبكوس

اناستاس الثاني

ثيودوسيوس الثالث

## الأسرة الأيسورية

ميلادية

٧٤١-٧١٧

٧٧٥-٧٤١

٧٨٠-٧٧٥

٧٩٧-٧٨٠

٨٠٢-٧٩٧

ليو الثالث

قسطنطين الخامس

ليو الرابع

قسطنطين السادس

إيرين

## خلفاء الأيسوريين

٨١١-٨٠٢

٨١١-

٨١٣-٨١١

٨٢٠-٨١٣

نقفور الأول (مغتصب)

ستوراكيوس

ميخائيل الأول

ليو الخامس الأرميني

## الأسرة العمورية

٨٢٩-٨٢٠

٨٤٢-٨٢٩

٨٦٧-٨٤٢

ميخائيل الثاني

ثيوفيلوس

ميخائيل الثالث (السكرير)

## الأسرة المقدونية

|            |  |
|------------|--|
| ميلادية    |  |
| ٨٨٦-٨٦٧    | باسيل الأول                                    |
| ٩١٢-٨٨٦    | ليو السادس (الحكيم)                            |
| ٩١٣-٩١٢    | ألكسندر  |
| ٩٥٩-٩١٣    | قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس                   |
| ٩٤٤-٩١٩ من | (اشترك معه رومانوس الأول<br>ليكابينوس المغتصب) |
| ٩٦٢-٩٥٩    | رومانس الثاني                                  |
| ٩٦٩-٩٦٣    | نقفور فوقاس                                    |
| ٩٧٦-٩٦٩    | يوحنا الأول تزيميسكس                           |
| ١٠٢٥-٩٧٦   | باسيل الثاني (سفاح البلغار)                    |
| ١٠٢٨-١٠٢٥  | قسطنطين الثامن                                 |
| ١٠٣٤-١٠٢٨  | رومانوس الثالث (أرجيروس)                       |
| ١٠٤١-١٠٣٤  | ميخائيل الرابع (البلافلاجوني)                  |
| ١٠٤٢-١٠٤١  | ميخائيل الخامس (قلقات)                         |
| ١٠٤٢-      | زوى وثيودورا                                   |
| ١٠٥٤-١٠٤٢  | قسطنطين التاسع مونوماخوس                       |
| ١٠٥٦-١٠٥٥  | ثيودورا (مره أخرى)                             |
| ١٠٥٧-١٠٥٦  | ميخائيل السادس (ستراتيوتيكوس)                  |

## أسرة دوкас وآل كومنين

ميلادية

١٠٥٩-١٠٥٧

١٠٦٧-١٠٥٩

١٠٧١-١٠٦٧

١٠٧٨-١٠٧١

١٠٨١-١٠٧٨

١١١٨-١٠٨١

١١٤٣-١١١٨

١١٨٠-١١٤٣

١١٨٣-١١٨٠

١١٨٥-١١٨٣

إسحق الأول كومنين

قسطنطين العاشر (دوكاس)

رومانوس الرابع (ديوجينيس)

ميخائيل السابع (دوكاس)

نقفور الثالث (بوتانياتس) مغتصب

ألكسيوس الأول (كومنين)

يوحنا الثاني (كومنين)

مانويل الأول (كومنين)

ألكسيوس الثاني (كومنين)

أندرونيقوس الأول (كومنين)

## أسرة أنجيلوس

١١٩٥-١١٨٥

١٢٠٣-١١٩٥

١٢٠٤-١٢٠٣

١٢٠٤-

إسحق الثاني

ألكسيوس الثالث

إسحق الثاني (عودته واشتراكه مع ابنه الكسيوس الرابع)

ألكسيوس الرابع (مورتزفلوس)

## الأباطرة اللاتين في القسطنطينية

### ميلادية

|           |                        |
|-----------|------------------------|
| ١٢٠٥-١٢٠٤ | بولدوين أمير الفلاندر  |
| ١٢١٦-١٢٠٦ | هنري أمير الفلاندر     |
| ١٢١٧-     | بطرس كورتناي           |
| ١٢١٩-١٢١٧ | يولاند                 |
| ١٢٢٨-١٢٢١ | روبرت الثاني (كورتناي) |
| ١٢٦١-١٢٢٨ | بولدوين الثاني         |

(تحت وصاية يوحنا دي برين ١٢٣١-١٢٣٧، ممارسة بولدوين للسلطة بمفرده (١٢٤٠-١٢٦١).

## أباطرة نيقية البيزنطيين

|           |                                  |
|-----------|----------------------------------|
| ١٢٢٢-١٢٠٤ | ثيودور الأول لاسكاريس            |
| ١٢٥٤-١٢٢٢ | يوحنا الثالث فاتاتريس            |
| ١٢٥٨-١٢٥٤ | ثيودور الثاني لاسكاريس           |
| ١٢٦١-١٢٥٨ | يوحنا الرابع لاسكاريس            |
| ١٢٦١-١٢٥٩ | ميخائيل الثامن باليولوجس (مغتصب) |

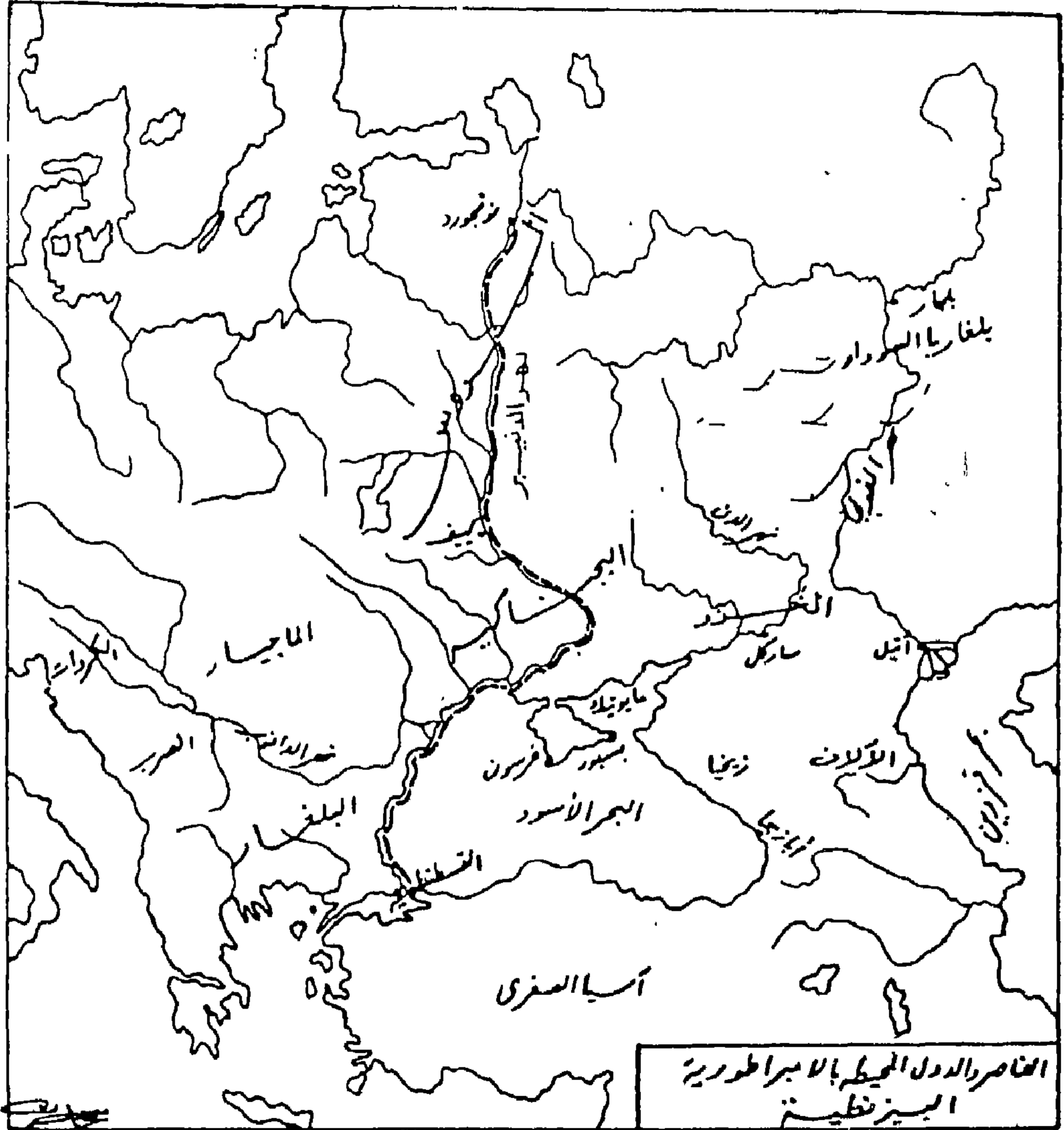
## أسرة باليولوجس

|           |  |
|-----------|--|
| ١٢٨٢-١٢٦١ | ميخائيل الثامن باليولوجس (امتداد)            |
| ١٣٢٨-١٢٨٢ | أندرونيقوس الثاني                            |
|           | (بالاشتراك مع ابنه ميخائيل التاسع ١٢٩٥-١١٢٢) |
| ١٣٤١-١٣٢٨ | أندرونيقوس الثالث                            |
| ١٣٩١-١٣٤١ | يوحنا الخامس                                 |

| میلادیة   |   |
|-----------|---|
| ۱۲۵۴-۱۳۴۷ | یوحنا السادس كانتاکوزین (مغتصب)             |
| ۱۲۷۹-۱۳۷۶ | أندرونیقوس الرابع (ابن یوحنا الخامس)        |
| ۱۳۹۰-     | یوحنا الخامس (عودته)                        |
| ۱۹۹۰-     | یوحنا السابع (ابن أندرونیقوس الرابع، مغتصب) |
| ۱۴۲۵-۱۳۹۱ | مانویل الثاني                               |
| ۱۴۴۸-۱۴۲۵ | یوحنا الثامن                                |
| ۱۴۵۳-۱۴۴۸ | قسطنطين الحادی عشر                          |



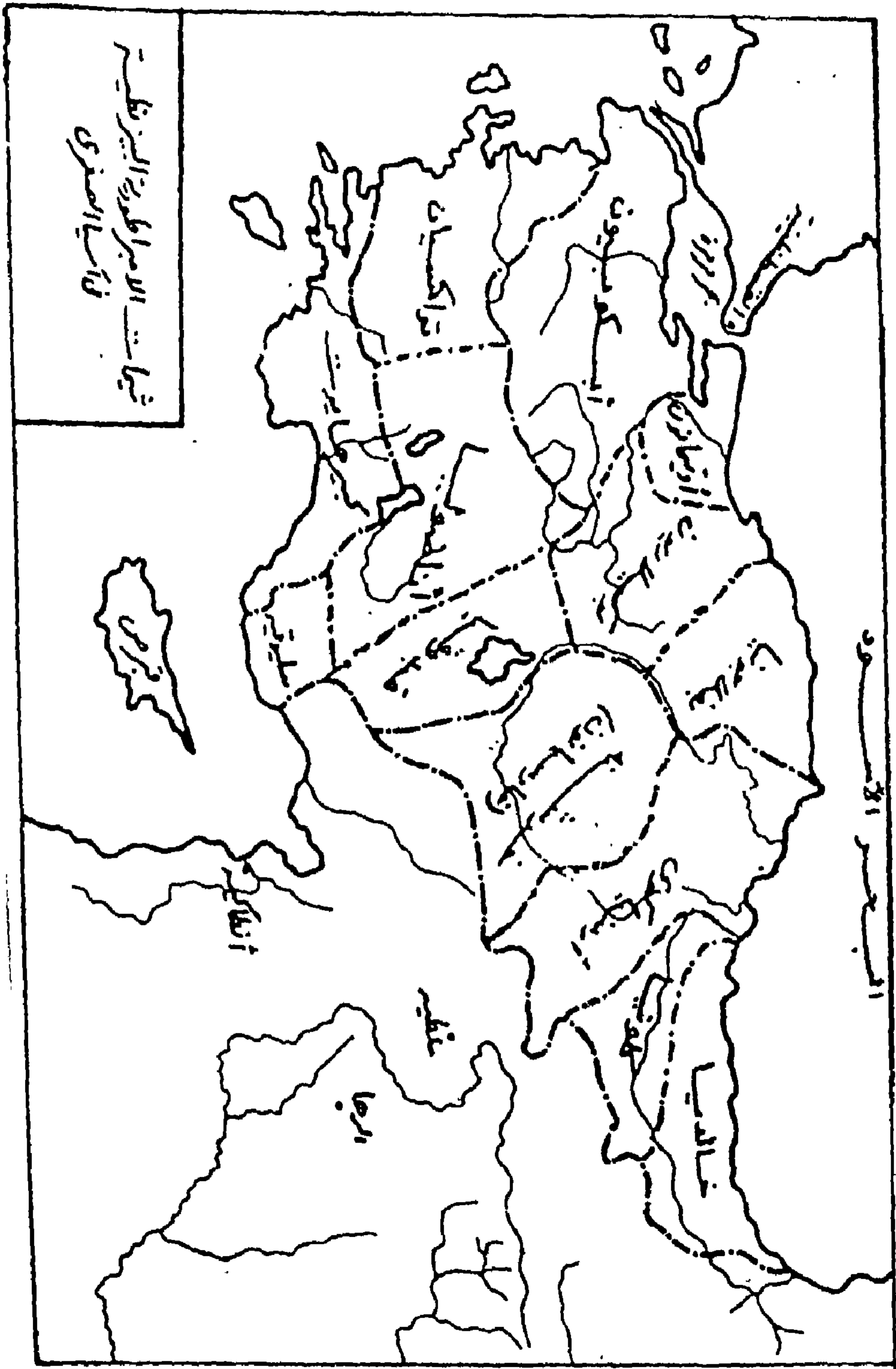




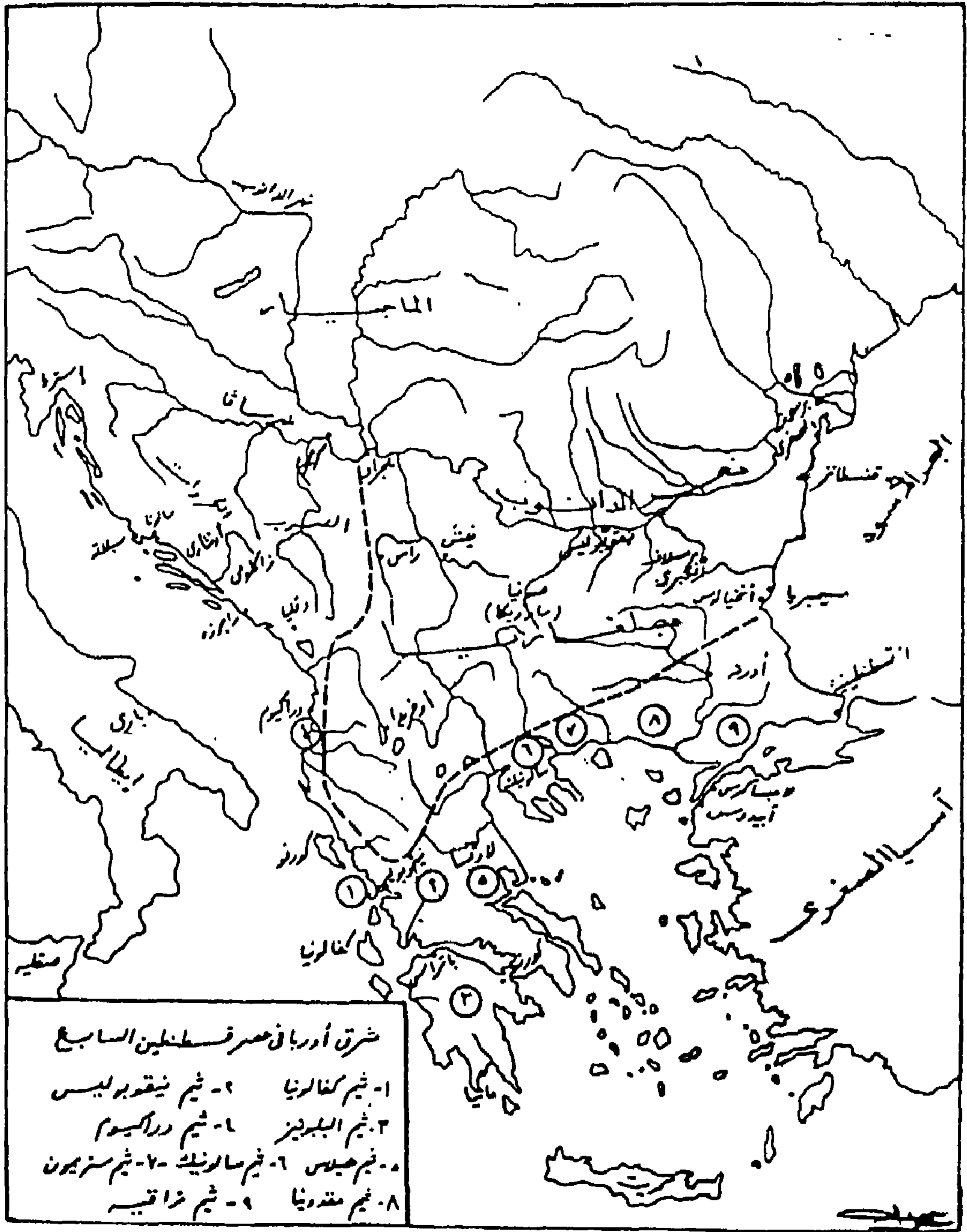
















## أهم المصادر البيزنطية مرتبة حسب القرون

### **Eusebios of Caesarea**

Ecclesiastical History, As The History of the Church from Christ to Constantine, English trans. by G.A. Williamson, (New York: Penguin, 1965).

### **Ammianus Marcellinus**

Res Gestae, English translation, J.C. Rolfe, Loeb Classical Library, 3 Vols, (London and New York: 1933-39).

### **Zosimos**

New History, English translation by Ronald D. Ridley, Byzantina Australiensia 2, Canberra: Australian Association For Byzantine Studies, 1982).

### **Sozomenos**

Ekklesiastike Historia, Ecclesiastical History, A history of the church in nine books, from A.D. 324 to A.D. 440, tran Edward Walford, (London: Bagster, 1846).

### **Priskos**

The Age of Attila, fifth Century Byzantium and the Barnarians, (Ann Arbor: University of Michigan press, 1960).

### **John Malalas**

Chronographia, The Chronicle of John Malalas, trans Elizabeth Jeffreys, Michael Jeffreys, Roger Scott, Byzantine Australasia 4, (Melbourne Australian Association for Byzantine Studies, 1986).

### **Theodoret of Cyrus**

Ecclesiastical History, ed. L. Parmentier, (Leipzig: 1911).

### **Procopius**

History of the Wars, Secret History and Building, trans., ed and abridged Averil Cameron, Great Histories Series, (New York: 1967).

### **Evagrius**

Ecclesiastical History, ed J. Bidez and L. Parmentier, (London: 1898, reprinted Amsterdam: 1964).

### **Theophanes of Byzantium**

(fragments) in C. Müller, fragmenta Historicorum Graecorum IV, pp. 270-71 and in Photios, Bibliotheca, ed R. Henry, Vol 2, (Paris 1959), pp. 76-79

### **Nikephoros,**

Short history, text, translation, and commentary, Corpus Fontium Historiae Byzantinae; v 13 by Cyril Mango, (Washington, D C Dumbarton Oaks, 1990)

### **Theophanes the Confessor**

Chronographia, trans Harry Turtledove, (Philadelphia, University of Pennsylvania press, 1982).

### **Theophanes Continuatus**

Chronographia, (Book 5 Written by Constantine VII Porphyrogenitos) ed Immanuel Bekker, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (Berlin: 1838).

### **George Monachos,**

Chronicle, ed C. de Boor, (Leipzig: 1905).

### **Joseph Genesios**

("Official" account of Michael III and Basil I)

ed. C. Lachmon, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (Bonn: 1828).

### **Nicholast I Mysticus**

Letters of Nicholas I Patriarch of Constantinople, tran. R. J.H. Jenkins and L.G. Westering, Washington, 1973.

### **Symeon the Logothete**

Chronicle, (ed. T. Tafel, "Munich 1859"); George Monachos Continuatus; and the Chronicle of Leo Grammatikos, (ed., Immanuel Bekker, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (Bonn: 1842); also Migne PG 108. 1037-1164)

### **Constantine VII Porphyrogenitos**

De Administrando Imperio, tran R J H Henkins, Washington, 1967

### **John Kaminatos**

De Expugnatione Thessalonicae, ed Gertrude Bohlig, Corpus Fontium Historiae Byzantinae, Vol. IV, Series Berolinensis, (Berlin: De Gruyter, 1973).

### **Leo the Deacon**

Historia, ed., V. B. Hase, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (Bonn: 1828).

### **Michael Psellon**

Chronographia, edired with critical notes and indices by Constantine Sathas 1 st AMS ed, (New York: AMS press, 1979).

### **Hohn Sklitzes**

Synopsis Historiarum, ed Hans Thurn, Corpus Fontium Historiae Byzantinae, Vol. V, Series Berolinensis, (Berlin. De Gruyter, 1978).

### **Skylitzes Continuatos**

Loannis Scylizes Continuatus, ed E T Tzolakes, (Thessalonica 1968)

**Michael Attaliates**

Historia, ed. Immanuel Bekker, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae 34, (Bonn. 1853).

**George Kedrenos**

Historiarum Compendium, ed. Immanuel Bekker, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae 35-36, 2 Vols, (Berlin: 1838-39).

**Constantine Manassas**

Chronicle, ed as Breviarum Historiae Metricum, ed Immanuel Bekker, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (Berlin: 1837).

**John Zonaras**

Epitome historiarum, ed. M. Pindar and Buttner-Wobst, 3 Vols, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (Berlin: 1841-97).

**Anna Komnena**

The Alexiad, English trans E.A.Dawes, (London: 1928).

English trans. E.R.A. Sewter, (New York: Penguin, 1969).

**Nicephoras Bryennios**

Materials for a History, ed as Histoire with French trans. By Paul Gautier, Corpus Fontium Historiae Byzantinae, Vol IX, (Brussels 1975).

**John Kinnamos**

Deeds of John and Manuel Comnenus, English trans Charles M Brand, (New York Columbia University press, 1976)

**Niketas Choniates**

O City of Byzantium, Annals of Niketas Choniates, trans Harry J Magoulias, (Detroit, Wayne State University press, 1984).

**George Akropolites**

Chonike Sungraphe, critical ed. As Opera, by A. Heisenberg (Leipzig 1903).

**Nikephoras Gregoras**

Correspondance, ed. R. Guiland, Paris, 1927.

**John Kantakuzenos**

Historiarum, English partial trans by R. Trone History 1:119 (Ph. D Dissertation, Catholic University of America, 1979).

**Nicolo Barbaro**

Diary of the siega of Constantinople 1453 tran J.R. Jones, New York, 1969

وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية انظر:

حاتم عبد الرحمن الطحاوى: الفتح الاسلامى للقسطنطينية يوميات الحصار  
العثمانى ٤٥٣م القاهرة - عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية  
٢٠٠٢م.

### **George Sphrantzes**

Chronicon Maius, English trans as the Fall of the Byzantine  
Empire, by Marios Philippides, (Amherst MA: University of  
Massachusetts press, 1980) (This edition includes a short  
excerpt on the fall of Constantinople by Michael Melissenos.).

### **Michael Kritovoulos**

History of Mehmed the Conqueror, trans. Charles T. Rigg,  
(Princeton: Princeton UP, 1954).



## مصادر اجنبية معربة

- ١ - قسطنطين بروفيروجنيثوس:  
إدارة الامبراطورية البيزنطية - عرض وتحليل وتعليق الدكتور  
محمود سعيد عمران - بيروت - دار النهضة - ١٩٨٠.
- ٢ - كلاى (روبرت):  
سقوط القسطنطينية - ترجمة الدكتور حسن حبش - القاهرة ١٩٦٤.
- ٣ - يوسابيوس القيصري:  
حياة قسطنطين العظيم - تعريف القمص مرقس داود - القاهرة  
١٩٧٥.

## قائمة المراجع الأجنبية

**Baynes, N.H.**

- 1- The Byzantine Empire. London 1926.
- 2- Byzantini Studies. London 1955.

- **Baynes and Moss (ED.):**

- Byzantium. Oxford 1948.

- **Bury, J.B.:**

- 1- A History of the Eastern Roman Empire. London 1912.
- 2- The Imperial Administrative System in the Ninth Century. London 1911.

**Canard, M.:**

- 1- Histoire de la Dynastie de Hamdanides de Jazira et de Syrie, T.I. Paris. 1953.
- 2- "Les Expeditions des Arabes Contre Constantinople Journal Asiatique CCVIII (1926).

- **Coleman, C. B:**

- Constantine the Great and Christinity New York 1914.

- **Collinet, P.:**

- "Byzantine Legislation from the Death of Justinian (565 to 1543), Cambridge Medieval History IV. Etudes histories sue le droit de Justinien. Vol. 1. Paris 1912.

- **Diel, Charles.:**

- 1- L'Afrique Byzantine. Paris 1896.
- 2- Etudes Byzantines, Paris 1905.
- 3- Figures Byzantines 2e series 1906 – 1908.
- 4- Leo III and the Isaurian Dynasty. Cambridge Medieval Hisotry IV.
- 5- Histoire de l'Empire Byzantin Paris 1930.

- **Every, G**
  - The Byzantine Patriarchate (451-1905). London 1948
- **Finlay, G.:**
  - History of Greece VII Vols Oxford 1877
- **Goubert**
  - Byzance avant L'Islam. Paris 1954.
- **Grégoire, H.:**
  - 1- Le peuple de Constantinople ou les Bleus et les Verts  
Comptes rendus de L'Academia des Inscriptions et Belles  
letters 1946.
  - 2- Un Edict de l'Empereur Justinien II date de Septembre 688  
Byzantion 17 (1944, 1954).
- **Grousset, R.:**
  - Histoire de l' Armenie Paris 1947.
- **Heyd, W**
  - Histoire du Commerce du Levant au moyen age 2 vols  
Leipzig 1885. Reprint 1923.
- **Hussey, J.:**
  - 1- "Michael Psellus". Sepeculum X (1935)
  - 2- Church and Larning in the Byzantine Empire. 867 – 1185  
London 1937.
- **Laurent, J.:**
  - L'Armenie enter Byzance et L'Islam la conquête arabe  
Jusqu'en 886 Paris 1919
- **Lewis, A. R.:**
  - Naval Power and Trade in the Mediterranean A D , 500-  
1100 Princeton 1954.

- **Lapez, R. S.:**
  - "Byzantine Law in the Eleventh Century and its reception by the Germans and the Arabs, Byzantion XVI (1944).
- **Oman, C.:**
  - A History of the Art of War in the Middle Ages. 2 Vols. London 1924.
- **Ostrogorosky, G.:**
  - History of the Byzantine State. Trans Joan Hussey. Oxford 1956.
- **Runciman S.:**
  - 1- Byzantine Civilisation. London 1933.
  - 2- The Emperor Romanus Lecapenus and Reign. Cambridge 1929.
- **Setton, K. M.:**
  - The Bulgars in the Balkans and the Occupation of Corinth in the Seventy Century. Speculum 25 (1950).

**Vasiliev, A.:**

- 1- The Byzantine Empire 2 Vols. Madison 1952.
- 2- Byzantium and the Arabs. 1900.
- 3- "An Edict of the Emperor Justinian II. September 688", Speculum XVIII (1943).
- 4- "The Second Russian Attack on Constantinople. In 860 – 61 Cambridge. Magg 1946.

## المراجع العربية

ابراهيم أحمد العدوى (دكتور):

- الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية - القاهرة ١٩٥١.
- الأمويون والبيزنطيون - القاهرة ١٩٦٣.

أسد رستم:

- الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب - ٢ ج - بيروت - دار الكشوف ١٩٥٥.

السيد الباز العرينى (دكتور):

- الدولة البيزنطية (٣٢٣-١٠٨١م) القاهرة ١٩٦٠.

جوزيف نسيم يوسف (دكتور):

- العرب والروم واللاتين فى الحملة الصليبية الأولى - دار المعارف بمصر - طبعة ثانية ١٩٦٧.

رانسمان (ستيفن):

- الحضارة البيزنطية - ترجمة عبد العزيز جاويد ومراجعة زكى على - القاهرة - مكتبة النهضة المصرية ١٩٦١.

عبد القادر أحمد اليوسف:

- الامبراطورية البيزنطية - بيروت ١٩٦٦.

عمر كمال توفيق (دكتور):

- الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الاراضى المقدسة - الإسكندرية ١٩٥٩.
- مقدمات العدوان الصليبي: الامبراطور يوحنا تزييميسكس وسياسته الشرقية - الإسكندرية ١٩٦٦.
- تاريخ الدولة البيزنطية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - فرع الإسكندرية ١٩٧٧.

محمود سعيد عمران (دكتور):

- نيقولا مستيقوس وعلاقة الامبراطورية البيزنطية بالقوى الإسلامية من خلال مراسلاته - بيروت - دار النهضة ١٩٨٠.

نبيه عاقل (دكتور):

- الامبراطورية البيزنطية (دراسة فى التاريخ السبايسى والتفانى والحضارى) - دمشق ١٩٦٩.



## الأستاذ الدكتور/ محمود سعيد عمران

أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

### أولاً: الكتب:

- ١- الحملة الصليبية الخامسة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، إسكندرية، ١٩٧٨.
- ٢- إدارة الإمبراطورية البيزنطية ترجمة وتعليق - دار النهضة، بيروت، ١٩٨٠.
- ٣- معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار النهضة - بيروت، ١٩٨٠.
- ٤- معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٢.
- ٥- مملكة الوندال في شمال أفريقيا، دار المعارف، إسكندرية، ١٩٨٥.
- ٦- السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، دار المعارف، إسكندرية، ١٩٨٥.
- ٧- القادة الصليبيون الأسرى في أيدي المسلمين، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٦.
- ٨- تاريخ الحروب الصليبية، دار النهضة، بيروت، ١٩٩٠.
- ٩- حضارة أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة، بيروت، ١٩٩١.
- ١٠- تاريخ مصر في العصر البيزنطي، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، ١٩٩٦.



١١- أوروبا والمغول، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، ١٩٩٧.

١٢- الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها، دار النهضة، بيروت، ٢٠٠١.

١٣- المغول والأوروبيون والصليبيون وقضية القدس، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، ٢٠٠٣.

١٤- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة، بيروت ٢٠٠٥

١٥- منهج البحث التاريخي ومصادر العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٦

١٦- مصر في العصر البيزنطي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٦.

### ثانياً: بحوث باللغة العربية:

١- نيقولا مستيقوس وعلاقة الإمبراطورية البيزنطية بالقوى الإسلامية، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٠.

٢- المؤرخ جريجورى التورى، منشورات جامعة بيروت العربية، بيروت، ١٩٨٠.

٣- الإمبراطورية البيزنطية رومانوس الرابع ديوجينس ١٠٦٨ - ١٠٧١م فى ضوء حولية ميخائيل بسلوس، بحث منشور فى مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، ٨٢ / ١٩٨٣.

٤- أركولف ورحلته إلى الشرق، بحث منشور في ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط  
- جامعة عين شمس، المجلد ١٣ دار المعارف، ١٩٨٥.

٥- كتابات الرحالة أركولف كمصدر لبلاد الشام في عصر الراشدين، بحث منشور  
في أعمال المؤتمر الدولي الرابع لبلاد الشام - الأردن عمان، ١٩٨٧.

٦- صلاح الدين من الإسكندرية إلى حطين، بحث في المؤتمر الدولي لذكرى مرور  
٨٠٠ عام على معركة حطين، بغداد، ١٩٨٧.

٧- السفراء والقناصل في عصر الحروب الصليبية، بحث ألقى في الموسم الثقافي  
لجامعة بيروت العربية - بيروت، ٨٧ / ١٩٨٨.

٨- الهدن بين المسلمين والصليبيين في عصر الدولة الأيوبية، بحث ألقى في ندوة  
العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ٢٠ - ٢٢ أكتوبر  
١٩٩٢ كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٩٢.

٩- رحلة الشهيد أنطونيوس إلى بلاد الشام ومنصر ٥٦٠ - ٥٧٠م، بحث ألقى في  
ندوة العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى الثانية، ٣٠ - ١٠  
إلى ١ - ١١ - ١٩٩٣، كلية الآداب - جامعة المنيا، ١٩٩٣.

١٠- تحصينات مدينة القسطنطينية في مواجهة الغزوات الخارجية، بحث ألقى في  
ندوة الحضارة الإسلامية وعالم البحار - اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة ٦  
- ٨ نوفمبر ١٩٩٣.

١١- مصر فى كتب الرحالة الأجانب فى العصر البيزنطى، بحث ألقى فى مؤتمر الإسكندرية الدولى حول التبادل الحضارى بين شعوب حوض البحر المتوسط عبر التاريخ ٢٢ - ٢٦ يناير ١٩٩٤.

١٢- دور الحركة الصليبية فى تكوين مملكة البرتغال، ندوة الأندلس: الـدرس والتاريخ - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ١٣ - ٢٥ أبريل ١٩٩٤.

١٣- حولية سقوط لشبونة ١١٤٧م، ندوة الغرب الإسلامى والغرب المسيحى خلال القرون الوسطى كلية الآداب، الرباط ٢ - ٤، نوفمبر ١٩٩٤، نشر ١٩٩٥.

١٤- السلطان قلاوون بين أوروبا والمغول، بحث ألقى فى ندوة مدينة طرابلس لبنان بمناسبة مرور ٧٠٠ عام على بناء الجامع المنصورى ١٧ - ٢٤ نوفمبر ١٩٩٤.

١٥- روسيا وسقوط الإمبراطورية البيزنطية، ندوة تاريخ وحضارة العصور الوسطى - كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ٢٤ - ٢٥ أبريل ١٩٩٤.

١٦- تحصينات مدينة دمياط فى عصر الحروب الصليبية، ندوة التاريخ العسكرى لشمال مصر عبر العصور، كلية الآداب، ٨ - ٩ اكتوبر ١٩٩٥.

١٧- وليم آدم واستعادة الأراضى المقدسة، ندوة الإطار التاريخى للحركة الصليبية - اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة ٢٨ - ٢٩ نوفمبر ١٩٩٥.

- ١٨- القدس فى كتب الرحالة الأجانف فى العصر الببزنطى؁ ندوة القدس: التاريخ والحضارة؁ كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ٢ - ٥ نوفمبر ١٩٩٦.
- ١٩- العلاقة بين مغول فارس ومغول القفجاق بعد معركة عين جالوت ١٢٦٠ - ١٢٧٠م؁ بحث ألقى فى ندوة إقليم الخليج على مر عصور التاريخ - اتحاد المؤرخين العرب؁ القاهرة ٢٣ - ٢٥ نوفمبر ١٩٩٦.
- ٢٠- شارل كونت أنجو بين القسطنطينية وتونس والقدس؁ بحث ألقى فى ندوة بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى "التاسع الهجرى"؁ القاهرة ٢٥ - ٢٦ نوفمبر؁ ١٩٩٧.
- ٢١- حصار الصليبيين والقوات الفاطمية لصلاح الدين فى مدينة الإسكندرية ٥٦٢هـ؁ بحث ألقى فى ندوة سواحل مصر الشمالية عبر العصور - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية بالاشتراك مع المجلس الأعلى للثقافة ٢٢ - ٢٣ أبريل ١٩٩٨.
- ٢٢- الحركة الفكرية فى الإسكندرية فى القرون الأولى للمسيحية؁ مشاركة فى الكتاب الذى أصدرته محافظة الإسكندرية (د.ت).
- ٢٣- المراكز الحضارية فى مصر والشام فى القرون المسيحية الأولى؁ بحث ألقى فى المؤتمر الدولى الثالث (التبادل الثقافى بين شعوب البحر المتوسط) - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية بالاشتراك مع وزارة الثقافة ١٢ - ١٥ أغسطس ١٩٩٨.

- ٢٤-العرب في مدونة المؤرخ السرياني زكريا الملتيني، بحث ألقى في ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة تحت اسم "أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب" ٢٤ - ٢٦ نوفمبر ١٩٩٨.
- ٢٥-أفكار بيير دو بوا لاستعادة الأراضي المقدسة - مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي ٤٩١ - ٦٩٠هـ - جامعة اليرموك - كلية الآداب إربد - الأردن من ٨ - ١٠ نوفمبر ١٩٩٩.
- ٢٦-قتل الحروب الصليبية وأثره على الفكر الأوربي - مؤتمر التبادل الحضاري بين شعوب حوض البحر المتوسط- من ١١/٢٩ إلى ١٢/١ ١٩٩٩ - جامعة بيروت العربية - كلية الآداب.
- ٢٧- دور إيمري بطريك أنطاكية في دعم الحروب الصليبية - مؤتمر "الصليبيون والشرق" - الجمعية التاريخية اللبنانية - من ٢ - ٤ / ١٢ ١٩٩٩ - بيروت - لبنان.
- ٢٨- أفكار جديدة في منهج البحث التاريخي، بحث ألقى في المؤتمر السنوي الأول للنقد الأدبي بكلية الآداب/ جامعة الاسكندرية ٢٦-٢٨ نوفمبر ٢٠٠٥.
- ٢٩- دور المعظم عيسى حاكم دمشق في مواجهة الحملة الصليبية الخامسة على مصر ١٢١٨ - ١٢٢١م ، الندوة الدولية دمشق في التاريخ ٢٠ - ٢٤ / ١١ / ٢٠٠٦.

٣٠- ثورة دمشق وآثارها على معركة عين جالوت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ، الندوة  
الدولية "دمشق في التاريخ"، ٢٠ - ٢٤ / ١١ / ٢٠٠٦.

**ثالثاً: كتب باللغة الإنجليزية منشورة بالخارج:**

*Contributors,*

**Chronicles of the Crusades, Eye – Witness Accounts of the Wars Between Chrestianity and Islam – Edited by Elizabeth Hallam, London 1989.**

**رابعاً: بحوث باللغة الأجنبية منشورة بالخارج:**

**1-King Aamartric and the Siege of Alexandria, in the First Conference of the Crusades and the Latin East, Cardiff 1 – 4 Sep. 1982, Cardiff 1985, UK.**

**2-Truces between Moslems and Crusaders (1174 – 1217) in Autour de la premiere Croisade. Actes du Colloque de la “society for the Study of the Crusades and the Latin East” (Clermont – Ferand 22 – 25 Juin 1995 France). Reunis par Nichel Balard, publication de la Sorbonne, Paris 1996.**

**3-John Kinnamos As a Historian of the Second Crusade. In the international. Symposium on Crusade 23- 25 June 1997. Istanbul. Turkey.**

- 4-Edward I King of England and the Holy Land (Jerusalem)  
In the 35 th International Congress of Asian and North  
African studies, 2 – 21 July 1977. Budapest – Hungaria.**
- 5-Grigor of Akanc as a Historian for the Moslem Nations. In  
The International Medieval Congress, 9 – 12 July 2001,  
University of Leeds. UK,.**
- 6-Hohenstaufen and Their Arab Subjects and Moslems  
Against Excommunication. In The International Medieval  
Congress, 8 – 11 July 2002, University of Leeds, UK.**

## إضافات أخرى

عن الأستاذ الدكتور محمود سعيد عمران

١- جائزة جامعة الإسكندرية للتشجيع العلمى.

٢- جائزة جامعة الإسكندرية للتميز العلمى للعلوم الإنسانية.

٣- عميد كلية الآداب - جامعة بيروت العربية سابقاً.

٤- عضو جمعية الآثار بالإسكندرية.

٥- عضو الجمعية التاريخية المصرية.

٦- عضو اتحاد المؤرخين العرب.

٧- عضو الجمعية الدولية لدراسات الحروب الصليبية والشرق اللاتينى.

**Society for the Study of the Crusades and Latin East.**

٨- عضو الجمعية الدولية لدراسات التاريخ العسكرى فى العصور الوسطى

**The Society for Medieval Military History**

٩- مستشار بهيئة تحرير مجلة من ١٩٩٦ - ٢٠٠٣م.

**Al-Masaq, Islam and The Medieval Mediterranean, Leeds, U. K.**

التي تصدر من قسم دراسات اللغة العربية والشرق الأوسط فى جامعة ليدز

المملكة المتحدة (إنجلترا).



١٠- عضو بهينة تحرير مجلة Journals التي تصدر من المملكة المتحدة،  
والولايات المتحدة الأمريكية.

١١- مُحكم على مستوى العالم العربي والدولى.

١٢- رئاسة جلسة فى مؤتمر دولى:

**Autour de La Premiere Croisiade Actes du Colloque de la  
"Society for the Study of the Crusades and the Latin East"  
(Clermont - Ferand 22- 25 Juin 1995 France).**

١٣- رئاسة جلسة فى مؤتمر دولى:

**The 35 th International Congress of Asian and African  
studies, 2- 12 July 1997, Budapest, Hungaria.**

١٤- Round Table about The First Crusade and The Fall of  
Jerusalem, in the Second International Conference on the  
First Crusade. Faculty of Huesca, 7- 11 Sept., 1999 University  
of Zaragoza, Spain.

## المحتويات

| <u>الصفحة</u> | <u>الموضوع</u>                              |
|---------------|---|
| ٣             | إهداء                                       |
| ٥             | تقديم                                       |
|               | المقدمة                                     |
| ٥ - ٧         | تعريف بمسمى الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها |
|               | الفصل الأول:                                |
| ١٧ - ٣٦       | بناء القسطنطينية                            |
|               | الفصل الثاني:                               |
| ٣٧ - ٧٦       | الإمبراطورية والفكر الشرقي                  |
|               | الفصل الثالث:                               |
| ٧٧ - ١٠٦      | نظم الحكم والإدارة                          |
|               | الفصل الرابع:                               |
| ١٠٧ - ١٤٦     | الحياة العامة                               |
|               | الفصل الخامس:                               |
| ١٤٧ - ١٩٧     | الرهبانية وعبادة الأيقونات                  |
|               | الفصل السادس:                               |
| ١٩٩ - ٢٣٨     | الدستور والقانون                            |

| <u>الصفحة</u> | <u>الموضوع</u>  |
|---------------|---|
| ٢٣٩ - ٢٨٧     | الفصل السابع:<br>الجيش والأسطول   |
| ٢٨٨ - ٣٢٨     | الفصل الثامن:<br>التعليم والعلوم والفنون  |
| ٣٢٩ - ٣٧٤     | الفصل التاسع:<br>الاسلام والبيزنطيون - الحياة الاقتصادية -<br>الدبلوماسية البيزنطية |
| ٣٧٣ - ٣٧٩     | ثبت للأباطرة البيزنطيين   |
| ٣٨١ - ٣٨٨     | الخرائط   |
| ٣٨٩ - ٤٠١     | المصادر والمراجع  |
| ٤٠٣ - ٤١٢     | أعمال المؤلف  |

